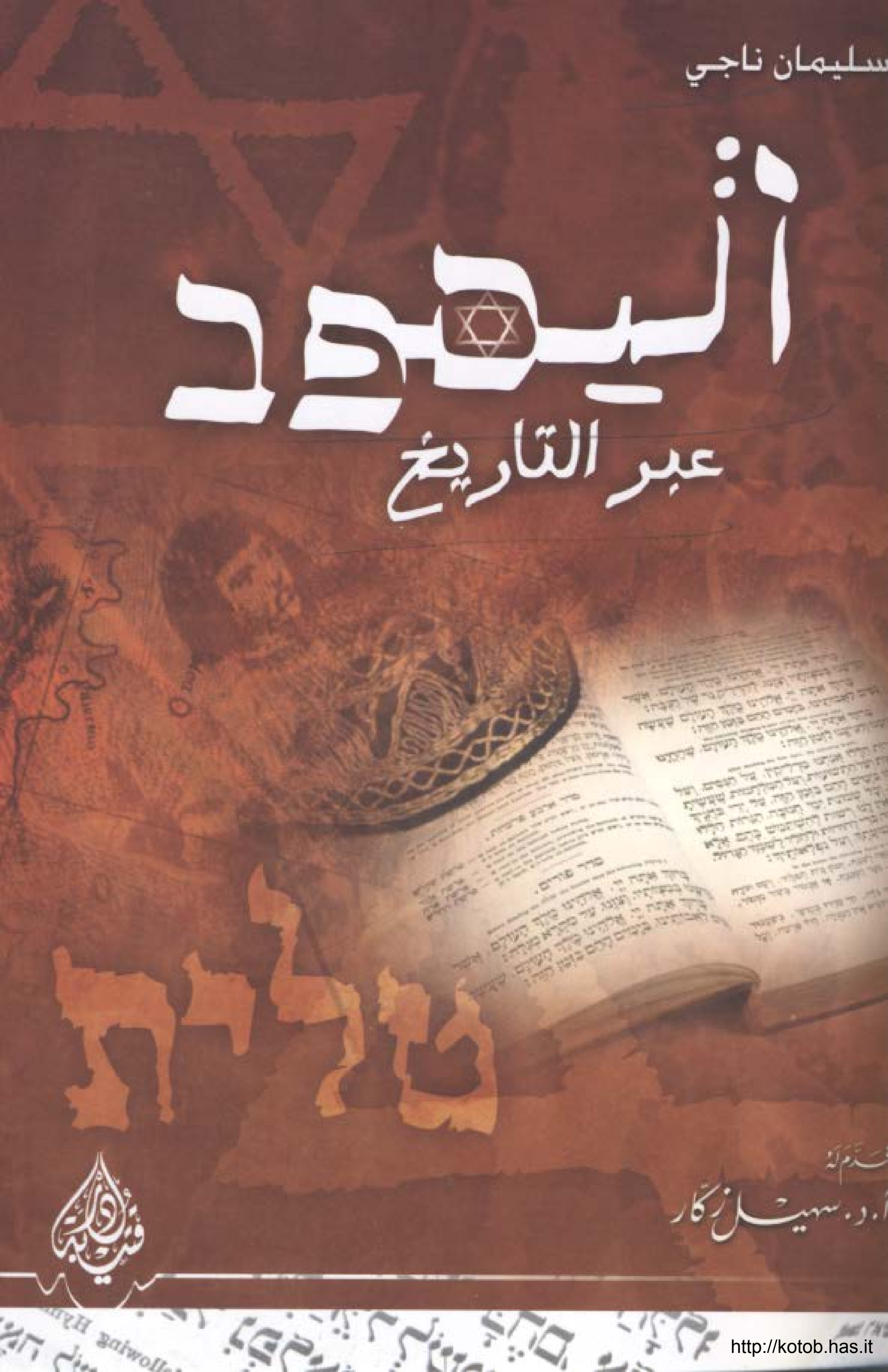

سليمان ناجي
اليهود
عبر التاريخ
قدم له
أ. د. سهيل زكار
http://kotob.has.it

الطبعة الأولى

1428هـ - 2007 م



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا

ص.ب: 13414

هاتف: 30 24 224 11 963+

فاكس: 36 10 245 11 963+

بيروت - لبنان

ص.ب: 14/6364

خليوي: 833 814 3 961+

تلفاكس: 135 541 1 961+

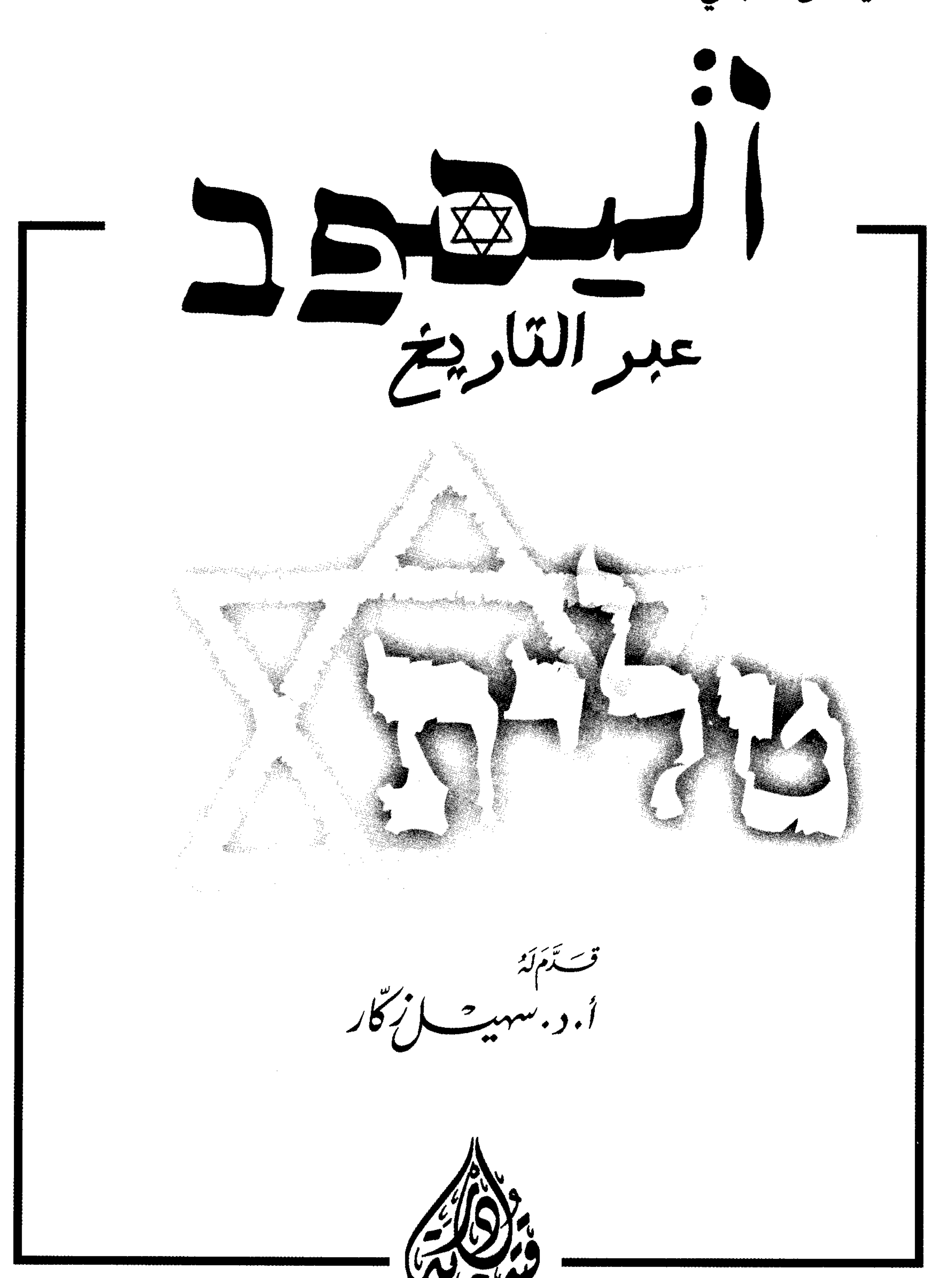
www.kotaiba.com

E-mail : dar@kotaiba.com

سليمان ناجي

اليهود

عبر التاريخ



قدم له

أ. د. سهيل زكار



تقديم

الموضوعات التي لها علاقة باليهود من أي جانب من الجوانب مهمة عربياً وإسلامياً ومسيحياً وإنسانياً، وقد شكل اليهود حتى الآن طاعوناً مزمناً للبشرية، حيث مثلوا جميع الشرور والآثام، ومن يتمعن بنص توراتهم المحرفة يرى بأم عينيه هذا في رواية كل حدث من الأحداث، فعندهم تزوج إبراهيم من أخته سارة، وحاشاه أن يكون فعل ذلك، وساوم عليها مرتين وعرضها لمحنة البغاء، وابنتا لوط سقين أباهن الخمرة وضاجعنه، دون أن يرتدعا بما حدث قبل وقت قليل لأهل سدوم وعمورة، وموسى عليه السلام التجأ إلى قوم مدين وتزوج منهم، ثم أمر بعد الخروج المزعوم بإبادة كل أهل مدين بلا رحمة ولا شفقة، وتتواصل الحكايات حيث الابن يضاجع زوجة أبيه، والأب يضاجع أرملة ابنه، كل ذلك مع وثنية وعبادة للأصنام كما في أخبار بيت يعقوب لدى عودته من حران، وفي القصص التي تعلقت بحياة كل من داود وسليمان.

وهذا الخلق نجده في قصة أستير وفي حكايات أخرى كثيرة وردت في مصادر التاريخ القديم ثم الوسيط، ونحن الآن شهود عيان على بعض الحديث والمعاصر، ولذلك لا عجب أن عمدت أمم كثيرة في أوربة وسواها إلى طرد الجاليات اليهودية من أوطانها حتى تتخلص من الطاعون المزمن.

وقد قدم المؤلف عرضاً تاريخياً حول اليهود واليهودية، منذ فجر التاريخ المعروف حتى الزمن الحاضر، وهو حين ألف كتابه كان مقتنعاً بما طرحه عن علم وتجربة، ولم يأت ذلك مجرد فرضية أراد البرهنة عليها، وجاء عرضه معتدلاً لا غلو فيه ولا شطط مدعماً بالأدلة الموثقة، وصحيح أخباره التي تعلقت بالتاريخ القديم كانت بدورها مصابة بداء التزييف المزمن، الذي ندعوه باسم «الإسرائيليات»، لكن حسن وعيه خفف من وطأة هذه الإصابة، ثم إنه لم يمتلك ما يكفي من معلومات حول يهود الخزر.

وأنا وإن كنت أقر بنظرية الطاعون المزمن، لكن أو لم يكن هذا الطاعون منتشراً في المدينة المنورة ووادي القرى وخيبر واليمن قبيل ظهور الإسلام، فكيف أمكن للإسلام حرب هذا الطاعون والانتصار عليه؟

لابد لمواجهة أي طاعون قاتل من امتلاك لأسباب المناعة، وحاول العرب في العصر الحديث امتلاك مثل هذه الأسباب، لكنهم لم ينجحوا، فلجأوا إلى الاستسلام على الرغم من

كل المخازي ، ولقد حاول المؤلف الوقوف عند هذه القضية في الصفحات الأخيرة من كتابه ، فطرح الوحدة القومية ولا شك أن الوحدة العربية مهمة وحيوية ، ومثل ذلك الوحدة الإسلامية :

كان العرب قبل قيام الإسلام يعيشون على هامش التاريخ ، فبعثهم الإسلام ووحدهم وكلفهم بالرسالة الخاتمة وبتحرير البشرية ، فالإسلام ألغى كل أسباب الفرقة ، وجمع الطاقات التي كانت موزعة متنافرة ، وجعلها تتدفق بشكل بناء من خلال قناة التوحيد ، فكانت بذلك معجزة التاريخ الوحيدة ، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله مخاطباً نبيه المصطفى عليه السلام : ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال : 63).

ومثلما ألف الله تعالى بين قلوب العرب في الماضي بالإسلام ، الإسلام - حسب القرآن والسنة - قادر الآن على التأليف بين قلوب جميع العرب والمسلمين ، مثلما شاءت قدرة الله عند ظهور الإسلام وفي كل وقت ثاب به المسلمون إلى الله ورجعوا إلى التمسك بالشريعة ، شريعة (إن الدين عند الله الإسلام) ، الإسلام بلا طائفية بغيضة أو عشائرية أو إقليمية ، أو قومية متزمتة ، ففي الطائفية والقومية المتزمتة تتباين وجهات النظر والآراء ، ولكن للشريعة أطر لا يمكن تجاوزها ، ولا يجوز تخطيها .

وبناءً عليه : إن التخلص من الطاعون المزمن سيكون عن طريق الإسلام فقط بروح نبوية سمحاء معتدلة ، ففي الإسلام تحققت كل الانتصارات العربية والإسلامية عبر التاريخ ، وبالإسلام انتصر صلاح الدين يوم حطين وحرر القدس ، ويروى أن المظفر قطز حين دخل إلى واحة الوغى في عين جالوت كان ينادي «واإسلاماه» ، وبذلك كان النصر المبين .

ويحتاج هذا إلى بناء ثقافي إسلامي علمي صحيح ، وإلى إعادة بناء المجتمع العربي والإسلامي وجميع مؤسساته مثلما فعل نور الدين محمود حين وحد بين الشام الشمالي والجنوبي ومنع الصليبيين من الاستيلاء على مصر ، ومهد جميع السبل لتحرير القدس .

ولا شك أن كتابنا الذي أقدم اليوم له ومثله من الكتب والدراسات العلمية ، هي من أفضل الوسائل المساعدة على إعادة البناء العربي الإسلامي ، ومن ثم امتلاك الأسباب لتحرير الأرض المقدسة والتخلص من الطاعون المزمن .

من الله أرجو التوفيق وأطلب العون والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين .

دمشق 2007/2/12

أ . د . سهيل زكار

مقدمة النّاشر

لقد كانت الأمم تعتمد على مرتكزات أساسية هي مناط وجودها، وبقائها، ولابد للأمم من هذه المرتكزات الرئيسة كعوامل تعتمد عليها؛ وأسس ثابتة متكاملة؛ في تاريخها القديم والحديث، فإذا هدمت مرتكزات أمة وحطمت حقائقها من قبل فكر مدروس وتحليل علمي وثائقي سليم، ظهرت عوامل الضعف لدى هذه الأمة التي اعتمدت على أسس مهلهلة ضعيفة البنى، ركيكة التراكيب، مخلخلة الكيان متباينة النسيج، وفي مكان غير متناسق مع بقائها.

وهذا بالإضافة إلى وجوده ضمن أمة، مرتكزاتها أصيلة وبقاؤها أكبر، وتاريخها الوضاح حديثاً وقديماً أثبت كيانها، كل ذلك في مقارنة وتحليل لتاريخ اليهود؛ فقد استطاع المؤلف في هذا السفر الجليل كشف تاريخ اليهود وحطم مرتكزاتهم التاريخية والفكرية في أرض فلسطين؛ وأثبت بالاستدلال التاريخي للمصدر الأول الذي خرج منه اليهود والذي يجب أن يعودوا إليه، وبذلك حطم الخطوط العريضة التي وضعتها اليهودية العالمية؛ والصهيونية العنصرية وبين الحقائق أمام الناس ليرفعوا عن أعينهم غشاوة الجهل؛ والدعايات الكاذبة؛ التي لم تعتمد على علم ولا وثيقة تاريخية ولا على منطق أممي إنساني. فأعاد حقيقة الصراع في أرض فلسطين إلى حقيقة رائدة وهي: إن هذه الأرض ليست لبني إسرائيل وإن موطنهم الأول هو حول بحر الخزر، هناك كان موئلهم، ومن هناك انطلقوا واحتلوا هذه الأرض ثم ضاعوا في ميادين شتى. والآن عادوا لاحتلال هذه الأرض وطردوا وشردوا أهلها ظلماً وعدواناً. فأبان وجه الحقيقة، وأظهر غشاوة الجهل، بصراع وجه مع وجه في هذا العصر للطاعون المزمن عبر تاريخ اليهود الأسود فكشف الحقائق، وأظهر الباطل، وأدلى بدلوه ببحث علمي؛ واستقراء تاريخي موثق؛ ودراسة ومناقشة فكرية متكاملة؛ فهذا جهد كبير قام به المؤلف ولابد من معرفة القدرة العلمية للمؤلف في هذا الاختصاص، فلقد كان له باعه الكبير في دراسة تاريخ اليهود في لغات عدة، وعاش

على الساحة الفلسطينية مجاهداً ومناضلاً لإعلاء كلمة الحق بما ينيف عن أربع وعشرين معركة وكان قائداً لجيش قاتل وعمل ولو لم تتحقق كامل أهدافه آنذاك. وقد أعطى بداية تطلعاته في هذا الموضوع في كتابه «المفسدون في الأرض».

وقد قامت دار قتيبة بإعادة طباعة هذا السفر الجليل لخدمة الحقيقة وإظهار الظلم في واقع علمي مدروس وموثق.

المقدمة

عندما استتب الأمر في بريطانيا لربيب اليهودية أوليفر كرومونل، راودته نفسه أن يجزي أربابه اليهود بصنيع يذكرونه له مدى الأيام. فما كان منه إلاّ أن استبنط لهم فكرة إقامة وطن قومي في أفريقيا الجنوبية، ومن ثم أطلق عليها اسم المسألة اليهودية. وهكذا سمع العالم لأول مرة بهذه البدعة المستحدثة عام 1652م.

وفي العصور التي توالت، قدر لهذه الفتنة أن تعوم حيناً بعد حين على سطح الأحداث السياسية في أوروبا. ولكنها كانت لا تلبث أن تتوارى في مستنقع الإهمال لهشاشة منطلقاتها، ولافتقار جذور منبتها للشرعية والجدية، ولاشتهار دعاتها بالتزمت الأعمى، وضيق الأفق، ووهن الحجة، ولذا كانت المحافل السياسية المتعاقبة، تتجنب معالجتها وتتخلى عنها وعن أصحابها بازدراء ظاهر.

أما في الشرق الأوسط، فكان الناس بشغل شاغل عنها تماماً، إذ كانت الدولة العثمانية منهمكة بلصق الجراحات التي ورثتها عن حروبها البلقانية، وبأمور إمبراطوريتها التي كانت تتردى يوماً بعد يوم، من جراء الشطط السياسي والإداري الذي كان مسيطراً على ممثليها في الولايات التركية عامة، والمناطق العربية خاصة، أضف إليها مسلك جماعات حزبي الاتحاد والترقي، وتركيا الفتاة، اللذين ملآ دنيا العرب بالتزمت العنصري، والاستعلاء العرقي، مما دفع بالعرب إلى النفور من الدولة ومن كل ما هو تركي، فتدهورت العلاقات التركية العربية بشكل حاد، فجنحت المحافل السياسية العربية إلى التفكير جدياً بالتخلص من السيطرة العثمانية، ووضع حد لمظالمها.

ولما كان اليهود منتشرين آنذاك في كل الولايات العثمانية، ويراقبون ما يدور أمام أعينهم، عمدوا إلى استغلال الوضع لمصلحتهم، فصعَّدوا تحركاتهم السياسية، بتعليق ونشر ما يعمق الهوَّة بين العرب والأتراك بغية استثمار خلافات الطرفين لتحقيق غاياتهم السرية حالما تدق ساعتهم المنتظرة.

وفي خضم هذه المواقف المتشابكة، والأهداف المتعارضة في الشرق الأوسط، اندلعت نيران الحرب الكونية الأولى فسارع الحلفاء إلى الاتصال سراً بالمحافل العربية المعارضة للسلطنة العثمانية، فخطبوا ودَّها، وأجزلوا لها الوعود الخلابة التي ضمنوا لها بموجبها السيادة القومية

والحرية الوطنية لأمتها، فكان من البديهي أن يرحب العرب بهذه الصداقة الجديدة المبشرة بكل تلك الخيرات، فتوثقت الروابط بين الحلفاء والعرب، فانبرت قطاعاتهم المختلفة تعمل مع الحلفاء بكل وفاء للعهد وإخلاص للوعد ودون أي تحفظ. ثم تنادوا إلى مؤتمر بال الهرتزلي وصعَّدوا الأمور كاملة.

وفي عام 1947 باغت البريطانيون العالم مرة أخرى، وأعلنوا تخليهم عن انتدابهم في فلسطين، وطلبوا من الأمم المتحدة أن تحل محلهم في الإشراف على إدارتها، وتكمل بدورها ما تبقى من حلقات المؤامرة المتفق عليها، فما كان من هذه الأخيرة إلا أن تصدر قرار التقسيم الذي أعقبه إعلان اليهود لقيام دولتهم التي تسابق أعضاء المجلس الكهنوتي الأعلى للقرن العشرين للاعتراف بها. وكأنها كانت غايتهم القصوى.

وكان من الطبيعي أن تتململ الدول العربية الناشئة التي لم يكن آنذاك بمقدور أي واحدة منها التحرك بمعزل عن الإرادة الأجنبية، وأن تجزع على مصير شقيقتها المنكوبة، فتنادت فيما بينها عام 1948. فبادرت جيوشها لإنقاذ عرب فلسطين على الرغم من قلة قواتها وافتقارها الشديد للسلاح والعتاد، وكادت أن تقضي على هذا الكيان المختلق في مهده، لولا أن سارعت دول الهيكل إلى إنقاذه، ومنذ ذاك التاريخ ما زالت الدول العربية تحاول إرجاع الحق إلى نصابه، ولكن كلما كانت قاب قوسين أو أدنى من غايتها، تصطدم بالقوى السياسية والعسكرية الغربية التي تهب لنجدة صنيعتها الباغية فتنقذها من مصيرها المحتوم، وتطيل أمد بقائها، وذلك على الرغم من كل ما لهذا الغرب من مصالح مصيرية متشابكة مع الأقطار العربية، وخلافاً لآراء عظماء مفكريه والشرفاء من ساسته الذين يجاهرون بأصالة الحقوق العربية في فلسطين في كل المناسبات الدولية، وفي المحافل الاجتماعية.

ومع هذا يأبى الغرب وفي مقدمته أمريكا التخلي عن تزمته في مساندة ربيبته المعتدية، وحيال هذا الموقف الغربي الشائن لا غرو أن يتساءل العرب، عن كنه هذا التلاصق الوثيق بين الغرب واليهودية، وعن دوافع استماتته في سبيلها، وعن العوامل التي دفعته في الأمس للغدر مراراً بالعرب لتأمين مصالحها، وعن أسباب تواطؤه السرمدي معها.

وبغية إيضاح خلفيات هذه التساؤلات، أضع مؤلفي هذا بين يدي القارئ العربي الكريم لعله يسهم في كشف الستار عما يراد معرفته. راجياً من العلي القدير أن أكون قد وفقت لما فيه الخير.

المؤلف س. ناجي

الشرق الأوسط في فجر التاريخ

حينما كان الإنسان في أكثر بقاع العالم، ما زال يتخبط في ظلمات الجهل والهمجية، ويعيش في ظل القوانين البدائية، أسوة بغيره من المخلوقات العجماء، لا هم له إلا إشباع نهم غرائزه الحيوانية، كان سكان الشرق الوسط، يتقدمون بخطى حثيثة نحو التطور والرقي بفضل مركز بلادهم الجغرافي، الذي كان وما زال الجسر الكبير الذي يربط القارات الثلاث بعضها ببعض، ويوحد جيوبوليتيكيتها (Géopolitique) التي مكنت سكان المنطقة من الإلمام بكل جديد يظهر في إحدى تلك القارات.

ولذا أصبح سكان الشرق الأوسط، رواد نقل الأفكار والسلع بين مناطق العالم القديم، كما كانوا سادة التبادل التجاري والصناعي بين مختلف البلاد المحيطة بمنطقتهم.

سكان الشرق الأوسط

إن التاريخ عند بحثه عن المنطقة وسكانها، يطلق على أجزائها أسماء مختلفة، ويسمي من كان فيها من الشعوب بأسماء عديدة، إلا أنه يعود ويعترف صراحة بوحدة أصول لغاتها ووحدة أرومة أجناسها، كما أنه لا يتردد عن نعت المنطقة بمهد الحضارات، ومنطلق التطور البشري الأول، وهو عندما يذكر هذه الحقائق المشرفة عن المنطقة وسكانها، لا يغفل عن توضيح الأسباب.

فيبين أن سكان المنطقة اكتسبوا الكثير من الحضارات السومرية، والمصرية، والآشورية، والبابلية، والحثية. هذا عدا عن تطور حضارتهم الخاصة التي انبثقت عن تفكيرهم وحاجات منطقتهم المعيشية.

وعلى الرغم من أن التاريخ أكد أن سكان المنطقة كانوا ينقسمون إلى ممالك وشعوب، استقل بعضها عن بعض سياسياً وإدارياً، وأطلق على كل من تلك الكيانات تسمية خاصة، فسميت المنطقة الجنوبية لسورية ببلاد كنعان، وأهلها بالكنعانيين، والمنطقة الشرقية الشمالية بآراميا وأهلها بالآراميين، والساحل أسماه بفينيقيا وأهله بالفينيقيين. هذا عدا الأسماء الأخرى التي أطلقها على جزئيات المناطق التي كان لها بعض الاستقلال الإداري مثل بلاد العمونيين وبلاد الآدوميين، وبلاد النبطيين.

ومع كل هذا اعترف التاريخ بوحدة أصول لغات جميع تلك الشعوب وسماها باللغات السامية[1] ، ومن خلال هذا الاعتراف الصريح يتضح لنا أن جميع هذه الشعوب تنحدر من عرق واحد ، بدليل تفرع لغاتها ولهجاتها من لغة واحدة سميت اصطلاحاً باللغة السامية ، وإذا عرفنا أن هذه اللغة ما هي إلا لغة سكان شبه الجزيرة بأكملها ، أي اللغة العربية التي اشتقت منها تلك اللهجات ، بدليل وحدة أصول مفرداتها مع المفردات العربية ، وتجانس مشتقاتها مع أسلوب الاشتقاق العربي ، لانتفى كل شك يرمي إلى زعم اختلاف أصول تلك الشعوب عن أصول الشعب العربي الأم .

ولذا كان الأجدر بعلماء التاريخ أن ينعتوا هذه الشعوب بالشعوب العربية وأن يسموا لغتها باللغة العربية ، إظهاراً للواقع وإحقاقاً للحق ، وأن يهملوا التسمية القديمة الباطلة التي أخذوها من المصادر اليهودية ، التي زعمت أن هذه الشعوب تنحدر من سام بن نوح وأكدت فريتها هذه بأن ادعت أن (سام) كانت له لغة خاصة دون إخوته ، ورثها أحفاده عنه وأورثوها بدورهم شعوب المنطقة التي انحدرت منهم ، ولذا سميت تلك الشعوب ولغاتها بالسامية نسبة لسام بن نوح ، هكذا دون أي دليل تاريخي أو برهان مادي ، أو سند من العقل والمنطق مع كل ما في هذا الزعم من التناقض لعلم أجناس البشر .

إن علم الأجناس لا يعرف حتى هذه الساعة عرقاً يدعى بالعرق السامي ، ولا يسلم بوجوده قطعاً على الرغم من تقدمه الباهر في أبحاثه العلمية الواسعة .

كما أن العقل والمنطق لا يقبلان أن ينفرد أحد الأشقاء بلغة خاصة به دون إخوته الذين عاش وترعرع معهم في كنف والدين مشتركين في تربيتهم وإعالتهم جميعاً ، وخاصة في زمن سحيق مثل زمن نوح عليه السلام ، وفي عائلة مثل عائلته التي قيل أنها انفردت بالبقاء على قيد الحياة بعد الطوفان ، الذي قضى على سكان العالم القديم بأجمعهم ، وأرغم أفرادها على العيش مترابطين وحرمهم من كل وسيلة تؤدي إلى تجديد في النطق أو تبديل لتسمية .

---

(1) إن تسمية لغات شعوب الشرق الأوسط القديمة بمشتقات اللغة السامية أتت من التوراة ، فقد ذكرت أن اللغة السامية كانت لغة سام بن نوح ، وإن الشعوب التي تتكلم اللغات المشتقة من السامية هي المنحدرة عن سام (سفر التكوين فصل الخليقة) . ولقد اعتمد علماء اللغات بدورهم هذه التسمية وأطلقوها على كافة لغات المنطقة التي ثبت لهم أنها مشتقة من أصل واحد المسمى بالسامية ، ولكن بات الآن مقرراً عدم صحة هذه التسمية والأفضل القول العربيات القديمة .

أضف إلى ذلك أن المكتشفات العلمية الحديثة لم تعثر حتى اليوم على ما يؤيد صحة المعلومات المتعلقة بالأحوال المدنية لآباء البشرية الأولين الذين تعرضت المصادر اليهودية إلى تصويرها بكل تلك التفصيلات الدقيقة الغريبة العجيبة.

نقاد التاريخ والمزاعم اليهودية

لعلماء ونقاد التاريخ مآخذ عديدة في صحة المصادر اليهودية والملابسات الظاهرة في تأريخها للأحداث الباحثة عنها، وزيف تأريخ عهد ظهورها لأول مرة للوجود، والمتناقضات الكائنة في مختلف ترجماتها، وخصوصاً الباحثة عن حوادث التكوين.

وهذا التخبط العجيب هو الذي دفع بنقاد التاريخ إلى تمشيط وتصفية ثنايا هذه المصادر مما أدى بهم إلى فقدان ثقتهم بأكثر مما جاء فيها ومن بينها قصة السامية وتفرعاتها، وإزاء البراهين القاطعة التي أوردها هؤلاء النقاد، فقد الناس بدورهم ثقتهم التي طال أمدها في تلك المصادر المزيفة، وجنح الكل إلى الاعتماد على الاستنتاجات والنظريات العلمية الراهنة المكتشفة حديثاً التي آلت إلى تحديد واقع شعوب الشرق الأوسط التاريخي، وتعيين أصولها، وذلك اعتماداً على ما للغة من علاقة وثيقة وأساسية في هذا التحديد.

ولما كان لغات شعوب المنطقة مع ما في مفرداتها ولهجاتها من فوارق جزئية ثبت علمياً ارتباطها الوثيق بعضها ببعض، وبالتالي باللغة العربية التي أجمعت المصادر التاريخية والمكتشفات العلمية وجود أصحابها في كافة أجزاء المنطقة قبل ظهور الشعوب الأخرى فيها، ولما كان التاريخ والعلم الحديث في عجز عن إثبات مجيئها إلى المنطقة من جهات أخرى، واعترافها الصريح بكونها أصلاً ومنبتاً من المنطقة ذاتها، فلم يعد مجال للريبة والشك بأنها فروع الأصل الواحد، أي الأصل العربي الذي عرف بكونه أقدم عرق وجد في المنطقة، وانتشر في ربوعها تدريجياً حتى غدت قوقعته الطبيعية.

ولقد ثبت علمياً وتاريخياً دوام هجرات القبائل العربية «على مدد منذ أقدم العصور» من أقصى جنوب شبه الجزيرة إلى كافة البلاد المجاورة لمنشئها، فمنها من سلكت الساحل الشرقي لشبه الجزيرة واستوطنت في جنوب البلاد الإيرانية، ومنها من وصلت حتى مشارف المملكة الحثية، وحطت رحالها في جبال طوروس، كما أن بعضها توغلت في مختلف أنحاء شبه الجزيرة، ولما ضاق بها المجال اتجهت بعضها لسواحل إفريقيا الشرقية والجنوبية وانتشرت فيها، ومن ثم راحت تصبغ أهلها الزنوج بتقاليدها وأعرافها ومفردات لغتها العربية، حتى غدت بعض

تلك البلاد عربية في كل شيء، لدرجة أن أهلها اليوم لا يقبلون عن العروبة بديلاً، مثل أهل الصومال وزنجبار وأرتيريا وغيرهم.

أما عروبة شعوب شمال شبه الجزيرة فلم تكن يوماً موضع شك، باعتبار أن التاريخ لم يعرف لهذه المنطقة سكاناً قبل العرب، ولم تكشف الحفريات الأثرية الحديثة ما يناقض ذلك، والعلم لم يعد لديه ما يريب في انحدار مختلف سكان شمال شبه الجزيرة من صلب الأمة العربية، خصوصاً بعد أن تأكد اشتقاق لغاتها من اللغة العربية، وبعد أن ثبت بالأدلة القاطعة وحدة تكوينهم الجسماني مع أبناء عمومتهم عرب الجنوب.

منشأ الفوارق اللغوية بين شعوب المنطقة

إن الفوارق في مقدار تطور تلك الشعوب يعود أمرها إلى زمن استيطان كل منها في المنطقة، ومن هنا رأينا أن الفينيقيين كانوا أكثر حضارة من سواهم، وذلك بفضل أقدميتهم التي سنحت لهم أن يتفاعلوا مع جيوبوليتيكية المحيط، وينهلوا من حضارات الشعوب المحيطة بهم.

كما كان من بديهيات الأمور أن يطرأ بعض التبديل والتغيير على لغة هذه القبائل، بفعل احتكاكها مع الأقوام التي جاورتها بعد أن ابتعدت عن مواطنها الأصلية في الجنوب، إذ تأثرت مفرداتها وقواعد لغتها بمفردات وقواعد لغات الأقوام التي تعاملت معها بحكم مجاورتها لها، ولذا تكاثرت الأسماء الأعجمية في لغتها للأشياء الجديدة التي اضطرت بحكم ظروف معيشتها إلى اقتنائها، هذه الأشياء التي كان استعمالها شائعاً في موطنها الجديد بفضل الحضارات التي كانت تحيط بالمنطقة منذ أمد بعيد (أعني الحضارات السومرية والمصرية وما أعقبهما).

وهذه العوامل هي التي أبعدت الشقة فيما بينها بمقدار نسبة زمن هجرة كل منها إلى المنطقة، فظهر التباين في لهجاتها والتغير في مفردات لغتها بقدر ما كان من التفاوت في توقيت هجراتها من مواطنها الأصلية في الجنوب العربي.

ويبدو أن هذه العوامل الزمنية في الحل والترحال، والتأقلم والتحضر، وفقدان فكرة التمسك في أصول المنشأ، وعدم توفر سبل التأريخ والتدوين لما كان يطرأ على حياة كل قبيلة منها في تلك الأزمان السحيقة، هي التي أدت إلى فقدان آثار أحداث هجراتها، وبالتالي دفعت بها إلى عدم المبالاة بماضيها، فراحت كل منها تنهل المفردات من اللغات الأجنبية وتقتبس التسميات السائدة في محيطها دون قيد أو شرط، حتى فقدت لغتها الكثير من أصالتها، وغدت وكأنها لغة جديدة، ومن ثم أهملت وشائج روابطها مع أصولها، وأصبح لكل منها اسماً جديداً تعرف به

وهكذا ظهر منها للوجود، الكنعاني، والآرامي، والعموني، والفينيقي، والنبطي، وكأنني بها شعوب مختلفة تفرعت من أرومات عديدة، وهذه الظاهرة أوهمت الناس في عهود الجهل بأصول اللغات بأنها من غير الأصل العربي، كماأنها مكنت مزوري التاريخ، أي كتاب المصادر اليهودية من تزييف الحقائق بالشكل المناسب لأغراضهم، ولكن جذور اللغة العربية الأم في أصول لغات تلك الشعوب كانت أقوى من أن تضمحل تحت وطأة الأيام، فقاومت ثقل الأحداث التي تعرضت لها شعوب المنطقة بكل عناد وإصرار، وحافظت على الكثير من منطلقات اللغة العربية في تكوين لغات ولهجات هذه الشعوب، حتى تطور علم اللغات، وتمكن من سبر أغوار اللغات القديمة للمنطقة، وتوسع في البحث والتحري عن أصول كل منها، فتكشفت له تحت مجهره العلمي الحقيقة الناصعة الآيلة إلى الاعتراف بأنها دون استثناء من أصل عربي دون سواه، وهكذا انهزم التزوير والتزييف اليهودي أمام الأدلة والبراهين الساطعة التي اكتشفها علم اللغات والأجناس وأيدتها المكتشفات الأثرية الحديثة.

ومما سبق يظهر جلياً أن هذه الشعوب التي تنوعت تسمياتها، عاشت عصوراً عديدة دون أن يطرأ الكثير من التغيير على أوضاعها، اللهم إلا بقدر ما كانت الظروف السياسية تفرضها من حين إلى آخر، وهذه التغيرات كانت نسبية، وتنسجم مع سير صراع الحضارتين الكبيرتين الشرقية والغربية «أعني صراع مصر مع أمراء ما بين النهرين» اللتين كانتا تتطاحنان دون هوادة للسيطرة على الشرق الأوسط، وكان لهذا التطاحن أثر عميق على المنطقة بأكملها، إذ كانت ترغمها على التفاعل مع رغبات وحضارة المنتصر منهما، ولما كان الصراع سجالاً، ظلت المنطقة تنتقل بينهما، ولقد أكسبها هذا الخضوع التناوبي الشيء الكثير من حضارة المتخاصمين، كما مكن شعوبها من تطوير حضارات خاصة بها، إذ أن القوى المتصارعة لم تجنح قط إلى المس بأوضاع المنطقة أو تبديل طراز عيش أهلها، وكان جل ما يهمها هو المكسب المادي أولاً، ومن ثم إخضاع ملوك وأمراء المنطقة لمشيئتها السياسية، الشيء الذي مكن السكان من التقدم والتطور في ظل نوع من الاستقرار النسبي، بالتناوب تحت حماية الكتلتين المتصارعتين، وبفضل الاحتكاك الدائم مع هاتين الحضارتين وعدم تأثر المنطقة جذرياً بصراعهما نشأت في المنطقة حضارات بارزة، مثل الحضارة الفينيقية ـ الكنعانية، اللتين خلدهما التاريخ باسميهما، ولقد زادتنا المكتشفات الحديثة علماً بما كان لهاتين الحضارتين من تأثير واسع في أرجاء المعمورة. وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر أن المكتشفات الحديثة أثبتت أن حضارة طروادة الثانية كانت وليدة الحضارة الفينيقية، بدليل ما وجد في حفرياتها من أشياء كالجرار والسبائك والحلي التي ظهر أنها كلها فينيقية في أصلها

ومنشئها ، والتاريخ يؤكد بدوره ما كان للشعب الفينيقي العربي إبان ازدهار حضارته من فضل في تطور سكان سواحل البحر الأبيض المتوسط ، حتى إن علماء التاريخ لم يضنوا عليه بلقب سيد البحار اعترافاً بما أورثه من حضارة لشعوب هذه البحار ، ويكفي هذا الشعب فخراً أن يعترف التاريخ بأن قرطاجة الأفريقية التي هزمت الإمبراطورية الرومانية على يد بطلها حنا بعل ما هي إلا صنيعتها وغرس أيديها ومنحدرة من صلبها .

ولكن للطبيعة سننها ، فهي دائماً تفرض على الأمم سنة المد والجذر ، ولذا رأينا عبر التاريخ أمماً سادت وحلقت في الحضارة ومن ثم بادت واندثرت وكأنها لم تكن يوماً في الوجود ومع هذا وخلافاً لهذه السنن أبت شعوب الشرق الأوسط العربية أن تندثر مثل سواها ، فظلت متمسكة بأوطانها وحافظت على تراثها ولغاتها العربية الأصل ، على الرغم من كل الغزوات الأجنبية التي تعرضت لها المنطقة طيلة عشرات القرون ، فقاومت الغزوات الآشورية والبابلية والإيرانية ، والمكدونية والرومانية فلم تذب في بوتقاتها ، ولم تنصهر في قومياتها مع كل ما كان يقدم لها من مغريات ، بل كان العكس هو الصحيح ، إذ يروي لنا التاريخ أن الكثير من غزاتها ذابوا في كياناتها ولم يبق لهم أي أثر في المنطقة ، ولقد دام هذا الإصرار والعناد في التمسك بأصالتها حتى كان المد العربي في القرن الخامس بعد الميلاد وإذ بهذه الشعوب التي قاومت كل غزاة التاريخ لا تبدي أدنى مقاومة لهذا المد ، بل تسارع إلى الارتماء في أحضانه بكل بساطة ويسر لأنها كانت ترى فيه مد الأم التي تنحدر منها ، وسرعان ما التأمت الفروع بالأم وانصهرت في أحضانها ، وبذلك انتهت أسطورة السامية وتوابعها في الشرق ، وإن ظلت المصادر اليهودية متمسكة بها حتى اليوم على الرغم من ثبوت بطلانها .

وبما أن القصد من مؤلفنا هذا هو إيضاح الملابسات التاريخية والسياسية العالقة في تاريخ شعوب المنطقة بصورة عامة وبالشعب الذي سمي بالكنعاني بصورة خاصة ، أرى بعد هذا الشرح الطويل لزاماً علي أن أنتقل بالقارئ الكريم إلى صلب الموضوع ، وأبحث عن الكنعانيين وبلادهم بشكل عام وعن أحداثهم لما بعد القرن الثاني عشر قبل الميلاد بشكل خاص .

بلاد كنعان

هي التخوم الواقعة في الجنوب من سورية الجغرافية ، وهي كانت جزءاً لا يتجزأ من سورية ، يحدها من الشمال لبنان وجبل الشيخ ، ومن الشرق نهر الحاصباني ونهر اليرموك والأردن ، ومن الجنوب شبه جزيرة سيناء ، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط .

وهذه التخوم كانت منذ الأزل موحدة المصير مع أجزاء سورية الأخرى، وإن كانت لها تسمية خاصة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد إسوة بمختلف المقاطعات السورية التي كانت لها تسميات إدارية عرفت بها عبر التاريخ القديم، مثل آراميا، وفينيقيا وسواها، وذلك تعريفاً للاستقلال الإداري أو القبلي لكل منها[1].

الكنعانيون

لا يعرف التاريخ سكاناً في فلسطين قبل الكنعانيين، وهم مثل سواهم من سكان سورية القدماء ينحدرون من صلب الأمة العربية، والمظنون إنهم لا يختلفون عن الفينيقيين[2] بشيء وإنهم من موجة هجرتهم نفسها، استوطنوا هذا الجزء من سورية الجنوبية منذ أقدم العصور.

ولقد عجز التاريخ عن تحديد زمن استيطانهم فيها، كما أن المكتشفات العلمية لم تعثر حتى اليوم إلى ما يشير على وجود أحد من البشر قبلهم في هذه الأرض.

الحضارة الكنعانية من خلال المكتشفات الحديثة

إن التاريخ الذي عجز عن تحديد زمن استيطان الكنعانيين في فلسطين، لم يعجز عن شرح وتفصيل مظاهر حضارتهم، ومدى تطور أساليب العمل والعيش في بلادهم، والحفريات الأثرية أسهمت بدورها في إزاحة الستار عن ماضيهم، مثلما أنارت الزوايا المظلمة في تاريخ الأقوام الأخرى العريقة في القدم منذ المصريين وسكان بلاد ما بين النهرين.

ولقد اعتمد المؤرخون والعلماء عند بحثهم التاريخ الحضاري والاجتماعي لبلاد كنعان على المكتشفات العلمية، وخصوصاً مكتشفات السيد ويلسون (G. Wilson) التي أجريت عام 1864 في مدينة القدس، والسيد كوت (M. Guthe) الذي بدأ حفرياته في القدس وما جاورها من أماكن اعتباراً من عام 1867 حتى عام 1870، ومن ثم على الآثار التي أماطت اللثام عنها الحفريات التي بدأت عام 1890 ودامت حتى عام 1914، من قبل عدة بعثات علمية مارست التنقيب في كل من تل الحسي ولاكش، وتل الشافي، وتل زكريا، وتل جديدة، وتل عناق، وتل الجزر، وتل المسلم، وأريحا، وعين شمس وسواها، وقد أسفرت كل هذه الحفريات عن

---

(1) انظر المخطط رقم (1) كنعان في مستهل القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

(2) كلمة فينيقي هي نفسها كلمة كنعاني لأنها رسم لعبارة «بني كنغ» أو «بني كغ» بالإغريقية ثم اللاتينية، علماً بأنها ترسم في بلدان المغرب العربي بـ «بوني».

نتائج علمية باهرة أنارت الطريق أمام المؤرخين والعلماء، الذين كانوا يتخبطون في أضاليل المصادر المزورة.

وعلى سبيل المثال نذكر الألواح والمخطوطات البابلية التي عثر عليها في كل من تل الحسي وتعناق، والتي تروي لنا الكثير من أسرار التاريخ الكنعاني، ولقد أكملت المخطوطات التي عثر عليها عام 1906 في بيسان ما كان ينقصنا من المعلومات في مخطوطات تل الحسي وتعناق، حتى أصبحنا نعرف الكثير مما كنا نجهله عن الحضارة الكنعانية الغابرة، بفضل المؤلفات العديدة التي صدرت في أعقاب تلك الحفريات وأخص بالذكر منها مؤلف الأب المكتشف هوك فانسان (Hugue - Vincent) الذي صدر عام 1907[1] والباحث مطولاً عمّا كان للحضارة الكنعانية من أياد بيضاء في ميدان تطور الإنسان في فجر التاريخ.

وهذه النتائج العلمية الباهرة التي أسفرت عنها حفريات القرن الماضي، هي التي دفعت البعثة العلمية الفرنسية عام 1919 لتبادر إلى إجراء حفريات جديدة في جبيل، وصيدا، والنيرب، وتل المشيرفة، ورأس شمرة، ولقد أسفرت أعمالها التي دامت حتى عام 1940 عن معلومات علمية مذهلة، أكدت صدق الاستنتاجات والنظريات التي أعلن العلماء عنها في أعقاب حفريات القرن التاسع عشر، والتي حددوا على ضوئها معالم الحضارة الكنعانية وارتباطها الوثيق بكل ما اكتشف من آثار في مختلف أنحاء البلاد، مما حدا بهم إلى تأكيد وحدة تراث ومنشأ كافة سكان المنطقة، بدليل تماثل كل معالم حضارتهم، وترابط محتويات مخطوطاتهم، والتقارب الكلي بين أحرف هجائهم على الرغم من بعض الخلاف الكائن في مفردات ولهجات مخلفاتهم، كما تأكد لديهم انحدار الكنعانيين من الفينيقيين مباشرة، ومن ثم وضح لهم مدى ما كان عليه تأثير الحضارة المصرية على سكان المنطقة في مستهل القرن الألف الثالث قبل الميلاد، وخاصة فيما يتعلق بالهجائية الكنعانية التي زعمت المصادر اليهودية زوراً وبهتاناً بأنها من مستنبطات وممتلكات بني قومها، إذ أن كافة المكتشفات العلمية أكدت أنها كنعانية أصيلة تداولها أصحابها في الألف الثالث قبل الميلاد، أي قبل ظهور اليهود واليهودية على مسرح التاريخ بأكثر من عشرة قرون، كما أن مخطوطات السلالة الحادية عشر الفرعونية التي عثر عليها مؤخراً تبحث هي أيضاً عن الحضارة الكنعانية وتشيد بها، وهناك المخطوطات الأثرية العائدة

---

(1) H. Vincent (Canaan d'apres L'exploration Recente) Paris Gabalda 1907.

لملوك وأمراء ما بين النهرين التي لا تبخل بدورها عن البحث المطول عن أمراء كنعان وحضارتهم[1].

وإذا أردنا معرفة ما كان لكنعان من أهمية سياسية وحضارية، علينا أن نلقي نظرة على الرسائل التي تبودلت بين أمرائها وبين كل من أمنوفيس الثالث والرابع (Aménophis III E + IV) فعندها ستتضح لنا المكانة المرموقة التي كانت لكنعان في تلك الأزمنة.

ومن خلال الوثائق التاريخية الباقية من رحلات ملوك مصر أمثال رمسيس الثالث، وآوون آمون (Ouen Amon) نرى أن سادة مصر كانوا يهتمون بكنعان وحضارتها أكثر من اهتمامهم بأي من البلاد المجاورة لمملكتهم[2].

ومما أوردناه من شواهد ونتائج المكتشفات العلمية، يظهر لنا جلياً أنه كان لبلاد كنعان حضارة شبه خاصة بها على الرغم مما علق بها على مر الأزمان من مؤثرات حضارتي مصر وبلاد ما بين النهرين، وهذه الحضارة كانت وليد ظروفها وموقعها الجغرافي ومن ثم طبيعة أرضها التي فرضت على سكانها استنباط وإيجاد حاجيات تنسجم مع متطلبات إقليميتها وطبيعتها، والتي لم يكن وجودها واستنباطها ضرورياً أو ممكناً في البلاد المجاورة، ومن خلال هذه الحاجيات الخاصة بها تجسدت لدى علماء التاريخ فكرة طابع الحضارة الكنعانية الخاصة.

إن طبيعة البلاد القابلة للتشجير ولتعاطي الزراعة، بفضل اختلاف تضاريسها وكثرة مياهها، هي التي أوحت إلى أهلها الاهتمام بالزراعة والتشجير، وبالتالي استنباط الأدوات التي احتاجوا إليها لاستثمار أرضهم على الوجه الأكمل، وعملاً بالنظرية الخالدة القائلة، الحاجة أم الاختراع، بادروا إلى إيجاد الأدوات الزراعية المختلفة مثل سكك الفلاحة، والمحاريث، وأجران التخزين، وأحجار طحن الحبوب، ومستودعات الغلال، وأدوات عصر الزيتون وتقطير الفواكه، والشيء الكثير من الأدوات الفخارية كالجرار، والقدور، وأدوات الحياكة المختلفة التي تشابه الأدوات الهندية الأثرية والتي كانت متداولة قبل ثلاثين قرناً من الميلاد، ويبدو أنهم آثروا الاهتمام بالفنون قبل غيرهم من الأمم، بدليل ما عثر عليه من تماثيل ومنحوتات مختلفة في كل من تل نبو، وخان لوبية، كما عثر في كيزر (Guézer) على كثير من الرسوم ونقوش ملونة تمثل حيوانات مختلفة مثل البقر والجواميس والآيل.

---

(1) كتاب أمراء بلاد ما بين النهرين للسيد كورت سيت (M. Kurt - Sethe).

(2) أدولف لودس ـ تطور البشرية ـ بحث مخطوطات تل العمارنة.

أما ما عثر عليه من بقايا العظام الحيوانية المكدسة في عدة أماكن لهو أصدق برهان على أنهم كانوا قد استخدموا الكثير من الحيوانات كالجمال والبقر والجواميس واستفادوا من وبرها ولحومها لتحسين أحوالهم المعيشية .

كما أن مخلفاتهم المعدنية المصنوعة من الذهب والفضة أو الحديد والنحاس لهي شواهد حية على تقدمهم الصناعي قبل غيرهم من الأقوام ، أضف إلى كل هذا تفننهم في الإنشاء والبناء الواضح من خلال ما خلفوه من آبار وقنوات ري ، ومحارق جثث الموتى ، وأمكنة العبادة ومذابح القرابين وسواها .

هذا عدا ما عثر عليه من عجلات حربية وأسلحة معدنية وتجهيزات ذهبية للفرسان فإن دلت على شيء إنما تدل على مدى ما كانوا عليه من تفوق في فنون القتال ، ومدى اهتمامهم في الدفاع عن أرضهم .

كل هذه الأشياء التي أماطت المكتشفات العلمية اللثام عنها هي أدلة إثبات لما كان للكنعانيين من أياد بيضاء في تطور الإنسانية ، كما أنها في الوقت نفسه براهين قوية لتجسيد حضارة هذا الشعب التي عملت المصادر اليهودية طويلاً على بقائها في طي الكتمان حتى لا تنكشف من خلالها أضاليلها التي طالت ثقة الناس بها .

الوضع السياسي لبلاد كنعان في القرن الثاني عشر قبل الميلاد

ثبت من خلال المخطوطات الأثرية التي اكتشفت في كل من مصر وسورية والعراق، أن وضع كنعان السياسي ما بين الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد لم يكن مستقراً بصورة دائمة، إذ أن التطاحن الذي قام بين ملوك المصريين وأمراء ما بين النهرين للسيطرة على منطقة الشرق الأوسط كان سجالاً ودائماً، يخبو أواره مدة ثم يعود إلى الاشتعال مجدداً، ومن هنا كانت كنعان فريسة دائمة لأحد الطرفين المتنازعين، تخضع تارة للشرق وأخرى للغرب أسوة بشعوب المنطقة أجمعها، ولكن على الرغم من قساوة هذا التنقل من نفوذ إلى آخر ظلت كنعان محافظة على طابعها الخاص وشخصيتها الاعتبارية والسياسية، ولقد ساعدها في ذلك عدم مس الغزاة بكيانها أو قيادتها، إذ كانوا يكتفون منها بتقديم الغرامات الحربية، ومن أمرائها بالطاعة والرضوخ، والدليل على مسلك الغزاة هذا نجده في المكتشفات الباحثة عن سير بعض الملوك المصريين أمثال سنفرو (Snefrou) من السلالة الثالثة نحو عام 2840 ـ 2680 قبل الميلاد وبيبي الأول (Pepi ler) من السلالة الرابعة نحو عام 2800 ـ 2500 وساحورا (Sahoura) من السلالة الخامسة التي تخبرنا بأن كلاً من هؤلاء قام بدوره بحملة عسكرية على كنعان بغية تحريرها من غزاة الشرق، أو إرغام العصاة من أمرائها على الرضوخ لسيطرة مصر، كما أن بعض المخطوطات الأخرى تذكر قيام تحالفات بين الكنعانيين والعناقيين والصوبائيين وغيرهم، وحتى قيام تحالفات بين أمراء سوريثين وحثيين لمجابهة الجيوش المصرية أو الحمورابية التي كانت تروم غزو كنعان وسورية، ومما سبق يتبين لنا أن كنعان كانت حريصة على طابعها السياسي والاجتماعي بصورة فعالة، ولكن أمام القوى الهائلة التي كانت كل من مصر وبلاد ما بين النهرين تمتلكها لم يسعها إلا التفاعل مع الظروف والاكتفاء بعدم الانصهار في بوتقة أحدهما.

والجدير بالذكر هو أن بعض المخطوطات الأثرية تشير إلى أن كنعان تمكنت ما بين عام 2000 ـ 1600 قبل الميلاد من أن تنعم بالاستقلال، مما ساعدها كثيراً على تطوير بلادها وحضارتها في تلك المدة التي بلغت أربعة قرون، فاتسعت شهرتها حتى أنها لقبت ببلاد السمن والعسل إشارة لغناها ووفرة محاصيلها، وهذا النعيم هو الذي أطمع بها مجدداً ملوك مصر

وسواهم من الكيانات والقبائل التي كانت تحوم حول تخومها. وفي هذا الصدد تحدثنا المخطوطات الأثرية العائدة لسير الملوك أمثال حار محب (Haremheb) الذي حكم مصر بين عام 1345 و1320 قبل الميلاد، وخليفته سيتي الأول (Seti Ier) الذي تولى العرش من عام 1319 إلى عام 1300 قبل الميلاد، ومسيس الثاني (Ramsis II) الذي أعقبه في الحكم من عام 1300 إلى عام 1234 ق.م وتقول إن كلاً من هؤلاء جرد في عهده حملات عسكرية على كنعان وأعادها لطاعة مصر، ومن فحوى هذا الحديث نستنتج أن كنعان لم تتخل عن استقلالها بيسر وسهولة بل ثابرت على المقاومة دون كلل أو ملل، وأذاقت غزاتها من مصريين وحثيين وسواهم كأس الهزيمة أكثر من مرة، ولكن في القرن الثاني عشر قبل الميلاد لم يعد بإمكانها إلا الرضوخ لمشيئة مصر بعد أن استنزفت قواها في صراعها الطويل، وهكذا فقدت الإمارات الكنعانية استقلالها وخضعت لملوك مصر بعد صراع مرير دام قرابة قرن كامل.

أما ضراوة المقاومة الكنعانية فتحدثنا عنها إحدى اللوحات الأثرية المصرية بصورة طريفة وهامة للغاية، أرى لزاماً علي أن أذكر محتواها للقارئ العربي لما فيها من مغزى ومدلول تاريخي قيم يعري أضاليل المصادر اليهودية الباحثة عن شعوب المنطقة بشكل واضح.

والقصة تتلخص بأن أحد ملوك مصر الذين غزوا كنعان أراد تخليد أحداث غزواته الحقيقية هذه فخط قصتها على لوحة لعن تذكارية جاء فيها أن واحداً وعشرين من أمراء كنعان يمثلون آموريا وصوبا ومآب وعمون وفينيقيا ومدين وعمليق تحالفوا فيما بينهم، وجابهوا جيشه وهزموه (ويبدو أن الحقد بلغ منه حداً أعجزه عن ضبط مشاعره العدائية نحو كنعان فاختتم لوحته بأن قال لأنهم جميعاً من طينة واحدة لتكن ملعونة حتى الأبد).

ونحن إذا تمعنا في فحوى هذه القصة الأثرية مع ما فيها من البساطة والطرافة نستنتج منها أن صاحب اللعنة عندما اصطدم جيشه بجموع الفئات الكنعانية علىالرغم من تعدد مسمياتها وألقابها لم يستغرب هذا التآلف ولم يفرق بينها في إشهار غضبه عليها، ليقينه، أنها جميعاً تنتسب لأصل واحد وتنحدر من أرومة واحدة، وإلاّ لما قال عنها أنها من طينة واحدة، ولما صب عليها لعنته بالتساوي دون تفريق أو تمييز.

ولقد أصاب هذا الملك في قوله كبد الحقيقة تماماً، فلو أن هذه الفئات كانت تنحدر من أرومات مختلفة، وتتكلم لغات مختلفة لاستحال عليها التآخي أولاً، والتفاهم ثانياً، وخصوصاً وهي التي كانت تعيش حياة قبلية تدفع بأصحابها إلى التناحر والاقتتال لأتفه الأسباب، ولو أنها من أصول مختلفة لما جنحت إلى التآخي والتفاهم أمام الأخطار الخارجية بهذه الصورة الجماعية مهما سمت

الأغراض، وكان لابد لبعضها أن يختار الجانب المصري القوي لتستعين به على عدواتها ومنافساتها في المنطقة، ولو كانت لها لغات مختلفة وخصوصاً في تلك العصور التي عز على أهلها تعلم لغات الغير، لما تمكنت جيوشها من الانصهار في بوتقة واحدة، ولاستحال على قادتها التفاهم والتنسيق فيما بينهم، هذه الأمور (أي وحدة الأصل واللغة والهدف) التي نراها اليوم وفي القرن العشرين تقف سداً حائلاً دون تحقيق وحدة شعوب أوربا في شرقها وغربها كما نراها في مختلف أقطار العالم، إذ أن الإنسان ما زال حتى الساعة ضنيناً على منحدره ولغته الأصيلة، ويتمسك بهما أكثر من تمسكه بالمفاهيم والأفكار العامة التي تعدّ حتماً بعيدة التحقيق وصعبة المنال.

ومن هنا يتبين لنا أن هذه الفئات التي جابهت جيوش ملك مصر موحدة الصفوف والقيادة وتمكنت من دحرها على الرغم من تعدادها لابد أنها كانت تمتلك جميع مقومات التآخي والتآلف في حالة الخطر، أي أنها كانت لها لغة موحدة سهلت التفاهم فيما بينها، وأنها كانت تنحدر من أصل موحد، أثار حميتها وعصبيتها أمام صلف المعتدي الغريب، فبادرت إلى نبذ خلافاتها ورصت صفوفها بكل يسر وسهولة للدفاع عن مصيرها المشترك، فكان لها ما أرادت، فهنا لابد لنا أن نتساءل عن كنه هذا الأصل الذي جمعها ووحدها، وعن اللغة التي سهلت التفاهم والتنسيق فيما بينها، والجواب واضح وميسور وهو أن هذه الفئات كلها كانت تنحدر من موجات الهجرات العربية التي بحثنا عنها في الفصل الماضي، أضف إلى ذلك ما ورد في لوحة الملك التذكارية عند تعدادها لتلك الفئات التي بلغت إحدى وعشرين فئة من ذكر أسمائها والتي كان بينها العمونيون، والموآبيون، والمدينيون، والشاسو (أي القبائل الرحل)، هذه الفئات التي يعترف التاريخ بكونها عربية أصيلة وتؤيده بذلك المكتشفات العلمية الحديثة، كما أن المصادر اليهودية التي دأبت على تشويه التاريخ تعترف بدورها بانحدار هذه الفئات أو القبائل من صلب الأمة العربية، وهذه الأدلة التي تثبت عروبة تلك الفئات والتي اشتركت في الصراع مع الكنعانيين والآراميين ضد الغزاة، تعني صراحة أن جميع الفئات الأخرى التي اشتركت معها في مقارعة المعتدي كانت تنحدر هي أيضاً من الأرومة ذاتها، وإلا لما أمكنها التعاون والتعاطف، ولما قال عنها ملك مصر أنها من طينة واحدة.

وهكذا نجد أن نص اللوحة التذكارية إن دل على شيء فإنما يدل على أن الفئات التي قاتلت جيوش الملك والتي أسماها بسكان كنعان كانت جميعها عربية، وإن تغايرت تسمياتها وتعددت لهجاتها، وفي الوقت نفسه يأتي بمثابة صك تأكيد لنفي جميع المزاعم اليهودية الرامية إلى تكريس الشك بعروبة كنعان بشكل خاص، وبعروبة الأقدمين من سكان المنطقة بشكل عام.

بدء الانحطاط الكنعاني

سبق وقلنا أن مصر تمكنت في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد من السيطرة على الإمارات الكنعانية ، بعد صراع طال أمده حتى استنزف قوى الطرفين المتصارعين ، فلم تعد مصر بقادرة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد على مجابهة أحداث هذا القرن التي لم تكن وبالاً على كنعان فحسب ، بل كانت بمثابة كارثة عامة على العالم القديم الجنوبية ، من جراء غزو القبائل الآرية التي تعرضت له سواحل أوروبا الجنوبية ، مما حدا بسكان هذه السواحل إلى النزوح عن مرابعهم تحت ضغط البرابرة ، والتوجه نحو السواحل الأفريقية والآسيوية للبحر الأبيض المتوسط بحثاً عن أوطان جديدة لهم ، فأغار الإيجيبون على سواحل أفريقيا الشمالية وسورية ، وفي الوقت الذي أغارت فيه قبائل الميشك (Michk-ou-Grecs) أي اليونان على الإمبراطورية الحثية التي انهارت سريعاً تحت ضربات غزاتها ومن ثم زالت من الوجود .

أما الغارات الإيجية فلم تسفر عن نتائج سريعة مثل غزوة الميشك ، إذ أن الدولة المصرية تمكنت من صد غارات الإيجيين عدة مرات وطردت عام 1915 قبل الميلاد من غزا منهم سواحل ليبيا ، ولكنها اضطرت أخيراً للتخلي عن محمياتها في كنعان لعدم مقدرتها على القتال في عدة جبهات ، وتركت الإمارات الكنعانية تجابه مصيرها وحدها ، في وقت كانت فيه أضعف من أن تتمكن من مجابهة غزاة الزقل والفلسطيو الذين تمكنوا من ترسيخ أقدامهم على طول الساحل الكنعاني ، عدا عن الغزوات البرية التي كانت تتعرض لها من أمد بعيد والتي تفاقم أمرها واشتدت أكثر من ذي قبل على أيدي بعض القبائل الرحل ورعاة الشاة التي كانت تحوم حول تخومها وترجو أن تتمكن أن تجد لها مربضاً في تلك البلاد التي شاع ذكر ثرائها ، ووفرة محصولها ، فلما شعرت بانهيار قوى أصحابها من جراء صراعهم الطويل مع المصريين ، ومن ثم مع غزاة البحر شدت قبضتها بدورها أملاً بأن تستخلص من كنعان بعض ما كانت تصبو إليه منذ أمد بعيد . وهكذا وجدت كنعان نفسها محاطة بالعديد من الأعداء فأرغمت على مقارعتهم بقدر استطاعتها ، ولكن تفاقم أعداد الغزاة أجبرها أخيراً أن تتخلى للزقل والفلسطيو عن سواحلها ، وأن تثابر على التخفيف من غلواء قبائل رعاة الشياة التي كانت تصر على التمركز في أرضها مهما كلفها الأمر ، ولقد استطاع بعضها من التغلغل في تخوم كنعان بشتى الوسائل والسبل ، فكان منها من قبلت الاستزلام لبعض الأمراء الكنعانيين بمثابة اليد العاملة أو الرديف الحربي المأجور ، ومنها من تمكنت من إيجاد منطقة خالية من السكان ضربت أطنابها فيها ، وبعضها آثرت التنقل في مراعيها المشاعة ، وهكذا تسللت هذه القبائل المختلفة الأرومة إلى أرض كنعان في

غفلة من الزمن ضعفت فيه الكيانات الكنعانية، فلم تعد تهتم بها وبوجودها على أرضها بصورة جدية، لأنها في البداية لم تكن لترى في هؤلاء الدخلاء ذوي الأرومة المختلفة واللغات المتعددة أي خطر جدي باعتبار أن قبائلهم ظلت تعيش في الوسط الكنعاني عيشة الغجر، لا تربطها فيما بينها أي صلة عرقية أو قومية أو لغوية تمكنها من توحيد صفوفها للقيام بعمل موحد للإضرار بالكيانات الكنعانية، ومع هذا ظل الكنعانيون على الحذر الدائم من هؤلاء الدخلاء لما اشتهروا به من سوء المسلك وضعف الأخلاق والميل نحو الشغب والفوضى.

وكم من مرة اضطر الكنعانيون لتأديب بعض فئاتهم، عقاباً لما أقدموا عليه من أعمال الشغب والفوضى، ولقد دامت الحال في أرض كنعان على هذا المنوال حتى أواخر القرن العاشر قبل الميلاد، أي بعد بدء التسلل القبلي الذي نحن بصدده بما يقارب من ثلاثمائة عام، لم تتمكن في غضونها عناصر تلك القبائل من تحقيق أية ميزة خاصة بها أو كيان خاص بمجموعها بل إن الكثير من أفرادها استكان للعيش الكنعاني، بعد أن تعلموا لغة البلاد وعبدوا آلهتها، ونبذوا ما كان لهم منها، وثابروا على الحياة متجانسين نوعاً ما مع تقاليد وأعراف البلاد، وعلى الرغم من كل ذلك ظل المسلك الكنعاني منهم مسلك المتيقظ خشية شرورهم، إذ أنهم برهنوا أكثر من مرة على رغبتهم في إيذاء الكنعانيين كلما سنحت لهم الفرص بذلك، وخصوصاً في الأحوال التي كانت تهاجم فيه كنعان من قبل غزاة أغراب إذ كانوا يسارعون إلى التعاون مع الغزاة لا لشيء اللهم إلا بغية الكيد لمن استضافوهم ووفروا لهم العيش الرغيد، ومن جراء غريزتهم هذه تخبطت البلاد طويلاً في الفوضى وعدم الاستقرار مما أدى إلى تناقص قوى كنعان يوماً بعد يوم، بينما كانت قوى الدخلاء تتعاظم شيئاً فشيئاً إلى أن تمكن هؤلاء المتسللون عام 1045 قبل الميلاد من اقتطاع قسم من أرض كنعان حيث أقاموا لهم كياناً مؤقتاً أطلقوا عليه فيما بعد اسم مملكة يهودا(❖)، كما تلقب مؤسسوها باليهود على حد مزاعم ما نسميه الآن بالمصادر اليهودية التي ملأت الدنيا منذ ذلك العهد حتى يومنا هذا بقصص عهود ما قبل قيام تلك المملكة، وقصص عظمة ملوكها، وكيفية قيامها، وعن أصل من أقامها، وأهمية شعبها ومكانته في العالم القديم، وحضارته ومنجزاته عبر التاريخ، مع العلم أن كل ما جاء في تلك المصادر عن المدة الواقعة ما بين

(❖) لم يعد الحديث عن هجرة العبرانيين وإقامة دولة يهودية مقبولاً الآن بناء على معطيات المكتشفات الأثرية، فالقدس لم تكن موجودة كمدينة قبل ثمانمائة قبل الميلاد، وظهر اسم يهود في حوالي أربعمائة قبل الميلاد، مشيراً إلى اسم منطقة إدارية حول القدس، سكنتها حامية جلبها الفرس الأخمينيون.

بداية القرن الثاني عشر ونهاية القرن السادس قبل الميلاد من أحداث كنعان لا يمت للحقيقة وللتاريخ بأية صلة ، اللهم إلا القليل القليل مما جاء فيها عن آخر أيام تلك المملكة الأسطورية .

وباعتبار أن هذه المصادر الباحثة عن تلك المملكة وشعبها طال أمد ثقة الناس بها ، وأصبحت محتوياتها نسبة لأكثر الناس أموراً تاريخية مسلماً بصحتها ، أرى أن أكثر قراء كتابي ستنتابهم خيبة الأمل بمجرد اطلاعهم على تكذيبي لتلك المصادر ، ولربما رماني بعضهم بالتطرف والمغالاة أو التحامل والتحيز ، وأنا بدوري أستميح هؤلاء عذراً ، وأسألهم ألا يفقدوا صبرهم ويتكرموا بالمثابرة على مطالعة الفصول الآتية التي سوف أعمل فيها لإيضاح ما التبس عليهم من خلال المعلومات التي سأستخرجها من ثنايا التاريخ ، ومن طيات المكتشفات العلمية الحديثة ، ومن خلال التناقضات الكائنة في المصادر اليهودية والتي سأعتمدها لأدين كتابها من أقلامهم المسخرة وأقوالهم المزيفة .

ولكي أصل مع القارئ إلى كبد الحقيقة لابد لي فيما يلي أن أتناول علم التاريخ ، وما كان عليه في البداية ومجالات تزويره في مراحله المتعددة وانتقاله من مجرد كونه في الأصل عبارة عن نزعة عابرة من نزعات الإنسان إلى علم ذي قواعد وأصول ومفاهيم خاصة ، ومناهج تحقيق للنفي أو التأكيد ، تعتمد كلها على المكتشفات الأثرية الحديثة وعلى عمليات التصفية عن طريق المقارنة وتقاطع أحداثه الغابرة ، والتحاليل العلمية والأدبية لتحديد أزمنة الأحداث وعهود مؤرخيها من خلال أساليبهم في التفكير والكتابة .

المصادر التاريخية وتطورها

كان الإنسان وما زال تواقاً للخلود ، ولقد سعى منذ بدء الخليقة لإيجاد ما يوصله إلى تحقيق هذه الغاية السرابية ، ولكنه انتهى بأن اقتنع باستحالتها ، فاستعاض عنها بأساليب التخليد لإشباع غريزته المتقدة أبداً بحب الخلود ، ولقد رام من ورائها الإبقاء على ذكراه أطول زمن ممكن عن طريق تسخير مختلف الوسائل التي امتلكها عبر الأزمان والعصور ، ولم يكل يوماً قط عن السعي لتحقيق هذه الأمنية الغالية التي نشأت معه منذ وجوده على وجه البسيطة باعتبارها جزءاً منه ، ودافعاً من دوافع الأنانية العديدة التي خلقت معه والتي لا يمكن أن تزول عنه إلا بزواله من الوجود .

ومع اندفاع الإنسان خلف تجسيد غايته هذه واضطراد تطوره الفكري والعلمي ، تطورت أساليب التخليد التي لم تكن في البداية إلا عبارة عن أكوام من القطع الحجرية ، أو نصب صخرية غير مصقولة ، كان يقيمها الإنسان في مكان منظور ليشاهدها أترابه عبر الأجيال

ويتناقلون سيرة المناسبة التي أدت إلى إقامتها مقرونة باسم صاحبها وبذلك كانت المناسبة وبطلها يخلدان ويتناقل الناس قصتهما طالما كانت النصب قائمة.

ولما تمكن الإنسان من أسرار البناء والنحت والنقش، أقلع عن أساليبه البدائية التي لم تكن لتفي بالغرض على الوجه المطلوب، فاستعاض عنها بإقامة الأهرامات والهياكل والأنصاب المصقولة والمنقوشة بغية تخليد اسمه وقصته التي رام أن يتحدث الناس في الأجيال المتعاقبة عنهما، وعندما ازداد تطوراً استنبط الهجائيات، واعتمد الكتابة في التخليد إذ أصبح بفضلها قادراً على تخليد قصصه ومناسباته بكل تفاصيلها، وبالشكل الذي يرغبه، ومن هنا ظهرت للوجود الأنصاب واللوحات المخطوطة، أو النقوش والصور المزودة بالتفاصيل الباحثة عن مناسبة إقامة الرمز وسيرة من أقامه، ولما عرف المداد اعتمده الإنسان لتدوين الأحداث والقصص على ما وقع في يده من مواد، مثل الخشب والجلود باعتبارها أكثر مواءمة لرغباته، ومع تقدم الإنسان ومجتمعاته ودخوله في طور التنظيم والإدارة، تعاظم تعلقه بالتأريخ وتدوين أحداث مجتمعاته وإنجازاتها وإنجازات قادتها بصورة مفصلة، لتبقى هذه المدونات بمثابة شهود الماضي ورموز التخليد لتلك المجتمعات وقادتها، وهكذا تبلورت نزعة الإنسان في التخليد وأصبحت علماً، يعرف بعلم التاريخ.

ولقد كان هيرودت اليوناني الملقب بأبي التاريخ والذي عاش من 484 إلى 420 ق. م أول من اعتمد هذه الطريقة الأكثر تطوراً في تدوين الأحداث، وهو أول من كتب عن مصر، وميديا، وفارس، واليونان، ومنذ ذلك العهد عرف الناس شيئاً اسمه التاريخ يعودون إليه كلما أرادوا معرفة الماضي السحيق، والذي أصبح اليوم علماً قائماً بذاته، يعتمد في أبحاثه على التحقيق والتحري والإثبات، وله مكتشفاته العلمية التي أوصلته إلى نبذ ما علق به من شوائب وأضاليل تكاثفت على صفحاته عبر الأزمان، وله أيضاً نقاده ومؤرخوه يقفون سداً منيعاً دون تزويره أو تشويهه، حتى أصبح في عصرنا الحاضر سجل وقائع الأحداث بحق وحقيقة، على الرغم من أن بداءته اعتمدت على القص والرواية تتناقلها الأجيال منذ بدء الخليقة جيلاً بعد جيل.

والجدير بالذكر هو أن تحقيق هذا التقدم الباهر في ميدان التخليد أو صنع التاريخ، لم يكن من الأمور السهلة التي تمكن الإنسان منها منذ أمد بعيد، إذ أن العقبات التي كانت تحول دون التأريخ والتدوين حتى بعد ظهور الكتابة إلى الوجود كانت أكثر من أن تحصى ولهذا ظلت صناعة التاريخ عزيزة لدرجة الاستحالة على المثقفين من العامة حتى العصور الحديثة، وكانت معرفة الكتابة والقراءة من أولى تلك العقبات إذ أنها كانت من أندر الأشياء وجوداً قبل بضعة قرون من

عصرنا الحاضر، كما أن وسائل الكتابة من ورق ومداد وما شابه كانت هي أيضاً مفقودة وباهظة التكاليف، ولم تتوفر إلا في العصور الحديثة، وصناعة التأليف والتدوين بحد ذاتها لم تكن من الصناعات التي توفر العيش لمن يمارسها لندرة القراء ممن يجيدون القراءة، أضف إلى ذلك فقدان حرية التفكير والقول والكتابة في ظل الأحكام الفردية التي كانت سائدة في كل أصقاع العالم، ناهيك عن المعتقدات والشرائع التي كانت تحرم على المرء المستضعف إبداء الرأي أو إشهار ما يتعلق بمسلك الحكام وأصحاب النفوذ، ولذا انحصرت المعرفة طويلاً بممثلي المعتقدات والكهنة أو أصحاب الحول والقوة والمقربين منهم، ومن هنا انحصرت صناعة التدوين والتاريخ حتى بعد استنباط الكتابة بالحكام وذوي النفوذ القادرين على البذل والعطاء لمن يجيدون الكتابة، والإنفاق على مستلزمات التدوين الباهظة التكاليف، فعليه كان أمر التاريخ منوطاً فقط بالفئة المختارة التي كانت تنظر إلى التاريخ من زاوية مصالحها وأغراضها وأهدافها، وعلى ضوء تلك المفاهيم كانت تأمر بالتأريخ والتدوين، ما عدا ذلك كان محرماً على أتباعها معرفته أو الاطلاع عليه، ولقد سادت هذه الأساليب عصوراً عديدة، ولم تخف تعنتها إلا قبل الميلاد قليلاً، وهذا الأسلوب في تأريخ أحداث ما قبل الميلاد عرض التاريخ إلى الكثير من تشويه الحقائق، وتعدد النصوص التاريخية ذات الآراء المتضاربة في رواية الحدث الواحد، مما أدى بنقاد التاريخ إلى رفض كل تدوين وتأريخ يصدر عمن لم يعايش الأحداث التي يبحث عنها، وذلك لفقدان ثقتهم به وبما يتحدث عنه، كما أنهم أخضعوا كافة المصادر التاريخية العائدة لعصور ما قبل الميلاد إلى التدقيق والتحري ومقارنة محتوياتها مع المكتشفات العلمية الحديثة، وما توصل إليه العلم من آراء ونظريات حول الأحداث التاريخية السحيقة في القدم، وبفضل هذه الجهود الجبارة انكشف الستار عن الكثير من الأضاليل والترهات التي علقت بالتاريخ على أيدي غلاة المتطرفين في أغراضهم من كتاب ومؤلفي المصادر القديمة الذين لم يتورعوا في سبيل تحقيق أهدافهم المختلفة عن التزوير والدجل فحسب بل تعدوهما إلى ارتكاب سرقات تاريخية لمزاعمهم التي تدعي بملكيتهم لبعض المنجزات الحضارية التي تمت على أيدي سواهم، مثل زعم اليهود أن هجائيتهم الحالية ولغتهم المتداولة اليوم ملك خالص لهم ولأقدم أسلافهم، مع العلم أن نقاد وعلماء التاريخ كشفوا الستار عن هذا الزعم وأمثاله التي غصت بها تلك المصادر، ونبذوا فكرة الاعتراف بها جملة وتفصيلاً، وذلك على ضوء تحرياتهم العلمية، وما أنارته لهم المكتشفات الأثرية من خفايا التاريخ.

ومما أوضحناه يتبين لنا أن علم التاريخ الذي بني على فكرة تخليد ذكرى عظائم الأحداث ومفاخر الإنسان لتكون بمثابة عبر وعظات لبني الإنسان ليقتدوا بالصالح ويتجنبوا الطالح مما ورد في طياته من أحداث وأمور غابرة، لم ينج بدوره من السطو والتزوير على أيدي غلاة أشرار بني البشر، فما بالك لو عرفت أن تلك الأيدي الشريرة امتدت في الماضي السحيق إلى أرض كنعان التي نحن بصدد البحث عنها وشوهت واقعها وتاريخها حتى أزالتها تقريباً من عالم التاريخ وأحلت أبناء جلدتها الأغراب مكان أهلها وأصحابها الذين كانوا في يوم ما من خيرة شعوب الشرق الأوسط، وبغية إيضاح مُلابسات هذا الاعتداء التاريخي لابد لي أن أذكر فيما يلي محتويات كافة المصادر التاريخية الباحثة عن بلاد كنعان للمدة الواقعة ما بين عام 1200 و600 قبل الميلاد لأبين للقارئ العربي مدى متانة الثقة التي أوليناها طويلاً لبعض هذه المصادر التي غررت بنا وبالعالم أجمع منذ عشرات القرون.

مصادر التاريخ اليهودية (الأسفار)

يعدّ العهد القديم المصدر التاريخي الوحيد الذي بحث عن الأحداث التي وقعت في العالم منذ الخليقة حتى فجر التاريخ، أي عن أحداث كافة العصور التي سبقت عصر هيرودوت سيد التاريخ، ولقد اعتمده اليهود باعتباره مرجعهم الديني والتاريخي، وهو مكون من أسفار عديدة يبحث بعضها عن العصور السابقة لعهد موسى الذي ينسب نزولها عليه، أما أسفاره الأخرى فتنسب إلى باقة ضخمة من أنبياء وقضاة وملوك إسرائيل، تبحث جميعها عن أحداث وأمور دينية ودنيوية سلف وأن بحثنا عنها مطولاً في مؤلفنا السابق (المفسدون في الأرض) فلا نرى لإعادة البحث عنها كبير فائدة، ولذا سنعمد فيما يلي إلى حصر الموضوع في القسم الباحث منها عن أحداث بلاد كنعان في القرن الثاني عشر قبل الميلاد وما يليه من قرون.

قصة احتلال كنعان كما يرويها سفر يشوع

يذكر سفر الخروج أن موسى وقومه ثابروا على التجوال في صحراء سيناء مدة أربعين عاماً بعد خروجهم من مصر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ومن ثم زحفوا على شرق الأردن حيث تصدى لهم الآموريون بقيادة ملكهم سيحون[1] فدحروهم وقتلوا أكثرهم وورثوا أرضهم التي كانت تقع ما بين نهري الموجب والزرقاء، وبعد ذلك تابعوا زحفهم

(1) ألفت انتباه القارئ إلى أن أرض الآموريين كانت تقع بين غزة ويافا، وعلى طول الساحل وليس في شرق الأردن.

نحو الشمال حيث اصطدموا بالملك العوج الذي كان يملك تخوم شرق الأردن الواقعة شمال نهر الزرقاء حتى جبل الشيخ، فهزموه واحتلوا مملكته التي كان فيها ستون مدينة، ومن ثم تمركزوا في صحراء مآب تجاه أريحا[1] فخشي الموآبيون بأسهم فتحالفوا مع المدينيين للتغرير باليهود (بناءً على مشورة نبي آرامي كاذب) فصاهروهم ومن ثم أخرجوا الكثير منهم عن معتقداتهم، مما جعل موسى يأمر بقتل كل من صاهر الموآبيين والمدينيين وعبد بعل الفجور أحد آلهة الموآبيين، وعلى الأثر قتل القضاة أربعة وعشرين ألفاً من اليهود والخوارج، ومن ثم زحف اليهود على مدين وقتلوا جميع رجالها وسبوا نساءها، ثم كروا عائدين إلى صحراء مآب، حيث كان ينتظرهم موسى الذي اغتاظ من إبقائهم على نساء وأطفال مدين فأمرهم بقتل جميع النساء والذكور من الأطفال، والإبقاء على الصبايا الباكرات ليتمتعوا بهن، فنفذ أمره مع ما فيه من وحشية بكل دقة، ولقد بلغ عدد فتيات المتعة المدينيات اللواتي استباحهن اليهود اثنين وثلاثين ألف فتاة.

بعد ذلك عمد موسى إلى إسكان قومه في المناطق التي احتلها فاقتطع مملكة الآموريين لبني جاد وبني رآبين ونصف سبط منسا، وبعدها أمر ما تبقى من سبط منسا باحتلال السلط ففعلوا، فأقطعهم إياها[2]، ثم قام بإحصاء بني قومه مجدداً فوجد أن تعدادهم ما زال مثلما كان يوم الخروج من مصر أي ستمائة ألف ومئة وسبعين رجلاً[3] فأوكل أمر قيادة بني قومه إلى ملازمة يشوع بعد أن زوده وإياهم بالنصائح والوصايا، وحرضهم على متابعة الاستيلاء على بلاد كنعان تنفيذاً لوعد يهوه له ولأسلافه، وعلى أثر انتهائه من هذه الأمور صعد إلى تل نبو حيث أسلم روحه بعد أن عاش مئة وعشرين عاماً، فبكاه بنو إسرائيل ثلاثين يوماً، ومن ثم تفرغوا للانضواء تحت زعامة يشوع بن بنون.

---

(1) مع العلم أن صحراء مآب تقع جنوب بحر الميت وهي تجاور المنطقة التي كانت فيها مدينة مدين التي تنتسب إليها.

(2) سلف وأن ذكر السفر أن موسى وقومه احتلوا مملكة عوج التي كانت تمتد من شمال نهر الزرقاء إلى جبل الشيخ، والسلط تقع ضمن تلك المملكة وفي شمال نهر الزرقاء بما يقارب من ثلاثين كيلومتراً، وبذلك تكون هذه المدينة احتلت مرتين.

(3) لا يذكر السفر سوى عدد المقاتلين، أما عدد النساء والأطفال فيتجاهله تماماً وكأني به يروم الزعم بأن أبناء إسرائيل كانوا يتكونون فقط من الرجال.

يشوع بن نون خليفة موسى

يستهل سفر يشوع القصة بذكر إيفاده الجواسيس إلى أرض كنعان لاستطلاع أحوالها، ومن ثم المبادرة إلى تنفيذ أمر يهوه القاضي باحتلال أتباعه لأرض كنعان وما يجاورها من تخوم حتى الفرات.

وبعد حصوله على المعلومات الضرورية أمر يشوع أتباعه (جميع بني إسرائيل) البالغ عددهم ستمائة ألف مقاتل، بعبور الأردن ومحاصرة مدينة أريحا، فتسقط جدران المدينة تحت وطأة أبواق الكهنة بعد سبعة أيام من حصارها، فدخلها جيش يشوع وقتل كافة سكانها، إلا البغي راحاب التي سبق لها مساعدة جواسيس يشوع الذين أموا أريحا للاستطلاع على أمورها، ومن ثم أوفد يشوع جواسيسه مجدداً إلى مدينة عي التي كانت تقع على بعد اثني عشر كيلومتراً إلى الشمال الغربي من أريحا[1] وحين يعود جواسيسه يأمر ثلاثة آلاف من رجاله بالزحف عليها، ولكن سكان العي يتغلبون على رجال يشوع ويقتلون منهم ستة وثلاثين رجلاً ويلوذ ما تبقى منهم بالفرار، فثارت ثائرة يشوع فأوفد ثلاثين ألف مقاتل إلى تلك القرية ليهاجموها من الشمال بينما يهاجمها هو وما تبقى من جيشه من الجنوب، فتسقط العي بدورها فيدمرها جيش يشوع بعد أن يفنى أهلها البالغ عددهم اثنا عشر ألفاً عن بكرة أبيهم وعلى الأثر يسيطر الرعب على سكان المدائن المجاورة، فيبادر أهل جبعون التي كانت تقع على مسافة أربع وعشرين كيلومتراً غرب أريحا إلى الاستسلام ليشوع ويضعون أنفسهم تحت تصرفه كخدم وعبيد، فيقبل البطل استعبادهم ويستخدمهم كمحتطبين وسقاة لبني قومه.

يثابر يشوع على قص فتوحاته، ويقول أن ادوناي صادق (ملك أورشليم) خشي بأسه فعمد إلى التحالف مع هوهام ملك الخليل وأفرام ملك يرموت ويافع ملك لاكيش اللتين كانتا في شمال غربي مدينة الخليل، وعلى مبعدة خمس وثلاثين كيلومتراً منها.

ومن ثم اجتمعت قوى المتحالفين في جبعون التي كانت قد سالمت يشوع، فاحتدم القتال بينها وبين جيش يشوع، وأسفر عن فناء الكنعانيين برمتهم ومقتل ملوكهم والتمثيل بجثثهم،

---

(1) انظر المخطط، وبرهنت الحفريات الأثرية التي جرت في أريحا عدم صحة هذه الرواية بشكل مطلق.

وفي أعقاب هذه المجزرة باغت يشوع سكان مدينة المقيدة القريبة من لاكش فدمرها بعد أن أفنى جميع من كان فيها، ومنها زحف على لية الواقعة بين لاكش ولينة، وأزالها ومن فيها من الوجود، وأعقبها باحتلال لاكش وجازر الواقعة على ست كيلومترات في غربي عمواس، وعجلون المعروفة حالياً بالاسم نفسه، والخليل والمدن المجاورة لها وأعمل السيف في رقاب كافة سكان تلك المدن وملوكها ولم يبق منهم على أحد، ومن ثم عاد إلى دبيير التي كانت تقع على ثماني كيلومترات في جنوب الخليل واحتلها مع المدن المجاورة لها وأزالها جميعها مع سكانها من الوجود، وبعدها زحف على جبل اليهودية وصنع بمدنه وسكانه ما صنع في البلاد الأخرى، ولكنه عجز عن احتلال أورشليم فتركها وشأنها.

ومن ثم اصطدم يشوع بملوك الشمال تحت زعامة يابين ملك (حاصور) (كانت تقع على بحيرة الحولة وبالقرب من قادس الواقعة في جبل حصيرة من الجليل الأعلى) وناصره كل من ملك مادون (قرية صغيرة غرب بحيرة طبريا) وملك شمرون (قرية صغيرة تبعد خمسة أميال عن الناصرة) وملك أكشاف (قرية صغيرة تبعد ستة أميال عن عكا) وملوك قرى أخرى، فدارت المعركة عند بحيرة الحولة وأسفرت عن انتصار يشوع وفناء كل من ناصر ويابين وتدمير كافة مدنهم، وهكذا بسط يشوع حكمه على المنطقة الكنعانية الواقعة ما بين بعل جاد في الشمال (أي بانياس) وجبل الأملس في الجنوب (جبل الأملس الكائن في بلاد الآدوميين أي جنوب بحر الميت).

ومن ثم كر يشوع عائداً إلى الجنوب وحارب بني عناق وقرضهم في كل من حبرون (أي الخليل) وديبر وأسدود ولم يبق منهم أحد إلاّ في غزة وجت[1] وهكذا سيطر يشوع على كافة مناطق فلسطين إلا بعض الحصون الصغيرة المتفرقة في الجبال، حيث سجن الناجون أنفسهم خشية الفناء، وبذلك تم الاستيلاء على فلسطين على حد زعم المصادر اليهودية ليشوع الذي كان يتلقى طيلة حروبه التي دامت سبعة أعوام توجيهاته وتعليماته من يهوه (على حد زعم سفر يشوع) الذي كان يمده بمعجزات عديدة كلما اعترضت سبيله معضلة، إذ يقول السفر أن يهوه أوقف الشمس إبان معارك يشوع مع ملوك الشمال إكراماً له ليمكنه من أعدائه على ضوئها، كما أوقف جريان ماء الأردن ليمكنه وجيشه من العبور إلى أريحا، هذا عدا عشرات المعجزات الأخرى التي ساهمت في انتصاراته ولا نرى فائدة من سردها.

---

(1) انظر المخطط.

ولما استتب الأمر ليشوع تلقى من يهوه أمراً بتقسيم أرض فلسطين على بني إسرائيل، فأفتى لبني جاد وبني رؤوبين ونصف سبط منسى أن يعودوا إلى شرق الأردن حيث أقطعهم موسى مقاطعات واسعة لسكناهم، ثم أمر أعوانه بتقسيم أرض فلسطين إلى مقاطعات معادلة لعدد أسباط قومه، فلما تم له ما أراد وزع تلك المقاطعات بين الأسباط بموجب قرعة[1].

وبعدها تمركز في قرية ثمنة التي كانت تقع بالقرب من مدينة نابلس (أي المنطقة التي خصصت لبني سبط أفرائيم) وبدأ بتنظيم أمور بني إسرائيل الدينية والدنيوية حتى توفاه الله بعد أن بلغ من العمر مئة وعشر سنين دون أن يخلفه أحد في قيادة إسرائيل.

قضاة إسرائيل

يستهل هذا السفر قصصه قائلاً: إن اليهود استشاروا يهوه في أمر خليفة يشوع، فأوعز إليهم أن تسند القيادة لسبط يهودا ليكمل اجتياح ما تبقى من الثغور في فلسطين، وعملاً بإيعاز الرب اتفق سبطا يهودا وشمعون على مقاتلة أهل بزقة التي كانت تقع جنوب اللد، فأغار السبطان على بزقة التي كانت يملكها أدوناي بازق فانتصرا عليه وقتلاه بعد أن قتلا عشرة آلاف من رجاله وشتتا شملهم[2].

ومن ثم أغار بنو يهوذا على أورشليم وافتتحوها وتابعوا زحفهم نحو حبرون (الخليل) فاحتلوها وأفنوا جميع سكانها[3] وبعدها كروا على تل الصافي الواقعة بالقرب من بيت جبرين وبعدها على غزة وتخومها وأشقلون وتخومها وعفرون وتخومها وسائر مدن الجبل فاحتلوها بأكملها.

أما مدن الساحل فلم يتمكنوا من احتلالها لأن المركبات الحديدية التي كان يمتلكها مقاتلو الساحل حالت دون ذلك[4].

---

(1) انظر المخطط.

(2) والجدير بالذكر أن سفر موسى وسفر يشوع ذكرا أن كلاً من صاحبي السفر احتل هذه المنطقة التي كانت عائدة للآموريين وأفنى كل من كان فيها.

(3) لقد سبق وقال سفر يشوع أن صاحبه احتل الخليل وتخومها وأزالها وسكانها من الوجود وعلى هذا تكون الخليل قد احتلت مرتين في غضون ثمانية أعوام وأصاب أهلها الفناء التام في تلك الغزوتين؟!.

(4) مع العلم أن عسقلون وغزة وتخومهما تقع على الساحل تماماً ولا علاقة لهما وتخومهما بمدن الجبل التي يعني السفر بها المدن الكائنة في منطقتي القدس والخليل.

ولما توقف سبط يهودا عن القتال، قام سبط أفرائيم لمتابعة الاجتياح، فهاجم مدينة بين أين[1]. واحتلها وقتل جميع سكانها، ولكن الأسباط الأخرى تقاعست عن القيام بأي عمل وثابرت على العيش مع الكنعانيين بقدر ما سمحت الظروف لها بذلك[2].

ومن بعدها يفاجئنا السفر بأن يقول أن يهوه غضب على بني إسرائيل لتنكرهم له باتخاذهم بعل كنعان بديلاً عنه ولمصاهرتهم الكنعانيين فأسلمهم إلى كوشان رشتائيم[3] ليعبدوه مدة ثمانية أعوام، كانوا في غضونها يدفعون له الجزية السنوية، ومن ثم يعترف السفر أن سلطة كوشان في تلك الحقبة كانت عامة وشاملة على كل فلسطين كما يعترف بأن اليهود لم يتمكنوا من التخلص من عبوديته إلا على يد القاضي عتنئيل الذي اختاره بنو إسرائيل قاضياً لهم في ثورتهم ضد كوشان، ولقد انتصر بنو إسرائيل في ثورتهم عليه واستراحوا لمدة أربعين سنة.

ولما مات عتنئيل أسخط اليهود يهوه مجدداً لعودتهم لعبادة آلهة كنعان وارتكاب الشرور فسلط عليهم عجلون ملك المؤآبيين فأخضع يهود الضفتين لسلطانه لمدة ثمانية عشر عاماً واتخذ أريحا عاصمة لملكه الجديد حتى يتمكن من إدارة كافة أنحاء البلاد بصورة فعالة، ولم يتخلص اليهود منه إلا بعد أن اغتاله القاضي أهود بن جبرا الأعسر من سبط بنيامين، وهكذا استراح اليهود مدة ثمانية أعوام من النفوذ الأجنبي[4].

ويتابع سفر القضاة سرد رواياته عن بني إسرائيل، فيذكر أن الكنعانيين الذين أذلهم بنو إسرائيل قبل نصف قرن عاودتهم القوة، فتحالف ملوكهم لمقاتلة بني إسرائيل تحت زعامة يابين ملك حاصور[5] فاحتلوا أرض اليهود وأرغموهم على الخضوع لسلطانهم مدة عشرين عاماً ولم ينقذوا من هذه العبودية إلاّ على يدي القاضية دبورة (وكانت في الأصل حكيمة تقضي بين اليهود في خلافاتهم ونزاعاتهم في منطقة أفرائيم) التي تحالف مع بارق بن أينيوعم من قادس على الثورة ضد يابين، فتمكنا من استقطاب اليهود حولهما، ومن ثم ثارا على الكنعانيين وانتصرا

---

(1) سلف وأن ذكر سفر يشوع احتلال صاحبه للمنطقة الواقعة فيها بيت أين وإفنائه لجميع سكانها، وإذ بسبط أفرائيم أي سبط يشوع بالذات يعود لاحتلالها للمرة الثانية.

(2) وتقاعس الأسباط الأخرى هذا يعترف به سفر القضاة بكل صراحة.

(3) يقول المكتشف كراتز Gratz إن كوشان هذا هو أحد ملوك الآدوميين الذي زعم سفر يشوع بأن صاحبه أفناهم عن بكرة أبيهم.

(4) سلف وأن ذكر سفر موسى بأن صاحبه أخضع المآبين واحتل بلادهم ولم يعد بعده لهم أي كيان.

(5) سلف لسفر يشوع أن ذكر بأن صاحبه قتل ملك حاصور واحتل مملكته برمتها بعد أن أفنى سكانها، وأقطعها لسبط آشير.

عليهم بعد قتال مرير تخللته المعجزات اليهودية المعتادة، وهكذا تخلص أهل الشمال من اليهود ومن نير عبودية الكنعانيين لمدة أربعين عاماً.

ويؤكد لنا السفر أن الأسباط الذين قاتلوا يابين وتمكنوا من التخلص من استعباده لهم هم أسباط الشمال أي آشير وزابلون ونفتالي، أما أسباط الجنوب فظلوا خاضعين لاستعباد المدينيين والعمالقة والعرب الرحل الذين كانوا يأتون كل عام بجموعهم الجرارة ينكلون بسكان الجنوب إلى أن شتتوهم في الجبال والمغاور، ولقد دامت هذه الحال لسكان أسباط الجنوب لمدة سبعة أعوام كادوا أن يهلكوا في غضونها لولا أن قيض لهم يهوه جدعون بن يواش ابيعرى ودفعه لمناصرة بني قومه بعد أن شجعه بأن أظهر له عدة معجزات أقنعته بمقدرته على مقاتلة المدينيين والعرب، فجمع أشتات بني قومه وأغار على أعدائه فجأة، وانتصر عليهم وقتل اثنين من ملوك العرب هما ذيب وعوريب، ومن ثم داهم جموع أهل مدين وأفناهم عن بكرة أبيهم، ومثَّل بجثث ملوكهم، ثم عاد إلى عفرة التي كانت واقعة بالقرب من مدينة نابلس، حيث اقتسم ورجاله ما سلبوه في غزوتهم هذه وبفضل تلك الحملة استراح يهود الجنوب مدة أربعين عاماً[1].

ولما مات جدعون الذي خلف سبعين ولداً قام الخلاف بين أبنائه على زعامة يهودا الجنوب فسارع أحدهم المدعو بيملك واستنجد بخؤولته سكان شكيم ليمدوه بالمال والرجال فاستجاب أهل شكيم لرغبته وأمدوه بالرجال وزودوه بالمال الذي سلبوه من معبد بعل بريت الذي كانوا يعبدون آنذاك دون يهوه، فلما حصل بيملك على مبتغاه عاد إلى عفره وداهم أهلها وقتل جميع إخوته إلا أصغرهم يواتام الذي تمكن من الهرب، ومن ثم نصب نفسه قاضياً على أهل بلده، ولكن بعد مدة ألب يواتام عليه سكان شكيم، فطردوه من عفرة فلم يستكن بيملك لهذا المصير فعاود مقاتلة أهل شكيم وتغلب عليهم وقتلهم جميعاً ودمر بلدتهم وزرع أرضها ملحاً كي لا تنبت شيئاً بعد، ثم تعقب فلول مقاتليهم الذي تحصنوا في برج حصين، فأحرق المكان بمن فيه، وفي هذه الموقعة أصابته إحدى النساء المدافعات عن الحصن بحجر شج رأسه، فلم يعد قادراً على القتال فأقدم على الانتحار يائساً من النصر وخشية من انتقام بني قومه منه[2].

---

(1) ذكرت هذه القصة في الفصل التاسع من سفر القضاة، ويلاحظ أن بيملك لم يقاتل الأغراب بل قاتل بني قومه فقط وأفنى العديد منهم.

(2) إن هذه القصة وردت في سفر القضاة ضمن الفصول التالية: (6 ـ 7 ـ 8) مع العلم أن سفر موسى ذكر أن صاحبه أغار على بلاد المدينيين وأفناهم عن بكرة أبيهم ولم يبق منهم أحد على قيد الحياة؟!.

ومن بعده حكم القاضي تولع يهود نابلس وأعقبه في هذا القاضي يائير بن جلعاد، فلما مات هذا الأخير لم يخلفه أحد على زعامة يهود منطقة شكيم الذي استحكم الفساد في صفوفهم فجنحوا إلى العودة للحياة القروية دون رادع أو وازع[1].

هذا ما كان عليه أمر يهود عفرة وشكيم، أما يهود شرق الأردن (أي أحفاد جاد وراؤبين ومنسى) فكانت أحوالهم أسوأ بكثير باعتراف سفر القضاء القائل بأنهم أذلوا من قبل العمونيين مدة ثمانية عشر عاماً، كما يذكر أن العمونيين أغاروا على بني يهوذا وبنيامين وأفرائيم الذين جمعتهم المصيبة فتحالفوا فيما بينهم تحت زعامة يفتاح (يقول السفر أن يفتاح كان من سكان السلط ولد من أم بغي معروفة، فلما بلغ مبلغ الرجال فر إلى الجبال إخفاءً لعاره، حيث تعاطى النهب والسلب) بن جلعاد الذين وعدوه بزعامتهم في حال انتصاره على العمونيين فقبل يفتاح بمقترحاتهم، وبادر إلى قتال العمونيين، فانتصر عليهم، وعلى الأثر أمره يهوه بأن يزيل مذابح بعول بني قومه، وأن يقيم بديلاً عنها مذبحاً له فنفذ يفتاح ما أمر به، ولكن عدم إشراكه بني أفرائيم في غزوته التي انتصر فيها على العمونيين أوغر صدور بني أفرائيم عليه، فاحتدم الصراع بينه وأبناء هذا السبط، فقتل منهم أربعين ألفاً، وشتتهم في مختلف أصقاع البلاد، وبذلك انتهت قصته.

ويثابر السفر على قص حوادث اليهود، فيقول: إن أبصان أحد سكان بيت لحم ورث القضاء عن يفتاح وأورثه من بعده إلى أبلون الزيلوني وهذا الأخير أورثه من بعده إلى عبدون بن هليل من سكان نابلس[2].

ويبدو أن هؤلاء القضاة كانوا مجرد زعماء محليين ولذا لم يذكر السفر عن نشاطهم السياسي أو الحربي أي شيء، ومن بعدهم ينتقل بنا السفر إلى قصة شمشون، فيذكر أن هذا القاضي لم يكن مثل سواه من القضاة الذين حاربوا أعداء قومهم بالجيوش الجرارة، بل اكتفى أن يجابه الفلسطينيين بمفرده معتمداً على قوته البدنية التي كانت على حد زعم السفر خارقة للعادة، وتكمن في شعر رأسه الذي كان يزيده قوة كلما ازداد طولاً، وتبدأ قصة شمشون بأنه ولد لامرأة عاقر من قبيلة دان، ولما شب علق بغرام فتاة من الفلسطينيين وأراد الزواج منها فمنعه ولداه

---

(1) يفهم مما ورد في هذه الفقرة أن أهل شكيم وما جاورها كانوا قد انصهروا في البوتقة الكنعانية تماماً بدليل أنهم كانوا يعبدون أحد بعول كنعان (المسمى بريت).

(2) يبدو أن السفر يبحث هنا عن قضاة يهود المنطقة الشمالية فقط كما أن من سياق الحديث عن هؤلاء الثلاثة يتضح أنهم لم يقوموا بأي عمل حربي أو اجتماعي، وعلى ما يظهر أنهم كانوا مجرد رؤساء عشائر لأفخاذهم فحسب.

من الاقتران بها، ولكنه تغلب أخيراً عليهما واقترن بها، وأثناء عرسه تراهن مع بعض رفاقه على حل لغز ما، فأخفق في الرهان مما أوجب عليه تأدية ما تراهن عليه، وكان الرهان يتكون من ثلاثين حلة ومثلها من القمصان، ولما كان لا يملك ما يفي به هذا الوعد بادر إلى السفر لعسقلان، حيث قتل ثلاثين من رجالها، وجردهم من ثيابهم ليقدمها لمن انتصروا عليه في حل اللغز.

وبعد ذلك أقدم على اصطياد ثلاثمائة ثعلب، وزود أذيالها بمشاعل ثم أطلقها في مزارع الفلسطينيين فأتت النار على مزروعاتهم وعلى الأثر انتقم منه أصحاب الزرع بقتل زوجته وحموه.

ويثابر السفر على رواية قصص مغامرات فردية ينسب بطولتها إلى شمشون، وينيها بمقتله على الصورة المعروفة، التي دفعته إلى النطق بالقول الذي اشتهر به، حيث يقول علي وعلى أعدائك يا رب[1].

ويختم مؤلف سفر القضاة قصصه بذكر جنوح سبط أفرائيم وبني دان إلى عبادة صنم من الذهب بدلاً من يهوه، وقيام نزاع بين الأسباط اليهودية وسبط بنيامين بسبب قضية أخلاقية، أسفر عن مقتل اثني عشر ألف رجل من الأسباط المناوئين لبنيامين، وخمسة وعشرين ألف رجل من سبط بنيامين، حتى لم يبق منهم إلا ستمائة رجل فروا من قراهم وتشتتوا في الجبال والوهاد.

ويلي سفر القضاة في قصص أحداث بلاد كنعان سفر الملوك الأول الذي يستهل مواضيعه بذكر مولد صموئيل بن القانة الذي نذر منذ ولادته من قبل والديه لخدمة عالي الحبر كاهن بيت الرب في شيلو (شيلو قرية صغيرة كانت تقع على بعد عشرة أميال من نابلس)، والذي ترعرع في كنف الكاهن المذكور إلى أن اختاره الرب خليفة لسيده بعد أن كلمه مراراً وأوحى إليه بما يجب أن يقوم به، وهكذا أصبح قاضياً دينياً لأهل بلده رامتائيم (يقال أن المكان المسمى حالياً بالنبي صموئيل هو نفسه مكان رامتائيم القديمة).

والمصادر اليهودية نفسها تنسب كتابة سفري الملوك الأول والثاني إليه، بينما بعض المصادر تعزو كتابة أسفار الملوك الأربعة إلى أصحابها، كما زعم بعض اليهود أن صموئيل لم يكتب من تلك الأسفار إلا أربعة وعشرين فصلاً فقط، وكتب الباقي النبيان جاد وناتان، وعزا

---

(1) من فحوى هذه القصة تبين أن شمشون لم يكن سوى مغامر عادي فيما إذا صحت الروايات عنه على الرغم من تسميته من قبل السفر بالقاضي. لكن ينبغي التذكر أنه لا قيمة تاريخية لحكايات العهد القديم لأنها محض خيال سقيم.

آخرون كتابة سفري الملوك الأخيرين إلى داود، والكل يعتمد في تأكيد نظريته على اختلاف أساليب الكتابة الكائنة في تلك الأسفار.

ويبدأ السفر بالحديث عن منجزات صموئيل بن القانة بالقول: إن بني إسرائيل ضاقوا ذرعاً بالسيطرة الفلسطينية، فأتوا إلى صموئيل يشكون أمرهم إليه، فما كان من صموئيل إلا أن عزا سبب تسلط الأعداء عليهم إلى جنوحهم لعبادة الآلهة الغريبة وعشتارون، وأفهمهم أن يهوه لن يغفر لهم إلا إذا أزالوا تلك الآلهة من الوجود واستعاضوا عنها بعبادته، فسارع الشاكون إلى تنفيذ رغبات صموئيل، فقام بدوره يصلي ويطلب المغفرة لهم، فعلم الفلسطينيون بهذا الاجتماع، وأتوا ليحولوا دونه، فتوسل صموئيل إلى الرب بأن يردهم عن أصحابه فاستجاب الرب له وصاح بالفلسطينيين صوتاً أماد الأرض من تحتهم فولوا هاربين، فتعقبهم اليهود واستعادوا منهم المدن التي كان الفلسطينيون قد احتلوها منهم (وهي حسب قول السفر المدن الواقعة ما بين عاقر وذكرين)، ومن ثم اعترف الفلسطينيون بحقوق أصحاب صموئيل في تلك المنطقة، بعد أن ساموهم العذاب مدة أربعين عاماً، واشترطوا لذلك أن لا يقتني اليهود المجاورون لهم أسلحة حربية وأن يخضعوا في تنفيذ هذا الشرط لمراقبة معسكرهم الذي أقاموه في (جبعة) الواقعة بالقرب من تل النبي صموئيل.

وبعد هذه الموقعة بدأ صموئيل بالتجول في الجلجال والمصفاة حيث تكاثر أنصاره، فكان يقضي بينهم ويشرف على أمورهم الدينية والدنيوية.

ثم أوفد ولديه إلى بعض المناطق الآهلة باليهود ليقضيا بينهم، ولكنهما أساءا لواجباتهما مما حدا باليهود أن يشخصوا إلى الرامة ليشكوهما لأبيهما ويطالبونه باختيار ملك لهم إسوة بالشعوب الأخرى، وهنا يقول السفر: إن صموئيل بذل قصارى جهده لإقناع أصحابه بالعدول عن مطلبهم، فأبوا إلا أن يحقق رغبتهم، فعندها استشار بأمرهم الرب، فأمره الرب بتلبية رغبتهم، ومن ثم مسح[1] صموئيل شاؤول بن قيس البنياميني ملكاً على اليهود، فكان بموجب المصادر اليهودية أول ملك إسرائيلي ظهر للوجود بعد أن ظلوا قرابة ثلاثة قرون يعيشون في ظل من أسموهم بالقضاة.

---

(1) مسح: أصل الكلمة من الكتاب المقدس بمعنى اختير - انتقي.

شاؤول بن قيس

إذا سلمنا بصحة التأريخ الذي اعتمدته المصادر اليهودية لتحديد زمن الخروج[1] من مصر في عهد رمسيس الثاني الذي حكم مصر من 1301 ـ 1235 قبل الميلاد، لكان بدء عهد شاؤول نحو عام 835 قبل الميلاد أي بعد الخروج بأربعمائة عام تماماً، وبما أن المصادر اليهودية تزعم أنه حكم أربعين عاماً فيكون قد مات نحو عام 795 قبل الميلاد.

أما الأحداث التي وقعت في عهده والمنجزات التي حققها فيلخصها سفر الملوك بما يلي:

لقد مسح شاؤول الملك على إسرائيل، وسط سيل من المعجزات التي حققها صموئيل بن القانة (صانعه وسيده) بوحي من يهوه لصالح شاؤول، حتى أنه أوهم أنصاره بأن شاؤول ليس ملكاً فحسب بل أنه نبي أيضاً، فعظم أمره بين أفراد عشيرته وغدا معقد آمالهم، وكان من البديهي أن ينتبه ملوك المدن المجاورة إلى خطر تعاظم شأن شاؤول، فسارع ناحاش ملك العمونيين بقصد وضع حد لهذا الخطر الجديد بالإغارة على يهود شرق الأردن وأخضعهم لسلطانه[2] فاستنجد اليهود بشاؤول الذي هدد من يتقاعس من يهود الأسباط الأخرى عن نجدة يهود شرق الأردن بقتل أبقارهم، فخشي اليهود من تنفيذ شاؤول لتهديده فسارعوا لتلبية ندائه، فاجتمع له منهم ثلاث مئة ألف مقاتل عدا أربعين ألفاً آخرين ومن سبط يهوذا الذي كان قد اعتزل مشاركة الأسباط الأخرى في حروبهم طيلة عصر القضاة[3] فعبر شاؤول الأردن على رأس جيشه، وأغار على ناحاش وجنوده وانتصر عليهم بعد أن قتل ملكهم، وعلى أثر ذلك بايعه يهود شرق الأردن بدورهم بالملك.

وفي السنة الثانية اختار شاؤول ثلاثة آلاف رجل من اليهود جعلهم جيشه الدائم وجعل من مخماس (قرية كانت تقع على عشر كيلومترات شمال أورشليم) معسكراً لهم، وعقد

---

(1) ثبت الآن أنه لم يكن هناك لا دخول إلى مصر الإقليم ولا خروج، لأن اسم مصر القديم هو «كمه» أي الأرض السمراء، وقد اكتسبت اسم مصر في حوالي سبعمائة قبل الميلاد، ربما أيام الاحتلال الآشوري، ويرجح أن التسمية مشتقة من نهر النيل، لأن كل مجرى ماء هو مصر، وحتى الآن نقول في الجسد مصرانين، ويتوافق هذا مع تفسير ما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى «مصراً» بالتنوين.

(2) لقد سلف للأسفار أن ذكرت بأن اليهود أفنوا بني عمون وقوضوا كيانهم تماماً.

(3) ومن هذه الفقرة يتضح أن اليهود ظلوا طيلة عصر القضاة على أسوأ حال من التفرقة والتشتت، ولم يكن بين قبائلهم أي ترابط أو تفاهم، ومرد التناقضات في الرواية إلى أنها مخترعة لا أساس لها من الصحة، لأن أرض كنعان لم تعرف العبرانيين، وعرفت كلمة يهود أيام الاحتلال الأخميني الفارسي، الذي انتهى مع قدوم الإسكندر المقدوني.

لواءهم لابنه يوناتان، فاغتر هذا الأخير بما أسند إليه، فأغار على معسكر الفلسطينيين في جبعة (هذا المعسكر الفلسطيني الذي أقيم في بداية عهد صموئيل لمراقبة عدم تسلح اليهود) مما أدى إلى هياج الفلسطينيين، فخاف اليهود بأسهم، ففر خلق كثير منهم إلى شرق الأردن، وبعضهم اعتصم بقمم الجبال أو اختبأ في المغاور، ولكن شاؤول لم يجرؤ على مجابهة الفلسطينيين لغياب صموئيل عن مقره، ولقد انتظر سبعة أيام عودة صموئيل، وبدأ الناس بالتخلي عن شاؤول، فخشي مغبة تفرق الناس عنه، فبادر إلى القيام بتقديم الذبائح ليهوه، بغية استرضائه لينصره على الفلسطينيين وفي هذا الوقت بالذات ظهر صموئيل ولام الملك على تجاوزه حقوق الكهنة في تقديم القرابين ومخالفته السنة التي وضعها له عندما مسحه ملكاً على اليهود، وأنذره بزوال ملكه واختيار الرب سواه بديلاً عنه، فاعتذر شاؤول عما بدر منه، فأمره صموئيل أن يصعد رجاله الستمائة إلى جبعون، وفي هذا الوقت أغار الفلسطينيون بثلاثة فرق مكونة من ثلاثة آلاف مركبة حديدية، وستة آلاف فارس يساندهم شعب يشذ عن العد (أي قوات مشاة لا عد لها)، واندفعت هذه القوات على ثلاثة محاور، فأغارت أولها على عفرة (التي كانت تقع على خمسة عشر كيلومتراً شمال أورشليم) والثانية اتجهت نحو بيت أور العليا الواقعة شمال غرب أورشليم، والأخيرة زحفت إلى وادي صبوعيم (الوادي الكائن بين مخماس وأريحا)، ولما رأى اليهود قوة الفلسطينيين تجنبوا مقاتلتهم لقلة عددهم وعدتهم، إذ أن الفلسطينيين كانوا قد حرّموا على اليهود حمل أو اقتناء أي نوع من الأسلحة الحديدية، حتى أن اليهود كانوا مضطرين إلى الذهاب إلى القرى الفلسطينية لتصليح أدواتهم الزراعية المعدنية، لعدم وجود حدادين لديهم، وذلك تنفيذاً لشروط الصلح الذي كان قد فرض عليهم في أول عهد صموئيل وما قبله من عهود، ومن جراء ذلك لم يكن بين رجال جيش شاؤول من كان يحمل سيفاً سواه وابنه يوناتام[1]. لذا عمد اليهود إلى الخداع والحيلة في محاربة الفلسطينيين، فصار يوناتام يباغت حراس الفلسطينيين ليلاً ويقتلهم إلى أن تمكن في إحدى غاراته من إيهام الفلسطينيين بأنهم بوغتوا من قبل جيش كبير، فدبت الفوضى في معسكرهم واقتتلوا فيما بينهم، وهم يظنون أنهم يقاتلون اليهود، فاستفاد رجال شاؤول من ذلك، فأغاروا على الفلسطينيين، فانشق عنهم من كان معهم من اليهود وانضموا لرجال شاؤول، وهكذا انتصر شاؤول على الفلسطينيين، على الرغم من قلة رجاله

---

(1) تعدّ هذه الفقرة بحق اعترافاً صريحاً بأن اليهود كانوا يعيشون في ظل الفلسطينيين كالعبيد تماماً، وكان هذا وضعهم في أيام الحكم الفارسي.

وعتاده، وعلى الرغم من أن عدد أعدائه كان يربو على عشرات الألوف[1]، ولـم يكـن يملـك هـو إلا قياد ستماية رجل على حد زعم السفر.

ثم قاتل شاؤول كل من حولـه مثـل المؤآبيـين والعمونيـين وملـوك صويـا، ولكـن السـفر لا يذكر تفصيلات الحروب ويكتفي بأن يقول أنه كان ظافراً حيثما توجه، ويتابع السفر سـرد قصـص شاؤول، فيقول أن صموئيل أتاه يوماً وقال له أن العمالقـة سبق وأن تعرضـوا لبنـي إسـرائيل عنـد خروجهم من مصر، كما وأنهم شايعوا المدينيين في صراعـهم مـع اليـهود وضـايقوا أهـل الجنـوب وسكان شرق الأردن من اليهود أكثر من مرة. ولذا يأمرك الـرب بـأن تقاتلـهم وتفنيـهم عـن بكـرة أبيهم، وألا تترك حياً واحداً من ماشيتهم، عندها جمع شاؤول مئة ألف من بني قومه عـدا عشـرة آلاف من بني يهودا الذين التحقوا أيضاً بجيشه، وسار على رأسهم[2] إلى تخوم العمالقـة، حيـث شن على أهلها حرباً شـعواء أسـفرت عـن أسـره لمليـك العمالقـة وقتـل بنـي قومـه، ولكنـه خـالف تعاليم صموئيل واحتفظ بالسمين من ماشيتهم (ويقول يوسيفوس عن هذه المعركة أن عـدد رجـال شاؤول الذين اشتركوا فيها كان يربو على الأربعمئة ألف مقاتل، قتلوا كل من قاتلهم من العمالقة وأفنوا ما تبقى منهم بحرمانهم من الماء والزاد ـ أي أنهم أماتوهم جوعاً وعطشاً ـ).

عاد شاؤول إلى يهودا ظافراً تماماً، وأقام نصبـاً لانتصـاره علـى قمـة جبـل الكرمـل الواقـع على بعد عشرة أميال جنوب الخليل.

ولكن عدم إفنائه لماشية العماليق أغاظ صموئيل فأتاه مؤنباً ومنذراً بزوال ملكه، وانقسـام مملكته لعصيانه أوامر يهوه، وتمزيقه ثوب صموئيل أثناء محاورتـه، ولقـد انتـهى الخصـام بينـهما، بأن اعتـذر شـاؤول لـه وليـهوه، فـأمر صموئيـل بقتـل آحـاج ملـك العمالقـة، وانصـرف مـن لـدن شاؤول، ولم يعد بعدها لزيارته قط.

ويبدو أن يهوه رفض اعتذار شاؤول[3] فأمر صموئيل بأن يمسـح داود بـن يسـي ملكـاً علـى إسرائيل، فذهب صموئيـل إلـى بيـت لحـم حيـث كـان يقيـم يسـي، واختـار داود ملكـاً بديـلاً مـن شاؤول، وسط سيل من المعجزات ولكنه كتم الأمر عن جميع الناس.

---

(1) إن اعتراف السفر بوجود اليهود في صفوف الفلسطينيين، يعني صراحة، بأنهم كانوا مستزلمين لهم بكل معنى الكلمة.

(2) إن الادعاء بأن شاؤول جمع مئة ألف مقاتل لمحاربـة العمـاليق لـهو مـن الأمـور التـي لا يسـع العقـل أن يتقبلـها وخاصة في تلك العصور السحيقة، أما مزاعم يوسيفوس التي تلي هذا الادعاء فهي أكثر فظاظة وتضليل.

(3) إن عدم تعلق شاؤول التـام بوصايا صموئيـل، واسـتخفافه بصـاحب البدعـة الجديـدة وممثليـه هـو الـذي دفـع صموئيل إلى التنكر لشاؤول وبالتالي إلى الاستعاضة عنه بداود.

وفي هذا الوقت بالذات أصيب شاؤول بمرض الماليخوليا (أي الداء الأسود المر) عقاباً له على معصية الرب، فقيل له أنه لن يشفى منه إلا إذا وجد عازفاً على المزمار، يرافقه بصورة دائمة ويعزف له، ولما كان داود ممن يجيدون العزف على المزمار وقع اختياره عليه، فأتوه به، ليرافقه، فأحبه شاؤول، إذ كان المرض يفارقه كلما عزف له داود بمزمار، ولذا جعله حامل سلاحه واعتمده بالكثير من الأمور نظراً لما أبداه داود الراعي من الشجاعة والفطنة، وخصوصاً بعد أن قتل داود جليات الفلسطيني وقطع رأسه ووضعه في أورشليم مع كامل أمتعة ضحيته[1].

ولكن عندما طالب داود شاؤول بأن يوفي بعهده القاضي بتزويج ابنته لمن يقتل جليات نفر منه وضمر له الشر.

ولقد جرب اغتياله مراراً مما دفع داود إلى الهرب، والاحتماء بالملك أكيش (كان أكيش ملكاً على جث الفلسطينية أيزكرين) الذي عفا عنه على الرغم من أنه كان قاتل جليات، لتظاهر داود بالجنون أمامه. ثم التجأ داود إلى مغاور عدلام، حيث التف حوله لفيف من الخارجين على القانون فتزعمهم داود بغية مقاتلة شاؤول، ولكي لا ينتقم شاؤول منه بقتل أبويه، أودعهما لدى ملك الموآبيين وطلب منهم حمايتهما، ريثما يتبلور وضعه، وعاد إلى يهودا بناءً على دعوة صموئيل له، ولكن شاؤول أخبر بتحركاته، فعاقب الكاهن أحيملك ورفاقه بالقتل لمساعدتهم داود عند هربه من لدن شاؤول، وبعدها أمر رجاله بمطاردة داود حيثما كان، فعاد داود ورفاقه مجدداً إلى حمى أكيش وكانوا يخرجون لغزو اليهود بأمر من أكيش، ولكنهم كانوا يغزون الكنعانيين، ويوهمون أكيش بأنهم غزوا بني قومهم اليهود[2] ولقد ثابر داود على تعاطي السلب والنهب مدة تربو على العامين استقطب حوله خلالها أكثر الخارجين على مجتمعاتهم من اليهود وسواهم، مما جعله ذو عزوة قوية مهابة الجانب أسهمت كثيراً في إيصال داود إلى الزعامة بعد موت شاؤول.

موت شاؤول

يحدثنا سفر شاؤول بأن أكيش ملك جت لما تيقن من انقسام أصحاب شاؤول في أعقاب انضمام داود وزمرته إليه عزم على القضاء على شاؤول فاستقطب زعماء الفلسطينيين حوله

---

(1) إن هذه الفقرة المتعلقة بوضع رأس جليات في أورشليم قبل أن يحتلها اليهود لهي من الأمور الباعثة على الاستغراب حقاً، علماً بأن القدس تأسست بعد التاريخ الممنوح للملك داود بقرنين، وكان أول اسم حملته هو القدس، وأقدم من ذكر هذا الاسم هو المؤرخ هيرودوت، وهو مشتق من اسم بركة الماء، لأن القدس شهرت بتجميع المياه في برك كان أشهرها بركة لضأن.

(2) تعني هذه الفقرة صراحة، أن داود كان يخادع حاميه أكيش ولم يكن يتورع عن ارتكاب الكذب.

وبعدها أبعد داود وزمرته من صفوف رجاله، ومن ثم أغار على شاؤول وجيشه في جبل جلبوع الواقع جنوب نابلس، وهزم اليهود شر هزيمة بعد أن قتل شاؤول وثلاثة من أولاده، وعلى الأثر هرب يهود شرق الأردن من مساكنهم ولاذوا بالصحراء.

وفي ذات الوقت هاجم العمالقة مدينة صقلاج حيث كانت تقطن زوجات داود، فنهبوها وسبوا نساءها، فلما علم داود بالأمر تعقب الغزاة وظفر بهم واسترد منهم زوجاته وكل ما سلبوه، ومن ثم كرَّ عائداً إلى صقلاج، حيث ورده خبر قتل شاؤول فتأثر عليه وعاقب من نقل إليه الخبر بالقتل، وبعدها أقام وبني قومه مناحة على شاؤول ورثاه بمرثيته الشهيرة المدونة في الفصل الأول من سفر الملوك الثاني.

وبعد أن انتهى داود من مراسم المناحة صعد إلى الخليل حيث مسحه رجال سبط يهودا ملكاً بديلاً من شاؤول، الأمر الذي أثار حفيظة ابنير عم شاؤول فبادر إلى عبور الأردن برفقة أشبوشت (أحد أولاد شاؤول) ومسحه ملكاً على يهود شرق الأردن واتخذ قرية محنائيم (من أعمال بيسان) عاصمة له، وهكذا انشقت مملكة شاؤول وأصبح لليهود مملكتين[1].

ولقد دام الصراع طويلاً بين هاتين المملكتين ولكن داود انتصر في نهايته بفضل خيانة ابنير لاشبوشت، واغتيال يواب (قائد جيش داود لابنير)، ومن ثم مقتل اشبوشت على أيدي ريكاب وبعنة اللذان أعدما بدورهما من قبل داود الذي صفى له الجو بعد زوال منافسيه وكل ذي بأس ممن كانوا حوله[2].

داود من خلال سفر الملوك الثاني

جاء في الفصل الخامس من سفر الملوك الثاني بأن داود بويع بالملك بعد مقتل اشبوشت من قبل ثلاثمائة وتسعة وخمسين ألف وستمائة رجل من رجال الأسباط المختلفة، فعظم شأنه وأراد إظهار قوته للكيانات المحيطة به، فقرر احتلال أورشليم (القدس) من اليبوسيين[3] (أي إحدى قبائل الكنعانيين) فهاجمها وتمكن منها، ولما استتب له الأمر فيها، أقام فيها قصوراً له

(1) يعد انقسام مملكة شاؤول الخيالية أول مسمار دق في نعش الكيان الذي صنعه صموئيل بن القانة.

(2) سفر الملوك الثاني الفصل الثالث.

(3) هذه هي المرة الثالثة التي تزعم فيها الأسفار احتلال القدس. مع أنه ذكر في سفر شاؤول أن داود عندما قتل جليات الفلسطيني أودع رأس ضحيته وأمتعتها مدينة القدس؟!.

وبيوتاً لاتباعه وجعلها مقر ملكه وأحاطها بالشيء الكثير من الأبهة والعظمة، مما أثار حفيظة الفلسطينيين، فقامت معركة بين الطرفين في وادي الجبابرة الواقع حسب قول المكتشف كاران (المجلد الأول لمؤلفه المسمى - في اليهودية - صفحة 248) في جنوب أورشليم وفي منتصف الطريق بينها وبين بيت لحم، ولقد أسفرت المعركة عن انهزام الفلسطينيين بصورة مؤقتة (أي أنهم ظلوا في أماكنهم) فأغار عليهم داود مرة أخرى ودفع بجموعهم حتى جازر (وتسمى اليوم قطره) الواقعة على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً تقريباً إلى الغرب من مدينة القدس.

ومن ثم استقدم تابوت العهد الذي كان منذ عهد صموئيل في قرية بعريم (وهي المسماة اليوم بقرية العنب حسب قول الباحث كلمت صاحب كتاب تاريخ العهد القديم) إلى القدس ووضعه تحت مظلة أقامها في باحة قصره وعين له الكهان والخدم والحشم وجعله محجاً لبني قومه[1].

ولما كان داود متمسكاً بالسنن التي وضعها سيده صموئيل بن القانة، اختار لنفسه كلاً من النبيين يوناتان وجاد كمستشاران في شؤونه العامة والخاصة، فأتاه يوماً النبي يوناتام وأبلغه رضاء الرب عنه، فتشجع داود، وقرر توسيع ملكه تحقيقاً لوعود يهوه المانحة كل الأصقاع الواقعة ما بين النيل والفرات لبني قومه، وبغية تجسيد هذا الوعد أغار على الموآبيين وهزمهم وذبح الكثير ممن استسلموا إليه، واتخذ من أبقاه منهم حياً عبيداً له ولبني قومه من بعده.

وبعد ذلك أغار على مملكة صويا (التي يظن أنها كانت سهل البقاع) فاشتبك مع جيوشها في مشارف حماه، فهزمها وهزم جيش آراميا (أي جيش دمشق) الذي أتى لمناصرة عازر بن رحوب ملك صويا، وبعد أن فرض عليهم الجزية السنوية عاد إلى أورشليم، وعلى الأثر أقدم توعي ملك حماة على محالفة داود خشية بأسه، وهكذا سيطر داود على أكثر مناطق سورية عدا فينيقيا.

ويثابر سفر الملوك الثاني على قص أخبار داود فيقول: إن حنون ملك عمون أهان وفد داود الذي أتى ليعزيه بوفاه سلفه، وذلك بقص لحى أفراده وطردهم من لدنه، ومن ثم عمد إلى التحالف مع آرامي بيت رحوب (التي يظن أنها كانت تقع في الشمال الغربي من بحيرة الحولة، وآرامي صويا)، ومع ملك معكة (ويظن أنها كانت مملكة صغيرة تقع ما بين جبل حيش في جنوب جبل الشيخ وسهل الحولة) ومملكة طوب (التي كانت تقع في شرق جبل الشيخ[2]) لمجابهة داود فيما إذا أقدم على مهاجمة بلاده.

---

(1) سفر الملوك الثاني فصل 6 - وسفر أخبار الأيام الأول فصل 13 - 15 - 16.

(2) مع أن السفر كان قد ذكر أن داود قد فرض سلطانه على مملكتي صويا ودمشق في زحفه الأول على صويا؟.

ولما علم داود بما صنعه حنون بوفده، قام على رأس جيش جرار وزحف على فيلادلفيا (يعني عمان) حيث كانت جموع أعدائه، ولكن قوات حنون اعتصمت بالمدينة، فلم يتمكن داود منها وكر عائداً إلى أورشليم.

ولكن أعداء داود ثابروا على تحديه، فتجدد القتال بينهم، فانتصر عليهم داود بعد أن قتل منهم أربعين ألف فارس ومثل هذا العدد من المشاة، ومن ثم قامت الهدنة بينه وبين الآراميين.

وفي السنة التالية هاجم مجدداً ربة عمون (عمان) ودمرها وأخذ تاج مليكها سلكام الذي كان يزن قنطاراً من الذهب الخالص[1] واعتمر به، كما أنه قتل كل سكان المدينة بأن نشرهم بالمناشير وطرح جثثهم في النار وكل ذلك عملاً بتعاليم صموئيل بن القانة، وبهذه المعركة ينهي السفر فتوحات داود، وينتقل بنا إلى سرد جرائمه مثل إقدامه بالاعتداء على عرض أحد أتباعه المخلصين، ثم قتله غدراً وغيلة، وبعدها يذكر في فصله الثالث عشر والرابع عشر أن أحد أبنائه المدعو أبشالوم خرج عليه (لإقدام أمنون أحد إخوته من أبيه داود على هتك عرض شقيقته ثمارا) لتقاعسه عن معاقبة الجاني فقتل أمنون ومن ثم فر هارباً إلى جبل الشيخ حيث لجأ إلى خاله تلماي بن عميهود ملك حشور (أي ملك جولان والجيدور) ولم يرجع إلى أورشليم إلا بعد أن رضي عنه داود، ومع هذا ظل سوء التفاهم قائماً بينهما، ولذا ثابر أبشالوم على تأليب الناس ضد أبيه ومن ثم انتقل إلى حبرون حيث تكاثر أنصاره، فخشي داود سطوة أبشالوم وفر مع أهل بيته إلى جبل الزيتون، تاركاً عاصمة ملكه لابنه العاق الذي استقل بالحكم، وعمد إلى مطاردة والده الذي لم يكن لديه إلا أربعة آلاف مقاتل[2] فتقابل الجيشان في غابة أفرائيم في شرق الأردن حيث احتدم القتال بينهما، وكانت الغلبة لجيش داود الذي قتل أكثر من عشرين ألفاً من رجال أبشالوم كما قتل هذا نفسه وهكذا استتب الأمر مجدداً لداود فعاد إلى مقر ملكه في أورشليم.

ولكن هذه المصيبة التي نزلت به كانت أكبر من أن يتحملها «إذ أنها أفقدته أحد أبنائه وخيرة قواده كما أن أبشالوم عند احتلاله القدس طعنه في عرضه وكرامته باعتدائه على أعراض

---

(1) عندما يقرأ المرء هذه الفقرة لا يسعه إلا أن يتساءل عن نوع المعدن الذي صنع منه رأس داود الذي حمل ثقل قنطار من الذهب.

(2) إن إقدام أربعة آلاف مقاتل على قتل عشرين ألف مقاتل وإن كان من الأمور غير المعقولة إلا أن فرار داود صاحب الإمبراطورية الممتدة من النيل إلى الفرات أمام مائتين من رجال ابنه وتركه لعاصمة ملكه دون أن يتحرك أي من قواد جيوشه الجرارة والملوك الموالين له لنصرته لهو أغرب بكثير من الأمر الأول.

نسائه اللواتي أبقاهن في القصر عند فراره منه» فظهر عليه بوادر اليأس والتعاسة فلامة أتباعه على مسلكه هذا، واعتبروه بداية فقدانه لشجاعته التي اشتهر بها.

وقبل أن يختتم السفر قصص داود، يحكي لنا وقوع مجاعة في أيامه عزيت أسبابها إلى نكوث شاؤول عن عهد يشوع لسكان جبعة بحمايتهم أبد الدهر، وإقدامه على قتلهم دون مسوغ أو سبب إبان إحدى حملاته، مما حدا بداود إلى الإسراع لترضية بقايا أهل جبعة الذين طالبوه بأن يسلمهم أبناء شاؤول ليقتلوهم انتقاماً من أبيهم، فلبى داود رغبة أهل جبعة، وسلم إليهم أولاد سلفه ليذبحوهم ذبح النعاج لكي يرفع يهوه غضبه عن مملكة داود ويخصب أرضها[1].

ومن ثم يوجز لنا سفر الملوك الثاني في فصله الحادي والعشرين بعض الأحداث التي وقعت في أواخر أيام داود، فيقول: إن داود تعرض للقتل من قبل أحد جبابرة الفلسطينيين في إحدى معاركه معهم ولكن أبيشاي بن صروية تداركه وأنقذه من خصمه ومن ثم لم يعد داود يشارك رجاله في معاركهم مثل معارك جوب التي تكرر الاقتتال في مشارفها بين اليهود والفلسطينيين ومعركة جث التي أشاد داود بانتصاره فيها من خلال ترنيمته الشهيرة والمدونة في زبوره.

منجزات داود الأخيرة

جاء في الفصل الرابع والعشرين من سفر الملوك الثاني: إن داود أحصى بني قومه فبلغ عددهم مليوناً وثلاثمائة ألف نسمة من الرجال ضمناً محاربي يهودا، وحسب السفر فإن هذا الإحصاء أغضب يهوه فأنزل المصائب باليهود ولم يكف عنهم إلا بعد أن قدم له داود وشعبه الترضيات والقرابين[2] وبهذا ينهي السفر البحث عن داود ومنجزاته.

أما سفر الملوك الثالث فيستهل قصصه بذكر ما آل إليه داود في شيخوخته، إذ لم يعد بإمكانه أن ينام دون أن تدفئه وتضاجعه عذراء شونمية اختيرت فقط لهذه المهمة، ومع هذا لم يسه داود أن يكرس الخلافة من بعده لابنه سليمان وأن يقدم له وللشعب الوصايا والتعاليم، ولم ينس تذكير خليفته بما يجب أن يقوم به وبالذين يجب أن يقتلهم بعد موته هو ليضمن له الأمان

---

(1) حجة غريبة ابتدعها داود للتخلص من مناوئ خلفائه على عرش اليهود، إن وجد هذا العرش يوماً.

(2) يفهم من هذه القصة أن عدد محاربي اليهود تضاعف مرة واحدة فقط نسبة لعددهم يوم الخروج، بينما تقول الأسفار أن عدد اليهود تضاعف في مدة إقامتهم في مصر عشرة آلاف مرة، مع العلم أن مدة الإقامة تضاهي المدة الواقعة بين الخروج وزمن قيام داود بهذا الإحصاء.

والاستئثار بالحكم، ولقد توفاه الله بعد أن تزعم اليهود أربعين عاماً، أما تاريخ وفاته فلقد اختلف الكتاب والمؤرخون فيه، فمنهم من قال أنها كانت عام 1010 قبل الميلاد، وقال بعضهم: إنها كانت عام 1015 قبل الميلاد، وقال آخرون أنه توفي عام 973 قبل الميلاد[1].

ولقد تخللت قصصه مئات الأساطير والمعجزات اليهوائية، التي تقول الأسفار بأنها حدثت سواءً لنصرة داود أو لمعاقبته أو جزاء لأعدائه، لا نرى أية فائدة تاريخية أو علمية من سردها.

ولذا سننتقل بالقارئ الكريم إلى القصص الأخرى العائدة لخلفاء داود المدونة في الأسفار، فنرى أن الفصل الثالث من سفر الملوك الثالث يبادرنا بالحديث عن ذكاء وأخلاق وسطوة سليمان خليفة داود. ويقول أن سليمان تمكن من استمالة قلوب شعبه بما أظهره من حلم نحو أخيه أدونيا الذي زاحمه على العرش، حتى تمكن من التغرير به واغتاله على يد أحد أتباعه، ومن ثم عزل الكاهن الأكبر ابتيار لانحيازه إلى أدونيا، كما أمر بقتل يوآب قائد جيش أبيه في خباء المحضر (أي في بيت الرب) أتبعه بقتل شمعي خصم سلفه دون أي مسوغ أو سبب وجيه.

ويتابع السفر الكلام عن أبهة مملكة سليمان فيذكر أنه كان ينفق يومياً في مقره من المأكولات ما يعادل طعام خمسين ألف رجل، كما أنه كان يقتني أربعين ألف راحلة لجر مراكبه، وعشرات الألوف من الفرسان ومئات الألوف من الجند المشاة.

وفي الفصل الثاني من سفر الملوك الثالث نجد قصة تحالف سليمان مع حيرام ملك صور ليحصل منه على مواد البناء لهيكله، ولقد سخر لنقل تلك المواد مئة وثلاثة وخمسين ألف رجل من غير اليهود.

وبفضل هذه الترتيبات تمكن من بناء هيكله بعد أربع سنين من توليه الحكم، وفي صدد الهيكل وتدشينه ومحتوياته والمعجزات التي تخللت مراحله يسرد علينا السفر ما لا يحصى ولا يعد من المواضيع التي لا نرى لزوماً لذكرها، لما فيها من أساطير وأعاجيب لا يستسيغها العقل ولا المنطق.

كما أن الأسفار تنسب إلى سليمان بناء تدمر ومدن عديدة في مملكتي صوبا وحماه، وإقامة مخازن ومستودعات في كافة أنحاء مملكته الأسطورية، كما تقول أنه أخضع لسلطانه

---

(1) يزعم لانرمان أن داود مات عام 973 ق. م، بينما يقول كلمت أنه توفي عام 1010 ق. م أما الأب فيكورو مؤلف (الكتاب والمكتشفات الحديثة) فيقول: إن وفاة داود حدثت عام 1015 قبل الميلاد.

جميع سكان المملكة واستعملهم كالعبيد، وخص اليهود بالأمور العسكرية والإدارية ومراقبة باقي سكان إمبراطوريته المذكورة باعتبارهم من السادة النجباء، ومن ثم ينتقل بنا السفر إلى الحديث عن تجارة سليمان وأمور أخرى مثل الزيارة التي قامت بها بلقيس لمملكته، ويختتم كل ذلك بذكر آثامه فيقول: إن نجم سليمان بدأ بالأفول عندما جنح إلى الاقتران بالأجنبيات مثل ابنة فرعون ونساء من بنات الموآبيين والعمونيين والآراميين والصيدونيين والحثيين وغيرهم من الأمم التي نهى يهوه أتباعه عن الاختلاط بهم، ومع هذا أقدم سليمان على الاقتران بسبعمائة امرأة عدا ثلاثمائة سرية كن جميعاً في حوزته، ولإرضاء زوجاته أقام لكل واحدة منهن معبداً خاصاً لمعبودها، وانزلق بدوره في مشاركتهن في عبادة آلهتهن، فأثار مسلكه المشين يهوه، فانتقم منه بأن سلط عليه هدد الآدومي الذي استعاد من سليمان عرش أبيه ومن ثم ظل يناوئه طيلة حياته، كما أثار عليه روزون ملك دمشق، هذا عدا عن ياربعام (أحد قادة سليمان) الذي أعلن عصيانه عليه، ومن ثم فر إلى مصر حيث احتمى بملكها، وهكذا بدأ التمزق في مملكة سليمان قبل وفاته التي حدثت بحسب السفر نحو عام 975 قبل الميلاد[1] بعد أن حكم بني قومه مدة أربعين عاماً.

ولقد تجسد التمزيق اليهودي حال موت سليمان إذ انشطرت مملكته إلى دويلتين، سميت إحداهما بيهودا، والثانية بإسرائيل، وذلك على أثر قيام ياربعام (عدو سليمان القديم) بثورة عارمة على رحبعام خليفة سليمان، أسفرت عن انهزام هذا الأخير وقبوله اقتسام المملكة الأسطورية مع خصم أبيه اللدود، فاتخذ ياربعام مدينة نابلس عاصمة لملكه الجديد بينما ظل رحبعام ملكاً على يهودا وبنيامين وأبقى القدس عاصمة له[2] ولكن ذيول هذا الانقسام لم تقف عند حد المفاهيم السياسية أو الإدارية بل تعدتها إلى المفاهيم الدينية بدليل أن الأسفار تحدثنا عن قيام ياربعام بصنع صنمين من الذهب وضع أحدهما في بيت أين بالقرب من نابلس والثاني أقامه في تل القاضي (حان) ليتعبدهما شعب مملكته، كما عين لهما كهنة وخدماً لتوجيه الشعب في عبادته الجديدة، ويبدو أن آلهة ياربعام أعجبت سكان مملكة يهودا، فقاموا بدورهم لاتخاذ آلهة مماثلة، وبذا بدأت السنن التي أوجدها صموئيل بن القانة تنهار واحدة تلو الواحدة.

---

(1) إن الخلافات على تحديد عهود أحداث المصادر اليهودية، كانت وما زالت من أعقد الأمور التي استعصى حلها على كافة مؤرخي ونقاد وعلماء التاريخ منذ القدم وحتى يومنا هذا، ولذا يجب أن ينظر إلى كل تاريخ فيها بالكثير من الحذر والريبة.

(2) إن المسافة الفاصلة بين العاصمتين لا تتعدى خمساً وأربعين كيلومتراً تقريباً.

ولما كان العداء قد استحكم بين إسرائيل ويهودا قامت بينهما حروب عديدة كان لكل منهما حليف أجنبي يسانده على عدوه، ومنها أن رحبعام حالف روزون ملك دمشق، بينما تحالف ياربعام مع ملك مصر، وفي إحدى هذه الحروب استنجد ملك إسرائيل بملك مصر الذي سارع لنجدته واحتل القدس وجميع مدن مملكة يهودا وسلب كنوزها وسبى نساءها ومن ثم أتبعها وملكها بنفسه وعاد إلى بلاده.

ومن ثم قام نزاع آخر بين أبيا خليفة راحبعام وياربعام. فحشد الأول أربعمائة ألف مقاتل والثاني ثمانمائة ألف مقاتل فتقابل الجيشان في جبل سامراء وتقاتلا، وقتل خمسمائة ألف مقاتل من جنود إسرائيل وانهزم الباقون أمام جيش يهودا الذي زحف لاحتلال بيتين وعفرا وألحقهما بمملكة يهودا، ومن ثم عاد أبيا وجيشه إلى أورشليم[1].

وعلى الأثر مات ياربعام وخلفه على العرش ناداب، ولكن لم تدم مدة ملكه سوى سنتين إذ اغتاله بعشا أحد قادة جيشه بينما كانا يقاتلان الفلسطينيين معاً، ولقد قضى بعشا على كل عائلة ياربعام ليخلو له الجو، فكان له ما أراد وأصبح ملكاً على إسرائيل نحو عام 953 ق. م[2].

وفي عام 955 قبل الميلاد اعتلى آسا عرش يهوذا وساس الملك بدراية وتعقل فقويت شوكته واستتب له الأمر، وفي عهده تعرضت مملكته لغزوة زارح الكوشي (أي الحبشي أو العربي) الذي داهمها بمليون جندي فتصدى له آسا بخمسمائة ألف مقاتل وهزمه شر هزيمة ومن ثم تعرضت مملكته لاعتداء بعشا ملك إسرائيل، فاستنجد آسا بابن هدد ملك الشام وقدم له مالاً كثيراً ليرد عنه شر إسرائيل، فسارع ابن هدد لاحتلال بعض ممتلكات إسرائيل وأعمل السيف برقاب حماتها فاضطر بعشا لإخلاء مدن يهودا ليتفرغ إلى الذود عن مملكته، وهكذا نجت يهودا من سيطرة بعشا الذي كاد أن يقضي عليها.

ولقد مات بعشا نحو عام 930 ق. م، فخلفه ابنه إيله الذي اغتاله أحد قواده المدعو زمري، ولكن هذا الأخير لم يتمكن من الحفاظ على العرش سوى سبعة أيام إذ أنه قتل بدوره على يد عمري أحد قادة الجيش الذي نودي به ملكاً على إسرائيل، وذلك بعد قتال عنيف دار بينه وبين أنصار زمري، فاعتلى عرش إسرائيل نحو عام 929 قبل الميلاد واتخذ مدينة ترصة (طلوزا) عاصمة لملكه بديلاً من نابلس ومن ثم بنى مدينة جديدة في شمال غربي نابلس

(1) لاحظ ضخامة أعداد المتقاتلين.

(2) بموجب الأسفار يبدأ حكم ياربعام عام 975 ق. م وينتهي عام 954 ق. م، وبذلك يكون حكمه قد بدأ فور موت سليمان وفي الوقت نفسه الذي حكم فيه رحبعام يهودا، أو ربما أقل بمدة وجيزة.

وأسماها سامرة وجعلها عاصمته الدائمة ليتخلص من مؤامرات أهل طلوزا الذين ناصبوه العداء لقتله زمري عميد عشيرتهم، ومن ثم عقد معاهدة صداقة مع ملك صور، وهادن آسا ملك يهودا، ومع كل هذا تعرضت مملكته لغزو ملك دمشق الذي سلبه جزءاً من بلاده بعد أن هزم جيشه وعلى أثر هذه الهزيمة النكراء أصيب بمرض عضال أماته، فاعتلى العرش ابنه آحاب نحو عام 917 ق . م .

أما يهودا فظلت خاضعة لآسا حتى وافته المنية عام 914 ق . م فاعتلى عرشها ابنه يهوشافاط (شعفاط) الذي بادر إلى تكوين جيش قوي بلغ تعداده المليون ونصف المليون، ومن ثم حصن مملكته، وعقد صلحاً مع إسرائيل، كما أنه تزوج من شقيقة ملكها آحاب واشترك وإياه في مقاتلة ملك دمشق الذي كان قد احتل السلط وطرد ما كان فيها من اليهود، كما أنه حارب المؤابيين والعمونيين وانتصر عليهم فاستراحت يهودا طيلة ملكه الذي دام حتى نحو 889 ق . م . ولما مات خلفه على العرش ابنه يورام .

وفيما يتعلق بأحداث معاصره الملك آحاب يخبرنا سفر الملوك الثالث بأنه خرج كلياً على السنن اليهودية وعبد عشتروت وبعولاً أخرى وأقام لكل منها معبداً خاصاً زوده بالكهنة والخدم وعمم عبادتها في مملكته، وقام نزاع بينه وبين هدد ملك أراميا فاستسلم له في البداية ولكنه عاد وحاربه في فيق وانتصر عليه، ثم حالفه لمجابهته الغزو الآشوري الذي اجتاح سورية وأخضع ملوكها للجزية وكان من بينهم آحاب ملك بيت عمري[1] .

ويبدو أن تحالف آحاب مع ملك دمشق لم يدم طويلاً إذ يخبرنا السفر بأنه تحالف مع يهوشافاط ضد هَدَد، ومن ثم أغارا على مملكته بغية استرداد السلط منه، ولقد قتل آحاب في هذه المعركة وعاد جيشه خائباً إلى السامرة .

فاعتلى العرش ابنه أخزيا نحو عام 898 ق . م ولكن ملكه لم يدم سوى عامين مات بعدهما فخلفه ابنه يورام نحو عام 896 ق . م، فتحالف مع يهوشافاط ملك يهودا لمحاربة ميشاع ملك المؤابيين فانتصرا عليه في البداية ولكنه هزمهم في النهاية، ودمر كثيراً من مدن يهودا، ونهب كنوزها ومن ثم أخذ أسرى اليهود إلى بلاده حيث سخرهم لبناء بعض المنشآت وتقديم مختلف الخدمات التي كان بحاجة إليها في بلاده (ولقد عثر عام 1869 بعد الميلاد على لوحة

---

(1) جاء من المسلة الأثرية المسماة بمسلة نمودان شلمناصر ملك آشور غزا سورية وأخضع فيها ملك أراميا، وملك حماه، وأجاب ملك بيت عمري بعد أن هزم جيوشهم المتحالفة .

تذكارية تسمى لوحة ميشاع المؤابي، وهي مكتوبة باللغة المؤابية القريبة من اللغة العبرانية وهي محفوظة حالياً في متحف باريس وتبحث عن انتصارات ميشاع على إسرائيل وإذلاله لبني جاد، وتسخيرهم في بناء السجون والمدن وحفر الآبار).

وقامت في عهد يورام حرب أخرى بين إسرائيل وهدَد الثاني ملك آراميا الذي حاصر إسرائيل فتفشى الجوع فيها حتى أن أهلها اضطروا لأكل أطفالهم، ولكن جيش آراميا تنازل عن الحصار بمعجزة يهوائية وعاد السلام يسود إسرائيل من جديد.

وفي السنة الخامسة لعهد يورام، مات حليفه يهوشافاط فاعتلى عرش يهودا ابنه يورام، وكان سيئ السيرة والسلوك عبد البعول والأصنام، وقتل إخوته خشية أن ينازعوه الملك، وفي عهده قامت حروب عديدة بينه وبين الآدوميين والفلسطينيين هزم فيها جميعاً وأخيراً هاجم العرب بلاده واحتلوها بأكملها، ونهبوا ما كان في خزائن أورشليم وقتلوا جميع أولاده وأفراد عائلته، ولم يبقوا على أحد من أقربائه إلا على أصغر أطفاله الذي كان يدعى أحزيا، أما يورام فتركوه يموت بدائه، ومن ثم قفلوا راجعين إلى بلادهم، وعلى الأثر اختار سكان يهودا أحزيا ابن يورام ملكاً على بلادهم فلم يكن خيراً من أبيه، فتحالف مع خاله يورام ملك إسرائيل[1] الذي كان يحارب حزئيل ملك دمشق، ولقد أسفر القتال عن إصابة يورام فهرب برفقة أحزيا من الميدان، مما أدى بقائد جيشه ياهو إلى التمرد عليه وإعلان نفسه ملكاً على إسرائيل.

ومن ثم زحف على زرعين حيث كان يورام وأحزيا فقتلهما واستبد بملك إسرائيل نحو عام 884 قبل الميلاد، وبعد أن قتل جميع أفراد أسرة آحاب على أيدي اليهود الذين تطوعوا للقيام بمهمة القضاء على هذه الأسرة إرضاءً لملكهم الجديد.

كما أن ياهو قتل جميع من كان من الكهنة ورجال الحكم في عهد يورام، وقتل أتباع أحزيا الذين تمكن منهم، فاستتب له الأمر مدة من الزمن حتى قام الخصام بينه وبين حزئيل ملك دمشق، وأسفر ذلك عن هزيمة جيش إسرائيل واحتلال حزئيل لأكثر مدن إسرائيل فلم يعد بدأ لياهو من الاستنجاد «بشلمناصر الآشوري» الذي بادر إلى احتلال أكثر مناطق دمشق ومملكة صيدا وصور ومملكة إسرائيل وفرض عليها الجزية ومن ثم عاد

---

(1) ملك يورام بن يهوشافاط نحو عام 891 قبل الميلاد، أما ابنه أحزيا فاعتلى العرش نحو عام 883 بموجب ما ورد في سفر الملوك الرابع.

لبلاده[1]. وهكذا غدت إسرائيل تابعة لآشور تدفع لها جزيتها كل سنة، وفي نحو عام 856 مات ياهو فاعتلى العرش ابنه يواحاز.

أما مملكة يهودا فخضعت لعتليا أم أحزيا التي أقدمت على قتل كل ذكور عائلة زوجها إلا (يواش بن أحزيا الذي أنقذته عمته دون أن تعلم عتليا بذلك).

ومن ثم استبدت بالحكم مدة ست سنين، إلى أن ثار الشعب عليها بقيادة يوداع أحد أنصار أحزيا، فاعتلى يواش العرش بعد أن قتل الشعب عتليا وجميع أنصارها، وكان أحزيا طفلاً يرعاه ويوجهه يوداع إلى أن شب عن الطوق فتمرد مثل أسلافه على يهوه وأعاد عبادة الأصنام والبعول إلى مملكته فسلط يهوه عليه حزئيل ملك دمشق فاحتل يهودا وكاد أن يدمر أورشليم، ولكن يواش افتداها بكل خزائن ملكه وتعهد حزئيل بجزية سنوية لينصرف عنه، وبذلك أنقذ نفسه وعاصمة ملكه من الدمار، ولكنه نكث بوعده في الجزية فأغار جيش حزئيل على القدس وافتتحها وقتل أكابر أهلها وأفرغ خزائنها، ومن ثم عاد لبلاده، فاغتاظ الشعب من يواش فقتله أحد أتباعه واعتلى العرش ابنه أمصيا[2].

وفيما يتعلق بمملكة إسرائيل يحدثنا سفر الملوك الرابع فيقول: إن يواحاز خليفة ياهو ثابر على ارتكاب الآثام وعبادة الأصنام، فسلط عليه يهوه حزئيل ملك دمشق ومن بعده ابنه هدد الثالث، فاستعبدا إسرائيل وجرداها من أكثر تخومها، حتى لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها طيلة مدة ملك يواحاز، فلما اعتلى ابنه يواش عام 840 ق.م عرش أبيه تخلصت إسرائيل من ذل عبودية دمشق، كما أن يواش حال دون مثابرة الموآبيين من الاعتداء على بني قومه، وفي عهده قام النزاع مجدداً بين يهودا وإسرائيل فانتصر يواش على أمصيا واحتل أورشليم ودمر قسماً كبيراً منها ونهب بيت الرب، وأخذ أكابر يهودا إلى سامرة كرهائن ليمنع يهودا من العودة للاعتداء على ملكه، ومن ثم عاد إلى بلاده حيث مات وتولى ابنه ياربعام عرش إسرائيل نحو عام 824 ق.م[3] ولقد قال السفر أن هزيمة أمصيا أمام يواش لم يكن سوى عقاب له من قبل يهوه لأنه تفاخر على إسرائيل، على إثر انتصاره على الآدوميين في حربه معهم، فلم تقبل إسرائيل تعاليه عليها ولذا أذلته مثلما رويناه في الفقرات السابقة.

---

(1) إن المكتشفات الأثرية العائدة لشلمناصر تحدثنا عن هذه الواقعة بالكيفية التي شرحناها أعلاه (مسلة شلمناصر المحفوظة في متحف لوندرا).

(2) سفر الملوك الرابع، الفصل الثالث عشر.

(3) سفر الملوك الرابع، الفصل الثالث عشر.

ولقد عاش أمصيا ذليلاً بعد ذلك إلى أن اغتاله بعض رجاله، فاعتلى العرش ابنه عزريا نحو عام 808 ق. م.

أما ياربعام الثاني ملك إسرائيل فظل في الحكم واحداً وأربعين عاماً، كانت له فيها حروب مع الموآبيين والعمونيين والآراميين انتصر فيها عليهم جميعاً[1] مات بعدها واعتلى العرش ابنه زكريا عام 772 ق. م، وعزريا تقول الأسفار عنه أنه كان صالحاً فعظم شأنه وانتصر في عدة معارك خاضها ضد الفلسطينيين والعرب والعمونيين، كما قام بتحصين أورشليم وجهز جيشه بمعدات حديثة مما أدى بالملوك المجاورين أن يخطبوا وده خشية بأسه، ولقد دام حكمه حتى عام 756 ق. م، ولما توفي اعتلى العرش ابنه يوتام.

وينتقل بنا سفر الملوك الرابع إلى البحث عن أحداث مملكة إسرائيل، فيقول إن زكريا بن ياربعام لم يكن صالحاً، فظل على عبادة العجول الذهبية مثل ياربعام بن نباط، فغضب الرب عليه وسخر له شلوم ليغتاله ويعتلي العرش عنه، ولكن هذا الأخير قتل بدوره على يد منحيم بن جادى الذي أعلن نفسه ملكاً على إسرائيل، فثار الشعب عليه، لكنه تمكن من قمع ثورة الشعب بقسوة لا مثيل لها إذ أنه قتل الأطفال الرضع وبقر بطون الحوامل، فاستكان الناس لقسوته مدة عشرة أعوام، فغضب الرب على منحيم لمثابرته على عبادة العجول فسلط عليه فول ملك آشور[2] الذي غزا إسرائيل وأخضعها للجزية بعد أن أخذ من منحيم ألف قنطار في الفضة مقابل أن يبقيه على عرشه، ومن ثم عاد إلى بلاده، فلم يطل عمر منحيم بعدها فمات وخلفه على عرش إسرائيل ابنه فقحيا نحو عام 760 ق. م، ولكنه كان فاسداً مثل أبيه فاغتاله أحد قادة جيشه المدعو فاقح بن رمليا، وأعلن نفسه ملكاً على إسرائيل نحو عام 758 ق. م وظل في الحكم مدة عشرين عاماً على الرغم من سوء سلوكه.

وفي السنة الثانية لملك فاقح مات عزريا ملك يهودا فخلفه على العرش ابنه يوتام. فاتفق فاقح ملك إسرائيل مع رصين ملك الشام على اقتسام مملكة يهودا بينهما، ولكن قبل أن يقدما على تحقيق مؤامرتهما، مات يوثام وخلفه ابنه آحاز نحو عام 740 ق. م وعلى الأثر أغار فاتح ورصين على يهودا ونهبا قراها ودساكرها، واقتسما الغنائم بعد أن قتل فاقح مئة ألف من رجال

---

(1) إن المكتشفات الأثرية التابعة لتجلت فلاصر الآشوري تؤكد أنه أخضع بلاد سورية ضمناً فلسطين إلى سلطانه في الوقت نفسه الذي يزعم السفر أن ياربعام انتصر فيه على جيرانه؟

(2) تؤكد المكتشفات الأثرية العائدة لآشور أن ملك آشور هو تجلت فلاصر الثاني، وأنه غزا سورية سبع مرات إبان ملكه.

يهودا وسبى مئة ألف من نسائها وأطفالها، ومن ثم أغار المتحالفان بالاتفاق مع الأدوميين على منطقة العقبة واستوليا على القرى اليهودية فيها وطردا أهلها منها وأعاداها للأدوميين، ولكنهما عجزا عن فتح أورشليم، وعلى الأثر استجار آحاز بتجلت فلاصر لينقذه من فاقح ورصين مقابل كل ما كان يملكه من ذهب وفضة، فلبى تجلت دعوته وأغار على دمشق وإسرائيل، وفتك بأهليهما ومن ثم فرض الجزية عليهما كما فرضها على يهودا التي استنجدت به، وبعد أن أخضع الكل لسلطته أقام في كل مملكة منها نواباً عنه، ولقد نفى الكثير من سكان دمشق وإسرائيل إلى المناطق الشمالية فلما استتب له الأمر كر عائداً إلى بلاده[1].

ويبدو أن خضوع ممالك المنطقة لتجلت فلاصر لم يقتصر على دفع الجزية والانصياع لسلطة القاهر بل تعدتها إلى إرغام ملوك وشعوب المنطقة على عبادة آلهة آشور بدليل اعتراف سفر الملوك الرابع (فصل 16) بأن آحاز ملك يهودا بعد عودته من دمشق حيث قابل تجلت، أمر أن تقام الأصنام الآشورية في بلاده، كما بدل طقوس الهيكل، ودعا شعبه لممارسة الآشورية، ومن ثم مات نحو عام 723 وخلفه حزقيا على عرش يهودا.

أما الأوضاع في مملكة إسرائيل فسارت هي أيضاً من سيئ إلى أسوأ، إذ أن ملكها هوشع بن أيله الذي اغتال فاقح بأمر من تجلت فلاصر، ثم استولى على العرش جنح إلى التخلص من سيطرة آشور فتآمر عليها مع ملك مصر، ولما علم شلمناصر بما أضمره هوشع جاء وحاصر السامرة وبعد ثلاثة أعوام من الحصار افتتحها ودمرها على رؤوس أهلها، ومن ثم أمر بإجلاء كافة سكان إسرائيل إلى منطقة الخابور، وهكذا زالت إسرائيل من الوجود في أرض كنعان[2] نحو عام 721 قبل الميلاد.

وفيما يتعلق بمملكة يهودا التي استنجدت بآشور يحدثنا سفر الملوك الرابع في فصله الثامن عشر فيقول: إن حزقيا الذي تولى العرش نحو عام 727 ق. م كان صالحاً سار على سنن جده داود

---

(1) عثر على صفحة أثرية تبحث عن الملوك الذين أخضعهم تجلت فلاصر، جاء فيها أنه أخضع كل من الملك كوموجا ملك سورية المجوفة، وسيتي ملك جبيل وبيزيرس ملك كركميش، وانبال ملك حماه، وماتا ملك أرواد، وسلامانو ملك موآب، ومتيتي ملك عسقلون، وياهو حازي ملك يهودا، وكوموسملك ملك أدوم، وحنون ملك غزة.

(2) هناك خلاف على اسم الملك الآشوري الذي أزال إسرائيل من الوجود، فمن المؤرخين من يقول أن شلمناصر مات قبل خراب سامرة وأن الذي قام بتدميرها وإجلاء اليهود عنها هو سرغون الذي كان يقود جيش آشور في عهد شلمناصر والذي تولى العرش بعده مباشرة.

مع بقائه تحت سطوة آشور، ولكنه تمرد عليها في عهد سنحاريب فزحف الآشوريون على القدس ولكنهم لم يدخلوها لأن حزقيا دفع الغرامة المطلوبة فارتد عنها الغزاة، ولقد حكم حزقيا مدة ثلاثين عاماً ومن ثم توفي وخلفه ابنه منسي على العرش عام 669 قبل الميلاد، ولم يكن صالحاً كأبيه فعبد الأصنام وأقام مذابح عديدة للبعول، وقتل كل مناوئيه، كما أقدم على قتل النبي أشعيا، مما أغضب الرب فسلط عليه آشور بانيبال، الذي اجتاح يهودا وأسر منسي ونفاه إلى بابل، وبعد مدة عفا عنه وأعاده لملكه، فأصلح منسي نفسه بأن عاد إلى عبادة الرب ولقد توفاه الله نحو عام 640 فخلفه ابنه آمون الذي لم يكن خيراً من أبيه فاغتاله بعض أتباعه بعد سنتين من ملكه فاعتلى العرش ابنه يوشيا نحو عام 639 ق.م وكان صالحاً فسار على سنن داود، وفي عهده عثر كاهنه حلفيا على سفر التوراة المكتوب بخط موسى[1] في بيت الرب، ويبدو أن يوشيا ظل موالياً لآشور بدليل أنه تصدى لملك مصر نكوْ الذي كان قد أنقذ مصر من عبودية آشور ثم زحف يتعقب جيوشها في سورية حيث اصطدم بيوشيا فقتله نحو عام 608 قبل الميلاد، فاعتلى ابنه يوحاز عرش يهودا، ولكنه أُسر من قبل ملك مصر بعد ثلاثة أشهر، وأُخذ إلى مصر فخلفه على العرش يواقيم الذي كان من أنصار ملك مصر، ولم يكن صالحاً كأبيه يوشيا فسام شعبه العذاب، وفي عهده اندحرت جيوش مصر أمام نبوخذ نصر البابلي في معركة جرابلس، فعادت سورية وممالكها إلى سيطرة البابليين، فدفع ملوكها الجزية لبختنصر مثلما كانوا يدفعونها لملوك آشور، ولقد تمرد يواقيم على بختنصر في السنة الثانية من حكمه، وامتنع عن دفع الجزية، مما أعاد بختنصر إلى احتلال يهودا فأخضعها ونفى أكابرها إلى بابل، ومن ثم عاد وعهد إلى يواقيم إدارتها باسمه وكر عائداً إلى بلاده، ولم يمض ثلاث سنين على هذه الغزوة حتى نكث يواقيم بعهده لبختنصر، فعاد جيش بابل لاحتلال يهودا، ولكن يواقيم مات قبل وصول الغزاة إلى بلاده فخلفه ابنه يواكين، الذي عجز عن رد الغزاة فأسروه ونفوه مع عشرة آلاف من أكابر قومه إلى بابل حيث عاش سجيناً.

ومن ثم نصب بختنصر صدقيا ملكاً على أورشليم، وكان شريراً يعبد الأصنام والبعول الكنعانية، وفي عهده سيطر ملك بابل على جميع البلاد الواقعة ما بين النيل والفرات، ولكن ثورة المدينيين نغصت عيشه وأطمعت ملوك الكيانات السورية بالتخلص من عبوديته فثاروا على بختنصر فاشترك معهم صنيعته صدقيا، فسارع بختنصر إلى إخماد نيران تلك الثورة قبل استفحال أمرها فاحتل يهودا بعد أن هزم جيشها ومن ثم حاصر أورشليم مدة ثمانية عشر شهراً

---

(1) سفر الملوك الرابع، الفصل الثاني والعشرون.

مما اضطر صدقيا وقادة جيشه إلى الهرب من عاصمة ملكهم ليلاً فطاردهم جيش بابل وأدركهم في صحراء أريحا حيث أسر صدقيا فأمر بختنصر بسمل عينيه وقتل أولاده أمام ناظريه، ومن ثم نفاه إلى بابل وأمر بحرق وتدمير أورشليم بكاملها، وسلب ما كان فيها من أموال وكنوز، كما نفى أكثر أهلها إلى بابل ولم يبق فيها إلا الرعاع والمزارعين، وأخيراً أمر بأن تصبح يهودا مجرد ولاية بابلية تحت أشراف جدليا، الذي قتل على يد أحد اليهود، وعلى الأثر فر ما تبقى من اليهود في البلاد مع النبي إرميا إلى مصر وهكذا أزيلت يهودا بدورها من أرض كنعان نحو عام 589 قبل الميلاد.

هذا ما جاء في المصادر اليهودية الباحثة عن أحداث كنعان لعصور ما قبل هيرودوت، أما المصادر التاريخية الأخرى والمكتشفات الأثرية الحديثة، والنظريات العلمية لعلماء ونقاد التاريخ فلها آراء أخرى تختلف كلياً مع ما ذهبت إليه المصادر اليهودية، وبغية الإيضاح نثبتها فيما يلي لتكن بمثابة منطلقات أساسية تمكن القارئ من تكوين الفكرة الصحيحة عن واقع أحداث كنعان في تلك العهود.

كنعان من خلال التاريخ والمكتشفات الأثرية الحديثة

إن أقدم المصادر التاريخية الباحثة عن كنعان هي المصادر المبنية على ما استخرج مما جاء في المكتشفات الأثرية المصرية التي كشفت النقاب ليس عن خفايا تاريخ عصور مصر السحيقة فحسب بل عن أسرار تاريخ العالم القديم بأسره، ومع سعة المعلومات التي أمدتنا بها تلك المكتشفات نجد أنها خالية مما تشير إليها المصادر اليهودية من أحداث خاصة ببني قومها للحقبة الواقعة ما بين عام 1600 ـ 1200 قبل الميلاد، اللهم إلا بعض نبذ غامضة زعم بعض المؤرخين أنها تلميح لما تبحث عنه المصادر اليهودية، وهي تتلخص بأن بعض المخطوطات الأثرية المصرية تبحث غن قبائل رحل من رعاة الشاة كانت تتردد على التخوم المصرية بحثاً عن الماء والكلأ وكانت الدولة المصرية تسمح لها بارتياد أرضها تارة مقابل قيامها بأعمال سخرة معينة، وتارة رحمة بها وبمواشيها، وكانت تطلق عليها أسماء مختلفة فمرة تسميها بقبائل شاسو، وأخرى الهابرو أو آبرو، وبعضاً أهل الشرق، أو الوافدين من مرقد الشمس، كما أن بعض المكتشفات المتعلقة بالفتوحات المصرية تبحث هي أيضاً عن عثور غزاة مصر إبان اجتياحهم لأرض كنعان على قبائل صغيرة تتكنى بأسماء مشابهة للأسماء اليهودية ومنها المخطوطات العائدة لتوتمس الثالث (Thoutmés III) التي تحكي لنا عن وجود قبيلة كانت تدعى بياقوبل (Yaqobel) بين القبائل العديدة التي أخضعها هذا الملك في غزوته لأرض كنعان عام 1479 قبل الميلاد.

والمخطوطات العائدة لفتوحات سيتي الأول (SETI Ier) وخلفه رمسيس الثاني (Ramses II) تذكر بدورها أن كلاً من الملكين اللذين غزوا قبائل بلاد كنعان فيما بين عام 1312 - 1235 قبل الميلاد صادفا فيها قبيلة كانت تدعى بآشير.

أما اللوحة التذكارية الباحثة عن فتوحات مرنبتاح (Merneptah) نحو عام 1229 قبل الميلاد فتذكر بأن مرنبتاح أخضع في كنعان أناساً كانوا يلقبون بأبناء إسرائيل من جملة القبائل التي أخضعها[1].

وإذا استثنينا ما قاله المؤرخ المصري مانتون (Manéthon) الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد عن اليهود والذي يتلخص بأن العبرانيين هم أحفاد الجذام الذين فروا من معتقلهم الصحي، بعد أن ثاروا على الأنظمة التي كانت مفروضة عليهم، بقصد عزلهم عن الأصحاء ومن ثم لجأوا إلى صحراء سيناء حيث عاشوا بين رعاة الشاة من مختلف أقوام البلاد المجاورة فليس في المكتشفات الحديثة ما يشير إلى الوجود اليهودي أو العبراني في منطقة الشرق الأوسط من قريب أو بعيد إلا ما نوهنا عنه أعلاه.

أما التاريخ العام وسيده هيرودوت فقد تجاهلا تماماً كل ما يتعلق باليهود لعصور ما قبل ظهورهما، وهكذا ظلت المصادر اليهودية الباحثة عن كنعان فريدة من نوعها، فاكتسبت بفضل هذه الصفة الكثير من الثقة، واعتمدها الناس طالما كانت المكتشفات الأثرية الحديثة التي بحثنا عنها والتي عثر عليها فيما بعد في بطن الأرض، ولكن بعد الكشف عنها وظهور التناقض الكائن بينها وبين المصادر اليهودية، بادر علماء التاريخ ونقاده إلى سبر الحقيقية من خلال مختلف المصادر التي تجمعت في أيديهم، فأخضعوها جميعاً للتدقيق والتحري معتمدين كافة الوسائل العلمية والأدبية لكشف الستار عن ملابسات وتناقضات المصادر اليهودية بشكل خاص والمصادر الأخرى بشكل عام، وبغية تحقيق هذا الهدف أخذوا كل قصة منها على حدة

---

(1) قرئت هذه اللوحة أولاً كما يلي: انتصرنا على الأشيين (Achéens) والترسيين (Tyrséne) والسيكوليين (Sicules) والليسيين (Lyciens) أسقطنا الملوك وأطحنا بتيجانهم، الكل يطلب الغفران والسلام، لم يعد من يجرأ على تحدينا، ليبيا احتلت، الحثيون ألقوا السلاح، ودمرت كنعان ونهبت، أسقلون أخليت من سكانها، أهل كيزر يرسفون في الأغلال يانوعام أزيلت من الوجود، جاع أبناء إسرائيل ولم يعد لديهم ما يبذرونه، ترملت فلسطين وعدمت حماتها، جثم الجميع، وكل من يجرأ بعد اليوم على مناهضتنا، سيعقله مرنبتاح العظيم. وبعد إعادة القراءة تبين وجود دمج بين فقرتين هما: يازير + يار، انظر كتاب القدس في التاريخ لسهيل زكار (ط. بيروت 2002) ج 1، ص 10 - 11.

وأعملوا مبضع التشريح فيها ليخرجوا جوانبها المظلمة إلى النور، ليظهر لهم كنهها وغاية قصها ومنطلق روايتها وهدفها المتوخى.

ولذا تعددت الدراسات وتكاثرت النظريات حول قصص المصادر اليهودية، ولقد بحثنا عما يتعلق منها في أقدم تلك القصص في مؤلفنا الماضي (المفسدون في الأرض) فلا نرى كبير فائدة في إعادة بحثها، فعليه سنكرس الكلام فيما يلي لشرح الدراسات والنظريات الخاصة في الحقبة الزمنية التي تدعي تلك المصادر قيام اليهود فيها باحتلال أرض كنعان (أي البحث عن الخروج من مصر).

وفي هذا الصدد يحدثنا السيد بورني[1] (C.F. Borney) ويقول: إنه فيما لو أخذنا ما جاء في سفر القضاة منطلقاً لبناء نظرية تحديد إقامة اليهود في مصر وخروجهم منها لجاز أن نخمن أنهم دخلوها مع جحافل الغزاة الهكيسوس وطردوا منها عندما طرد الهكيسوس ويعتمد ذلك على ما جاء في الأسفار عن قصة دخول إبراهيم إلى مصر وخروجه منها، الواردة في سفر الخليقة، ويستخرج منها مسوغات مصادفة توتمس الثالث (Thoutmés III) لقبيلة ياقوبيل إبان غزوته لفلسطين نحو عام 1479 قبل الميلاد باعتبار أنها تنحدر بموجب السفر من إبراهيم وهي التي طردت فيما مضى من أرض كنعان من قبل قبيلة عيسو الآدومية ومن ثم عادت نحو عام 1400 قبل الميلاد إلى كنعان حيث وجدها الغازي توتمس[2] بعد أن كانت قد تمركزت في نابلس في نهاية فرارها هذه المرة من جور قبيلة لابان الآرامية، وهو في نظريته هذه يذهب إلى حد الظن بأن بعض القبائل الأخرى التي تبحث عنها الأسفار مثل قبيلة يوسف ولربما شمعون وليفي هي فقط التي دخلت مصر في عهد أمينوفيس الثاني (Aménophis II) الذي حكمها من 1425 ـ 1450ق. م أما ما تبقى من القبائل العبرانية فيظن بورني أنها ظلت في تخوم كنعان بدليل أن كلاً من سيتي الأول (Seti ler) ورمسيس الثاني صادفا فيها قبيلة آشير ما بين 1312 وعام 1235 قبل الميلاد، ويختتم ظنونه المبنية على الأسفار فقط بأن يقول: إن الجماعات التي دخلت مصر في عهد أمينوفيس الثاني هي التي تعرضت لجور وضغط رمسيس الثاني، فخرجت من مصر بعد

---

(1) C. F. Burney (Israels Settlement in Canaan) For the British Academy Londres 1918.
إن السيد بوني يقدم هذه الدراسة باعتبارها نظرية متقاربة مع تأريخ الأسفار للأحداث ويستهلها بأنها مجرد (Conjecture) أي ظن أو حدث، مع العلم أن تفصيلات حدسه هذا تناقض كلياً ما جاء بالأسفار اليهودية مثلما شرحناها في مستهل هذا الفصل.

(2) M. Hall (The ancient history - of - The near - east) 1913.

الفوضى التي سادت مصر على أثر موت مرنبتاح (Merenptah) الذي سلف وأن غزا كنعان عام 1229 قبل الميلاد وأذل فيها أبناء بعض مناطق فلسطين كما دونها في مسلته التذكارية لهذه الحملة.

بينما نرى السيد هال (HALL) يذهب إلى اعتناق نظرية أكثر اختصاراً فيقول: إنه يظن أن دخول العبرانيين إلى مصر وخروجهم منها كان في الأوقات نفسها التي دخل الهيكيسوس إليها وخرجوا منها، وإن غزو كنعان حدث في عصر تل العمارنة أي عاصمة أخناتون (Akhenaton) التي أنشئت في عهد أمينوفيس الرابع زوج نفرتيتي نحو عام 1361، ومع هذا يذكر في مكان آخر من كتابه[1] بأنه يظن أن أريحا التي زعمت الأسفار بأن يشوع دمرها عند اجتياحه لبلاد كنعان، دمرت على أقل تقدير نحو عام 1500 قبل الميلاد، إن لم تكن دمرت قبل هذا التاريخ، ويؤيده في نظريته هذه السيد م. سلين (M. Sellin) الذي قام بحفريات عديدة في فلسطين أسفرت عن تأكيد تدمير أريحا نحو عام 1600 قبل الميلاد وبأيد غير يهودية[2]، ولقد أثبت المكتشف فاتسنجر (M. Watzinger) صحة هذا المذهب بالطرق العلمية وبصورة جد واضحة[3].

أما نظرية هوكوكريسمان (Hugo Gressmann) المتعلقة بهذا الموضوع[4] فتتلخص بأن العبرانيين ما هم إلا قبائل آرامية تمركزت على الحدود الجنوبية لكنعان قبل أن يأتي إليها الإسرائيليون، وذلك نحو عام 1300 قبل الميلاد، وأن بعض هذه القبائل الآرامية تابعت زحفها في اتجاه مصر ودخلتها ولم تبق فيها إلا مدة نصف قرن ومن ثم خرجت منها تحت ضغط رمسيس الثاني، وعادت إلى البلاد المجاورة لحدود كنعان ولربما ذهب بعضها إلى ليبيا ثم انتشر في بلدان الشمال الأفريقي.

---

(1) S. Sellin (Gilgal ein beitrag zur Geschiechte der Einwande rug. Israels in palasstina leipzig Deichert 1917.

(2) تقرير السيد فاتسنجر عن مكتشفاته الذي أصدره في لايبزغ. ومن خلال هذا التقرير ينفي كل ما جاء عن تدمير أريحا من قبل اليهود

(3) Z. D. M. G. - 1926 p. 131.

جرى نشر جميع النصوص المصرية عن الهكسوس قبل دخولهم إلى مصر، وأثناء وجودهم وبعد خروجهم فلم يرد فيها ما يشير إلى وجود قبائل، أو بالحري أسباط بني إسرائيل.

انظر: The Hyksos, Edited by D. Oren. Philadelphia, 1997.

(4) Hugo Gressmann (Mose und seine zeit goettingue Vandenkao eck et ruprecht 1913).

ولكن السيد أدولف لودس مؤلف كتاب إسرائيل من البداية حتى A.Lods-Israel des origines au milieu du VIII sieele القرن الثامن قبل الميلاد فله رأي آخر يقول فيه : إن المصادر اليهودية هي وحدها التي تبحث عن إقامة اليهود في مصر كما تنفرد أيضاً بالبحث عن منشئهم وتحركاتهم عبر القرون السالفة للقرن الثامن قبل الميلاد ، بينما نرى المصادر التاريخية الأخرى ، والمكتشفات الأثرية الحديثة خالية لما يشير إلى ما ورد بتلك المصادر ، وهذا السكوت المطبق من قبلها وخاصة سكوت المصادر المصرية ، يوحي لنا بأن نعد قصص المصادر اليهودية العائدة لتلك العهود مجرد روايات ملفقة ، لا تمت إلى الحقيقة بأية صلة ، ومع ذلك لابد لنا أن نعالجها على ضوء ما نملكه من المعلومات العلمية وبالشكل الأكثر قرباً للعقل والمنطق ، ولذا نعد نظرية فينكلر (M. Winckler) القائلة بأن قدماء سكان كنعان كانوا يطلقون على البقاع الواقعة في غرب وجنوب وادي غزة اسم بلاد مصر (أي على أراضي صحراءي سيناء والعربية) وإن الأسفار عند بحثها عن إقامة العبرانيين في مصر تعني بذلك إقامتهم في سيناء وليس في مصر ذاتها ، معقولة إلى حد ما ، لو لم تذكر المصادر اليهودية قصة الاستعباد التي لا يمكن أن تكون قد حدثت ما لم يكن اليهود قد أقاموا فعلاً بين المصريين ، كما أن قبول العبرانيين تسجيل الذل والمهانة على آبائهم الأولين لمجرد القص والرواية ليست من الأمور التي يسعنا تقبلها مع ما نعرفه من غرور وغطرسة أبناء القبائل الرحل ، وتفاخرهم غير المحدود بأسلافهم أو بمن ينحدرون منهم .

وإزاء كل هذه التناقضات يحار المرء باختيار المسلك الذي يجب أن يسلكه في حل هذه المعضلة ، ولذا أجنح إلى الاعتقاد بأنه ليس لقصة إقامة اليهود في مصر نصيب من الحقيقة ، حتى إن كانت جد جزئية ، ومن هنا أرى أن نظرية السيد هوكو كريسمان هي أكثر النظريات قرباً من الحقيقة ، لمناسبة تأريخه لتأريخ المصادر اليهودية على الرغم مما في تفاصيلهما من اختلاف واسع .

ومن خلال مختلف النظريات التي تكونت حول هذا الموضوع يخال لي أن الأمر يتلخص : أن جماعة من القبائل الرحل التي تكونت منها فيما بعد قبائل يوسف ومناسا وبنيامين ولربما قبائل أخرى ، حصلت من الدولة المصرية على إذن يخولها الإقامة في المنطقة الواقعة ما بين الدلتا والصحراء العربية الغنية بالمرعى فتمركزت فيها ، ولكنها تعرضت فيما بعد من قبل أحد الفراعنة إلى أعمال السخرة الشاقة ، فتمردت تحت زعامة موسى على الدولة المضيفة ونزحت إلى صحراء سيناء حيث تنقلت قبائلها أمداً طويلاً بحثاً عن الماء والكلأ إسوة بغيرها من القبائل التي كانت فيها ، ومع الزمن تكاثرت كما تكاثرت مواشيها فضاقت بها سيناء فلم يكن لها بد من البحث عن مراع أكثر صلاحاً فاتجهت أنظارها نحو أرض كنعان ولكي تتمكن من التسلل إليها لم

يكن لها معدى من التحالف فيما بينها، وهكذا جازفت باقتحام تخوم كنعان، ولقد دامت محاولاتها زمناً طويلاً، ومع ذلك تمكنت من ترسيخ أقدامها شيئاً فشيئاً في المناطق التي استضعفت كياناتها، فكان منها من قبلت كضيفة مؤقتة، ومنها من كانت تغزو ومن ثم ترتد، ومنها من استوطنت نهائياً بصورة من الصور وانتهت جميعها في النهاية بأن تحضرت بعد أن كانت مكونة من رعاة الشاة الرحل[1].

وفيما يتعلق بالمعلومات الواردة في مكتشفات تل العمارنة والباحثة عن العبرانيين، يصر أنها تتعلق فقط بأقدم غارات الرحل والتي أسفرت عن احتلالهم لمدينة نابلس (القصة المروية في سفر التكوين والتي تشير إلى إقامة إبراهيم ومن ثم يعقوب وأولاده في نابلس) مؤقتاً، والتي طردوا منها فيما بعد نحو 1400 قبل الميلاد، وهي لا تعني قطعياً بأن اليهود احتلوا كنعان في ذاك العصر الذي كانت فيه كنعان في أوج حضارتها وقوتها، فلا يعقل أن تصبح لقمة سائغة لغزاة ضعفاء أمثال القبائل الرحل، مع كل ما كانت تملكه من أدوات حربية متطورة، وإذا صح وكان هناك ما يسمى بالغزو أو الاجتياح فالأجدر أن يقال أنه ربما وقع في عهد موت مرنبتاح الذي أعقبه انتشار الفوضى في مصر والمصادف لزمن بدء الانحطاط في كنعان أي في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد[2].

ويختتم لودس نظريته بأن يذكرنا بافتقار المصادر اليهودية لأدلة الإثبات العلمية لرواياتها، وخلو المكتشفات العلمية التام مما يشير إلى الأحداث المروية في تلك المصادر، وينتهي بأن يعترف صراحة باحتياج هذه المصادر إلى الكثير من الجدية والبراهين، وأنها في الواقع ما هي إلا قصص أسطورية وجدت منذ أقدم العصور في المنطقة تناولتها أيد بارعة مغرضة صاغتها بالشكل المناسب لأغراضها ومن ثم أخرجتها وكأنها وقائع ثابتة.

وللتدليل على صحة ما اختتم به نظريته يقول: لو صح أن العبرانيين غزوا كنعان في عصر تل العمارنة أي في عهد أمينوفيس الثالث لكان المفروض أن يكون ولو قليل من الانسجام ما بين ما ترويه مسلة أمينوفيس الثالث التذكارية وسفري يشوع والقضاة اللذين يفترض فيهما في هذه الحالة أن يبحثا عن أحداث كنعان لذات الحقبة الباحثة عنها المسلة التذكارية، وباعتبار أنهما يختلفان في كل ما ترويانه عن أحداث كنعان لا أرى وجود أي ارتباط بينهما وبين الأحداث

---

(1) ليس بين مصر وسيناء بحر، وقد قام الإسرائيليون أثناء احتلالهم لسيناء بمسحها بالكامل فلم يعثروا على أي دليل على صحة خبر الدخول إلى مصر ثم الخروج منها حسب حكايات أسفار التوراة.

(2) انظر حول رسائل تل العمارنة ـ القدس في التاريخ ج 1 ص 12 ـ 14.

المروية من قبل كل منهما، وللتثبت من ذلك يكفي أن نلقي نظرة على الجدول الاسمي للملوك وأمراء المدن التي زعمت مصادر كل من الطرفين انتصار غزاتها عليهم، إذ أن مكتشفات تل العمارنة عند بحثها عن ملوك المدن الكنعانية التي كان يحكمها أمينوفيس الثالث ومن بعده خلفه أمينوفيس الرابع تقول أن أرادهيبا هو الذي كان يملك مدينة القدس، والملك ياباهي كان صاحب كيزر، وحاصور كان يملكها عبدي ترسي. بينما نرى سفر يشوع والقضاة يقولان بأن صاحب القدس كان أدوناي صادق، وحورام كان يملك كيزر، أما يابين فكان صاحب حاصور، وأمام هذا التناقض لم يعد مجال لقبول الزعم القائل بحدوث الغزو في عهد بناة تل العمارنة مهما حاول أنصار المصادر اليهودية تمويهه.

ولم يكتف لودس بهذا القدر في تحليله لما ورد في قصص الأسفار فذهب إلى حد إثبات وجود قصص أسطورية عديدة مشابهة كل التشابه في أحداثها لما جاء في تلك القصص، فتناول قصة الزعامة اليهودية الأولى لحادثة الخروج، فقال أنها توأم قصة سركون ملك أكاديا الشهيرة[1] وقصص نشأة كل من جلجامش (Gilgamosou Gilgamesh) الآشوري، وسميراميس (Semiramis) صاحبة الجنائن المعلقة وبانية بابل، وباخوس (Baccus. ou Dionysos) إله الكرمة والخمر، وبرسه (Persée) ابن زيوس (Zeus) مؤسس الدولة الميسينية (Mycénes) في اليونان وسواهم من أبطال الأساطير.

كما أن لودس في تحليله لقصص سفري اليشوع والقضاة لا يخفي رأيه الصريح بها فيقول عنها بأنها جملة وتفصيلاً قصص أسطورية لا معدى لنا من إهمالها، وهو بذلك يجاري آراء أكثر علماء ونقاد التاريخ الذين تعرضوا لروايات الأسفار.

وإذا أردت أيها القارئ الكريم معرفة المزيد عن أضاليل كتاب الأسفار وأغراض قصصها الغريبة المموهة تحت شعارات الدين وقدسية المعجزات الخيالية فما عليك إلا أن تقرأ ـ المفسدون في الأرض ـ حيث تجد ما يشبع نهمك من هذا الموضوع.

---

(1) إن الحفريات الأثرية في شمال العراق أخرجت للنور لوحة تذكارية تحكي قصة مؤسسة المملكة الآكادية التي قامت في شمال العراق نحو بداية الألف الثالث قبل المسيح، ولقد جاء في هذه اللوحة ما ترجمته بالحرف الواحد: أنا ساركون العظيم ملك أكاديا، وهبتني الحياة أمي الكاهنة التي أنجبتني سراً، ولإخفاء أمرها، وضعتني في سلة من الخوص، أغلقتها علي بالقار، ومن ثم ألقتني في النهر الذي جرفني إلى أن عثر علي الساقي آكي (Akki) الذي تبناني ورعاني وعلمني مهنة البستنة ولما شببت عن الطوق، دخلت في خدمة عشتروت التي وقعت في حبي، فاقترنت بها وهكذا أصبحت ملكاً لأكاديا، التوقيع (Sargon D'agade).

والآن وبعد أن استعرضنا كلما يتعلق بأحداث كنعان من خلال ما نملكه في هذا القرن من مصادر تاريخية وأساليب علمية، بقي علينا أن نوضح للقارئ أضاليل قصص المصادر اليهودية بدءاً من سفر الخروج الذي يعدّ منطلقاً لتاريخ ظهور من نسميهم اليوم بالعبرانيين على مسرح أرض كنعان، وذلك بكشف الملابسات التي تزخر بها قصص هذا السفر والتي تناقض كلياً ما جاء في المكتشفات الأثرية الحديثة، ومن خلال المغالطات والأضاليل اللامنطقية البارزة في تفصيلات أحداثها.

أضاليل سفر الخروج

نحن لن نذهب في إظهار أضاليل قصص السفر إلى حد تناول مراحلها الأولى، التي نعتقد في قدسية ما هو منسجم منها مع مصادرنا المقدسة التي لا تبحث إلا عن الجانب القدسي من السفر وبلا تفصيلات مريبة أو تأريخ مشبوه، ولذا سنستهل تحليلنا بالبحث عن قصة إقامة بني إسرائيل في صحراء سيناء فقط.

يقول السفر: إن موسى عليه السلام بعد أن أقام أربعين عاماً في صحراء التيه، عمد إلى إحصاء بني قومه، استعداداً لغزو أرض كنعان، فوجد أن عددهم كان يربو آنذاك على ستمائة ألف مقاتل جلهم من الجيل الجديد الذي ترعرع في ظل تعاليمه، ومن هنا نفهم أن عدد الذين خرجوا من مصر نساءً ورجالاً كان على الأقل خمسة أضعاف هذا العدد وإلا لما كان منهم ستمائة ألف مقاتل، وبذلك يفرض أن عدد من نزحوا مع موسى كان يربو على ثلاثة ملايين نسمة، مع العلم أن سفر يعقوب قال أنه لما لجأ إلى مصر لم يكن عدد من رافقوه سوى سبعين فرداً، ويذكر سفر الخروج أن اليهود خرجوا من مصر بعد أربعة قرون فقط من دخولهم إليها، إن نفوس هذه الجالية الصغيرة التي تعرضت طويلاً للعسف والظلم والتي عاشت في مصر التي أسماها أكثر من مؤرخ ببلاد الأمراض والأوبئة وخصوصاً في تلك العصور السحيقة التي كان الطب فيها من أعز الأمور منالاً، تضاعف خمسين ألف مرة، هذا إذا قبلنا جدلاً أنه لم يمت منهم أحد قط في غضون مدة إقامتهم البالغة أربعة قرون، وأمام فظاعة هذه المبالغة لا يسع المرء إلا أن يتساءل عن عدد نفوس مصر آنذاك، حتى كانت هذه الملايين العديدة تعد فيها أقلية تسام سوء العذاب مع كل ما تتبجح به الأسفار عن شجاعة اليهود في الحرب والقراع، وعن القوى الهائلة التي كان يملكها فرعون الذي استبد بهم، ومن ثم عن كيفية تمكن هذا العدد الهائل من التجمع ومن ثم الهرب دون أن تشعر بهم السلطات المصرية التي كانت تحصي عليهم أنفاسهم، وأخيراً كيف تمكن هذا

العدد الكبير من الإقامة في صحراء سيناء القاحلة، وهو المكون من أناس عاشوا في أرض مصر الظليلة الكريمة واعتادوا البحبوحة في كل شيء، وأخيراً كيف لم ينقص عددهم بعد أربعين سنة من الإقامة في تلك الصحراء القاحلة مع اعتراف السفر بانقراض تام لجيل الخروج من مصر.

إن هذه الأسئلة التي تفرض نفسها على كل قارئ للأسفار ترغمنا على أن نختار أحد الأمرين، إما القبول بهذه المغالطات بكل بساطة وغباء، وإما الإجابة الذاتية المقرونة بالتفكير الصحيح والمنطق السليم، فعندها لابد لنا من رميها بما تستحقه من الازدراء.

إذ أنه لا يعقل قط أن يتضاعف عدد نفوس البشر بهذه النسبة الهائلة التي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، حتى يومنا هذا الذي أصبح فيه متوسط عمر الإنسان ضعف ما كان عليه في الأجيال الغابرة بفضل ما يلقاه اليوم من عناية طبية ورعاية صحية، وما توفر له من وسائل الرفاه والنعيم، ومع كل هذا نرى أن تضاعف النفوس في أية بقعة من بقاع العالم لم يتجاوز بعد إلا نسبة مئوية محدودة، تكاد لا تتعدى العشرين بالمئة، فكيف يمكننا إذن أن نصدق حدوثها في تلك العصور المتأخرة؟

كما إن إقدام فرعون على استعباد هذا العدد الكبير من أتباعه الذي وصفوا من قبل كاتب السفر بالمقاتلين العتاة، دون أن يحسب لرد فعلهم أي حساب، هي أيضاً ليست بدورها مستساغة بهذه البساطة، لأن الأمر الذي ترويه يتطلب من منفذه أن يكون مالكاً لقوة بشرية تضاهي على الأقل عشرة أمثال قوة من يراد استعبادهم، الشيء الذي يستوجب أن يكون عدد سكان مصر آنذاك ثلاثين مليوناً على أقل تقدير، وهو ما لم يتحقق حتى اليوم على الرغم من مرور أكثر من اثنين وثلاثين قرناً على الحدث الذين نحن بصدد توضيحه، وإذا عرفنا أن المصادر اليونانية الباحثة عن مصر في عهد بتلومة (Ptolémés) مؤسس دولة البطالمة (بين عام 333 و305 قبل الميلاد) تذكر بأن عدد سكان إمبراطوريتهم هذه لم يكن يتجاوز الأربعة ملايين، حتى بعد مرور ثمانية قرون على حادثة الخروج، لوضح لنا مدى جنوح كاتب السفر إلى الاستنباط والتخيل المخجل في تقديره عدد المقاتلين بما يربو على الستمائة وثلاثين ألف مقاتل عدا تعداد الشيوخ والنساء والأطفال الذي نظن أن كاتب السفر أهمله إيغالاً في التضليل، فلو تكرم وأضافه لوجد أن جداء إحصائه قد ارتفع إلى أكثر من ثلاثة ملايين على الأقل، فهل يعقل أن يعمد حاكم مهما كان مستبداً إلى الاستهانة بمصير نصف تعداد شعبه بهذه الصورة؟ وهل يعقل أن يرضى هذا العدد الهائل من المواطنين أن يسام سوء العذاب دون

أن يحرك ساكناً؟ وأن لا يجد مخرجاً من عسف حاكمه إلا الفرار في جنح الظلام تاركاً كل ما ملكت يداه لقمة سائغة لمن أضناه؟

وهل يمكن أن نتصور بأن أمر نزوح هذا الجمع الغفير ظل مكتوماً على المصريين مع كل ما سبقه من مساومات بين موسى وفرعون؟

وهل أوقرت آذان المصريين وغشيت أبصارهم وعميت قلوبهم فلم يعوا ما يدور حولهم حتى ائتمنوا هذه الملايين من اليهود، وتركوهم يسلبونهم ما كانوا يملكون من فضة وذهب؟ طبعاً كلا ثم كلا، فلو أن عدد الفارين كان من الوفرة بمثل ما يزعم السفر لكان المفروض بالأمور أن تتطور بشكل آخر كأن يعمد هذا الجمع الغفير من عتاة المقاتلين تحت زعامة موسى إلى الثورة على فرعون والإطاحة به عملاً بما كان رائجاً آنذاك في مصر، إذ أن أكثر السلالات التي حكمتها كانت في الأصل غير مصرية، مثل قبائل الهيكسوس التي لم تكن حتماً أوفر عدداً من ملايين صاحب السفر، ومع هذا حكمت مصر عدة قرون بالقوة فلم يا ترى أحجم أصحاب موسى عن السير على غرار الهيكسوس، وهم الذين ظلوا كارهين لهذا الخروج مدة طويلة حتى بعد تمركزهم في سيناء؟ وكيف تمكن هذا الجمع الغفير من إغفال المصريين وسلبهم كنوزهم يا ترى؟ ومن خلال هذه المتناقضات نستنتج أن واقع أصحاب موسى كان غير ما يذهب إليه كاتب السفر وهي تتلخص بأن هذه الفئة التي خرجت من مصر كانت مكونة من قبيلة صغيرة انحدرت من يعقوب عليه السلام الذي أم مصر في القرن السادس عشر، وكان عدد أفرادها ضئيلاً وتعيش بمعزل عن سكان مصر الآخرين، فلم يكن بوسعها أن تتمرد على رمسيس الثاني ملك مصر الذي فرض عليها الأشغال الشاقة وسامها سوء العذاب أمداً طويلاً فاستكانت له إلى أن انبرى أحد أبنائها الذي حباه الله عز وجل بالرسالة، وهو موسى بن عمران ليدفع شر فرعون عنها، ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح، حتى مات رمسيس الثاني، ودبت الفوضى في البلاد[1].

فاستغلها موسى وعشيرته، وبادروا إلى الفرار من أرض مصر، واستقروا في عين قديس من صحراء سينا، حيث تمردوا مراراً على نبي الله موسى عليه السلام فاستحقوا بذلك غضب الخالق عز وجل فشتت شملهم تماماً مثلما يرويها القرآن الكريم.

ومما أوردناه يتضح أن قصة الخروج حدثت فعلاً، وبالشكل الذي رواه القرآن الكريم فقط، وكل تصور لها عدا ما ورد في هذا المصدر المقدس فهو باطل قطعاً. فلو كانت القصة كما

---

(1) هذا غير مقبول الآن بناء على الدراسات الحديثة المعتمدة على المكتشفات الأثرية.

ترويها المصادر اليهودية عائدة لجماعة مؤلفة من مئات الألوف وحتى الملايين لما سارت أمورها في مصر بالشكل الذي تقره تلك المصادر، لأن العقل والمنطق يرفضانه ولأنه يغاير المفاهيم التاريخية والسنن البديهية، والدليل على ذلك اعتراف الأسفار بتذمر النازحين مراراً من الإقامة في سيناء ومجاهرتهم بتفضيل العيش في ظل عسف وظلم فرعون على الإقامة في سيناء، فلو كانوا على شيء من القوة لكان الأجدر بهم أن يعودوا إلى مصر حتى باستعمال القوة، ولكن قلة عددهم وضعف قوتهم هي التي دفعتهم في البداية إلى الخروج من مصر وهي التي مكنتهم من التغرير بالمصريين والاستيلاء على كنوزهم، لأن الناس كانوا على ما يظهر لا يعيرون محاولات موسى العائدة لأقلية لا تذكر كبير أهمية، ولأن تلك المساومات كانت تجري بين فرعون وموسى بعيدة عن متناول من كانوا خارج نطاق القصور الملكية، فلو أنها كانت من الأمور المتعلقة بالملايين لشاعت في كل مكان، ولكان المصريون انتبهوا لما يريده بنو إسرائيل من استعارة حليهم، ولما كانوا مكنوهم من سلبها، ولكن قلة عددهم هذه هي التي ساعدتهم في تمويه أغراضهم، وبالتالي هي التي أقعدتهم عن العودة إلى مصر.

وتسمية القرآن الكريم لهم ببني إسرائيل هي من الأدلة القاطعة على أنهم كانوا مجرد فئة قليلة ولذا عني بتسميتهم فيما يخص مراحلهم الأولى ببني إسرائيل أي الذين انحدروا من صلب يعقوب الذي دخل مصر قبل أربعة قرون من الخروج على رأس سبعين من أتباعه، فلو تضاعف عددهم ألف مرة في غضون تلك الأيام لما تعدى نفوسهم السبعين ألف فأين هذا الرقم من أرقام المصادر اليهودية الباحثة عن الملايين؟ ومن ثم لو أن أحفاد إسرائيل كانوا من الكثرة مثلما تزعم تلك المصادر لوصفهم الله عز وجل في مخاطبته إياهم بما يشير إلى حقيقتهم، مثلما تراه يفعل فيما يتعلق بأيامهم التالية حيث يسميهم باليهود.

ومن الناحية التاريخية نجد أن لوحة مرنبتاح التذكارية [إذا قبلنا بقراءتها الزائفة] الباحثة عن غزو كنعان نحو عام 1229 تتفق في تسميتهم مع القرآن الكريم، فتقول رجال من أحفاد إسرائيل إشارة إلى قلة عددهم وحالتهم البدائية، فلو أنهم كانوا على مثل ما يزعمه السفر لكان الأولى بفرعون مصر أن يسميهم بشيء آخر مثلما نعت سواهم ممن أخضعهم بالملوك والشعوب الخ..

ومما شرحنا يتضح بأن قصة العبرانيين التي يرويها سفر الخروج هي في الواقع غير قصة بني إسرائيل التي سطا عليها مؤلفو الأسفار، وجعلوها منطلقاً لأساطيرهم الباحثة عمن أسموهم بالعبرانيين أو اليهود دون وجود أية صلة عرقية أو قومية فيما بينها، اللهم إلا صلة الدين والمعتقد

التي اقتبسها أحد كهنة العبرانيين في القرن العاشر قبل الميلاد من كاهن آخر يظن أنه ربما كان أحد أحفاد الإسرائيليين الذين ثابروا على التبشير بعقيدة موسى عليه السلام بعد تشتتهم في سيناء تكفيراً عما اقترفوه من آثام وذنوب.

وهنا أرى أنه لابد للقارئ من التساؤل عمن يكونون إذاً اليهود والعبرانيون؟ الذين تبحث الأسفار عنهم وعن غزوتهم لبلاد كنعان، وتربط أصولهم ببني إسرائيل بروابط وثيقة، تذهب بها إلى حد سرد أدق تفصيلات أحوالهم المدنية، ووشائج القربى التي تجمعهم بأصحاب موسى عليه السلام.

نعم إن السؤال وجيه جداً، نظراً لما اكتسبته تلك القصص من ثقة مزمنة عمياء لدى الأجيال الغابرة التي كانت تفتقر آنذاك لما يناقضها من الأدلة الحسية أو التاريخية والعلمية أضف إلى ذلك كله حرمان المفكرين ونقاد التاريخ من المس بها باعتبارها مصادر مقدسة، لا يجوز النيل منها أو التعرض لما فيها. أما الآن وبعد أن مزقت المكتشفات الأثرية الحديثة الستار عما تعج به تلك القصص الملفقة من أضاليل وأساطير، وأصبح العلم قادراً على التمييز بين أساليب الأدب وتأريخ لمختلف العصور الغابرة، فلم تعد الإجابة على هذا السؤال الوجيه من الأمور المستعصية، وهي تتلخص بالشكل التالي:

من خلال تدقيق المكتشفات الأثرية الحديثة وتمشيط سطور التاريخ وتصفية ألوف من نظرات ومطالعات علماء ونقاد التاريخ، يتبين بوضوح أنه قبل منتصف القرن العاشر قبل الميلاد، لم يكن بين شعوب منطقة الشرق الأوسط أي أثر لشعب يدعى بالعبراني أو اليهودي، كما ثبت بصورة قاطعة أن اللغة المسماة اليوم باللغة العبرانية وهجائيتها كانتا في الأصل لغة وهجائية شعب كنعان، وليس لهما أية صلة حقيقية بمن اصطلح التاريخ بعد القرن العاشر قبل الميلاد بتسميتهم بالعبرانيين أو اليهود، وهؤلاء في الأصل ليسوا سوى أحفاد رعاة الشاة الذين انحدروا من مختلف شعوب آسيا الصغرى[1] وكانوا يتجولون في صحارى منطقة الشرق الأوسط بحثاً عن الماء والكلأ لتربية أغنامهم، وكانت الشعوب المتحضرة تمنعهم من ارتياد مزارعها خشية تدمير ماشيتهم لها، ولذا كانوا أبداً يعيشون حيث لا يعترضهم أحد، أو حيث يسمح لهم بالإقامة المؤقتة مقابل قيامهم ببعض أعمال السخرة لأصحاب المراعي، أو دفعهم بدل مرعى، أو القيام بحراسة المراعي من يد العابثين، وأحياناً رحمة بهم وبمواشيهم.

---

(1) راجع المفسدون في الأرض، فصل منشأ السامية.

ومما ترويه المخطوطات الأثرية المصرية يبدو لنا أن ملوك مصر كانوا أكثر الحكام رحمة بهم[1] إذ كانوا يسمحون لهم بارتياد المنطقة الشرقية لدلتا النيل التي كانت غنية بالكلأ والماء، ولذا كان الرعاة يفضلون اللجوء إليهم وإلى صحراء سيناء التي كانت شبه خالية من السكان مع موافقتها نوعاً ما لأغراضهم، ومن هنا كانت سيناء وكوشان بمثابة منطقة تجمع لهؤلاء الرعاة عبر العصور، ولكن تفاقم الأمور في منطقة الشرق الأوسط في مستهل القرن الثاني عشر على أثر تعرض سواحلها لغزو قبائل البحر، ولانتشار الفوضى في مصر على أثر موت رمسيس الثاني، حدا بالسلطات المصرية إلى الجنوح نحو منع بلادهم عن هؤلاء الرعاة. فلم يكن لهم بد من التجمع في سيناء التي شحت مواردها مع الزمن، ولم تعد تكفي تلك الجموع من الرعاة، فاتجهت أنظارهم نحو أقرب البلاد لسيناء لعلهم يجدون فيها ما يقيت مواشيهم التي كانوا يعتمدونها في معيشتهم، فلم يجدوا خيراً من أرض كنعان التي كانت كياناتها متعبة من جراء ما عانته من ويلات وحروب آنذاك في مجابهتها غزاة البحر والطامعين الآخرين مثل مصر وسواها.

فعمدت قبائلهم إلى التسلل إليها بشتى الأساليب والوسائل، فاعتمدت بعضها القوة لاقتطاع جزء منها، وبعضها الآخر اختار اللجوء إلى تخوم كنعان بصفة أيد عاملة مأجورة لصالح السكان الأصلاء، بينما تطوع سواها لخدمة الأمراء الكنعانيين، ويبدو أن هذه المحاولات دامت أكثر من قرن إلى أن أسفرت عن تمركز تلك القبائل في بعض مناطق كنعان وغالباً بمحض إرادة أهلها، وبصور مختلفة، وليس بالشكل الذي يرويه كاتب سفر يشوع الذي يزعم أن صاحب السفر ورث زعامة الأسباط من موسى عليه السلام فبادر دون إبطاء إلى احتلال بلاد كنعان عملاً بوصية سلفه، فاحتلها بكاملها في غضون ستة أعوام بعد أن أفنى جميع سكانها ومن ثم قسمها بين قبائل قومه لينعم أفرادها بخيراتها الوفيرة التي أصبحت ملكاً خالصاً لهم لا ينازعهم فيها منازع.

ولكن هذا التلفيق غير المتفق لسفر يشوع يفتضح أمره من خلال شحطات وزلات قلم كاتب سفر القضاة الذي يستهل سفره بقوله أن اليهود بعد موت يشوع استشاروا يهوه بأمر من يجب أن يخلفه فأشار عليهم بأن يعهدوا بقيادتهم لقبيلة يهودا التي كانت تقيم في المنطقة الواقعة جنوب حبرون (الخليل)، وهذا يعني صراحة بأنه لم يكن بين تلك القبائل أدنى ترتيب أو نظام مسبق أو معترف به فيما بينها، وإلا لما احتاج اليهود لاستشارة يهوه وإقامة تنظيم جديد، ولما بدلت القيادة

---

(1) A - Lods (Evolutionde L'humanite'. P. 195.

الموحدة بقيادة جماعية تركزت في قبيلة واحدة، ولما انحصر نفوذ هذه القيادة الجديدة في قبيلة يـهودا وحدها بدليل أنها بادرت بمفردها لمتابعة الاستيلاء على المناطق التي لـم يتـم الاستيلاء عليـها وذلك تنفيذاً لتعليمات يهوه ونبيه يشوع، بينما ظلت القبائل الأخرى قابعة في أمكنتها، وهذه المبـادرة التي انفردت يهودا بها والتي شملت منطقة حبرون وما جاورها من القرى لهي بدورها برهان ساطع على كذب كل ما ورد في سفر يشوع عن قصة الاستيلاء على بلاد كنعان بكاملها، وإلا لما احتاجت يهودا لإعـادة فتح حبرون ومـا جاورهـا، وخصوصـاً وهـي التـي وهبت إليـها مـن قبل يشـوع فـي فجـر الاحتلال، ومن هذه الواقعة وما سيليها من متناقضـات مماثلـة تتـأكد صحـة نظريـات العلمـاء والنقـاد وصحة تحليلنا المنسجم مع تلك النظريات التي تنفي كافة مزاعم السيطرة والاحتلال، أمـا قـول سفر القضاة بأن العبرانيين أقاموا بين الكنعانيين وعبدوا آلهتهم[1] فهو أيضاً اعتراف صريح، وإن كـان غير مقصود، بإقامة العبرانيين في كنف الكنعانيين وخضوعهم التام لنفوذهم، وإلا لما استكانوا لقدرتـهم بينما كانوا سواهم من بني قومهم يقاتلون، كما أنه إشارة صريحة لفقدان الصلات العرقيـة بـين تلـك القبائل، وإلا لما رضيت من زعمت الأسفار أخوتها ليهودا أن تبقى مكتوفة الأيـدي بينمـا كـانت هـي تناضل في سبيل عزة وبقاء إخوتها، وخصوصاً فـي تلـك العصـور التـي كـانت فيـها العصبيـة القبليـة محور كل أمر وكـل تحـرك، كمـا أن اعتـراف السـفر بـأن بنيـامين[2] العبرانيـة قـاتلت يـهودا وشـمعون العبرانيتين بجانب الكنعانيين يعدّ قولاً فصلاً في دعم نظريـة عـدم وجـود الصـلات العرقيـة والقوميـة بين من أسمتهم الأسفار بالقبائل العبرانية، وهو بحد ذاته تأكيد قـاطع لصحـة النظريـة القائلـة بتطـور بعض قبائل الرعاة في خدمة أمراء كنعان.

أضف إلى ذلك أن السفر عند بحثه عن القضاة الذين يزعم أنهم حكموا اليـهود مـدة تقـارب من ثلاثة قرون (المدة الفاصلة بين عهد يشوع وعهد شاؤول يؤكد أن نفـوذ أي مـن هـؤلاء القضـاة لـم يشمل قط كافة القبائل العبرانية، بل كان نفوذ كل منهم محصور بعشيرته وحدها[3] وحتى أنـه يذكـر وجود أكثر من قاض في آن واحد، يعمل كل منهم بمعزل عن الآخر، وضمـن نطـاق قبيلتـه الخاصـة فقط، وهذه الفقرة تعدّ بينة ساطعة لتأكيد صحة النظريـة الآيلـة إلـى أن كـل واحـدة مـن هـذه القبـائل رسخت أقدامها في أرض كنعان بمفردها وبوسائلها الخاصـة وفـي عصـور متفاوتـة الزمـن، كمـا هـي تكريس آخر لوجاهة الفكرة المناهضة لزعم انحدارها من أصل واحد، والأدلـة الدامغـة لصحـة هـذه النظريات تكمن في اعتراف السفر الصريح بالفرقة التي كانت سائدة بين ظهرانيها منذ البداية، ونحن

(1) سفر القضاة، فصل 3 ـ فقرة 5 ـ 6.

(2) سفر القضاة، فصل 3 ـ فقرة 7 ـ 8.

(3) A. Lods (Evolution de L'humanité P. 388).

إن لم نعلل أسباب هذا التنافر والتباعد، وحرص كل منها على استقلالها في شؤونها الدينية والدنيوية بمعزل عن الأخرى لانعدام العرقية واللغوية والاجتماعية فيما بينها، فبماذا إذاً نعللها؟ خصوصاً بعد أن سد السفر علينا كل مخرج عداه، عندما أضاف إلى أن هذه الفرق كرست فيما بينها لمدة ثلاثة قرون طوال، دون أن يشير إلى أي من أسبابها أو عللها.

وإذا ثابرنا على سبر أغوار قصص سفر القضاة لهالنا ما يكمن في ثناياها من متناقضات لسفر يشوع ولتصورات العقل والمنطق، فهو مثلاً يذكر في إحدى قصصه أن قبيلة يهودا احتلت أورشليم «القدس» التي سبق لسفر يشوع أن قال بأن صاحبه قتل ملكها واحتل مملكته بكاملها في مستهل غزوته لكنعان، ومع هذا نراه في مكان آخر من قصصه أيضاً يعود ويعترف ببقاء أورشليم في يد الكنعانيين، أي أنه ينفي صراحة كل ما ذكره عن احتلال القدس في قصصه وما ذكر عنه في سفر يشوع، دون أن يقدم أي مسوغ لهذا التناقض المشين.

وهذه الحادثة ليست الفريدة من نوعها في قصص الأسفار، فهي تعج بمثيلاتها، ومنها قول السفر أن يهودا في غزوتها هذه غزت كافة مدن الجبل وعقرون وأشقلون وغزة، ولكنها تركت مدن الساحل وشأنها خشية اصطدامها بمركبات أهلها الحديدية ذات البأس الشديد في القتال، وهنا نرى أن السفر جعل من عقرون وأشقلون وغزة مدناً جبلية بينما هي كلها مدن ساحلية لم يكن لها يوماً أية علاقة بالمدن الجبلية، وهي لم تكن آنذاك كنعانية والأسفار الأخرى أكدت بقاءها في يد الفلسطينيين حتى بعد تجسد الوجود العبراني في أرض كنعان وقيام ما سمي بمملكة داود بن يسي، فبماذا يمكن للقارئ أن يفسر هذه المتناقضات التي تزخر بها فصول الأسفار، اللهم إن لم يكن بخصب الخيال المقرون بالجهل وخبط العشواء؟

ويا ليت السفر يقف عند هذا الحد في الاستنباط والتخيل، بل يصر على السدور في غيه، ويحدثنا عن كيفية اختيار اليهود لمن أسماهم بالقضاة، فيقول: إن القبائل اليهودية كانت لا تنزع لاختيار قضاة لها إلا عندما كان الكنعانيون أو سواهم يضيقون عليها الخناق أو يستعبدونها، عندئذ فقط كانت القبيلة المتضررة تبادر إلى اختيار قاض لها دون تمييز أو تفريق، ليقود نضالها في صد المعتدين، وهذا الشطط في اختيار القضاء جعل السفر يقدم لنا نوعية عجيبة منهم مثل أهود ابن جيرا بطل قصة الاغتيال الشهيرة[1] وجدعون بن يواش المتخاذل، أو يفتاح بن نون الذي ولد

---

(1) إن قصة اغتيال اهود بن جير الملقب بالأعسر هي شبيهة حرفياً بقصة موسيوس سكافيولا Mueius Scaevola الملقب بأعسر روما الذي اغتال يورسينا الأتروسكي الذي حاصر روما في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وكاد أن يفتحها لو لم يحتل موسيوس على الدخول إليه بحجة تقديم هدية له، وتمكنه من اغتياله، تماماً مثلما يروي سفر القضاة اغتيال أهود لعجلون ملك الكنعانيين (راجع تاريخ روما للقرن السادس صفحة 125).

سفاحا، وامتهن الشقاوة، أو أبيملك قاتل إخوته وبني قومه، أو شمشون الشاب الماجن، وسواهم. على الرغم من اعتراف السفر بوضاعة منشأ وسيرة أكثرهم، عزا إليهم جميعاً بمجرد تسميتهم قضاة ليس الرجوع إلى الصراط المستقيم فحسب، بل الإيغال في التعبد والتنسك، والقيام بدعوة من اختاروه لترك أصنامهم وبعولتهم والعودة لعبادة يهوه رب الجنود، وإلقاء اللوم فيما وصلت إليه قبيلته من الذل والخنوع إلى جنوحها لعبادة أصنام كنعان ومصاهرة أهلها، وكأنني بهؤلاء القضاة لم يكونوا قبل اختيارهم مثل سواهم من عبدة الأصنام والبعول، وكأن عبادة الأصنام في قبائلهم لم تكن إلا نزعة عابرة حديثة، ويؤكد السفر جنوح تلك القبائل ودون استثناء إلى عبادة الأصنام والآلهة الكنعانية، حال وفاة يشوع، كما يعترف صراحة بوضاعة منشأ وأخلاق أكثر هؤلاء القضاة قبل أن يتسنموا سدة الحكم، بل يعترف حتى ببقاء بعضهم على غيهم، بعد أن أصبحوا قضاة، واستغلالهم لمراكزهم الجديدة لاستعباد بني عشيرتهم على أسوأ صورة، مثل القاضي بيملك الذي لم يتورع عن قتل عشرات الألوف ممن ناصروه وأيدوه وتدمير مدينتهم نابلس وزرع أرضها ملحاً كيلا تنبت إلى الأبد، وكل هذا في سبيل الحفاظ على نفوذه[1] أو مثل القاضي يفتاح الذي قتل أربعين ألفاً من قبيلة أفرائيم لتجرؤهم على معاتبته لحرمانه إياهم من المشاركة في إحدى غزواته، ومع كل هذا يزعم السفر أن أكثرهم انتصر على أعدائه بفضل المعجزات الخارقة التي سخرها يهوه لهم بعد أن أعلنوا وأنصارهم التوبة عن عبادة الأصنام.

ولكن يعود السفر ويصرح بأن كل واحدة من هذه القبائل كانت تعود حال إنقاذها من أعدائها لعبادة الأصنام وارتكاب الشرور والآثام، وكأنها لم تكن هي التي قال السفر عنها أنها استجارت بيهوه من ظلم الكنعانيين فقيض لها قاض تابت وأنابت على يده فأنقذها مما كانت فيه من ضنك وعبودية، كما أن بعض القضاة الذين زعم السفر بأن يهوه حباهم بالمعجزات لورعهم وتقواهم لم يترددوا عن ارتكاب الآثام، وكأنني بكاتب السفر فاته ما سبق وأن غلفهم به من مسوح الترهب والصلاح وما أفاضه عليهم من مديح وثناء على الرغم من اعترافه بماضيهم العريق في الشر والإجرام.

ونحن وإن كنا لا نستغرب ولا ننكر قدرة الخالق عز وجل على صنع الخوارق والمعجزات إلا أننا نستبعد أن يمنح أشر مخلوقاته وأكثرهم ميلاً للكفر والنكوث بوعوده قدرة صنع المعجزات وكأنها أمور عادية في متناول أي عابر سبيل، فكيف إذاً يمكننا أن نحمل ما نقرأ في هذه القصص

---

(1) A. Lods (Evolution de L'humanité P. 210).

محمل الجد، أو نعدها قصصاً تاريخية واقعية وهي على ما هي عليه من التناقض والتنافر لكل عقيدة ولكل مفهوم ولما يستسيغه العقل والمنطق.

ومن أغرب محتويات سفر القضاة إصراره العجيب على قص أخبار الانتصارات التي حققها قضاة قبائله على شعوب كنعانية سلف وأن قال سفر يشوع بأن صاحبه كان قد انتصر عليها وأفناها عن بكرة أبيها (مثل الآدوميين واليبوسيين والحاصوريين والفلسطينيين)، ولكن سفر القضاة أغفل انتصارات يشوع، وبعبارة أصح كذب كل ما جاء عنها في السفر المنسوب إليه، وأنكر عليه إفناء تلك الشعوب فأعادها بجرة قلم إلى قيد الحياة ليجعلها أكباش فداء، وأوطانها ساحات مجد وفخار لقضاة سفره، وهو وإن كان على حق في تكذيبه لسفر يشوع الأسطوري، والذي حلق كاتبه في عالم الخيال إلى درجة متناهية في التهويل والتدجيل عندما زعم أن صاحبه أفنى سكان كنعان التي كانت تتكون مما ينوف عن ثلاثين مملكة وقتل جميع ملوكها وأتباعها ولم يبق منهم على قيد الحياة إلا عدداً قليلاً جداً ممن لاذوا بالفرار، ولكنه بدوره لم يكن أكثر تواضعاً من زميله بل بزه في المسلك نفسه بإعادة سرد المسرحية إياها بصورة أكثر دكناً وخرقاً، وبذلك تساوى معه أمام محكمة التاريخ والحقيقة، التي أوحت إلى العلماء والنقاد بأن يصدروا بحق تلك القصص[1] حكمهم العادل بعد أن عروها من ملابساتها، بقولهم عنها أنها أسطورية خيالية، تناقلتها الأجيال تعبيراً عن وضع تلك القبائل الذي ظل متأرجحاً بين المد والجزر طوال الزمن الفاصل بين عهد الاستيلاء المزعوم وارتقاء شاؤول سدة حكم تجمعها، والبالغ بحسب اعتراف الأسفار ثلاثة قرون، عاشت في غضونه تلك القبائل تحت رحمة الكنعانيين اللهم إلا ما ندر، ومع ذلك لابد للقارئ أن يتساءل عن أغراض هذا التناحر في ميدان التخيل والتصور والاجتراء على التاريخ والحقيقة اللذين يلاحظهما بين كتاب الأسفار، وعن مدى الثقة التي يمكنه أن يوليها لقصصهم، ولكن إذ عرف السبب بطل العجب.

وهو أن هذه القصص برمتها ما هي إلا قصص خيالية أسطورية تفتقت عنها مخيلة رواة عهود ما بعد تجسد (ما سمي زوراً وبهتاناً) الوجود العبراني للتغرير بأحفاد رعاة الشاة بغية إيهامهم بأنهم ينحدرون من أصل واحد، ومن ثم بصهرهم في بوتقة واحدة، ليهون استقطابهم حول صناع القومية العتيدة، وليسهل التفافهم حول كيانها المصطنع الذي ظهر لأول مرة للوجود نحو بداية القرن التاسع قبل الميلاد وعلى يد سيد عباقرة الشر صموئيل بن القانة.

---

(1) A. Lods (Evolution de L'humanité) P. 315.

العوامل الأساسية التي أدت إلى تجسد الوجود العبراني في أرض كنعان

مما أسهبنا في شرحه يتضح أن هذه القبائل تسللت إلى كنعان في غفلة من الزمن وتمركزت كل واحدة منها حيث قيض لها، ومن ثم عاشت مدة ثلاثة قرون دون أن تتميز إحداها بكيان خاص بها، بل راحت كل واحدة منها تنهل من حضارة المنطقة التي استقرت بها[1]، ويتعبد أفرادها أصنام وبعول أهلها الأصلاء، ويصاهرونهم ويشاركونهم في كل شيء تقريباً، ومع هذا لم ينصهر الدخلاء تماماً في بوتقة الكنعانيين من جراء التفاوت الأخلاقي والتربوي الذي كان بينهما، إذ أن الكنعاني كان إنساناً متحضراً له تقاليده وأعرافه ومفاهيمه وسننه يسير بموجبها ويعيش على هديها، أما الدخلاء فلم يكونوا ليستسيغوا قط هذه الحياة الرتيبة، إذ كان لهم أيضاً طبائعهم ونوازعهم الخاصة التي ورثوها عن أسلافهم سكان الصحاري والوهاد التي تمرسوا فيها على تحمل شظف العيش وقساوة الطبيعة وتقلباتها، وفوضى الرياح وعويلها، وضراوة الإعصار وومضات بروقها، فتطبعوا بعواملها، فاعتادوا الطوى، واعتنقوا التلون والتبدل، وعبدوا الفوضى، واستنوا الشدة، وأحبوا الظهور والتبجح كما تطبعوا بطبائع مواشيهم وأعدائها الذئاب عشرائهم الوحيدين طيلة الأحقاب التي ظلوا فيها بمعزل عن البشر، فأخذوا عن الكبش صلفه في ميادين القراع الرخيصة، ومن النعجة السكينة بين يدي الجزار، ومن الحمل طيشه وبطره، ومن الذئب خداعه وختله وتعشقه للولوغ في الدماء، ومن الضباع استئسادها في غفلة الراعي وتقوقعها عند الخطر، ولذا عاشوا في كنعان في شبه عزلة عن أهلها الذين كانوا بدورهم يتجنبونهم بقدر المستطاع لغرابة أطباعهم ودناءة أخلاقهم البدائية وشراسة طباعهم الحيوانية، فلم يسد الانسجام بينهما على الرغم مما وجد بينهما من وشائج القربى وصلات الدين، فكان أحفاد الرعاة يتحينون الفرص للانقضاض على الكنعانيين في غفلة عنهم، كما كان الكنعانيون دائماً على الحذر من غدرهم، ولقد أسفر هذا الوضع الغريب عن حدوث معارك عديدة بين الطرفين كانت الغلبة فيها في أكثر الأحيان لأصحاب البلاد الأصلاء، ومن هنا ظهرت للوجود مواضيع قصص الأسفار التي ظلت الأجيال المتعاقبة في كل من الطرفين تتناقلها بالشكل الذي يناسب أغراضها إلى أن تجسد الوجود العبراني المصطنع فدونوها في الوقت

---

(1) هذا لم يعد مقبول علمياً، أبقيناه حفاظاً على وحدة أصل الكتاب.

المناسب ليجعلوا منها منطلقاً لقوميتهم المستنبطة، بعد أن تبلّوها بكل ما يوافق غرائز أحفاد الرعاة، فزعموا أنها كانت لأسلافهم فيها بطولات فذة ومعجزات خارقة، وانتصارات باهرة تخللتها مواقف الخديعة والغدر والخيانة ومن ثم أغرقوها جميعها في بحور من دماء الكنعانيين الذين تصوروا إفناءهم، وأخيراً خرجوا بها مع كل ما فيها مما يندى له الجبين وكأنها مفاخر نادرة انفرد آباء الرعاة في تحقيقها دون العالمين.

ويبدو أن هذه المزاعم راقت لعشراء الذئاب لانسجامها مع مكامن ضمائرهم وأعماقهم المتعطشة للدماء، والمتعطشة للأساطير والخرافات فانخذعوا بها، ومع الزمن اعتنقوها بكل ما تزخر به من معايب ومخاز ودجل حتى غدت راسخة في كل جارحة من جوارحهم يحلمون بها في الحل والترحال، فلم يعد بإمكانهم تصور ما يتنافى معها مهما كان نبيلاً ومنطقياً وهكذا تأصلت في أعماقهم نزعة التعالي والحقد على الأغراب، فاشتد من يومها انعزالهم عن المجموعة البشرية التي ناصبوها العداء باعتبارها من طينة مملوكة ومسخرة لطينتهم التي اختارها يهوه، لتكون وريثته في هذه الدنيا إلى يوم يبعثون، وبما أن الخصال التي أشادت بها تلك المزاعم، كانت في الأصل منبثقة من صميم العوامل التي ورثوها عن أسلافهم رواد الصحارى القدماء، لم يجد صناع القومية العتيدة في أرض كنعان، كبير عناء في إعادة غرسها في نفوس أفراد تلك الفئة الضالة الحاقدة، وذلك عن طريق تجسيدها في تلك القصص الحمقاء، لتكون بمثابة أركان أساسية لإقامة مجتمعهم الخاص الذي عزموا على إقامته فكان لهم ما أرادوه ولو إلى حين.

تبلور الوجود العبراني (أو اليهودي) في أرض كنعان

يختتم كاتب سفر القضاة قصصه بالبحث عن كاهن يدعى عالي الحبر كان يقطن في شيلو (حسب قول السفر) حيث يدير أمور بيت الرب[1] ويحكم بين بني إسرائيل بموجب سنن موسى في الوقت نفسه الذي كان فيه شمشون قاضياً لقبائل الرعاة في الجنوب (أو يهود الجنوب حسب قول السفر)، ولما قتل شمشون استفحل أمر الفلسطينيين ولم يكتفوا باستعباد أهل الجنوب بل أرادوا استعباد يهود المنطقة الوسطى (بموجب اعترافات السفر) فأغاروا عليها واحتلوها ووضعوا يدهم على تابوت العهد وأخذوه بين الغنائم الحربية، فتأثر عالي الحبر من انتهاك الفلسطينيين لحرمة التابوت فمات حالاً تاركاً إدارة بيت الرب لصبيه وربيبه صموئيل بن القانة الذي كان قد وهب من صغره لخدمة الدير من قبل والديه قانه وحنة العاقر من قرية الرمتا في أفرائيم، والذي يفتتح كاتب

---

(1) شيلو هي قرية كانت تقع (حسب قول كاران مؤلف التاريخ وقصص الأسفار) على ستة أميال جنوب غربي نابلس.

سفر الملوك الأول كلامه بخبر مولده ويقول، إن والدته كانت عاقراً فنذرت أن تهب ما تلده إن هي حملت لخدمة بيت الرب في شيلو، فاستجاب يهوه لرجائها، ورزقها بغلام أسمته صموئيل، وقدمته لخدمة الكاهن عالي الحبر وفاءً لنذرها، وهكذا شب وترعرع صموئيل في بيت الرب وفي ظل كاهنه الذي اشتهر بسعة العلم وشدة التقوى، فوجد لديه صموئيل كل مقومات العلم والثقافة التي كانت سائدة آنذاك فغرف من ينابيعها ما طاب له، فأصبح ضليعاً بشرائع موسى عليه السلام وسنن يهوه، فاشتهر أمره بين الناس، حتى عزي إليه مكالمة يهوه وتلقي الوحي منه في سن مبكرة وقبل موت سيده عالي الحبر.

فلما حلت الكارثة بيهود المنطقة سارعوا إلى لقاء صموئيل وعرضوا عليه زعامتهم لينقذهم من الفلسطينيين، فاشترط عليهم أن يكفوا عن عبادة الأصنام ومعاشرة الكنعانيين والعودة لأحضان رب الجنود يهوه، فنفذوا مطالبه، فصعد وإياهم إلى المصفات حيث قدم القرابين ليهوه وابتهل إليه أن ينقذ بني قومه من الفلسطينيين، فعلم أعداؤه بمسعاه فأتوا ليعتقلوه وصحبه، فخاف رفاقه من سطوة الفلسطينيين، فتوسلوا إليه أن يعلي صوته في توسلاته ليهوه ليسمعه كي يبادر إلى نجدتهم، فعمل بمشورتهم، فأرعد الرب وصاح صيحة عظيمة على الفلسطينيين، فشعروا بأن الأرض تميد تحتهم، وتمكن الخوف من أفئدتهم، فرموا أسلحتهم وولوا هاربين[1] فأتبعهم اليهود واستردوا منهم مدينتي: عاقر، وجت.

ولقد زعم لانرمان مؤرخ كتاب (تاريخ الشرق القديم) أن بني إسرائيل أجبروا الفلسطينيين على الاعتراف باستقلالهم بعد أن حكموهم أربعين عاماً ولكنهم أقاموا معسكراً لهم (أي الفلسطينيين) في قرية جبعة لمنع اليهود من حمل السلاح أو اقتنائه خشية أن يغدروا بهم.

كما أن سفر القضاة اعترف بهذه الواقعة التي تعني صراحة بكذب زعم منح الفلسطينيين الاستقلال لأصحاب صموئيل وفرية استردادهم مدينتي: عاقر، وجت وهي تعني بكل وضوح أن الفلسطينيين وهبوهم نوعاً من السلام في ظل إشرافهم ومراقبتهم بفضل الحنكة والدراية التي أبداهما صموئيل في مساومته الفلسطينيين.

ويبدو أن هذه الهدنة التي منحها الفلسطينيون لأصحاب صموئيل ساعدت هذا الأخير كثيرا في تنفيذ مخططاته إذ ازداد نفوذه بين أفراد قبائل الرعاة بكونه منقذهم من جور الفلسطينيين، كما وثق الفلسطينيون به باعتباره ممثل أتباعه وضامن مسلكهم، وبذا بدأ جولاته في مختلف القرى

---

(1) سفر الملوك الأول 5 ـ ويوسيفوس في كتابه السادس التاريخ اليهودي، الفصل الثاني.

الآهلة بقبائل الرعاة، حيث كان يدعوهم لنبذ أصنامهم وآلهتهم، والالتفاف حول رب الجنود، رب موسى وهارون وآباء إسرائيل الذي كان يوهمهم بأنهم أحفادهم ويقص عليهم ما يخطر على باله من قصص خرافية يمزجها بما تعلمه من الكاهن عالي الحبر من الأمور الدينية وسيرة موسى والآباء الأولين، وما اطلع عليه من الأساطير والخرافات التي كانت متداولة في البلاد منذ أقدم العصور[1] ويرغبهم بها بما سيلقونه من دعم يهوه رب الجنود، القادر على نصرهم مثلما نصر أسلافهم، وبالخيرات التي ستتدفق على أحفادهم عندما يتمكنون من امتلاك أرض كنعان التي وعد يهوه بملكيتها آباءهم الأولين، وتجنباً لتمردهم حوّر لهم شرائع وسنن موسى عليه السلام التي يظن أنها نقلها وتمرس عليها على يدي الكاهن عالي الحبر، بالشكل المناسب لغرائزهم وطباعهم بعد أن موهها بمظاهر القدسية وغلفها بغلائل الروحانيات، ومن ثم خرج بها عليهم يدعوهم لاعتناقها باعتبارها سنن الأولين ولكي يعممها أوفد ولديه إلى المناطق المأهولة بقبائل الرعاة ليبشرا ببدعته الجديدة، ويبدو أن هذه التعاليم لقيت هوى في نفوس أحفاد الرعاة فأقدموا على النهل منها، وكان هذا مما شجع صموئيل في توسيع نشاطه، فبادر إلى فتح مدارس خاصة في كل من: الرامة، وبيت آيل، وأريحا، وجلجال، لتخريج أنبياء ومبشرين بالبدعة الصموئيلية، وفي غضون نصف قرن تمكن من تخريج الألوف من مريديه الذين انتشروا في طول مناطق الرعاة وعرضها يدعون الناس إلى الإيمان بدينهم الجديد، المكون اسماً من شريعة موسى وجسماً ومفهوماً من نوازع وميول وغرائز رعاة الشاة البدائية وما تراكم عليها من رواسب الأحقاد الدفينة في أعماق أصحاب سيد البدعة نحو الكنعانيين وسواهم ممن أذلوا أحفاد الرعاة طيلة قرون ثلاثة.

وشاءت الأقدار أن يطول أمد الهدنة بين أصحاب صموئيل والفلسطينيين أكثر من ربع قرن تمكن خلالها عملاء البدعة الجديدة من استقطاب الكثير حولهم، فاشتد ساعدهم وبدأوا يتحرشون من جديد بجيرانهم، فتفاقمت الأمور فخشي صموئيل مغبتها فتفتقت مخيلته عن فكرة جديدة، تخيلها قمة الكمال في تحقيق وحدة جهود أنصاره فأوحى إليهم بصورة غير مباشرة فكرة حاجتهم لمن يقود نضالهم في مجابهة أعدائهم أسوة بغيرهم من الكيانات التي كانت قائمة آنذاك في أرض كنعان، فتبلورت الفكرة في أذهان أنصاره وسارعوا لمطالبته بإقامة كيان مستقل لهم على أن يرأسهم ملك يختار بموجب السنن الصموئيلية، وهكذا تحققت فكرته التي راودته طويلاً.

---

(1) C.F. Burney (The Book of Judges 2-em Edit. Londres Rivine Tons) 1920.

تجسد الوجود اليهودي في فلسطين

إذا عددنا تاريخ الأسفار منطلقاً جدياً في حساب الاحتمالات لجاز لنا أن نقول: صموئيل ابن القانة ولد نحو عام 1115 قبل الميلاد، وإذا اعتمدنا نظرية كلمت في وصف حياة صموئيل بن القانة[1] التي تخالف مطالعة مسيلمة التاريخ اليهودي بهذا الخصوص، لعلمنا أن صموئيل قضى أربعين عاماً في خدمة الكاهن عالي الحبر، قبل أن يصبح قاضياً لعشيرته، ويبدو أنه لم يصرف كل هذه المدة الطويلة عبثاً، فعدا عن تثقيف نفسه، وصقل مداركه، يظن أنه انكب على دراسة نفسية أفراد القبائل التي كان ينتمي لإحداها، كما تعمق في سبر أغوار الخلافات التي دامت مدة ثلاثة قرون بينهم وبين الكنعانيين، ومن ثم وضع مخططاته للمستقبل على ضوء ما استنتجه من تجاربه ومشاهداته ودراساته، ولما قيض له أن يحكم بني عشيرته سارع إلى مهادنة الفلسطينيين، وقبل بشروطهم القاسية التي جردت أنصاره من حق التسلح، بغية كسب الوقت، لتقوية دعوته بين أنصاره في ظل الأمن والسلام، تماماً كما يقوقع الضبع بانتظار الوقت المواثم، ولقد اتعظ صموئيل بمن سبقوه من زعماء الرعاة الذين استعجلوا الأمور فأصيبوا بالإخفاق وخيبة الأمل، لأنه عدهم خرافاً طائشة أعماها بطر الربيع، فوقعت لقمة سائغة بين فكي الذئب، ولذا جعل الصبر مسلكه في تطوير شؤونه متمثلاً بأجداده الذين صبروا في الماضي على قساوة الطبيعة في الصحراء متمثلين بالنعجة المستضعفة بين يدي الجزار، وبفضل ذلك تمكن من استقطاب الكثير من أحفاد الرعاة حوله، حتى اشتد ساعده، عندها فقط خرج من جحره ليدفع بأحفاد عشاق لمعات البروق ليندفعوا خلف النظام الملكي البراق، وذلك بكل تأن وروية حتى لا تتجاسر البروق الملكية المرتقبة من جرف ما حققه من السيطرة الدينية على أتباعه، ولذا رأيناه يعارض أنصاره في تنصيب ملك عليهم[2] بحجة أنها تتعارض وسنن موسى، مع أنه كان الموحي الأساسي للفكرة، ولما ألح عليه أنصاره، عاد ونزل عند رغبتهم بزعم موافقة يهوه شريطة أن يظل الملك المنتخب خاضعاً لشرائعه، وأمام حجته المثلى التي زعم أن مصدرها يهوه، انصاع مريدوه للأمر الواقع وقبلوا بأن يكون تكوينهم الجديد من القمة إلى القاعدة تحت رحمة رجال الدين العتيد وإلى الأبد، فعندما

---

(1) كلمنت مؤلف كتاب (في تاريخ العهد القديم).

(2) المفسدون في الأرض، فصل مملكة شاؤول.

سارع إلى تحقيق حلمه ونصب شاؤول وسط سيل من المعجزات المزعومة، مثلما يرويها سفر الملوك الأول، ومن ثم تمثل مثل أجداده بالذئب وكشر عن أنيابه ودفع صنيعته شاؤول لمقاتلة العمونيين الذين كانوا من أضعف الكيانات الكنعانية على أمل أن يحقق له نصراً رخيصاً يعلي قدره بين أتباعه فكان الأمر على ما خمن أو بالأحرى على ما صوره هو بنفسه في سفر الملوك الأول والذي يعزى كتابته مع سفر الملوك الثاني إليه، وهكذا تمكن من تجسيد الوجود العبراني في بقعة صغيرة تكاد مساحتها لا تتعدى الخمسمائة كيلومتر مربع، ومن ثم أطلق عليها اسم مملكة يهودا، وظل يشرف على سير الأمور فيها مستعيناً بمريديه وأنبياء مدارسه مدة ثمانية وثلاثين عاماً، ولكن أخفقت مراميه في أواخر أيامه إذ بدأ شاؤول وأتباعه بالتمرد على سلطته وسلطة أنبيائه فعندها سارع للبحث عن خليفة له أكثر إطاعة منه، فوقع اختياره على داود، فمسحه ـ إن صح القول ـ ملكاً على العبرانيين مثلما يرويه في سفر الملوك الثاني، وبصورة خفية انتظاراً للفرصة المواتية، أو بالأحرى بالشكل الذي أراده من خلال سفره (الملوك الثاني) الذي ينسب كما قلنا كتابته إليه، وبما أن قصة موته تقول أنه مات قبل شاؤول بعامين أي قبل الأحداث التي يرويها السفر المذكور، فإذا كان فعلاً كاتب السفر مات قبل حوادثه فيكون عندئذ لا مندوحة لنا من القول بأن محتويات السفر من أحداث عدا اسم داود بن يسي الذي مسحه قبل موته خليفة لشاؤول، تكون عبارة عن تخيلات مسبقة لما راود مخيلته من تمنيات سعيدة لشعبه المصطنع ومليكه المرتقب، فإذا نحن اعتمدنا رأي يوسيفوس[1] بهذا الصدد لجاز لنا أن نعدّ هذه الأسفار مجرد روايات خيالية مثل سفري يشوع والقضاة، وفي هذه الحالة يتضح لنا سبب المغالطات الكائنة فيه وخاصة فيما يتعلق بعظمة مملكة داود التي تتعارض مع كل المفاهيم التاريخية ومضامين المكتشفات الأثرية الحديثة، أما إذا جنحنا إلى الأخذ بأقوال الآخرين، نرى أنفسنا مرغمين على التصدي لملابسات سفري صموئيل على ضوء المكتشفات العلمية والمعلومات التاريخية، ولذا سنعمد إلى شرحها في الفصل التالي إحقاقاً للحق وتنويراً للقارئ.

ومع كل هذا يجب أن نعترف بعبقرية صموئيل الذي عاش ثمانية وتسعين عاماً حقق في غضونها أكبر خدعة تاريخية عرفها الإنسان، والتي أسفرت عن شرور أثقلت كاهل البشرية وما زالت تثقلها منذ أقدم الأزمان حتى الآن.

---

(1) يوسيفوس ـ التاريخ اليهودي ـ يثبت فيه أن صموئيل هو الذي كتب سفري الملوك الأول والثاني، بينما يقول آخرون أنه لم يكتب منهما إلا الأربعة والعشرين فصلاً أما الباقي فكتب من قبل النبيين جاد وناتان، والقائلون بهذا الرأي هم من أنصار الكنيسة الكاثوليكية المعترفة بقدسية تلك الأسفار؟!.

ونحن عندما نقول أن صموئيل حقق أكبر خدعة تاريخية نعتمد في ذلك على نظريات علماء ونقاد التاريخ الذين أعياهم البحث المرير في بطون التاريخ وأضناهم التحقيق العلمي الطويل في ثنايا المكتشفات الأثرية، لعلهم يعثرون فيها على ما ينير الطريق أمامهم في سعيهم للوصول إلى كنه الأسفار، ولكن تحقيقاتهم وبحوثهم ذهبت أدراج الرياح، فلم يعثروا في كل تلك المصادر إلا لما يشير لسطحيتها وزيفها وبعدها عن الواقع والحقيقة، ولذا عمد أكثر علماء العصر الحديث إلى الصراحة في تقديرهم لكنه الأسفار (خلافاً لمسلك علماء العصور القديمة الذين سايروا أضاليل الأسفار خشية لوم المؤسسات الدينية، ومراعاة لشعور الرأي العام الذي وثق طويلاً بقصص الأسفار بحكم طول سماعه لها) فرموا القفاز في وجه الاعتبارات القديمة، ونشروا استنتاجاتهم عنها بكل جرأة وشجاعة ليكشفوا الخدعة الصموئلية الكبرى التي طال أمد ثقة الناس بها، وبغية إيضاح أسباب تسميتنا لبدعة صموئيل بالخدعة الكبرى نثبت فيما يلي بعض نظريات واستنتاجات العلماء والنقاد حول تلك البدعة.

يقول لودس[1]: إن كافة قصص الأسفار القديمة، هي في الأصل أساطير عريقة في القدم كانت تتناقلها الأجيال عبر العصور الغابرة بدليل أن لكل منها توأماً تماثلها تماماً إلا في أسماء أبطالها، ولإثبات نظريته هذه يستشهد بقصة أوليس وبوليفم (Ulysse et Polyphéme) الشهيرة بقصة الراعي المخادع والصياد الشرس، المماثلة في أحداثها وتفصيلاتها لقصة يعقوب وآدوم، كما يشبه قصة يوسف في تفصيلاتها لقصة أدين المصرية الواردة في بردي أوربيني (Papyrus Orbiney).

والعلامة جدعون هوت (Gedéon Huet) يقول: إنها نسخة طبق الأصل عن القصة الأسطورية القديمة التي تحكي أن صبياً كان يتنبأ لنفسه مستقبلاً عظيماً ويتبجح دون هوادة أمام والديه بأنه سيصبح ملكاً متوجاً، مما حدا بوالديه إلى الاعتقاد بجنونه، فقتلاه تخلصاً من عاره، ولكن الصبي عاد بموجب القصة بمعجزة إلى الحياة، ومر بتجربة مماثلة لتجربة يوسف، انتهت بأن صاهر الملك، ومن ثم خلفه على العرش، وتشاء الأقدار أن تجمع الصبي بوالديه، وهما على أسوأ حال، فيتعرف عليهما قبل أن يعرفاه، فيحسن وفادتهما ومن ثم يعود بهما بالذاكرة إلى رؤياه التي كان يقصها عليهما.

---

(1) A. Lods – (Israel des Origines Au Milieu du VIII Siecle) P. 325.

وقصة الضحية يشبهها أكثر من عالم بقصة إيفيجيني (Iphigenic) اليونانية ابنة آغا ممنون التي نذرها والدها قرباناً للآلهة إن هي أرسلت الرياح ليتمكن من إخراج أسطوله من أولوس، وتقول القصة: إن الآلهة قبلت رجاءه فأقدم على الوفاء بنذره ولكن ابنته أنقذت من الذبح بالصورة المروية نفسها في قصة الضحية.

كما يؤكد أن قصص البشائر الواردة في الأسفار تشابه في كل تفاصيلها قصة فيلمون وبوسي (Philimon et Bauci) العريقة في القدم، وفي صدد القصص المتعلقة في سيشم (Sichem) وبانوئيل (Penouel) وبيتيل (Bethel) ومحنائيم (Mahnaim) وحبرون (Hebron) فيجنح العلماء إلى القول بأنها قصص أسطورية وجدت في كنعان منذ الأزل، وكان الناس يتناقلونها عصراً بعد عصر على أساس أنها عائدة لسلالات بشرية سادت ثم بادت على سبيل العبرة والعظة.

والعلامة كونكل (M. Gunkel) في بحثه عن هذه القصص يذهب إلى القول أن قصة نزاع عيسو مع أخيه، ما هي إلا قصة نزاع الأخوين أوسوس وميمروموس (Memroomos 'SA»Ousoos») الكنعانية العريقة في القدم أخذها كتاب الأسفار وجعلوها إحدى قصص أجدادهم زوراً وبهتاناً.

أما المكتشفات الأثرية الحديثة فلقد كشفت بدورها الستار عن بعض ملابسات تلك القصص، ومنها المخطوطات الحرانية الباحثة عن أميرة حرانية كانت تدعى سارة[1] وعن ملكة تدعى ميلكا (Milka) كما أسفرت حفريات قرطاجة عن العثور على لوحة تذكارية تبحث عن إله الجحيم وتسميه بالإله ناحور[2]. وهذه النظريات والمكتشفات العلمية، ومن ثم عدم وجود ما يؤكد صحة مزاعم قصص الأسفار في بطون التاريخ، والتناقضات الغريبة التي تعج بها تلك القصص هي التي أثبتت عدم صحتها ودفعت بنا إلى تسميتها بالخدعة الكبرى لطول ما كتب لها من عمر وثقة، على الرغم من أسطوريتها وسطحية جذورها.

ولكن سبب تسمية آثار هذه البدعة بأشر الأعمال عبر التاريخ، فهو أكثر هولاً مما يتبادل لذهن القارئ، لأن نتائج هذه البدعة لم تقف عند حد جمع شمل قبائل مختلفة الأرومة واللغات، وصهرها في بوتقة واحدة بغية تحقيق مكاسب سياسية واجتماعية مؤقتة بل تعدتها إلى

---

(1) تزعم المصادر اليهودية أن سارة زوجة أبرام كانت أصلاً حرانية.

(2) تقول المصادر اليهودية أن ناحور هو أحد أسلافهم الأولين.

قلب مفاهيم التعاليم الموسوية بكليتها، وإخراجها من قدسيتها وإنسانيتها وذلك عن طريق إظهار الله جل قدره بمظهر أسير رغبة أصحاب البدعة الجديدة، حتى بلغت بهم القحة حد التجديف بحقه، بزعم انتصار أحد أسلافهم عليه وإرغامه على تلبية رغباته، واحتكارهم لألوهيته دون العالمين، وتخصصه بالانتصار لحقدهم الأسود على الآخرين، ودعمه الأبدي لآثامهم وشرورهم نحو بني البشر أجمعين، وبغية تشجيعهم على ارتكاب الموبقات والشرور دون وازع أو رادع، جاءتهم البدعة بحجج مثلى، فزعمت أن الله عز وجل اشترع إبادة غير اليهود ليركنوا إليه في مناجزتهم لكنعان ولسواها من الأمم، وافترت على خليل الله وأظهرته بمظهر تاجر الرقيق الأبيض، وعلى يعقوب الذي اتهمته بالسرقة والاحتيال لتغرس في نفوسهم عبادة المال ومبدأ تسويغ الغاية للواسطة، ورمت موسى بالعهر والمجون مع غريبة عن قومه، لتشجيعهم للاعتداء على أعراض غيرهم، واتهمت داود باغتيال بعل عشيقته لتسوغ لهم ارتكاب التآمر والزنا بحق الأغراب، وادعت أن سليمان عبد الأصنام والبعول ليغرر بعبادها وينال منهم مراميه، لتدفعهم إلى التظاهر باعتناق أديان الآخرين بغية تحقيق أغراضهم، هذا عدا المئات من أمور التوعية السافلة التي تزخر بها قصص الأسفار الرامية إلى حض أنصار البدعة المذكورة بغريزة الاستخفاف بكل القيم والمبادئ والمفاهيم الإنسانية والدينية عندما تصطدم مع مصالحهم الشخصية أو القومية، والظاهر أن أحفاد عشراء الذئاب استساغوا هذه التوعية حتى غدت مفاهيمها شعارات لأجيالهم المتعاقبة، وهذه الناحية بالذات هي التي حدت بنا إلى عدّ هذه البدعة بأشر الأعمال التي عرفها التاريخ لأن الإنسانية بشكل عام والعروبة بشكل خاص عانت الكثير وما زالت تعاني من مساوئ ذيولها حتى اليوم.

حقيقة عهد الوجود السرابي

من الأمور المذهلة لقارئ المصادر اليهودية، جرأتهم غير المحدودة في الاستخفاف بفطنة وتفكير قراء مؤلفاتهم عبر الأجيال، وهذه الجرأة الغريبة تتجسد في المتناقضات العجيبة التي تزخر بها كتبهم، فهم مثلاً في الوقت الذي يزعمون فيه أن مملكة يهودا تألقت في عهد شاؤول حتى أرهبت كافة الكيانات المجاورة لها، يعودون ليخبرونا أن ناحاش العموني تحداها وأذل أتباعها في يابيش، كما يعترفون ببقائها على عهدها مع الفلسطينيين في مراعاتها لشروط معاهدة عدم التسلح التي أبرمت في عهد صموئيل بن القانة، وبالتالي يصرحون بانهيارها التام وانقسامها لكيانين هزيلين في أعقاب مقتل مؤسسها العظيم.

وفي وصفهم لعلاقات داود مع شاؤول يذكرون أنها تفاقمت لدرجة التآمر والاقتتال مما أدى إلى التجاء داود لأعداء شاؤول، ومناصرته لهم، ومن ثم التقاعس عن نجدة بني قومه في معركتهم الأخيرة التي أسفرت عن انهيار كيانهم المزعوم، ويضيفون بأن داود ظل يلاحق اشبوشت خليفة شاؤول الذي انفرد بحكم محنائيم إلى أن قضى عليه غدراً وغيلة، وألحق به كل من ناصره في البداية ليخلو له الجو من منافسيه على العرش.

ومن ثم يتداركون الأمر ليخبرونا أن تأثر داود على شاؤول كان عظيماً، ويستشهدون لذلك بمرثيته التي ألقاها أثناء المناحة التي أقامها لذكراه والتي قيل عنها أنها دامت سبعة أيام.

وفي صدد عظمة أعمال توسع داود يذكرون أن باكورة انتصاراته كانت الاستيلاء على أورشليم، ومن ثم طرد الفلسطينيين حتى مشارف قطرة التي كانت تقع على خمسة وعشرين كيلومتراً غربي أورشليم وانتصاراته على الموآبيين (الذين كانوا يقطنون في جنوب البحر الميت) والصوبائيين (الذين كانوا يقطنون في السهل الواقع غربي جبل الشيخ) والعمونيين (الذين كانوا يقطنون شرق الأردن) وآرامي دمشق التي أسفرت على حد زعمهم عن قتل ملوكهم وإخضاع بلادهم لسلطته التي عمت كافة البلاد الواقعة ما بين النيل والفرات، وبعد كل هذا يعودون ليخبرونا بقيام تحالف عسكري بين ملوك العمونيين والصوبائيين والآراميين والمعكيين تحت زعامة حنون لمقاتلة داود، فيعجز داود في البداية عن مجابهتهم فيتركهم وشأنهم، ولكنهم يستدركون الأمر ويضيفون بأن داود عاد وكر عليهم فشتت شملهم، ودخل عمان ظافراً وقتل مليكها واستولى على تاجه الذي كان يزن قنطاراً من الذهب الخالص ومن ثم عاد لمقر ملكه أورشليم.

ومما أوردناه يظهر لنا جلياً مدى استخفاف كتاب اليهود بإدراك القارئ، فهم مثلاً يريدون منا أن نصدق ما قالوه عن عظيمة وهيبة مملكة يهودا، مع اعترافهم بإذلال أتباعها من قبل ناحاش (الذي لم يكن سوى مجرد زعيم قبيلة سلف وإن قال عنها كتاب سفري اليشوع والقضاة بأنها فنيت أكثر من مرة على أيدي أبطال سفريهما)، وبقائها تحت رحمة الفلسطينيين (عملاً بمعاهدة عدم التسلح التي أبرمها معهم صموئيل بن القانة) حتى آخر أيام مؤسسها التي انتهت بالانهيار والتمزق.

ويرومون من وراء ذكر رثاء داود لسلفه إقناعنا بما كان يكنه من وفاء وحب لشاؤول، وذلك بعد أن حدثونا طويلاً بما كان بينهم من كراهية وحقد أدى إلى انضمام داود لإخصام شاؤول وتقاعسه عن إنجاده في آخر لحظة من حياته، وأخيراً قضائه على ولده وكافة أنصاره دون رحمة أو شفقة.

وفي مجال تعظيم شأن داود نسبوا إليه الاستيلاء على القدس وطرد الفلسطينيين حتى مشارف قطرة، وبسط نفوذه على كافة البلدان الواقعة بين النيل والفرات، وهنا فاتهم أن كلاً من سفري يشوع والقضاة سلف لهما وأن نسبا الاستيلاء على هذه المدينة لبطل قصصهما، كما سلف لكاتب سفر داود نفسه أن زعم بأن داود أودع دروع جليات الفلسطيني في أورشليم بعد أن قتله في أول معركة اشترك فيها تحت إمرة شاؤول، وهذا يعني أن أورشليم كانت تخضع آنذاك لشاؤول وإلا لما أمكن داود أن يضع دروع ضحيته فيها، كما فاتهم أن سفر القضاة نسب احتلال المنطقة الواقعة فيها قطرة لأول مرة لقبيلة يهودا، ومن ثم عاد وذكر أن صموئيل بن القانة استعادها من الفلسطينيين مع المدن الواقعة فيها مثل عقرون وذكرين.

فما كانت حاجة داود لطرد الفلسطينيين حتى مشارفها؟ طالما أن كلاً من يهودا وصموئيل تمكنا من إبعاد الفلسطينيين إلى أبعد من مشارفها، كما أن تورطهم في زعم شمول مملكة داود لكافة البلاد الواقعة ما بين النيل والفرات واضح من خلال بحثهم عن أعمال توسعه التي حصروها ضمن نطاق دائرة لا تبعد أبعد نقطة فيها عن القدس بأكثر من مئة كيلومتر، وإغفالهم التام لما حدث منها خارج تلك الدائرة الضيقة، كما أن قصة قيام تحالف عسكري بين زعامة المناطق الواقعة ضمن هذه الدائرة الضيقة لمناوءته تحت زعامة العمونيين الذين سلف لسفري يشوع والقضاة أن ادعيا إفناءهم أكثر من مرة من قبل أبطال قصصهما، يؤكد أيضاً هذا التورط الغريب.

وإزاء كل هذا التخبط العشوائي في سرد الحوادث التاريخية، والازدراء الوقح للواقع والحقيقة، والاستخفاف المعيب بإدراك الناس التي اعتنقها كتاب اليهود في التدوين والتأريخ لا يسعنا إلا أن نتساءل عما توخوه منها مع أننا على يقين تام من استحالة حصولنا حتى على جواب عابر أو حتى غير مقنع، لأننا على ثقة بأن كل من تعرض لأضاليل ومناقضات كتاب اليهود عبر التاريخ لم يحصل قط على أدنى رد لسيل تساؤلاته المنبثقة من مؤلفاتهم، ولذا لم يعد أمامنا إلا أن نسلك الطريق الوحيد في تعرية هذه الأضاليل وهو إدانة كتابها من خلال مزاعمهم إياها. وبغية التوضيح نقول: إن فرية مملكة يهودا فضحها اعترافهم ببقائها ملتزمة بمعاهدة عدم التسلح التي تعني صراحة خضوعها التام للفلسطينيين ومحاولة إظهارهم لداود بمظهر الصديق الوفي يكذبها تصريحهم بإقدام داود على الغدر بابن شاؤول وأنصاره، أما زعم احتلاله لأورشليم، يعني أن ما جاء بالأسفار الثلاثة المتقدمة على سفر الملوك الثاني والمتعلق بأورشليم، هو بأكمله محض افتراء، والعكس بالعكس، كما أن هذا القول يناسب كل المناسبة لما يعود في توضيح ملابسات قصة طرده للفلسطينيين حتى مشارف قطرة.

أما أسطورة إمبراطورية بلاد ما بين النيل والفرات، فتنهار بدورها بفضل إحجام كاتب السفر عن سرد تفاصيل الحملات الداودية خارج أرض كنعان وتكريس بحثه عن انتصاراته ضمن نطاق الدائرة الضيقة التي حددها الكاتب بنفسه، أما أكذوبة التاج الذي يزن قنطاراً من الذهب الخالص فنترك أمرها إلى القارئ الكريم لعله يجد له رأساً قادراً على اعتماره، لينقذنا من مغبة التعرض لها.

وهكذا نرى أن كل ما دوَّنه كتاب اليهود من قصص وأسفار تتعلق بما أسموه بتاريخ أسلافهم الأولين يعوز سردها للجدية وتحتاج أحداثها للانسجام مع العقل والمنطق، وتفتقر تفصيلاتها للدقة والصحة، هذا عدا عن أن مجمل محتوياتها تقريباً يتعارض مع الحقيقة والتاريخ، ولذا فهي لا تستحق كبير عناية من الوجهة التاريخية، وخصوصاً المتعلق منها بالعهود المتقدمة على تاريخ السبي والتشرد، والسبب في ذلك هو خلوها الشبه التام مما يتفق مع ما ورد في المصادر التاريخية المختلفة ومع ما أسفرت عنه المكتشفات الأثرية الحديثة التي كشفت الستار عن كثير مما كنا نجهله من أحداث العصور الأعرق قدماً من العصور التي تنتسب إليها الأحداث المروية من قبل كتاب اليهود.

ومع كل هذا يجب أن نعترف بصراحة أن الشعب الذي كونه صموئيل بن القانة من أحفاد قبائل الرعاة تمكن نحو عام 1055 ق. م تحت زعامة داود بن يسي من إيجاد كيان خاص به ضمن

المنطقة الجبلية المحيطة بمدينة القدس[1]، لا تتجاوز مساحتها نصف مساحة فلسطين الحالية، وذلك بعد أن أقام أفراد تلك القبائل مدة أربعة قرون طويلة في أرض كنعان، أمضوها بأعمال الشغب والفوضى، حتى ضجت الأرض ومن عليها من شططهم، ولكن هذا الكيان ما كان قط بمثل العظمة والسعة والقوة التي أراد كتاب اليهود أن يظهروه بها من خلال أسفارهم ولم يكن إلا مجرد مماثل للعشرات الكيانات التي كانت قائمة آنذاك في أرض كنعان والتي ظلت قائمة بعد زوال الكيان اليهودي المصطنع بعدة قرون.

أما المواضيع اللا أخلاقية واللا دينية التي نسب ارتكابها لكل من داود وسليمان والتي حشرت حشراً في قصص كتاب اليهود، فلا نجد مسوغاً لتدوينهم إياها، اللهم إن لم يكن على سبيل العبرة والعظة أو التوجيه والتوعية، وإن كنا أكثر ميلاً للقول بأنها دونت بغية تحقيق الناحية الثانية، إذ أنه لا يعقل أن يسلك كتاب اليهود هذا المسلك المشين مع أسلافهم بعد أن لم يبقوا في مدحهم زيادة لمستزيد.

ومن هنا نجنح إلى الظن بأنهم أوردوها على سبيل التوجيه كي تكون بمثابة مسوغات لأحفادهم لارتكاب أية موبقة مهما كانت بشعة طالما كانت تؤمن لهم مصالحهم الخاصة والعامة، ولتشجيعهم في هذا المضمار زعموا أن داود ارتكب إثم الزنا وجريمة التآمر والاغتيال لإشباع نهمه الجنسي، وإنه استخف بشرف ابنته حفاظاً على حياة وسمعة ابنه الذي اعتدى عليها، وضاجع صبية صغيرة وهو في أرذل العمر لتأمين راحته، ومن ثم تخاذل وفر أمام بطش ولده العاق حفاظاً على حياته، وإنه أمر باغتيال ابنه تخلصاً من منافسته، وإن سليمان ذبح شقيقه وقتل وشرد كل من ناصره صوناً لعرشه من المنافسة، وأنه عبد بعول وأصنام زوجاته ليؤمن صداقة ذويهن ويحصل على دعمهم، على الرغم من كل ما عرف به داود من تقوى وورع وما اشتهر به سليمان من حكمة ودراية، ومع ذلك أجازا لنفسيهما الإقدام على هذه المعاصي تحقيقاً لأغراضهما، وهذا يعني أن لا مانع لليهودي العادي من الامتثال بهما عندما توصله المعصية لمبتغاه، وأنه لا وزر عليه منها طالما ارتكبها من كانت له كل تلك الحظوة والقدسية لدى يهوه رب الجنود.

ويبدو أن هذه التوعية هي التي أراد كتاب اليهود غرسها في نفوس أحفاد الرعاة، وإلا لما اشتهروا عبر التاريخ بتعشقهم لمضامينها، وهذه الشهرة هي التي أوحت لنا بأن نذهب هذا المذهب في تحليل أسباب تدوين الآثام المنسوبة لكل من داود وسليمان، وإلا ما الذي كان الغرض منها يا ترى؟

---

(1) مجدداً نذكّر أن تأسيس القدس كان في حوالي المائة الثامنة قبل الميلاد، وارتبط ذلك بعوامل داخلية وخارجية كان أهمها الصراع بين مصر وبلاد الرافدين على مناجم الحديد وصنع البرونز، قبل عصر الحديد.

بداية انحطاط الكيان العبراني المصطنع

من الملاحظ أن فضل قيام الكيان العبراني في أرض كنعان[1] لم يكن وقفاً على جهود وبدعة صموئيل، ولا على بطولات شاؤول وداود المزعومة أو دراية وحكمة سليمان وحدها، بل كانت هناك عوامل أخرى ساعدت العبرانيين كثيراً لتحقيق هذا الكيان، منها تضعضع أحوال الكيانات الأخرى من جراء تنازعها الطويل مع الغزاة، ومع قبائل الرعاة أنفسهم (أي العبرانيين) أو فيما بينها، كما أن انكفاء الدولتين الكبيرتين مصر وبلاد ما بين النهرين على نفسيهما، وإمساكهما عن التدخل في شؤون المنطقة بشكل عام وأرض كنعان بشكل خاص فيما بين بداية القرن العاشر وبداية القرن التاسع قبل الميلاد، ساهم كثيراً في إفساح المجال أمام أتباع صموئيل لإقامة هذا الكيان، إذ أن خلو المنطقة من سلطة أكثر قوة من قوة كياناتها الهزيلة المعتادة جرأ أحفاد الرعاة على الاندفاع نحو أهدافهم دون حساب، وفي هذا الفراغ السياسي الذي دام قرابة قرن يكمن أيضاً سر الشطط في التأريخ والتدوين البارز في المصادر اليهودية، إذ أن كتابها الذين لم يكن أحد منهم أصلاً من معاصري الأحداث التي تطرقوا للبحث عنها، استنسبوا هذا الفراغ وزمنه ليملؤوه بأحداث تاريخية بالشكل المناسب لإبراز أمجاد أسلافهم من خلاله، وذلك استغلالاً لغياب الحضارتين الكبيرتين اللتين اعتادتا في الماضي على تدوين كل أحداث المنطقة، مثلما أثبتتها المكتشفات الأثرية العائدة لهما.

ولقد رأينا من فحوى قصص الأسفار العائدة لأحداث القرن التاسع قبل الميلاد، مدى تأثر كتاب اليهود بعودة مصر وبلاد ما بين النهرين إلى الاهتمام بأمور المنطقة، وذلك من خلال مظاهر التدني التدريجي الذي طرأ على غوائهم المعتاد في مؤلفاتهم الباحثة عن أسلافهم، باعتبار أنها أصبحت معرضة للنقد أو التجريح من قبل مؤرخي مصر وبابل.

ويبدو أن هذه الفكرة بالذات هي التي أرغمت كتاب اليهود الباحثين عن عصور ما بعد القرن العاشر قبل الميلاد أن يعترفوا بأن كيانهم المصطنع الذي تألق وازدهر لم يحافظ على مكتسباته العظيمة إلا مدة وجيزة قدرت بأقل من سبعين عاماً (أي مدة حكم داود وسليمان) انتهت بموت سليمان الذي أعقبه انقسام الإمبراطورية الكرتونية إلى كيانين هزيلين، أطلق على

---

(1) تاريخياً لم يقم للعبرانيين أي كيان فعلي موثق في فلسطين، أما ما ذكره كتاب أسفار العهد القديم فبعيد كل البعد عن الحقيقة التاريخية.

أحدهما اسم مملكة إسرائيل مع أنها قامت بفضل مساندة مصر لمؤسسها يرابعام الذي ربط مصيرها منذ البداية في مصر التي اشتهر من عهد سليمان بعمالته لها، وأطلق على الثاني اسم مملكة يهودا.

وهكذا تجلت بداية انحدار الكيان العبراني نحو النهاية المحتومة لكل ما هو مصطنع ومزيف، ولقد حاول كتاب اليهود عبر العصور إيهام الناس بأهمية هذين الكيانين من النواحي السياسية والعسكرية بإضفائهم عليهما صفات الكيانات الحرة المستقلة، فخانتهم أقلامهم في سردها لأحداثهما، إذ أنها اعترفت بأن الخصام الذي انفجر بينهما في فجر يوم الانقسام ظل قائماً بينهما حتى أزيلا من الوجود في أرض كنعان وهذه الحقيقة تظهر من خلال سطور الأسفار الباحثة عنهما، والتي تقول أن ملك مصر الذي استنجدت إسرائيل به نحو عام 970 ق. م ليناصرها على يهودا، سارع إلى إلحاق هذه الأخيرة بعداد محمياته مثل إسرائيل وسواها بمجرد احتلالها، ومن هنا يتضح أن كلتيهما فقدتا استقلالهما وحريتهما بعد مدة وجيزة من حدوث الانقسام.

كما أن الأحداث الأخرى المروية عنهما ليست أكثر من عملية تكريس لواقعهما الأليم هذا، إذ أن قصة انتصار يهودا على زارح الكوشي الذي قيل أنه أتى ليخضع يهودا بعدما اجتاح مصر على رأس مليونين من الجنود نحو عام 960 ق. م، لا يمكن أن تؤخذ مأخذ الجد لما فيها من مغالات في تحديد تعداد الجيوش الذي تجاوز الملايين، الشيء الذي لا يتناسب مع حجم تعداد النفوس المفترض للشعبين اللذين زعم اقتتالهما، ولا مع سعة الميدان الذي قيل أن الجيشان تصارعا في حومته إذ أن استنفار هذا العدد الهائل من المقاتلين في تلك العصور السحيقة لم يكن من الأمور الممكنة، حتى ولا في عصور ماكيدونيا وبيزنطا وروما، حيث تمكنت فيها تلك الشعوب من احتلال العالم القديم بأسره تقريباً بجيوش لم يبلغ تعداد إحداها المليون وحتى النصف مليون من الجنود قط، فلا يعقل إذاً أن نصدق بأن زارح واسا تمكنا من تحقيق هذه الخارقة في تلك الأزمان البعيدة وخصوصاً إذا أضفنا إلى هذه الصورة المفاجأة الغريبة التي يفاجئنا بها كاتب السفر مباشرة بعدها والتي يقول فيها: إن إسرائيل كادت أن تقضي عام 952 ق. م على يهودا قاهرة زارح بالأمس، ولولا أن التجأت إلى ملك دمشق الصغيرة (الذي لم يكن تعداد جيشه ليزيد على بضعة ألوف من الجند حتماً) الذي سارع لنصرتها وأنقذها من إسرائيل.

ومن هنا يتضح لنا أولاً سخف قصة معركة وادي صفاته، ومن ثم مدى قوة الكيانين العبرانيين العسكرية، وصلابة استقلالهما ومقدار ما كان لهما من سيادة وحرية التي يروم كتاب

الأسفار زعمها، هذا عدا عن اعتراف الأسفار بوقوعهما تحت سيطرة مختلف الكيانات التي جاورتهما، مثل خضوع إسرائيل عام 917 ق. م لدمشق، ومن ثم إذلالهما معاً عام 893 ق. م من قبل الموابيين، ومن بعدها وقوعهما مراراً تحت سلطة الفلسطينيين - والآدوميين والعرب، وعودتهما عام 884 ق. م معاً لنير عبودية دمشق، ناهيك عن اقتتالهما فيما بينهما دون هوادة لحساب سادتهما من الكيانات المجاورة، وأخيراً انصهار إسرائيل في البوتقة الآشورية عام 856 ق. م الذي أعقبه زوالها نهائياً من أرض كنعان نحو عام 721 ق. م، والتحاق يهودا بدورها في الكيان البابلي نحو عام 723 ق. م الذي أسفر عن إجلاء أكثر سكانها إلى بابل نحو عام 583 ق. م وتشرد ما تبقى منهم في الأقطار المجاورة لأرض كنعان.

ومما أسهبنا في تفصيله يتضح بجلاء أن أحفاد قبائل الرعاة الذين كوّن منهم الكيان العبراني المصطنع، عادوا حال وفاة سليمان بن داود إلى نزاعاتهم القبلية القديمة وتمزق شملهم تماماً وعلى الصورة نفسها التي كانوا عليها قبل التفافهم حول صموئيل بن القانة وبدعته، إذ أن عوامل اختلاف أصول قبائلهم وتنوع مفاهيمهم وتقاليدهم ظلت كامنة في نفوسهم، ولذا رأيناهم يتفاعلون بها وتظهر أعراضها في صفوفهم كلما حانت لها الفرص، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر النزاع الذي استشرى بين شاؤول وداود والذي نتج أصلاً عن اختلاف منحدريهما، والتنابذ الذي قام بين داود ويهودا من جهة، وشايع بن يكرى وبنيامين من جهة أخرى، بسبب تمييز داود ليهودا على سواها من القبائل، والخصام الدموي الذي نتج بين داود وابنه أبشالوم بتحريض من خؤولته الذين كانوا ينتسبون لغير قبيلة داود، هذا عدا الخلافات العديدة التي قامت في الماضي بينهم لأسباب محض قبلية.

وهذه العصبية القبلية العمياء التي غفت مدة وجيزة تحت مظاهر التآلف والتآخي التي تحققت بينهم بفضل جهود ودعوة صموئيل بن القانة ما عتمت لتستيقظ في نفوسهم فجر موت سليمان بن داود لتدمر هذا الكيان الوهمي، وتعيدهم لأصالتهم في تعشقهم للتمزق والتطاحن، فكان الانقسام الذي أعقبه سقوط كل من الطرفين تحت النفوذ الأجنبي بعد أن أصبحتا مجرد مشيختين صغيرتين تتناوب مقدراتهما أيدي مختلف الكيانات المجاورة لهما، حتى انتهيا بالزوال على أيدي أمراء بلاد ما بين النهرين.

وهكذا قضى أحفاد الرعاة على الجانب البراق مما أوجده صموئيل بن القانة في أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وعلى ما نظن أن سكان أرض كنعان قدروا آنذاك بأنهم تخلصوا

من هذه الشرذمة الضالة التي أقلقت أمنهم، وأنزلت الرزايا في أرضهم، وجعلتهم لقمة سائغة بين أشداق الغزاة والطامعين، من جراء عمالة أفرادها لكل غاصب ودخيل.

ولكن خاب تقديرهم إذ أن أسس بدعة صموئيل التي غرست في نفوس أحفاد الرعاة، وذكريات أيام مجدهم الغابر القصيرة، كانت أمتن من أن تتبخر وتتلاشى بالسرعة التي توهمها أهل كنعان لأن عدد مريدي صموئيل الذين كانوا يتخرجون من مدارسه التي أسسها في مستهل أيامه بين أحفاد الرعاة كان أكثر غزارة من أن يضمحلوا تحت سيوف أتباعهم الذين اشتهروا طيلة أيام الكيانين العبرانيين بقتل أنبيائهم وكهنتهم (أعني خريجي مدارس الأنبياء الصموئيلية) كما أن أطماعهم التي انبثقت من خلال السلطة الدينية التي استنها صموئيل وأورثهم إياها، والتي أصبحوا بموجبها أوصياء إلى الأبد على الشعب وزعمائه، كانت أوسع وأعز من أن يتخلوا عنها خشية الموت أو الفناء، ولذا ثابروا أبداً على نشر تعاليم صموئيل مع توسيع مفاهيمها نسبة لمصالحهم، وصقل مغازيها تجانساً مع مدارك العصور والأزمان وتحوير مراميها تفاعلاً مع الأحداث والأيام على الرغم من كل ما تعرضوا له من تعذيب وقتل طيلة وجودهم في أرض كنعان.

ولقد برهنت الأيام أن هذا العناد والإصرار اللذين تحلى بهما خلفاء صموئيل الذين أخفقوا في بداية الأمر في منح كيانهم القومي المصطنع، العمر المديد الذي أرادوه له، والذين أخفقوا أيضاً في استقطاب أفراده الكلي حول تعاليم بدعتهم الدائمة التغير والتطور، نجحوا في الأخير وفي عصر النفي والتشرد بالذات في إدراك الكثير من غاياتهم القديمة، وذلك على أثر هذه الكارثة التي ألمت بأتباعهم، والتي أثلجت صدور أهل كنعان الذين ذاقوا الأمرين على أيديهم، وإزاء هذه المصيبة التي اقترنت بشماتة من كان يحيط بهم، لم يكن لهم بد من الاستسلام الكلي لقيادة وإراءة خلفاء صموئيل، وخصوصاً بعد أن انصهرت لغاتهم القبلية القديمة في اللغة الكنعانية التي أصبحت لغة لهم بفضل إقامتهم الطويلة في أرض كنعان، وهكذا التفت فئاتهم المختلفة في البلاد التي شردوا فيها حول رجال الكهنوت بعد أن كانوا لا يتورعون عن قتلهم كلما دعوهم لعبادة يهوه، ونبذ عبادة الأصنام والبعول التي لم ينفكوا قط عن عبادتها طيلة إقامتهم في أرض كنعان.

نعم لقد هزم رسل صموئيل في إيجاد قومية ووطن لأخوتهم أحفاد الرعاة ولكنهم انتصروا في منحهم عقيدة دينية زعموا زوراً وبهتاناً أنها العقيدة الموسوعة السمحاء نفسها مع أنهم عمدوا منذُ البداية إلى تحريفها وتبديلها، حتى غدا ظاهرها الرحمة، وباطنها الحقد والضغينة

وسداها الكفر والإلحاد واللا أخلاقية والعهر والفساد، ولحمتها الاستئثار والتميز والعنصرية البغيضة، ومن ثم أسدلوا على هذه الرذائل ستاراً من مزاعم الفضيلة والقدسية التي اقتبسوها من تعاليم موسى عليه السلام، ذراً للرماد في العيون وإغفالاً للأفكار والعقول، كما كان النصر حليفهم في إيهام البشرية طويلاً بصدق محتويات مصادرهم التي ألفت أكثرها إن لم تكن جميعها في عصر المنفى والتشرد، وعلى أساس - الاستنباط والاختلاق، بفضل إلحاقها بأسفار موسى التي زعموا بأنها تكملتها وصنوها من حيث الاعتبار والقدسية، وهم حتى هذه الساعة يتمسكون بهذه المزاعم على الرغم من اكتشاف زيف أكثر قصصها المتعلقة بأحداث التاريخ.

وهذه الانتصارات في الميادين التي أوردناها هي وحدها التي ظلت على قيد الحياة عبر الأزمان، بعد أن تبخر أحفاد الرعاة وكل ما يمت إليهم بصلة الدم والعرق.

إذ أن فلول الشعب المصطنع وكهنته الذين شتتوا في كل أصقاع العالم القديم، لم ينكفئوا على أنفسهم في فجر تشردهم، بل عمدوا إلى الاختلاط بالأقوام التي استضافتهم خلافاً لما عرف عنهم في عصور ما بعد ظهور المسيحية، فشرع كهانهم بالتبشير لمعتقدهم حيثما حلوا، ولم يعدموا بين صفوف تلك الشعوب من كانت غرائزهم وميولهم تتطابق مع ميول وغرائز من صنعت هذه البدعة لأجلهم، وبهذه الصورة تكاثر عدد أنصارهم في كل مكان وإن ازداد تنوع قومياتهم وأصولهم لدرجة أصبح معها نسبة المنحدرين بينهم من صلب الرعاة تكاد أن تكون غير جديرة بالذكر، وهكذا تمكنت الموسوية المشوهة من الانتشار في كل قطر وبلد في العالم القديم، وعمت مفاسدها وشرورها كافة شعوبه، فأصبحت المصيبة عامة وكاملة بعد أن كانت خاصة بأرض كنعان التي انقلب تفاؤل سكانها إبان النفي إلى شؤم عم فيما بعد دنيا الشرق بأسرها بالشكل الذي سنوضحه في الفصول القادمة.

عودة الوباء أو المرحلة الثانية للوجود العبراني في أرض كنعان

من المعلوم أن بختنصر أجلى سكان يهودا مرتين[1]، ففي المرة الأولى خص بالنفي النخبة المختارة من أبناء أورشليم الذين أسكنهم في عاصمة ملكه دون قيد أو شرط، وهذه الحياة الحرة هي التي مكنتهم من الاندماج السريع بالوسط البابلي الذي بهرهم سلطانه ورقيه، فراحوا يقلدون مضيفيهم في كل شيء حتى أن شبابهم لم يتورعوا عن الانتساب للمعهد الملكي لينهلوا فيه العلم والمعرفة البابلية أسوة بأهل البلاد.

وتقول المصادر اليهودية أن أربعة من أبناء قومهم، وهم دانيال وحنانيا وميشائيل وعزريا[2] بزوا كافة أترابهم في تلك المدرسة، فاختارهم بختنصر لإدارة مملكته، واعتمدهم في كافة أموره، وهذا يعني أن أحفاد الرعاة تمكنوا من تثبيت أقدامهم في منفاهم بشكل لامع، ومن هنا نفهم أن حضارة بابل العظيمة طغت عليهم وأذابت أكثرهم في بوتقتها حتى كان منهم من اعتمدهم سيد البلاد أكثر من أبناء قومه، وتحاول المصادر اليهودية أن تخفي هذه الحقيقة بزعمها أن هؤلاء الأربعة رغم حداثة سنهم وكونهم من المجلين ورغم تلقيهم علومهم في مدرسة الملك ظلوا أمناء على عقيدتهم الموسوية الأصلية، وتعزو اصطفاء الملك لهم لما كانوا عليه من قدرة عظيمة في كشف المستقبل وتأويل الأحلام التي خصهم بها يهوه باعتبارهم أنبياء المهجر، كما أنها تعزو إليهم مزية تطور الشريعة القديمة وإخراج اليهودية إلى حيز الوجود (Judaisme) مع كل مذاهبها وفرقها المعروفة حالياً، وتقول أيضاً أنهم لم ينقطعوا قط عن تنبيه بني قومهم على أن ما أصابهم ما كان إلا نتيجة خروجهم على يهوه وتمرغهم في رجس عبادة الأصنام والبعول، ولذا سيظل يهوه غاضباً عليهم ولن يعيدهم لأرضهم الموعودة إلا إذا عادوا لعبادته دون سواه، فعندها فقط سيعود لنصرتهم وسيعيدهم إلى مجدهم الغابر، ولكي يتعلق أتباعهم بدعوتهم أحدثوا له صلوات وترانيم، مثل ترنيمة عشق صهيون المعروفة، وسواها مما اعتاد اليهود منذ ذاك الوقت

---

(1) هذا غير موثق فقد هاجم نبوخذ نصر فلسطين مرة واحدة، لاقى خلالها الردع من القوات المصرية، ولم يدخل فلسطين بعد، علماً بأنه احتل مدينة كان اسمها ايحادو في الشمال الشامي، ثم كانت هنالك مدينة على الفرات دون ماري كان اسمها أورشامو.

(2) عمل هؤلاء في البلاط الأخميني في مدينة الفرس Persepolis (تخت جمشيد حالياً).

على تلاوتها، وهي تعزو القسم الأكبر من الإصلاح الديني مثل بدعة الصوم، وعيش التقشف إلى كبيرهم دانيال الذي كان على حد زعمها أكثرهم تقرباً من ملك بابل.

ومن ناحية ثانية تصرح المصادر ذاتها أن اليهود وخاصة الذين أجلوا في المرة الأخيرة انسجموا حال وصولهم مع تقاليد وأعراف البلاد، وانكبوا بشراهة مثالية على الأعمال الزراعية والتجارية حتى أنهم أصبحوا في غضون مدة وجيزة من أغنى أهل بابل، ومن خلال هذه الروايات التي تبلها كتاب اليهود كعادتهم بالكثير من المعجزات أو الخارقات التي نسبوا حدوثها إلى أيدي أبطالها لينطلقوا منها إلى تفسير الأمور بالصورة الموافقة لأغراضهم، دون التقيد بنصوص تلك القصص التي تعاكس مزاعمهم وتدين تفاسيرهم بشكل قاطع، نستنتج أن الفئة الأولى التي جليت إلى بابل بمئة وأربعة وثلاثين عاماً قبل زوال يهودا من أرض كنعان عمدت منذ البداية إلى تطبيق التوعية الصموئيلية في تنظيم شؤونها ولذا تظاهرت بالرضوخ للواقع، وعملت وكأنها لا تبغي سوى العيش بسلام بين البابليين، وأوعزت لشبابها بأن يتشابهوا في الأمور المعيشية بأترابهم من أهل البلاد، على أن يحافظوا سراً على معتقداتهم التي ورثوها عن أجدادهم، وأن يوثقوا فيما بينهم عرى الترابط والتآخي، وأن ينسوا تماماً عنصرياتهم وقبلياتهم التي كانت سبب زوال مجدهم وأن ينصهروا فقط في البوتقة الدينية التي كانت منذ البداية الرباط الوحيد فيما بينهم، ليتمكنوا من مجابهة المصيبة التي حلت بهم، ويبدو أن هذه التوعية نجحت في حينها على أكمل وجه بدليل تفوق شبابهم في المهجر لدرجة اكتساب بعضهم ثقة ملوك بابل وبالتالي الوصول إلى التحكم في مقدرات قاهريهم في عقر دارهم، ومسلكهم هذا عدا عن أنه مكنهم من السيطرة السياسية على البابليين وفر لقادتهم ومفكريهم الوقت والسبيل اللازمين لصقل معتقداتهم على ضوء تجارب الماضي، فانكبوا على إعادة النظر بشؤونهم الدينية والدنيوية ومن ثم خرجوا على العالم بما أسموه بالتلمود البابلي والنهضة البابلية وما أتبعها من مصادر وما اشتق عنهما فيما بعد من مذاهب صوفية واجتهادات فقهية، ما زالت قائمة حتى اليوم، كما أن الامتيازات التي حصل عليها أفراد هذه الفئة ساعدتهم كثيراً في مد يد العون لمن أجلوا إلى بابل في المرة الأخيرة، فسارعوا إلى تركيزهم في أحسن الأماكن، وقدموا لهم ما لزمهم من المساعدات المادية والمعنوية، حتى مكنوهم من الحصول على العيش الرغيد والأمن المستفيض، في ظل رعايتهم وعنايتهم الدينية والدنيوية[1].

---

(1) راجع (المفسدون في الأرض)، فصل العقيدة اليهودية ورأي علماء التاريخ فيها.

وشاءت الأقدار أن يميل نجم بابل نحو الأفول في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، ويلمع في بلاد فارس نجم كورش الكبير (Cyrus Le Grand) الذي بدأ في بسط سيطرته على بلاد فارس نحو عام 525 ق. م فسارع أحفاد الرعاة إلى استغلال هذا الحدث الجديد واتصلوا سراً بالعاهل الفارسي[1] وعاهدوه على التعاون للنيل من بابل التي كان كورش يسعى لتدميرها. ولقد كانت خيانتهم هذه إحدى الأسباب الجوهرية التي مكنت كورش من القضاء على الدولة البابلية واحتلال عاصمتها نحو عام 540 ق. م.

فلما استتب الأمر لكورش لم يضن على من ساعدوه في فتح بابل بالهبات والمعونات، فبادر بالسماح لمن يرغب من اليهود بالعودة للقدس نظراً لما أظهروه له من تعلقهم بها.

وفي صدد تنفيذ هذه المنحة الكورشية، تطلع علينا المصادر اليهودية بأخبار متناقضة كعادتها، ومنها أن اليهود الذين سعدوا جداً بقرار العاهل الفارسي الذي جسد لهم أغلى أمنية يترنمون ليلاً ونهاراً وبدون استثناء بذكراها ويحلمون بتحقيقها، لم يبادروا للعودة بقضهم وقضيضهم، كما كان المنتظر منهم.

بل اكتفوا باستئجار متطوعين من فقرائهم لتحقيق هذه العودة، وزودوهم بالمال اللازم لهم لإعادة بناء هيكلهم في القدس، وكأن الأمر لا يخص إلا هذه الفئة الفقيرة دون سواها، وهكذا تكونت قافلة من الفقراء تحت زعامة زربابل ويشوع بن يوصادق، ضمت اثنين وأربعين ألف وثلاثمائة وستين رجلاً من غلاة المتعصبين وسبعة آلاف وثلاثمائة وسبعة وثلاثين عبداً، ومئتي مغنٍ ومغنية[2]، وبعد أن زودت بالمال وجهت إلى القدس، بينما ظل الأغنياء قابعين في بيوتهم ومزارعهم في بابل وكأنهم ما كانوا يوماً يتمنون ويحلمون بهذه العودة وكأنه الأمر لا يعنيهم من قريب أو بعيد. فما أشبه يهود الأمس بيهود اليوم؟

والأمر الثاني الملفت للنظر في قصة هذه العودة، هو جسامة تعداد أفراد القافلة الذي بلغ حداً يعادل اثني عشر ضعف من أجلوا عام 581 ق. م إلى بابل الذي حدد سفر الملوك الأخير عددهم فقط بأربعة آلاف وستمائة نسمة، هذا إذا صرفنا النظر عن عدد من لبث منهم في بابل، والذي يقول عنهم السفر بأنهم كانوا الأكثرية الساحقة من يهود بابل، فمن أين يا ترى خرجت هذه الجموع التي بلغت خمسين ألفاً؟ وكيف تكاثر عدد المنفيين في غضون جيل واحد حتى أصبح

---

(1) C.H. Guignebert (Le Monde Juif) Paris 1950.

(2) راجع (المفسدون في الأرض) ـ فصل المعتقدات اليهودية

تعداد أقل من نصفهم ما يقارب من خمسين ألف نسمة؟ والجواب على هذه الأسئلة يكمن أولاً في تعشق كتاب المصادر اليهودية المطلق للمغالاة، ومن ثم كون أكثر أفراد هذه القافلة لم يكونوا أصلاً من أحفاد الرعاة، بل من البابليين المعوزين الذين اعتنقوا اليهودية، أو الذين افتقروا لكل شيء في بابل ولم يعد لهم ما يربطهم بها، فاستأجرهم أغنياء اليهود ليرافقوا القافلة ويساعدوا أفرادها في تحقيق غاياتهم[1].

ومن فحوى ما سردناه عن مسلك اليهود في هذه الحقبة يتجلى لنا مدى تأثرهم بالتوعية المستقاة من شريعتهم، فهم مثلاً، لم يروا ضيراً في التظاهر باعتناقهم لمعتقدات قاهريهم، بغية كسب ثقتهم والتوصل إلى السيطرة والنفوذ ليؤمنوا لأنفسهم ولمن وفدوا عليهم فيما بعد كريم العيش ووفرة المال، بينما ظلوا في الخفاء على عقيدتهم ليتمكنوا من مساعدة أبناء جلدتهم، ولما اشتد ساعدهم، لم يتوانوا عن خيانة من ائتمنهم، للنيل منه انتقاماً لنفيهم، فلما قيض لهم الحصول على موافقة سيدهم العتيد للعودة إلى القدس التي ظلوا طيلة أعوام عديدة يتغنون بعشقها، أحجم سادتهم وأغنياؤهم عن العودة، فأوفدوا بعض فقرائهم ومن غرر بهم كهّانهم وبعض المرتزقة والمأجورين من الأغراب، ليعيدوا لهم مجدهم الغابر في أرض كنعان وكل ذلك امتثالاً لعقيدتهم التي تأمرهم بتحقيق الغاية مهما كانت الوسيلة.

وهكذا عادت هذه القافلة إلى القدس وحطت رحالها حول هذه المدينة المقدسة التي ابتلاها الله بهم بين عام 535 ـ 530 ق . م .

ولما كانت عودة اليهود هذه غير سارة لسكان البلاد، أخذهم الجيش الفارسي تحت حمايته لكي يمكن العائدين من بناء مدينتهم وهيكلها، ولكن نواياهم السيئة التي أبدوها نحو سكان البلاد وحماتهم عرقلت بناء الهيكل طيلة أعوام عديدة، ولما اعتلى داريوس عرش فارس سمح لهم بإقامة هذا الهيكل[2]، فأتموا بناءه نحو عام 516 ق . م، ولقد عاش اليهود طيلة حكم داريوس وخلفائه على أحسن حال، إذ كانوا ينعمون بحماية أستير زوجة داريوس التي عرفت بدهائها وذكائها اللذين مكناها من القضاء على هامان وأتباعه الذين أرادوا الحد من غلواء اليهود وتصرفاتهم الشاذة نحو أهل بابل، والدولة الفارسية[3].

---

(1) A. Lods (Prophétes d'Israél) P. 216.

(2) أثبتت الحفريات الأثرية أنه لم يكن في القدس أي هيكل حسب الوصف التوراتي.

(3) تاريخ العهد القديم لكلمت.

وعلى أثر مقتل هامان وأربعين ألفاً من أتباعه لإرضاء أستير، لم يعد في فارس من يجرأ على الوقوف في وجه اليهود، فخلا لهم الجو، فاستغلوه لنشر دعوتهم الدينية في كافة أقطار الشرق الأوسط، وخاصة في عهد ارتحشستا خليفة كيخسرو الذي أصدر أمراً يقضي بأن يخضع كافة ولاة البلاد الواقعة عبر الفرات وشعوبها وخزائنها لسلطة الكاهن عزرا، يأمر بما شاء ويهود من يشاء ويأخذ ما يشاء[1].

ولقد كان عزرا عند حسن ظن ارتحشستا، فسطا على خزائن الولايات، وهود من انصاع لأمره من الناس، ومن أبى سخره بالقوة لبناء الهيكل، كما أعاد الكثير من فقراء اليهود المشردين إلى القدس، وأوعز إلى كافة كهنة المهجر بأن يسلكوا حيثما وجدوا مسلكه، فانصاع الكل لأمره فأقيمت الكنس حيثما وجدت طائفة منهم لدعوة الناس إلى الدخول في الدين اليهودي، وبفضل هذه السلطة التي استمدها اليهود من الملك ارتحشستا الذي دامت ولايته أربعين عاماً (من 465 - 425) ق. م، تمكنوا من فرض نفوذهم في المناطق التي شردوا فيها، وتكاثر فيها عدد من تهودوا خشية بأسهم، وللاستفادة من الميزات التي منحت لهم منذ عهد داريوس، مثل الإعفاء من الجندية، والإعفاء من دفع الضرائب والمكوس، والأولوية في الاستخدام والتوظيف، وهكذا عظم شأن هذه الزمرة مرة أخرى ليس في كنعان فحسب بل في العراق وسورية ومصر وحتى في الصحراء الشامية، لا لشيء اللهم إلا لإرضاء أستير وأخواتها من بنات أحفاد الرعاة اللواتي تسلطن على عقول أكاسرة فارس، وأرغمنهم على الرضوخ لمشيئتهن[2] وإليهن يعود فضل استخدام ملوك فارس اليهود في إدارة شؤون مملكتهم، مثل نحميا الذي استوزره ارتحشستا، ومن ثم أوفده على رأس جيش كبير إلى القدس ليساعد يهودها على بناء أسوارها، وذلك بمجرد أن طلب نحميا هذه الأمنية التي كانت تراود مخيلته منذ أن دخل في خدمة كسرى[3].

ومع عودة اليهود إلى القدس بعد سبعين عاماً من النفي عادت الفوضى إلى أرض كنعان، واضطرب حبل الأمن فيها، إذ عاد أحفاد الرعاة إلى التنازع فيما بينهم ومع جيرانهم فكان

---

(1) سفر عزرا فصل 7 - 8، يعزى إلى عزرا هذا تأليف سفري الملوك الثالث والرابع وترتيب الأسفار الأخرى، وتصحيح الكثير من نصوصها ولكن أكثر المؤرخين يؤكدون أن جميع الأسفار كتبت بعد عهد النفي والله أعلم.

(2) يدعي بعض المؤرخين أن أستير كانت زوجة ارتحشستا وليس زوجة داريوس، وإلا ظهر أن كلاهما تزوج بيهودية وإلا لما انفرد بين أكاسرة الفرس بكل هذا الحب الذي أظهراه لليهود.

(3) ليس لهذا مستند تاريخي موثق، بل هو مجرد تلخيص لروايات العهد القديم.

أغنياؤهم يسومون الفقراء سوء العذاب ويستعبدون أولادهم وكأنهم ليسوا من أبناء قومهم كما نزعوا إلى التآمر مع جيرانهم للثورة على سلطة فارس، فلما رفض العرب الحورونيون والعمونيون عرضهم، اغتاظوا منهم فأخبروا كسرى بأن أهل البلاد دعوهم للثورة عليه لكي يوغروا صدره عليهم، ويمدهم بمزيد من عونه وسلطانه، ليرغموا جيرانهم للنزول عند مشيئتهم، فكان لهم ما أرادوا، فبدأوا بالاعتداء على من كان يحيط بالقدس من القبائل الأخرى تماماً مثلما كانوا عليه في الماضي، ومن جراء مسلكهم هذا عمت المصائب والويلات بلاد كنعان من جديد، ولكن لم يكن لأهلها سوى الصبر، خشية بطش فارس التي كانت تساند اليهود بكل ما لها من قوة، ولقد دامت الأمور على هذا المنوال حتى قضى الإسكندر المكدوني على دولة الفرس عام 333 قبل الميلاد.

وكان من البديهي أن يستفيد اليهود من المائتي عام التي قضوها في أحضان الحماية الفارسية، تمكنوا في غضونها من إعادة بناء القدس وتحصينها وإقامة القرى العديدة حولها على الأراضي التي احتلوها من أصحابها بالقوة، دون أن يتجرأ أحد على معارضتهم.

ولقد سلكت جاليتهم في مصر المسلك نفسه، فأقامت في مختلف أنحائها المعسكرات والمعابد، واغتصبت جزيرة الفيلة (Eléphantine) وأقامت فيها معبداً ومذبحاً على الرغم من أنف أهلها، فطفح كيل المصريين ولم يحتملوا الصلف اليهودي الذي بلغ حد تحقير آلهتهم ومعتقداتهم، فثاروا عليهم في غفلة من الجيش الفارسي، وأحرق أهل أسوان معبد أسوان اليهودي وقتلوا بعض من كان فيه، بادر الجيش الفارسي لمساندة اليهود وقمع الثورة بقسوة متناهية، وأطلق يد اليهود يعيثون فساداً في أسوان وما جاورها من الدساكر المصرية[1].

ولقد خرج اليهود من هذه الثورة التي وقعت عام 410 ق. م بحصة الأسد، إذ سيطروا على المصريين وكأنهم غزاة، وساموهم سوء العذاب كما سخروهم كالعبيد الأرقاء في بناء معبدهم الذي أمر العاهل الفارسي بإعادة بنائه بفضل باكوهي (Bacohi) حاكم القدس ودولايا (Delaya) ابن سنبلات (Sanballat) حاكم سامرا، اللذين دعما مطالب الجالية اليهودية في مصر بكل ما وسعهما من قوة، ولقد دامت هذه السيطرة اليهودية المستمدة من النفوذ الفارسي على المصريين حتى عام 404 ق. م حيث قامت ثورة أخرى أنقذت مصر من نير عبودية فارس وأنصارها اليهود لمدة ستين عاماً، تنفس في خلالها المصريون الصعداء.

---

(1) A. Lods (Les débuts du Judaisme) P. 252 – 253.

ومع كل ما ناله اليهود من عون وما لاقوه من عـز ودلال فـي عصـر الدولـة الفارسـية التـي قاسمتهم سلطانها على الممالك التي أخضعتها. هل كان اليهود على شيء من الوفاء لفـارس؟.. وهل على الأقل اعترفوا لها عبر التاريخ ببعض الفضل أو المنة؟ والجواب هو مـع الأسـف كـلا ثـم كلا، إذ أن أحفاد الرعاة عشائر الذئاب لم يعتادوا منذ أيام تجوالهم فـي الصحـارى والوهـاد علـى الاعتراف بالفضل لأحد، ولـم يعترفوا قط بشيء اسمه الوفاء، ولقد عودوا الناس عبر التـاريخ أن يروهم متنكرين لكل المثل العليـا ولكـل الاعتبـارات الأخلاقيـة، حتـى أنـهم اعتـادوا علـى التنكـر ليهوه الذي زعموا أنه اصطفاهم على العالمين فكيف إذاً يمكن أن نتصورهـم ولقـد اعـترفوا بفضـل فارس عليهم، أو أن نتخيلهم يوفون بالعهد لها؟..

والدليل على هذا الجحود والنكران اليهودي يبرز أولاً مـن خـلال دعوتـهم التـي وجـهوها في فجر عودتهم لسكان كنعان ليشاركوهم في التآمر على فارس هذه الدعوة التي أصبحت وبالاً على من ردوها، بفضل مكر اليهود بهم وبالفارسيين معاً.

كما أن كتاب اليهود لم يتورعوا من زعم اضطـهاد دارا ووزيـره هامـان لليـهود، ويدللـون على صحة هذا الزعم بقصة الأمر الملكي المدون في سفر أستير والذي يشير إلـى إيعـاز دارا لولاتـه بالقضاء على جميع اليهود الكائنين في ولاياتهم[1] مع العلم أن نص هذا الأمـر الملكـي المزعـوم لا يمت إلى الحقيقة بأية صلة بدليل عدم ذكر المصادر التاريخية - ضمناً اليهودية منها - وقوع أي اعتداء على اليهود من قبل الفرس، ولكن السـفر خـرج بـهذه الروايـة ليسـوغ بـها أسـباب مذبحـة هامـان وأنصاره، التي نتجت عن مكيدة دبرها مردخاي اليهودي (عم أستير) ليتخلص من مراقبة هامـان وليحل مكانه في رئاسة الوزارة.

فأخرجتها أستير باتهامها هامان زوراً وبـهتاناً بالتآمر علـى بني شعبها ولكـي تنفـي هـذه الجريمـة القذرة عنهما، عمد كتاب اليهود فيما بعد إلى تمويه الحقيقة باستنباط تلك القصـة الأسـطورية المختلقـة، وأنصع دليل على كذب القصة بأكملها، هو عدم وجود أي أثر لها في التاريخ الفارسي.

وهكذا نرى مرة أخرى مدى احتقار اليهود للمفاهيم الأخلاقية والإنسانية، وعـدم الأخـذ بها ولو لمرة واحدة عبر تاريخهم الطويل، حتى وإن كان على سـبيل المجاملـة البسـيطة لمـن أنقذهـم من النفي والإبادة، وحماهم مدة قرنين كاملين، علـى الرغـم مـن كـل مـا عـرف عنـهم مـن سـوء السلوك، ونكران الجميل، فيا لهم من شعب مخادع زنيم.

---

(1) F. Lovsky (L'Antisemitisme Paien) 1955.

وآخر براهين الغدر والخيانات اليهودية نحو فارس تجلى في فجر انهيار الإمبراطورية الفارسية على يد الإسكندر المكدوني الذي دخل عام 332 ق. م القدس والتي كان القاهر الجديد يظن بأن أهلها سيمسكون عن استقباله وفاءً لفضل فارس التي بنتها لهم، وإذ بهم يحملونه على الراحات ويحيطونه بالود والولاء، وكأنهم لم يكونوا قط من موالي فارس وأنصارها، فاحتار الإسكندر بأمرهم وأسقط في يده، فأهال عليهم نعمه وأفضاله، ومن ثم أعفاهم من المكوس والضرائب ورفعهم دون الشعوب الأخرى لمصاف المكدونيين أبناء جلدته الذين كانت لهم ميزات على كل الشعوب التي أخضعها، مكافأة لحفاوتهم به، وأملاً بأن يظلوا على ولائهم المنقطع النظير الذي أبدوه له.

وهكذا غرروا بالفاتح العظيم، الذي فاته أن هذه الزمرة التي ترعرعت على الحقد والضغينة نحو كل من أحاط بها مهما كان محسناً أو مسيئاً، والتي لا تفرق بين الغث الثمين وتعد الناس أجمعين أعداء لها، لن تلبث أن تتنكر له في أول فرصة سانحة لتنقلب عليه مثلما انقلبت على فارس.

وبانتظار ذلك ظل يهود القدس والمهاجر الأخرى ينعمون بنعم إسكندر ومن بعده بنعم أباطرة مصر البطالمة بين تارة وأخرى بنعم أباطرة العراق وسورية السلوقيين الذين ظلوا يتصارعون طيلة مئة وأربعة وثلاثين عاماً فيما بينهم على تركة إسكندر الكبير.

وفي غضون هذه المدة فتحت أمام اليهود أبواب كافة البلاد الخاضعة لليونان فانتشروا فيها بكل حرية وأمان بفضل الميزات التي منحها إياهم الإسكندر وعمدوا في كل مكان إلى التبشير لمعتقداتهم، دون معترض أو رادع، كما تطوع الكثير منهم في الجيوش المتصارعة بغية توسيع نفوذهم، وإكثار أموالهم فأصبح منهم قادة ومنفذين، وهاجر منهم الألوف المؤلفة من بابل إلى البلاد اليونانية مقابل منح سخية وامتيازات عالية بصفتهم مجندين لحماية المدن اليونانية التي كان أكثر أبنائها في شغل شاغل لحماية الإمبراطوريتين اليونانيتين[1].

كما هاجر بعض يهود القدس بزعامة الكاهن أونياس إلى مصر حيث أنشأوا مستعمرة جديدة لهم في مدينة هيليوبوليس (عين شمس) لتكون بمثابة مركز التبشير لعقيدتهم بدلاً من معبد جزيرة الفيلة القديم.

ولقد انتهز اليهود الفرصة إبان تطاحن القوات اليونانية فيما بينها، لتوسيع نشاطاتهم التبشيرية والاجتماعية، ومن ثم انحازوا عام 198 ق. م إلى جانب أنطوشيوس الثالث

(1) C.H. C,uincnebert (Lemonde Jui F) P. 45 Paris 1950.

(Antiochus III) واشتركوا معه في طرد جيشه بتولومه فيلوباتور (Philopator Ptolémée) في منطقة القدس.

فكافأهم أنطوشيوس الثالث بمنحهم امتيازات فائقة، ازداد على أثرها غلواؤهم وتفاقم شرهم فضج حتى اليونان أنفسهم من شطط اليهود، ولكن ظل أنطوشيوس يساندهم حتى آخر أيامه، فلم يصبهم في عهده أي سوء.

ولما اعتلى العرش أنطوشيوس ابيفان (Antiochus Epiphane) عام 175 قبل الميلاد، بادر إلى الحد من غلواء اليهود، وأعلن ضرورة خضوعهم إلى القوانين والأنظمة اليونانية أسوة بكافة شعوب مملكته، فانقسم يهود القدس على أنفسهم، فانحاز الحسيديين (Hassidims) أي طبقة الأغنياء والمتنفذين إلى الجانب اليوناني وانصاعوا للقرار الملكي، بينما عارضته طبقة الفقراء والعبيد التي كانت تتكون أكثريتها من الأغراب المهودين (مثل أحفاد العبيد والمرتزقة الذين هاجروا من بابل إلى القدس برفقة القافلة اليهودية الأولى التي عادت في عهد كورش).

فلما أصر اليونان على تنفيذ القانون الجديد، أشار أفراد هذه الطبقة الأخيرة تحت زعامة الكاهن ماتاتياس (Mattathias) الذي سلف أن هرب من القدس في عهد الكاهن أونياس (Onias) والتجأ إلى مدين (Madein) فعمت الفوضى ضواحي القدس بضعة أشهر فجردت الدولة اليونانية عام 167 ق. م حملة عسكرية لقمع الثورة، فاعتصم ماتاتياس وأنصاره في أعالي الجبال، حيث مات عام 166 ق. م تاركاً زعامة عصابته إلى ابنه يهوذا الذي لقب بالمكابي، ولما قتل يهودا في إحدى معاركه مع الجنرال اليوناني باكشيدس (Baechides) عام 161 ق. م تسلم قيادة الثوار شقيقه جوناتان (Jonathan) الذي كان أوفر حظاً ممن سبقوه في قيادة الثورة، إذ أن الأقدار شاءت أن ينهمك الجيش اليوناني في أيامه بقمع عصيان داخلي فاستفحل أمره، ومع هذا كان مصيره إلى ما صار إليه أترابه فقتل بدوره عام 143 ق. م فخلفه على الزعامة شقيقه سيمون (Simon) الذي اغتيل عام 135 ق. م فتزعم العصابات اليهودية ابنه جان هيركان (Jean Hyrcan) الذي كاد أنطوشيوس سيدتيس (Antiochus-Sidétes) أن يقضي عليه وعلى ثورته لولا أن قتل في ثورة البارثيين (Parthes) التي أضعفت المملكة اليونانية فاضطرت لأن تتخلى لليهود عن امتيازاتهم الماضية، وأن تعترف للقدس بالحكم الذاتي تحت زعامة الحشمونيين (Hash Mons)[1] فخمدت ثورة اليهود التي دامت قرابة

(1) كان الكاهن ناتاتياس يلقب بالهزموني، ولذا أطلق كتاب اليهود على حكام القدس من أحفاده اسم الهزمونيين.

أربعين عاماً، وقام بدلاً عنها في القدس وضواحيها حكم شبيه بحكم العصابات وقطاع الطرق دام أربعين عاماً تخللته المؤامرات والمذابح في سبيل السلطة بين أحفاد جان هيركان أمثال أرستوبول وإسكندر وزوجته حنة، إلى أن تفاقم أمرها فيما بين أريستوبول الثاني وهيركان الثاني، واتخذت طابع الاقتتال الدائم بينهما في وقت بدأ ظل الدولة اليونانية بالتقلص في كل مكان، بينما كانت عدوتها روما تتوسع يوماً بعد يوم وتحل محلها ليس في منطقة الشرق الأوسط فحسب، بل في كل مكان، وكانت الزعامة اليهودية الممثلة في كل من أريستوبول الثاني وهيركان الثاني تعلم علم اليقين بأن دور القدس في السقوط بأيدي الرومان لابد أن يأتي قريباً، فسارع كل منهما للاتصال سراً بالدولة الرومانية، أملاً بأن يحظى بنصرتها على خصمه (عملاً بتقاليد أسلافهما القاضية بسلوك الانتهازية المطلقة في كل أمر عسير) فبادر بومبي (Pompeé) لاحتلال القدس عام 63 ق. م استجابة لدعوتهما، ومن ثم حل نزاعهما بأن نفى أريستوبول إلى روما وعين هيركان في منصب كبير الكهنة، وألحق القدس بدولته، وهكذا استأصل شأفة الحشمونيين الذين عاثوا فساداً في القدس مدة ثمانين عاماً لكي ينتزعوا من اليونان شيئاً من السلطة المحلية بغية تحقيق أغراضهم الشخصية.

وهذه الثورة التي دامت أربعين عاماً والتي أعقبها منح اليونان الحكم الذاتي لمدينة القدس الذي لم يدم أكثر من جيل واحد، هو العصر الذي ملأ كتاب اليهود الدنيا بأسرها صخباً وضجيجاً بأخباره وأحداثه، وألفوا عشرات المؤلفات عنها، وعن بطولات أصحابها، وعن عظمة حكمهم الذاتي وحكامه.

مع أن القصة برمتها لم تكن إلا عبارة عن قصة ثورة محدودة لم تتعد حدود الجبال المحيطة بالقدس، قامت بها جماعة من اليهود المهودين المتزمتين في أواخر عصر الانحطاط اليوناني، وأسفرت عن حصول القدس على مزية المدينة ذات الإدارة المحلية خضعت لزمرة من قطاع الطرق والقتلة ظلت تتطاحن فيما بينها مدة أربعين عاماً، وانتهت بأن طهر الرومان من رجسها القدس إلى الأبد.

ولقد جرب اليهود مراراً فيما بعد أن يسلكوا سبيل معارضة روما ظناً منهم أنها ربما تخضع لإرادتهم عن طريق افتعال الشغب والفوضى، ولكن خاب فألهم لأن روما لم تكن لينة العريكة مثل سواها، فكانت تكيل لهم الكيل المناسب لنزعاتهم، حتى أنها اختارت لحكمهم عام 47 ق. م هيرود بن انتيبابتر العربي (Hérode Antipater) الذي ظل يحكمهم طيلة حياته بالشكل المناسب لهم، فأخضعهم لقوانين روما أسوة بغيرهم وأقام حتى في القدس معابد وقصور رومانية دون أن يبالي باحتجاجهم، كما فرض عليهم طراز العيش الروماني رغماً عنهم.

ويبدو أن هيرود تمكن منذ البداية من نشر السلام في ربوع المنطقة التي ولج بإدارتها، ولما مات عام 4 ق. م كافأ الرومان أولاده بتقسيم المنطقة إلى ثلاثة أجزاء أسندوا حكم كل منها إلى واحد من أولاده، فكانت القدس من نصيب أرشيلاوس، والجليل من نصيب هيرود انتيبا، أما فيليب فأعطوه منطقة طبريا، ويبدو أن أولاد هيرود لم يكونوا على شيء من مقدرة أبيهم، أو أن تربيتهم تأثرت من محيطهم اليهودي، فنزعوا إلى الشر، فأقيل أولهم عام 6 ميلادية من منصبه وأُبدل بحاكم روماني.

ومات فيليب عام 34 م فعُين رومانيٌّ بديلاً عنه، أما أحفاد هيرود انتيبا فاستخدمهم الرومان طيلة المدة التي سبقت احتلال تيتوس (Titus) لمدينة القدس التي عصت السلطات الرومانية عام 70 م وتحت زعامة سيمون بار جيورا (Simon-bar-giora).

وعلى أثر هذه الثورة التي قمعها تيتوس بكل شدة ودمر مركز القدس وشرد أهلها في مختلف أنحاء الإمبراطورية الرومانية، انتهت أسطورة القدس اليهودية[1] في أرض كنعان وعادت هذه المدينة المنكودة الحظ إلى أهلها الأصليين منذ ذاك التاريخ بعد أن تحملت المصائب والكوارث التي افتعلها اليهود فيها ستة قرون، بفضل سواعد وحراب سادتهم من الغزاة كالفرس واليونان والرومان، الذين استخدموهم على التوالي كمرتزقة في جيوشهم أو مأجورين لتسيير أعمالهم، أما المدة الزمنية التي حصلوا فيها على الحكم الذاتي لمدينة القدس، والتي ما تعدت الأربعين عاماً، فلم تكن في الواقع إلا نزوة عابرة ما لبثت جذوتها أن خبت إلى الأبد على أيدي الرومان، ولكن أبى كتاب اليهود أن يتركوها تمر بدون أن يحيطوها بآيات الإكبار والتمجيد عملاً بسنة أسلافهم في استنباط الأضاليل والخرافات، فأهالوا عليها ما شاءت لهم أهواؤهم من العظمة الكاذبة بغية رفع شأن أبطالها من قطاع طرق ومجرمين، دون رادع من ضمير أو وازع من أخلاق.

وهكذا نرى أن عودة قسم من أحفاد الرعاة إلى القدس عام 530 ق. م لم تكن إلا مجرد عملية إسكان جزئية، قام بتحقيقها العاهل الفارسي كورش إكراماً لأبناء قوم زوجته اليهودية أستير التي ألحت عليه بتنفيذها، ولقد حدثت عمليات إسكان مماثلة عديدة قبل التاريخ، وكان آخرها، عملية إسكان الآشوريين عام 1932م على ضفاف نهر الخابور التي حققتها الجمهورية العربية السورية بدافع من العوامل الإنسانية والأخلاقية.

---

(1) لمعرفة المزيد عن هذه الثورة وما سبقها من تحركات يهودية في فلسطين أثناء حكم الرومان راجع (المفسدون في الأرض) فصل اليهود في ظل روما.

مدى شرعية الحقوق اليهودية المزعومة في أرض كنعان

منذ أقدم العصور اتفق البشر فيما بينهم على مبادئ معينة يعترفون بموجبها بحقوق بعضهم بعضاً في التملك أو السيطرة على أرض ما أو وطن ما، ولقد انحصرت المفاهيم بتلك المبادئ في نقطتين لا ثالث لهما، حق الأقدمية في الاستيطان والإقامة وحق الفتح.

واعترافاً بأوليهما أطلقوا على مختلف أجزاء العالم أسماء الشعوب والأقوام التي سبقت غيرها في استيطانها، ومن هذه الأسبقية في الاستيطان اشتقت تسميات المناطق، فسميت البلاد التي سبق الهنود سواهم بالإقامة فيها ببلاد الهند، والبلاد التي سبق الغالين سواهم إليها ببلاد الغال... الخ، وذلك تدليلاً على أنها تخصهم وحدهم، وهذا التخصيص هو الذي منح أصحابه حق التصرف بالمناطق التي عرفت باسمهم باعتبارها ملكاً خالصاً لهم.

وهذا لا يعني أن هذه التسميات والتخصيصات ظلت أبد الدهر ثابتة في كل أصقاع العالم، إذ أن بعضها تغيرت وحلت مكانها تسميات أخرى، لأسباب مختلفة، كأن نزح أهلها عنها للعثور على أرض خالية أكثر مواءمة لهم منها، أو بسبب العوارض الطبيعية مثل حدوث الجفاف أو انفجارات البراكين وما شابه، فأتى سواهم وحل محلهم فأطلق عليها اسمه للتعريف عنها، مع العلم أن حدوث التغيرات المماثلة كانت نادرة الوقوع في العالم القديم حتى في العصور التي سبقت العصر الذي زعم كتاب اليهود تجسيد الوجود العبراني فيه.

أما الشق الثاني فقد عرف بصورة مغايرة تماماً لمفاهيم الشق الأول باعتبار أن أسسها كانت وما زالت ترتكز كلياً على القوة وحدها، ولذا ظلت شرعيته متأرجحة بين المد والجزر، فعندما كان أحد الشعوب ينتصر على شعب آخر في أعقاب غارة ما، يبادر إلى إخضاعه لسلطانه وفرض حضارته ومفاهيمه ولغته على المغلوب، بغية صهره في بوتقته، ومن ثم إذابة اسمه وكيانه من الوجود، لكي يحل فعلياً محله في أرضه ووطنه.

أو أنه يجنح منذ البداية إلى إبادته إبادة تامة، أو تهجيره من أرضه تهجيراً كاملاً لتصبح البلاد ملكاً له لا ينازعه في ملكيتها منازع.

وفي حالة نجاح الغازي في إذابة شخصية المغلوب في قوقعته أو إبعاده وشل قدرته نهائياً على المطالبة بحقه المغتصب، أو إبادته وإخلاء الساحة تماماً من وجوده، عندئذ فقط كانت

الشعوب المحيطة بتلك البلاد تعترف بسيادة الغاصب عليها، أولاً: لزوال من يحق له المطالبة بملكيتها بموجب المفاهيم المستمدة من الشق الأول من مبادئ حقوق التملك والسيطرة ثانياً: رضوخاً للأمر الواقع المدعوم بالقوة.

ولقد رأينا عبر التاريخ حدوث الكثير من التغيرات في التسميات الجغرافية انبثقت أكثرها من المفاهيم التي استمدت من حقوق الفتح، ولذا كان في التاريخ شعوب سادت في أجزاء من العالم، ثم بادت على أيدي الفاتحين والغزاة، فأصبحت بلادهم تعرف بأسماء فاتحيها، ولم يعد لتلك الشعوب وبلادها ذكر إلا في بطون التاريخ.

وهذا لا يعني أن كل فاتح أو غاز تمكن من القضاء على أصحاب البلاد بمجرد أن غزاها أو فتحها، إذ أن التاريخ يروي لنا كثيراً من الأحداث التي كان العكس فيها صحيحاً، وبدلاً من أن يطلق اسمه على البلاد التي فتحها حمل هو اسمها، مثل غزاة المغول الذين أغاروا على أوربا الشرقية في بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد وفتحوها حتى وصلوا إلى أواسط بولونيا وظلوا فيها مدة ثلاثة قرون طوال، انتهوا في غضونها إلى الانصهار في بوتقة شعوب أوربا الشرقية التي غزوها فيما مضى، ولم يعد لهم فيها أي أثر أو ذكر سوى ملامح عرقهم التي تظهر آثارها في ملامح بعض سكان تلك البلاد، أو مثل الغزاة الإسكندنافيين الذين غزوا شمال أوروبا في القرن السابع بعد الميلاد، فذابوا في البلاد السلافية حتى لم يعد لهم أدنى أثر، أما السبب فلم يكن سوى أن الغزاة في كلتا الحالتين - وإن كانوا إبان الإغارات أكثر قوة ولربما أكثر عدداً من سكان البلاد التي غزوها - كانت أهدافهم من الغزو بدائية، وغير محدودة المعالم، بل تنحصر فقط بحب السيطرة والسلب والنهب وبالتالي كانوا أقل حضارة ممن غزوهم، ولذا انتصر المغلوبون عليهم في النهاية، بفضل تحديد أهدافهم وتفوقهم الحضاري فأذابوا غاصبي بلادهم تدريجياً إلى إن قيض لهم أن يتخلصوا منهم إلى الأبد، وكان الفضل في ذلك لعدم وجود ما يمكن للفاتح أن يهبه للمغلوبين مما يطمعهم بقبول سيادته أو استساغتها، كما أن الغاصب لم يكن ليرمي من وراء غزوته إبادتهم أو امتلاك بلادهم، وخاصة وهو لم يكن بقادر على تحقيق أي من هذين الغرضين، من جراء مثابرة السلاف على مناوءته ومقارعته، ولذا كانت النهاية مثلما بيناها.

وبما أن اليهود منذ عدة عصور زعموا وما زالوا يزعمون أن لهم حقوقاً شرعية في فلسطين ابنثقت على حد زعمهم من مبادئ حقوق الفتح والإقامة.

فدعونا نناقش مزاعمهم تلك على ضوء المبادئ التي أسهبنا أعلاه في شرحها، ليتضح ليس للقارئ فحسب بل لكل ذي إدراك من أبناء الغرب الذين طمروا رؤوسهم عدة أجيال في رمال

الأضاليل اليهودية ، ومن ثم راحوا يرددونها معهم وكأنها آيات منزلة ، وحقائق ملموسة ، ومنذ ما يقارب القرنين شاركوهم في المطالبة بتحقيقها ضاربين عرض الحائط بالوقائع التاريخية والإثباتات العلمية التي تدحض شرعية وجدية تلك الحقوق المزعومة ، كما أنهم أصموا آذانهم على سماع أصوات المئات من مفكريهم وكتابهم الذين دأبوا منذ أقدم العصور على تنبيههم وإيقاظهم من مغبة السير خلف أباطيل الحقوق السرابية اليهودية ، تماماً مثلما أوقروا آذانهم اليوم عن سماع أصوات الحق العربي التي ما فتئت منذ أكثر من نصف قرن تنادي ضمائرهم التي أفناها صدأ الأساطير اليهودية ، حتى لم تعد تتأثر إلا بأنغام الأناشيد والتراتيل اليهوائية التي يصاحبها كورس كامل مما يشنف آذان ساستهم ويسيل لعاب أشداق قادتهم ، مثل رنين الذهب الذي سلبه اليهود منهم بشتى الوسائل الملتوية القذرة عبر تاريخهم الطويل ، والمناهج اللا أخلاقية التي يلوحون بمنحها لهم إن هم سدوا آذانهم عن سماع صراخ الحق ، وأسكتوا ضمائرهم عن التفاعل مع العدل والمنطق .

وإلى هؤلاء القادة والساسة الذين وأدوا ضمائرهم بأيديهم وسدوا آذانهم بأصابعهم بملء حريتهم أقول : أيها السادة ، أين قرأتم أنه كان في هذا الشرق يوماً من أيام عصور ما قبل القرن العاشر قبل الميلاد شعب سمي بالشعب العبراني؟ هل غررت بكم بعض الكلمات الجوفاء مثل لفظة آبيرو (Apiriu) أو بعض الأحرف الكائنة في أوراق البردى المصرية مثل حرفي (P, R) اللذين زعم بعضهم أنهما يعنيان الهابيرو (Habiriu) أو الهبرو (Hebreux) أي اليهود؟ وهل فاتكم أن السادة الذين استخلصوا من هذين الحرفين الإشارة إلى العبرانيين أمثال شاباس (Chabas) وهومل (Hommel) وسكينر (Skiner) وكريكلنجر (Kreglinger) ختموا أقوالهم بأن قالوا أن استخلاصهم هذا ما هو إلا مجرد فرضية أو بالأحرى مجرد ظن ، وبعض الظن إثم .

وهلا قلتم لنا لماذا أجزتم لأنفسكم باعتبار هذه الفرضيات حقيقية وصحيحة؟ بينما أهملتم أقوال مانتون (Manethon) الكاهن المصري الذين قال عنهم بأنهم أحفاد جذام مصر فحسب ، ولمَ لم تأخذوا بنظريات سواهم مثل السيد هوكوفينكلر (H. Winkler) الذي نفى نظريات الآخرين وجعل إقامة أحفاد الرعاة في سيناء بدلاً من مصر؟ أو لم تأخذوا بأقوال لودس الذي يصر بأنهم أحفاد عشائر مختلفة الأرومة والأصول ، ولذا أطلق عليهم اسم هابيرو آراميان (Habiru-Arameéns) للتدليل على اختلاف أجناسهم؟!

أما سمعتم ما قاله العالم كونكل (M. Cunkel) والعالم رايمون فاي (Rymond-Weille) والعالم بيرنهارد لوتر (Bernhard Luther) عن قصص المصادر اليهودية العائدة للعصور السابقة لعهد داود وسليمان؟ فلمَ لا تأخذون بأقوالهم مثلما أخذتم بظنون سواهم؟

أليست جميعها ظنون بظنون؟ أم أن الظن المنسجم مع أضاليل كتاب اليهود التي ليس لها أدنى إثبات أو دليل هو الوحيد الذي يحلو لكم؟

أيها السادة: إن الظن هو الظن، والتخمين هو التخمين، ولا يجوز لعاقل أن يأخذ به ما لم تدعمه القرائن والإثباتات، فأين هي إذن هذه القرائن التي اعتمدتموها لنصرة أضاليل كتاب اليهود الذين ليس فيهم من عاصر أي عهد من العهود السابقة لعهد عودة تطاحن مصر وبلاد ما بين النهرين على السيطرة في بلاد كنعان؟ أيجوز لعاقل أن يصدق من يتنطح للبحث عن أحداث لم يعاصرها، ولا يملك أي مصدر عنها وخاصة بعد مرور عدة قرون على الزعم بحدوثها؟

ألم تروا كيف أهملها التاريخ بعد أن ثبت علمياً عدم واقعيتها، أما لاحظتم ما تعج به ثناياها من متناقضات؟ أما رأيتم كيف أن بعض قصصها تكذب البعض الآخر؟ أفاتكم تخبطها الفاضح في سردها لأحداث القصة الواحدة؟ ألم تشعروا بالتفاوت الكائن بين أساليب كتاب العصر الواحد من كتابها؟

ثقوا أيها السادة أن البلاهة لم تبلغ بنا حد أن نصدق بأنكم لم تلحظوا كل هذه الشوائب التي تزخر بها تلك المصادر ولكن أغراضكم الكامنة خلف مظهركم البريء هي التي تدفعكم للتغاضي عنها، وعلى الرغم من أنف ضمائرهم التي تهتز يقيناً من حين لآخر، فيسارع اليهود لإسكانها بعقاقيرهم السحرية التي استحوذت على عقولكم وبصائركم منذ أمد بعيد.

يا ساسة الغرب، يا دعاة العدالة والإنسانية، هلا قلتم لنا ما دهاكم؟ حتى صدقتم كل تلك الأساطير اليهودية دون قيد أو شرط، ثم رحتم تدعمون مزاعمها بالمال والبنين، وانسقتم خلف أكاذيب كتابها فأجزتم لبني قومهم اغتصاب أرض قوم آمنين، أما قرأتم قصص سفر القضاة، أما رأيتم كيف مزقت كافة أستار مزاعم سفر يشوع الباحث عن الفتح والاحتلال؟ أما وعيتم ما قاله سفر القضاة عن أحوال من أسماهم باليهود بعد عهد يشوع؟ أما اعترفوا بأن بعض قبائلهم الأكثر قوة أخفقت في محاولة المثابرة على الفتح بعد موت يشوع؟ ألا يعني هذا الاعتراف بأن قصة الفتح اليشوعية ما هي إلا مجرد فرية رخيصة؟ ألم يصرح كتاب هذه السفر بأن أكثر القبائل اليهودية استكانت لقدرها وخضعت لسلطان أهل البلاد وانصهرت في بوتقتهم ديناً ودنيا؟ ألم يعترفوا بأن قومهم خضعوا طيلة ثلاثة قرون طويلة لنفوذ أكثر الكيانات المحلية، ألم يعترفوا بأنهم كانوا يخضعون لرقابة الفلسطينيين في كل أمورهم؟

ألا تكفي كل هذه الاعترافات لتبرهن لكم عن كذب أسطورة الفتح والإبادة؟ وبالتالي ألا تعني أن الوجود اليهودي في أرض كنعان، ما كان إلاّ مجرد وجود لاجئ بائس أو دخيل مسكين أتى ليستظل في حمى كنعان الخيرة، تماماً مثلما قال عنها أكثر نقاد التاريخ.

نعم أيها السادة، لقد تجسد الوجود اليهودي (أي أحفاد قبائل الرعاة) في يوم ما في أرض كنعان، ولكن هذا اليوم لم يكن قط من أيام قبل القرن التاسع قبل الميلاد ولقد تبلورت شخصيتهم في أرض كنعان في منتصف عهد داود، ولكن هل كتبت الحياة والديمومة لهذا الوجود المصطنع أكثر من بضعة عشرات السنين؟ طبعاً لا؟ بدليل اعتراف كتاب اليهود أنفسهم بانهياره حال موت سليمان، وسقوط أجزائه تحت حكم ملوك مصر وأمراء ما بين النهرين ومن خلفهما من الغزاة والفاتحين، إلى أن قيض الله لهم تيتوس الروماني ليقتلع جذورهم نهائياً من أرض كنعان، أي أن هذا الوجود الذي تبلور مدة ستين عاماً تقريباً، اندثرت معالمه نهائياً في أعقاب موت سليمان، ولم تقم له بعد ذلك قائمة.

فهل إيجاد كيان قبلي لقبيلة ما في جزء من العالم وفي عهد كانت فيه مختلف القبائل البشرية بعدها في طور ممارسة الحل والترحال، ولمدة تكاد لا تتعدى الجيلين يعد في عرفكم مصدر حق وشرعية لتلك القبيلة أو من يزعم بأنه وريثها أن يأتي بعد ثلاثين قرناً ليطالب بتلك البقعة الصغيرة التي أقام أسلافه المزعومين عليها كيانهم فحسب، بل بكل ما يحيطها من أصقاع وأوطان؟

وهل هذه المدة الوجيزة من السيطرة القسرية على تلك البقعة تكفي في شرعكم لتسويغ عودة وريث المغتصب القديم، ليمارس الأسلوب نفسه في استعمال القوة فيسلب أرض أحفاد أهل كنعان مجدداً، وفي القرن العشرين؟

أما لحق قدم الإقامة ميزات في مفاهيمكم؟ أليس للحقوق التاريخية اعتبارات في تقاليدكم؟ علام اعتمدتم لإقرار حقوقهم في أرض فلسطين؟ ألأقدميتهم وأولويتهم في استيطانها؟ أما عرفتم أن أقدم السلالات المصرية كانت تسمي تلك الأرض بأرض كنعان وأهلها بالكنعانيين، ألا تعترف المصادر اليهودية نفسها بهذه الحقيقة الناصعة؟ أما رأيتم آثار حضارة أهلها التي اعترفت المصادر اليهودية بعظمتها؟ أما اقتنعتم بالبراهين والأدلة الساطعة عن أهل كنعان وحضارتهم التي أتتكم بها المكتشفات العلمية الحديثة؟ ألا تكفيكم اعترافات كتاب اليهود ببقاء أحفاد الكنعانيين في أرض أجدادهم حتى بعد تشرد اليهود عنها عام 70 بعد الميلاد؟ . . .

كيف سوغتم لأنفسكم أن تعدوا أحفاد قبائل الرعاة المختلفة أحفاد شعب واحد، على الرغم من نظريات العلماء، والنقاد التي أجمعت على تنوع أرومتهم ولغاتهم؟ أما سمعتم علماء التاريخ وهم يقولون أن هؤلاء الدخلاء لم يكونوا سوى شذاذ آفاق تسللوا لأرض كنعان وأقاموا فيها عدة قرون قبل أن يجسدوا كيانهم الأسطوري؟ ولقد أخذوا من أهلها لغتهم وهجائيتهم

فأطلقوا عليهما زوراً وبهتاناً اسمهم الذي منحهم إياه سيدهم وباني قوميتهم صموئيل بن القانة؟ ألا يصرح اليهود بهذه الحقيقة من خلال تراتيلهم الدينية التي تبدأ بالقول: (كان أبي آرامياً تائهاً)؟. . أما تعدون ذلك اعترافاً صريحاً بجهلهم لأصلهم ومنحدرهم؟. .

هل عرفتم لليهود حضارة معينة؟ أوجدت في المكتشفات العلمية الحديثة وبطون التاريخ ما يشير إلى أصلهم وموطنهم؟ اللهم إلا ما يزعمه كتابهم الذين ظهروا لأول مرة في عهد يوشيا، أي بعد العهود التي يبحثون عنها في مؤلفاتهم بعشرة قرون، أبلغ بكم التحيز أو المحاباة مبلغ إيلاء قصصهم المزورة كل هذه الثقة التي يمسك العاقل عن اعتمادها حتى للكتاب المعاصرين لما يبحثون عنه؟. .

لا يا أيها السادة، ما هكذا تورد الإبل، إن الحقوق التي يزعم اليهود امتلاكها في أرض كنعان لا تمت للحقيقة التاريخية قطعاً، ودعوتهم في شرعيتها تنهار أمام الواقع التاريخي الذي ينفي وجود أي حق لهم بموجب المبادئ المستمدة من حقوق قدم الإقامة أو حقوق الفتح.

إذ أنهم لم يقيموا في أرض كنعان إلاّ كلاجئين وتابعين اللهم إلا المدة الزمنية القصيرة التي ألمحنا إليها وفي بقعة محدودة من أرض فلسطين، ومع وجود كافة قبائل وعشائر الكنعانيين معهم، كما أنهم لم يحتلوا قط أرض كنعان ولا سواها إلا بالقدر الذي أوضحناه، ومما أسهبنا في شرحه يتضح لكل ذي بصيرة مدة بطلان كل حق شرعي يزعم وجوده لليهود في أرض فلسطين.

ومع كل هذا ما زال هناك الكثير من ساسة الغرب ممن يصرون على عدّ مشاركة اليهود لأهل كنعان بالإقامة في أرضهم حقبة من الزمن ونجاحهم العابر في خلق ذلك الكيان الموقت ذي العمر المحدود، كافياً لمنح أحفادهم المزعومين حقوقاً شرعية في السيطرة على فلسطين، وإلى هؤلاء أقول: أيها السادة، إن كنتم فعلاً تؤمنون بهذه النظرية، فلما لا تطبقونها على أحفاد كافة الغزاة والفاتحين والنازحين واللاجئين عبر التاريخ؟. . وفيهم من هو ألف مرة أحق من أحفاد اليهود في هذا المجال فإذا كان ردكم إيجابياً على هذا السؤال، لم لا تعيدون سيطرة أحفاد إسكندر الكبير إلى أرجاء هذا الشرق بأكمله؟. . أو لم لا تعيدون سيطرة أحفاد الرومانيين إلى كافة أنحاء العالم القديم وأوروبا بأكملها؟. . ولم لا تعيدون النفوذ العربي إلى كافة الأقطار الواقعة ما بين الهند والأندلس؟. . أليسوا جميعاً أحق من أحفاد الرعاة في الاستفادة من هذه الشريعة الباطلة الظالمة ومن هذا المنطق الأخرق المعوج؟. .

وهنا لربما جنحتم إلى الرد باستحالة تحقيق ذلك الأمر لعدم وجود أمكنة أخرى في الأرض لتجلوا إليها الشعوب التي حلت مكان أسلاف فاتحي اليونان والرومان والعرب فاعلموا أيها القادة أن حجتكم هذه لواهية، إذ أن على سطح البسيطة أمكنة عديدة صالحة لتكون مقابر تستوعب كل هذه الشعوب معاً، وخاصة إذا طبقت عليهم شرائعكم في أصول الإجلاء والإسكان التي أخضعتم إليها عرب فلسطين، فهناك الصحراء الكبرى، وصحراء نيفادا، وصحارى أخرى عديدة ليس فيها لا إنسان ولا حياة، فلن يضير تلك الشعوب أن تنقلوها إلى تلك الصحارى وتكدسوا جماهيرها فوق بعضها بعضاً، وتتركوها وشأنها لتلقى مصيرها المحتوم في الموت والفناء وذلك أسوة بما طبقتموه على أهل فلسطين الذين حكمتم عليهم بالتشرد في الصحارى والوهاد لينتهوا إلى الموت والفناء، فلم لا تطبقون على سواهم ما طبقتموه عليهم؟.. أم أن للشرع والعدالة في عرفكم تسعة وأربعين مفهوماً مغايراً مثلما لنصوص التوراة عند اليهود تسعة وأربعين مفهوماً، ينتقون منها ما يحلو لهم لتفسير تلك النصوص؟..

فإذا كان الأمر كذلك، فارحموا أسماع البشرية وكفوا عن إزعاجها بتبجحكم وتفاخركم بحب العدالة والشرعية الذي طال أمد ترديدكم له، حتى مجته الآذان والنفوس، وإلا اتقوا الله وضمائركم وعودوا إلى الحق، واعترفوا بما جنته أيديكم من جرائم بحق عرب فلسطين، قبل أن تحل بكم وبربيبتكم إسرائيل الندامة، إذ ثقوا أن الطبيعة وحتمية التاريخ والأمة العربية صاحبة الحق الشرعي في فلسطين لابد أن تتضافر جهودها يوماً لتعيد الحق إلى نصابه مهما طال أمد البغي والتعسف.

انتشار الوباء

لقد رأينا كيف أن أستير اليهودية انتصرت على كورش الفارسي قاهر أباطرة العالم القديم، وأرغمته على إعادة بعض من بني قومها إلى القدس معززين مكرمين، بعد أن خرجوا منها مقهورين مذمومين، فعاث فيها العائدون فساداً منذ مدة ستة قرون في ظل حراب مختلف الغزاة الذين تعاقبوا على أرض كنعان، حتى ضجت الأرض ومن عليها من شططهم، فطفح كيل روما ونفد صبرها فأوفدت عام 70 ميلادية أحد قادتها ليقضي قضاء مبرماً على اليهود في القدس، فانبرت له بيرنيس (Berenice) أخت أستير في العقيدة فصرعته بسحرها وشلت إرادته، فاكتفى إكراماً لها بنفي العصاة وتدمير أسوار مدينتهم بدلاً من إفنائهم، ولقد أسفر تخاذل تيتوس هذا عن تمادي اليهود في غيهم واندفاعهم، ولقد أسفر تخاذل تيتوس هذا عن تمادي اليهود في غيهم واندفاعهم نحو تحقيق أحلامهم التي انبثقت من أسفارهم الأسطورية المتبلة بالوعود اليهوائية الباحثة عن حقوقهم في وراثة أرض كنعان واستعادة أمجاد داود وسليمان الأسطورية، وحقهم في سيادة العالم، وخرافات مماثلة أخرى التي بنى صموئيل بن القانة عليها قواعد القومية اليهودية المصطنعة لأحفاد رعاة الشاة، فتمكنوا في غضون مدة وجيزة من رص صفوفهم في كافة مهاجرهم في العالم القديم بفضل الجروسات المحلية (Gerassia) التي كانت تشرف على جميع شؤونهم الدينية والدنيوية بتوجيه موحد يصدر إليها من المجلس الكهنوتي الأعلى الذي أسس لإدارة شؤون اليهود في عصر روما بديلاً عن مجلس السبعين الخرافي الذي كان أنبياء ابن القانة وأنبياء المهجر أمثال أسدرا يقومون مقامه في العصور المتقدمة على عصر الرومان.

ويعزى إلى أعضاء هذا المجلس كتابة أكثر فصول الأسفار، والبدء بكتابة التلمود المنظم لحياة اليهود، وكان الرومان يعترفون به كهيئة قيمة على الجاليات اليهودية في كل مكان، ويساعدوه على جباية ضريبة العشر، ويحمون جباته بقواتهم المسلحة وكأنهم جباة الإمبراطورية الرومانية، وهذا الدعم الروماني هو الذي مكنه من السيطرة التامة على اليهود حيثما وجدوا، وبالتالي قيض له أسباب تنظيمهم وتوعيتهم على الشكل الذي كان يراه مناسباً لتحقيق أغراضهم وأهدافهم المزمنة التي ألمحنا إليها أعلاه.

ولقد كان هذا المجلس دائماً خلف التحركات التخريبية اليهودية، وخاصة فيما يتعلق بالمسيحية، فهو الذي طالب بصلب السيد المسيح باعتباره صاحب دعوة أممية مناوئة لدعوتهم ومهددة لكيانهم ومبطلة لمزاعمهم، ولذا أوعز لليهود بالسعي في كل مكان للنيل من المسيحية بغية القضاء على أتباعها قبل أن يستفحل أمرهم، ولقد أصاب أتباع السيد المسيح الكثير من الأذى على أيدي اليهود في مستهل دعوتهم، مثل اتهامهم بكارثة روما عام 64 م التي كثرت التكهنات عن فاعليها، فقال بعضهم: إن نيرون هو صاحبها، وقال آخرون أنها وقعت قضاءً وقدراً، بينما زعم اليهود أن النصارى هم الذين أوقدوها.

ولكن السيد جورج رو (George Roux) مؤلف حياة نيرون الذي تعمق في دراسة أسباب الكارثة يؤكد أن عدد المسيحيين في مدينة روما ذات المليون والنصف ساكن لم يكن يتعدى الألفين وخمسمائة شخص فقط، ولذا لم يكن بمقدورهم قطعاً أن يتمكنوا بصورة من الصور افتعال هذا الحريق الهائل، وذلك لعدة أسباب، أولاً: لقلة عددهم الذي لا يتناسب مع هول الكارثة والسرعة التي انتشر الحريق فيها، إذ أن افتعال حريق واسع مثل هذا الحريق ذي القوة التدميرية العظيمة في عصر متأخر مثل عصر نيرون، كان يستوجب اشتراك الألوف المؤلفة في إيقاده معاً وفي وقت واحد، وهذا الشرط الأساسي لم يكن متوفراً في الجالية المسيحية لضآلة عدد أفرادها، كما أن المفاهيم المسيحية السمحاء التي كانت تدين بها تلك الجالية لم تكن لتسمح لأعضائها بالإقدام على هذه الجريمة النكراء، ومع ذلك لم يتورع اليهود من اتهامهم بها، أملاً بأن تكون القاضية عليهم.

وما يؤسف له أن الرومان الذين عجزوا عن تعليل أسباب الكارثة جنحوا إلى البحث عن كبش فداء لها، فلم يكن لهم بد من أخذ الفرية اليهودية على علاتها، وانتقموا لمدينتهم بالتنكيل في النصارى الأبرياء الذين أصبحوا في عصر روما أكباش الفداء للأحقاد اليهودية الدفينة[1].

وفي عام 130م خيل للمجلس الكهنوتي ظهور تصدع في الكيان الروماني، فأراد استغلاله للثأر من روما، وسارع إلى الإيعاز لكافة جروسات المهاجر اليهودية بإعلان العصيان والتمرد في وقت واحد للتخلص من عبودية روما، فاندلعت نيران ثورة عارمة في كل مكان تكاثر فيه اليهود، وخاصة في شمال أفريقيا، حيث قتل العصاة مئات الألوف من الرومان واليونان، فلم يعد بإمكان روما السكوت على الصلف اليهودي، فسارعت إلى إخمادها بكل

---

(1) المفسدون في الأرض - فصل اليهود والحكم الروماني المباشر صفحة 99.

شدة، ودمرت مدينة القدس وأزالتها من الوجود نهائياً، ولكنها مع الأسف أبقت على المجلس الكهنوتي ولم تمسه على الرغم من أنه كان المسبب الأول والأخير لهذه المجزرة الرهيبة، وعلى الأثر ظهرت أرض كنعان من هذه العصبة الفاسدة التي عم وباؤها فيما بعد العالم بأسره.

وهكذا خرج اليهود من القدس، وقلوبهم مفعمة بالحقد على العالم أجمع، وأيقنوا أن أساليبهم القديمة التي كانت تعتمد على القوة هي أعجز من أن تنيلهم أدنى حلم من أحلامهم طالما أنها أخفقت طيلة ألف عام، فاستعاضوا عنها بأساليب أخرى مستمدة أيضاً من ماضيهم وكتبهم التي تعدّ بحق مصادر توعية أصيلة تتجانس مع طبائعهم وأغراضهم، وخاصة تلك التي وضعت إبان إقامتهم في المنفى وما تلاها من عصور، إذ أن التجارب التي مروا بها كانت أقسى من أن يزدروها، فانهال قادتهم على بحث مسيرتها وأسباب إخفاقها، وما ترتب عنها ومن ثم وضعوا منهاجاً دقيقاً اعتمدوه طيلة عصور ما قبل عصر النهضة، ترتكز مبادئه على مراوغة أعدائهم، والدس في صفوفهم بغية إشعال نار الفتن والحروب فيما بينهم، لإفقارهم مادياً ومعنوياً، وإضعاف أخلاقهم ومثلهم العليا وتدمير مقوماتهم القومية والوطنية والعقائدية، ليسهل عليهم التسلل إلى مجتمعاتهم والقضاء عليها من الداخل، الواحدة تلو الأخرى، بغية الوصول إلى مراكز القيادة في ظهرانيهم، حتى وإن تتطلب ذلك منهم التظاهر بالانتماء إلى أخصامهم عرقاً ومذهباً، عن طريق إعلان الانتساب لدياناتهم، والتسمي بأسمائهم، ليلتبس على أخصامهم الأمر ويتمركزوا مع الزمن في صفوفهم دون إلفات نظرهم، ويشاركوهم في كل شؤونهم وأمورهم وكأنهم منهم، بينما يثابرون من وراء الستار على المضي في تحقيق مخططاتهم الخاصة في ظل إرشادات وتوجيهات مجلسهم الأعلى الذي يعدّ بحق دماغهم المفكر[1].

وتنفيذاً لهذا الأسلوب الجديد تظاهر اليهود حيثما وجدوا بالمذلة والعجز، والإكثار من التذمر والتظلم مما أصابهم على أيدي الرومان، استدراراً للعطف واستجداءً للشفقة، ولكي يغرروا بالسذج من النصارى زعموا أن الرومان نكلوا بهم لكونهم شعب الله المختار، الذي اصطفاه دون العالمين واختصه بالرسالات والأنبياء، ولكونهم أخوة المسيح وحواريه وأصحاب التوراة المقدسة التي أتى السيد المسيح فقط ليكمل تعاليمها، كما كانوا يتنصلون من مسؤولية صلب المسيح ويتهمون الرومان بتنفيذه، ولما كانت أكثر الشعوب آنئذ تناصب روما المستبدة العداء، وتسعى للتخلص من نير عبوديتها، وخاصة تلك التي كثر عدد المسيحيين في صفوفها،

---

(1) المفسدون في الأرض - فصل اليهود في أوروبا صفحة 137.

لذا كان الناس يتقبلون المزاعم اليهودية بكل رحابة صدر ، ودون مناقشة ، ولما انتشرت النصرانية على نطاق واسع أصبحت هذه المزاعم مستساغة لدى المسيحيين الذين تأثروا بتعاليم التوراة التي أعلنت الكنيسة قدسيتها التامة ، وهكذا غدا العطف على اليهود في كل مكان من الأمور الطبيعية المعتادة .

والكنيسة بدورها عمدت إلى السعي لاجتذابهم إليها وضمهم إلى صفوف المؤمنين بها ، على الرغم مما قاسته من كيدهم منذ نشأتها ، وبذلك أصبح اليهود آماداً طويلة يعيشون في مهاجرهم بأمان واطمئنان ، دون أن يغفلوا قط عن أحلامهم القديمة المستمدة من أساطير وخرافات مصادرهم المضللة ، وبانتظار الفرص المواتية لتحقيق تلك الأحلام ، امتهنوا الأعمال والصناعات التي كان غيرهم يأبى تعاطيها ، مثل السحر الأسود الذي تعلموه من كتبهم المختلفة مثل التلمود والقبال وتعاطوا الربا ، الذي كان محرماً على سواهم ، وأمور الصيرفة والمراهنات بغية الإثراء السريع للوصول إلى مراكز الجاه والقوة ، وفي سبيل ذلك لم يوفروا أية وسيلة مهما كانت ، حتى أنهم استنجدوا بسحر نسائهم اللواتي اشتهرن عبر التاريخ بقدرتهن العظيمة في حل كل أمر عسير ، فدفعوا بهن إلى أحضان أفراد النخبة المختارة في كل مهجر بشتى الصور ، فكان منهن من اقترنت بأمراء أو نبلاء مفلسين ، ومنهن من أوقعت في شباكها بعض المتنفذين ، وبذا أصبح في صفوف النبلاء مهودين أو أنصاف مهودين يعطفون عليهم بشكل عفوي ويدافعون عنهم بدافع قرابة الدم والمنحدر ، كما كان المتنفذون الذين وقعوا في شباك فاتناتهم يتبارون في مد يد العون لهم عند اللزوم .

وفي الوقت نفسه كانوا يدفعون بعض من يتوسمون فيهم الذكاء والفطنة من أبنائهم إلى اعتناق النصرانية في الظاهر ، وإبدال ألقابهم ، ليظفر أحدهم بمكانة مرموقة بين المسيحيين تؤهله لمساعدتهم في حالة احتياجهم إليه ، دون أن يلفت الأنظار أو أن يكون موضع شك وريبة ، وهكذا تمكن اليهود في كل مكان من إيجاد عناصر موالية لهم ، تسارع لمعاونتهم في كل ظرف وحين وبفضل هؤلاء الأنصار قيض لهم الصمود في وجه كل أعدائهم وفي مقدمتهم الكنيسة التي قلت من مسايرتهم الطويلة بعد أن خابت آمالها في استجذابهم إلى حظيرتها ، وطفح كيل صبرها معهم إزاء الجرائم والمؤامرات التي لم ينقطعوا عن ارتكابها قطعاً حيالها وحيال مواطني مختلف مهاجرهم طيلة عصور عديدة ، ولذا عاد الصراع بينها وبين المجلس الكهنوتي الأعلى على أشده في مستهل القرن العاشر بعد الميلاد .

ولقد سلك اليهود في الشرق المسلك نفسه بوحي من المجلس الكهنوتي نفسه طيلة العصور السالفة لظهور الإسلام، إذ أن نصيب النصرانية في الانتشار في شبه الجزيرة العربية كان محدوداً، ولذا ظلت الحجاز وأكثر المناطق العربية بمنأى عن المسيحية.

بينما كانت اليهودية قد انتشرت نسبياً بين القبائل العربية التي كانت تحيط بمدينة يثرب مثل قبائل نضير وقريظة وسواها التي تهودت على أيدي بعض كهنة اليهود الذين فروا من القدس على أثر احتلالها وتدميرها من قبل الإغريق، أو الذين شردوا فيما بعد من قبل الرومان في أعقاب الثورات اليهودية، ولذا كان اليهود يأملون أن يحظوا في البلاد العربية بحصة الأسد في ميدان التبشير، وخاصة بعد أن تمكنوا من إحلال اليهودية في ربوع مملكة حمير في القرن الخامس الميلادي بدلاً من النصرانية التي سادتها منذ عهد قسطنطين البيزنطي (350 ميلادية) على يدي تيوفيلس الذي أسس الكنائس اليمنية في ظفار ونجران، اللواتي دمرن فيما بعد من قبل يوسف بن ذي نواس الحميري اليهودي بعد أن قتل كافة النصارى الذين أبوا التهود على يديه.

ولكن احتلال الحبشة لليمن بقصد نصرة المسيحيين فيها، وقضائها على الدويلة اليهودية، الذي أعقبه في مستهل القرن السابع الميلادي ظهور الإسلام الذي كان بمثابة الضربة القاضية على أحلام اليهود في السيطرة على دنيا العرب، فهالهم الأمر وسارعوا إلى الانضمام لصفوف أعدائه بغية القضاء عليه في مهده[1] ولكن الله عز وجل جعل كيدهم في نحرهم وانتصر الإسلام بالسرعة الفائقة المعروفة وطرد اليهود من شبه الجزيرة، فلم يعد لهم بد من قبول الأمر الواقع، والعمل سراً لمناوءته كلما سنحت لهم الفرص للنيل منه، أسوة بمواقفهم من النصرانية، مع فارق واحد، وهو أن في العالم الإسلامي لم يكن بوسعهم أن يعتمدوا على مزاعم قرابتهم للمسيح والأنبياء، في تضليل الناس، أو استدرار شفقتهم، ولذا جنحوا نحو المكر والخداع والدس وافتعال ما أمكنهم من حوادث الشغب والوقيعة فيما بين المسلمين والنصارى داخل البلاد الإسلامية، وبين الدول الإسلامية والمسيحية في خارجها، بغية إيقاد نيران الفتن والحروب أملاً بإضعاف الجميع، لكي يتسنى لهم من خلالها جني المكاسب المادية والمعنوية، وحرية التحرك نحو تحقيق أغراضهم الخاصة، باستغلال ظروف الشعوب والأمم الداخلية والخارجية لمصلحتهم وكل هذا ضمن إطار من التخطيط الدقيق يناسب ظروف وعقلية أفراد كل شعب، وينسجم مع

---

(1) اقرأ (المفسدون في الأرض) فصل المؤامرات اليهودية على الرسول، وفصل التسلل اليهودي إلى الصفوف الإسلامية.

التطورات الفكرية والزمنية لكل بلد، ومن ثم راحوا يلبسون لكل ظرف ومكان اللباس المناسب لهما، كي يضمنوا أكبر قسط من المكاسب في الأحداث المرتقبة، دون أن يتعرضوا لمغارمها التي كان غالباً وقودها من أفراد الشعوب الأخرى.

وهذه الأساليب الخسيسة أنجتهم مراراً من مسؤولية المصائب التي أنزلوها في أكثر الشعوب التي استضافتهم، وليتهم اكتفوا بالتنصل من مغبة افتعال تلك النكبات فحسب بل جنوا من خلفها أموالاً طائلة بفضل هذا التخطيط الشيطاني، حتى غدوا في عصر النهضة أغنى أهل أوروبا قاطبة، وهذه القوة المادية الهائلة، جعلوها رهن تنفيذ مخططاتهم في تحركاتهم السياسية، وهي التي مكنتهم منذ ذلك العصر من عقل ألسنة أعدائهم وخنق أصوات الحق التي كانت تحاول من حين لآخر تنبيه العالم لمؤامراتهم وجرائمهم[1].

ولكن مع الأسف ظل العالم الأوروبي مخدراً بفضل أضاليلهم وخدعهم على الرغم من كل ما ارتكبوه بحق شعوبه مما تقشعر له الأبدان، وكأن الأمر لا يعنيه إطلاقاً.

وبغية إعطاء القارئ فكرة واضحة عن السبل التي اعتمدها اليهود في تجسيد مؤامراتهم وجرائمهم، سنعمد فيما يلي إلى تعداد تلك السبل ومن ثم سرد الأحداث التي افتعلوها في أقطار الدنيا منذ القرن العاشر حتى اليوم.

---

(1) اقرأ (المفسدون في الأرض) جرائم اليهود في الدول الأوربية.

وضع المهاجر اليهودية في العالم المسيحي قبل عصر النهضة

تجاوباً مع تعاليم المجلس الكهنوتي الأعلى، عاش اليهود قبل عصر النهضة في كافة مهاجرهم ضمن أحياء خاصة شبه مغلقة، تجنباً لمخالطة الشعوب الأخرى إلا في الظروف الاضطرارية، أو الحالات الخاصة المتعلقة بأعمالهم ومصالحهم، ولقد جربت الكنيسة مراراً أن تخرجهم من عزلتهم الاختيارية هذه، عسى أن تتمكن من صهرهم في بوتقة أتباعها، ولكن اليهود تمسكوا بانعزاليتهم ولم يستجيبوا قط لمحاولاتها، فلم يسع الكنيسة والحكومات التي كانت تدور في فلكها إلا أن يجعلوا هذا الانعزال الذي كان في الأصل اختيارياً انعزالاً إجبارياً لحماية النصارى بدورهم من الانزلاق في أحابيل مبشري اليهودية، وتمشياً مع سنة المعاملة بالمثل، وهكذا عاش اليهود في مهاجرهم وكأنهم أغراب عن المجتمعات المحيطة بهم طيلة قرون عديدة.

ولقد توخى المجلس الكهنوتي الأعلى من فرض هذا الانعزال على أتباعه، إبقاءهم تحت سيطرة ممثليه في الجيروسات، كي لا يخرج أحدهم عن طاعته في أموره الدينية والدنيوية، وليظلوا تحت إمرته لتنفيذ مخططاته ومراميه، ولذا لم يجنح هذا المجلس إلى الاحتجاج على جعل انعزال أتباعه قسرياً من قبل الكنيسة والحكومات، بل رحب به وباركه، ولكنه اتخذه أمام أتباعه ذريعة للتدليل على كره المسيحيين لهم كما استعملته المؤسسات السياسية والاجتماعية اليهودية التي تكونت فيما بعد حجة لإثبات اضطهاد اليهود في العالم أجمع، وكان من الطبيعي أن يوحي هذا الوضع اليهودي الشاذ إلى الناس بأفكار مختلفة تحيروا في تعليلها، فمنهم من كان يظن أنهم اختاروه خشية اعتداء الآخرين عليهم، ومنهم من كان يظن أنه فرض عليهم من قبل الكنيسة دفعاً لاضطهادهم وإذلالهم، وآخرون يعللونها بصور مختلفة تكاد تكون خرافية وأسطورية أما الواقع فكان يختلف تماماً عن كل هذه التكهنات وينحصر في أغراض المجلس الكهنوتي التي ألمحنا إليها أعلاه.

والسؤال هنا هو، هل إن اليهود كانوا فعلاً يعيشون بمعزل عن شعوب مهاجرهم مثلما كانت مظاهر عيشهم توحي به؟.. فالجواب على هذا السؤال يكمن في نتائج التحقيقات المتعلقة في الأحداث المختلفة التي وقعت في أوروبا قبل عصر النهضة والتي تشير فيها أصابع الاتهام إلى اليهود باعتبارهم أبطال ومسببي أكثرها، ومن هنا يتضح أن تظاهرهم بالانعزالية لم يكن إلا عبارة عن عملية تمويه للتغطية على دسائسهم ومؤامراتهم التي كانوا يحيكونها للشعوب التي يعايشونها تنفيساً عن حقدهم الأسود نحو الإنسانية جمعاء، إن استكانتهم في كل مكان وزمان كان نسبياً، يتفاعل مع

الظروف والفرص، فهم مثلاً عندما طردوا من بريطانيا عام 1290 ميلادية من قبل الملك إدوارد الأول (Edouard 1er) زعموا أن السبب كان رغبة الملك والنبلاء في الاستيلاء على أموالهم والتخلص مما كانت لهم من ديون عليهم، ولقد تمكنوا من تثبيت هذه الفرية في التاريخ البريطاني الرسمي فيما بعد عندما سنحت لهم الظروف في عهد رجلهم كورمويل (Olivercromwell) صاحب ثورة عام 1645 الذي أطاح بالملك شارل الأول، وطارد وريثه شارل الثاني بواسطة القطعات التي لقب أفرادها بذوي الرؤوس المدورة والذين كان أكثر قادتهم من اليهود أمثال صاحب الثورة الذي كاد أن يهود بريطانيا بأكملها إبان عهده الذي دام خمسة عشر عاماً، لم يبق في غضونها في بريطانيا ما يشير إلى أنها كانت يوماً من البلاد المسيحية، وهذه المدة هي التي مكنت اليهود من العودة إلى بريطانيا مجدداً وكأنهم فاتحين فبسطوا على مرافقها سيطرتهم الكاملة فحولوا وبدلوا ما شاء لهم التبديل، وكان من جملة جرائمهم تزوير كافة الوثائق التاريخية الرسمية، وإحلال ما شاؤوه فيها مما كان لصالحهم، ومن بينها قصة طردهم من قبل إدوارد بالشكل الذي ذكرناه.

ولكن فاتهم أن مؤرخي التاريخ غير الرسميين لم يسهوا عن تدوين الحقائق عن أسباب هذا الطرد، ونحن على سبيل الإيضاح سنذكر فيما يلي بعض الأمور التي أدت إلى اتخاذ الدولة البريطانية هذا الإجراء حيالهم وذلك في بحثنا عن سلوكهم إبان إقامتهم الأولى في إنكلترا.

سلوك الجالية اليهودية في بريطانيا قبل عهد الملك إدوار الأول (1272 - 1307)

من المعروف أن الجالية اليهودية في بريطانيا، كونت أصلاً ممن أجلوا إليها في أعقاب ثوراتهم على روما، وممن تسلل إليها فيما بعد من القارة الأوربية، ولقد عاشوا فيها أكثر من ألف عام على أحسن حال، وأصبحوا من ذوي الثروات وأصحاب الأطيان، حتى كان منهم حملة الألقاب أمثال توماس كروموبل، ومن سبقه من أبناء الجالية اليهودية الذين تظاهروا باعتناق النصرانية أو الذين تسللوا إلى قصور ملوكها وأمرائها بفضل الثروات التي جمعوها من تعاطيهم للربا، والتجارات المحرمة الأخرى، وهكذا غدوا سادة لكثير من الأمور الحيوية في البلاد من وراء الستار، فعاودتهم أحلامهم القديمة، ولكنهم كانوا أعجز من أن يحققوا شيئاً منها، فاستعاضوا عنها بارتكاب الجرائم الفردية تسكيناً لنوازع الشر التي كانت تثور في صدورهم، وبغية ذلك بدأوا بإحياء أعيادهم الدينية القديمة مثل عيد هولوكوست (Holocauste) مع كل مستلزماتها من تقديم القرابين البشرية إلى صنع الفطائر المسماة (Pain-Sans-Levain) المعجونة بدماء الأضاحي[1]

(1) منذ أقدم العصور، وقصص قتل اليهود للأطفال في مثل هذه المناسبات تحكى في كل مكان، ولكن اليهود كانوا دائماً ينفونها، ويطمسون معالمها التي كانت تدينهم بصورة من الصور. ولكنها ليست في الواقع خرافية قطعاً بدليل أنهم ارتكبوها في كل مكان وأدين ألوف منهم بارتكابها بالشكل الذي نبين وقائعها فيما يلي.

ولقد ارتكبوا أول جريمة من هذا النوع في بريطانيا عام 1144 في مدينة نورفيج (Norvich) من مقاطعة نورفولك (Norfolk).

وتتلخص القصة بأن إحدى العائلات افتقدت طفلها ويليم البالغ اثني عشر عاماً، فلم تعثر عليه إلا بعد أربعة أيام مقتولاً ومرمياً في الحرش المجاور للمدينة، ولما تسلمت الشرطة التحقيق عن أسباب مقتل الطفل، تبين لها أن اليهود هم الذين قتلوه بغية تقديمه قرباناً لآلهتهم، واستعمال دمه لصنع فطائرهم المقدسة، وذلك بناءً على اعتراف اليهودي المدعو توبالت (Teobalt) وزملائه في الجريمة، وعلى الأثر اعترفت الكنيسة بالطفل المقتول كشهيد ودفن في إحدى الكنائس وأطلق عليه اسم القديس ويليم (Saint-Williame) ولقد حفظت ملفات القضية برمتها في دار الأسقفية لمدينة نورفيج[1].

وفي عام 1160 قتل الطفل هارولد في مدينة كلوسستر (Gloucester) من قبل اليهود فجر يوم عيد الهلوكوست، واكتشفت الجريمة من قبل الشرطة واعترف الجناة بجريمتهم ولاقوا جزاء ما جنته أيديهم[2].

ووقعت جريمة أخرى في ظروف مماثلة عام 1181 في مدينة جيرفاز (Gervase) وتبين في نتيجة التحقيق أن اليهود هم مرتكبوها[3].

وتذكر الوثائق العائدة للمدة الواقعة ما بين عام 1192 - 1232 وقوع عدة جرائم قتل مماثلة كان اليهود أبطالها، وخاصة الجرائم التي ارتكبت في عهد هنري الثالث[4].

وفي عام 1235 وقعت عدة جرائم قتل إبان الأعياد اليهودية فاعتقل الجناة في عدة مدن واعترفوا بجرائمهم، فأرغمتهم السلطات على دفع دية القتلى ومن ثم عاقبتهم على فعلتهم المشينة[5].

ولقد شاهد أهل مدينة لوندرا وقوع أكثر من جريمة قتل أقدم عليها اليهود عام 1244 بقصد استعمال دماء الأضاحي في صنع فطائرهم المقدسة[6].

ويروي لنا السيد كلو فيريوس بدوره قصص قتل عديدة حدثت عام 1257 كان اليهود أبطالها، بغية الحصول على دماء بشرية لأغراضهم الدينية[7].

---

(1) برميل الإبر للسيد اتيلهان.

(2) حوادث عام 1160 للسيد ر. كرافيون. Chronique 1160 Par. M-R Crafion.

(3) Chronicle of Gervase of Canterbury PAR M. Rohrbacher.

(4) Close Roll 16 Henry III Menbrane 8-26-6-1232.

(5) M. Huillard Breolles (Grande Chro Nique III) P. 26.

(6) H.D. Trail (Social England).

(7) Gluverius (Historia Epitome P. 541).

ولقد تفاقم أمر الجرائم اليهودية هذه في عهد هنري الثالث فلما وقعت جريمة مدينة لنكولن (Lincoln) عام 1255 اضطر العاهل البريطاني للإشراف بنفسه على التحقيق، فتبين له اشتراك تسعين يهودياً في ارتكاب جرائم مماثلة.

كما أن المصادر الإنكليزية الأخرى مثل كتاب تاريخ اللغات، ومذكرات مدينة لوندرا تشير بدورها إلى ارتكاب اليهود عدة جرائم من هذا النوع بين عام 1279 ـ 1290.

ويبدو أن جميع الإجراءات التي اتخذتها الدولة البريطانية للحد من الجرائم اليهودية لم تثمر مع الجناة بدليل تصاعد أعدادها يوماً بعد يوم، مما أفقد الشعب البريطاني صبره فتعالت أصوات إنكار المسلك اليهودي في كل مكان وخاصة يوم 21 حزيران عام 1290 عندما اكتشف أمر الجريمة النكراء التي ارتكبها اليهودي إسحاق دوبوله (Isac de Pulet) وزمرة من أبناء قومه في مدينة أوكسفورد (Oxford) فثار الشعب في أعقاب التحقيقات التي أسفرت عن إدانة القتلة، وطالب بطرد كل من يلوذ بهؤلاء الوطاويط البشرية من بريطانيا، فلم يسع إدوارد الأول إلا الاستجابة لرغبة شعبه حقناً لدماء أطفال بني قومه، فأصدر أمره بطرد اليهود وهكذا خرجوا من الجزيرة الإنكليزية جزاءً وفاقاً لما ارتكبوه بحق أهلها من جرائم نكراء.

ولكن مع الأسف بعد أن كانت جذورهم قد تأصلت في الأرض البريطانية بقدر كاف لكي تعيدهم إليها في منتصف القرن السابع عشر ظافرين غانمين بفضل من تسلل منهم إلى صفوف النصرانية بغية الانتصار لهم في مثل هذه الظروف.

ومنذ ذلك التاريخ وعلى الرغم من عودة الملكية عام 1660 إلى بريطانيا أصبح اليهود سادة المصير البريطاني إلى حد بعيد[1] ولم يعد أحد يجرأ على محاسبتهم مهما عظمت جرائمهم، إذ أنهم سيطروا على الحياة البريطانية في كافة مجالاتها الروحية والسياسية والاقتصادية فلم يعد للإنكليز مناصاً من الخضوع لهذا الواقع الأليم، وهذا النفوذ هو الذي مكنهم من تزوير التاريخ البريطاني وإبراز أسباب طردهم من قبل إدوارد الأول بالشكل الذي رويناه في مستهل هذا الفصل، وذلك تمويهاً للواقع وتضليلاً للعالم.

ومن خلال المصادر التاريخية الأوربية المختلفة يتضح لنا أن سلوك اليهود في بريطانيا لم يكن خاصاً بها فقط بل كان عاماً نسبة لكل الأقطار التي وجدوا فيها، وهذا المسلك المشين كان السبب المباشر لنقمة الشعوب على أصحابه على مر الزمن في كل مكان.

---

(1) اقرأ (المفسدون في الأرض) فصل الجرائم اليهودية في بريطانيا.

أسباب قيام وحدات السيد المسيح في فرنسا

(Les Compagnise de Jésus)

من الأمور الملفتة للانتباه أن موجة الجرائم اليهودية انطلقت في أوروبا في الوقت نفسه تقريباً مع انطلاقها في بريطانيا، مما يؤكد أنهم كانوا يخضعون في كل مكان لتخطيط وتوقيت موحد، والبرهان على ذلك، هو التدهور الفجائي للعلاقات الطبيعية التي كانت سائدة ما بين الشعب الإفرنسي والجاليات اليهودية الصغيرة التي كانت تقيم في فرنسا في القرن الثاني عشر الميلادي، على أثر عثور السلطات على جثة طفل من مدينة بلوا (Blois) بلغ ذووه عن فقده فجر يوم عيد الهولوكوست لعام 1171 ولدى التحقيق تبين أنه قتل من قبل اليهود بغية الاستفادة من دمه لصنع فطائرهم المعهودة لمثل هذه المناسبات، ولقد اعترف الجناة بذنبهم أمام القضاء، فأعدم ثلاثة منهم[1].

وتبع هذه الجريمة فيما بعد عدد آخر من الجرائم مثل التي وقعت عام 1179 ميلادية في مدينة بونتواز (Pontoise) والتي ذهب ضحيتها الطفل ريشار، ولقد كلف في التحقيق عنها كل من الأب ريكورد (Rigord) والمؤرخ المحلي كليوم لارموريكا (Guillaume L'armorica) فأسفر تحقيقهما عن إدانة اليهود بها، وإعلان قدسية الطفل القتيل ودفنه في كنيسة القديسين في باريس تحت اسم القديس ريشار[2].

وارتكب اليهود جريمة أخرى مماثلة عام 1192 في مدينة برين (Brine) فتعهد الملك فيليب أوكوست بنفسه التحقيق عنها، فاعترف اليهود أيضاً بجريمتهم فأحرق الجناة في الساحات العامة بأمر العاهل الإفرنسي المذكور[3].

وفي عهد البابا أينوسان الرابع اكتشفت جريمة قتل في مدينة فالريا (Valréas) الفرنسية عام 1247 ثبت أن اليهود كانوا أبطالها، ولقد اعترفت بها المصادر اليهودية ذاتها[4].

---

(1) Monumenta - Germaniae Historica 6-em Article P. 520.

(2) Bollandistes Actas Sanctorum 3-em Partie P. 591.

(3) Histoire des Ducs et comtes de champagne Par. A-Jubainville.

(4) Chronicon Hirsaugiense Par, Abbet J. Trithmius-544.

ومما يذهل المرء هو انتشار هذه الجرائم في كل مكان على الرغم من الإجراءات الشديدة التي كانت تؤخذ حيال مرتكبيها من اليهود في كل قطر، إذ أنها عمت المدن الأوروبية بأجمعها وخاصة في المدن السويسرية والنمساوية والإيطالية والمجرية بصورة مرعبة، وعلى سبيل العد لا الحصر نذكر بعضها فيما يلي:

في عهد فريديريك الثاني (Frédéric II) وفي أعقاب عيد الهولوكوست لعام 1235 اكتشفت جثث خمسة أطفال في القرب من الحي اليهودي في مدينة فولدا (Fulda) التابعة لمنطقة هس ناسو (Hesse Nassau) ولدى التحقيق تبين أنهم قتلوا من قبل اليهود، فاعتقل الجناة واعترفوا بالجريمة ولكنهم عزوا ارتكابها لاستعمال دماء الأضاحي لصنع أدوية لمرضاهم، ولكن هذه الحجة لم تنقذهم من العقاب بالموت الذي أنزل بهم جزاءً وفاقا[1].

وفي عام 1250 أقدم اليهود على اغتيال رجل من سكان مدينة بيفورزيم في عيد الهولوكوست، ولدى اكتشاف الحقيقة أعدم بعض الجناة وانتحر البعض الآخر[2].

وفي عام 1288 اكتشفت جريمة مماثلة ارتكبها اليهود بحق أحد سكان مدينة أوبرفيسل (Oberwesel) الألمانية، فلاقوا جزاءهم، ودفن القتيل في كنيسة المدينة وأعلن قديسا، وعدّ 19 نيسان من كل عام عيداً له يحيي الأهلون فيه ذكرى استشهاده، كما أقيم له نصب تذكاري يحكي قصة مقتله على يد اليهود.

والسيد كارل هوفالد (Karl Howald) مؤلف كتاب (Diebrunnen Zubern) يحدثنا في الصفحة 250 من مؤلفه عن إقدام اليهود في مدينة بيرن (Berne) السويسرية على ارتكاب عدة جرائم قتل في مناسبات أعيادهم الدينية.

أما الجرائم اليهودية في النمسا فهي أشهر من أن يبحث عنها إذ يكفي أن يعلم القارئ أن الصخرة المشهورة باسم الصخرة اليهودية الكائنة في القرب من مزرعة سولبادهال (Solbad Hall) التابعة لمدينة أنسبروك (Innsbruck) عاصمة مقاطعة التيرول (Tyrol) والتي يحج إليها المسيحيون كل عام اكتسبت شهرتها من الدماء المسيحية البريئة التي كان اليهود يهدرونها عليها كل عام بمناسبة أعياد الهولوكوست خفية عن أنظار السلطات، وبغية ترغيب الحجاج لزيارة هذه

---

(1) L'Histoire universelle de L'Eglise catholique XVIII P. 697-700.

(2) Igneli Fici – C.R. Atilhan.

الصخرة عمدة مؤسسة تيروليافيرلاك (Tyrolia Verlag) إلى طبع بطاقات دعائية تحتوي على تفاصيل الجرائم التي ارتكبها اليهود على تلك الصخرة.

وإيطاليا بدورها ذاقت مرارة الجرائم اليهودية مرارا عديدة ولقد اشتهرت من بينها جريمة مدينة ترنت (Trente) التي وقعت عام 1475 والتي حاول اليهود التنصل من مسؤوليتها، فاضطر أحد نواب مجلس البندقية المدعو فلامينو كورنارو (Flamino Cornaro) أن يصدر كتابا عن تفصيلات جريمة القديس سيمون (Saint Simon) والجرائم اليهودية المماثلة في إيطاليا، ولقد شهد البابا كليمنت الرابع عشر (Clémentxiv) بصحة ما ورد في مؤلف السيد فلامينو على ضوء ملفات وثائق الكنيسة الكاثوليكية[1].

وفيما يتعلق بأسباب طردهم من إسبانيا عام 1492 يزعم اليهود أنه وليد الحسد والجشع لما كانوا يملكونه من مال وجاه، ولإقدامهم على مساعدة العرب في احتلال إسبانيا عام 711 ومن ثم لامتناعهم عن التنصر، مع أن جرائمهم الدينية التي مارسوها طيلة ثمانية قرون في إسبانيا والتي ضج منها الإسلام قبل النصارى كانت من أقوى الأسباب التي عرضتهم لهذا الطرد.

ومن هذه الجرائم التي هزت ضمير العالم المسيحي في القرون الوسطى، جريمة القرابين المقدسة المطعونة (Les hosties Poignardees) التي وقعت حوادثها عام 1369 والتي تتلخص بما يلي: طلب الحاخام جوناتاس راعي كنيس اليهود في بروكسل من أحد أتباعه المدعو جان دولوفان المتظاهر بالنصرانية أن يحصل له على قرابين مقدسة مقابل مقدار معين من المال، فما كان من جان إلا أن تسلل في إحدى ليالي تشرين الأول إلى كنيسة القديسة كاترينا وسرق منها ستة عشر قربانا مقدسا وسلمها إلى الحاخام جوناتاس الذي سارع إلى منزله في أنكين (Enchien) حيث جمع أفراد عائلته وبعض أتباعه ومن ثم أقدم الكل على تدنيس تلك القرابين المقدسة بكل ما كانت تكنه صدورهم من دناءة وحقد نحو المسيحية، ولربما هذه الفعلة الشنيعة كانت ستتكرر من قبل الحاخام المذكور مرارا لولا أن وجد مقتولا بعدها ببضعة أيام في حديقة منزله، فخشيت أرملته مغبة الأمر وسارعت إلى إرسال القرابين المقدسة إلى يهود المدينة، فما كان من هؤلاء إلا أن اجتمعوا حولها في الكنيس لينتهكوا حرمتها مجددا، وبعد أن أشبعوها والنصارى شتما وسبا استلوا خناجرهم وانهالوا عليها طعنا، وإذ بالدم يفور من القرابين، فهالهم الأمر، وسارعوا بدورهم إلى التخلص منها بإرسالها إلى يهود مدينة كولونيا (Cologne)

---

(1) L'Histoire Vniverselle de L'eglise Catholique P. 673.

بواسطة امرأة يهودية كانت قد تنصرت دون علمهم ، فلما علمت المرأة بما حدث بادرت بإعلام السلطات المختصة بالأمر فاعتقل الجناة وأعدموا جزاء ما اقترفته أيديهم ومن ثم استعيدت القرابين ووزعت على بعض الكنائس ليتبارك المؤمنون بها باعتبارها من المعجزات الخارقة .

ولما تفشى الوباء في بلجيكا عام 1529 استنجد المؤمنون بها ، فكانت عند حسن ظنهم بإنقاذهم من الموت المحتم ، وإشهاراً لتفاصيل هذه الجريمة عمدت كنيسة القديس ميشيل وكودول (Gollégial des S.S Michel et Gudule) إلى تجسيدها عن طريق تماثيل صغيرة تمثل القرابين واليهود الذين دنسوها ، لكي تكون رمزاً حياً لقذارة الجرائم اليهودية ، وهذه التماثيل ما زالت موجودة حالياً في الكنيسة ضمن علبة بللورية ، يمكن لأي زائر لمدينة بروكسل أن يشاهدها بأم عينيه ويقرأ تفاصيل قصتها في الكراس الخاص بها[1] .

وإزاء موجة الجرائم اليهودية هذه ، كان لابد للعالم المسيحي أن يتفاعل ويثور فكثر التذمر من اليهود في كل مكان ، وخاصة بعد أن تبين للكنيسة مدى مساهمة اليهود في تشجيع الحركات الهرطقية مثل جمعيات الإنسانيين (Humanisme) التي أسسها اليهودي كيليوم بودي (G. Bude) مدير مدرسة قراء الملك نحو عام 1450 ، والتي انبثقت عنها جمعيات أخرى مثل دعاة الوحي (Illuminés) والبروتستانتية التي بشر بها لوثر (Luther) عام 1517 الذي كان اليهود يشجعونه مادياً ومعنوياً في بداية الأمر ومن ثم انقلب عليهم لما لمسه من خداعهم وتضليلهم ، وحركة كالفين (Calvin) التي لاقت هي أيضاً العون الكبير من اليهود البريطانيين والسويسريين حتى تمكن صاحبها من تأسيس الجمهورية اليهوائية في سويسرا على غرار مبادئ الحكم اليهودي بعد عهد النفي الداعية إلى التمرد على كل نظام سوى نظام حكم يهوه ، ومن ثم حركة جانسينيوس (Jansénisme) التي ظهرت في هولندا عام 1600 والتي كانت تحركها القوى اليهودية الخفية ، وأخيراً الحركة البوريتانية (Puritains) التي عمت شمال أمريكا بعد أن طردوا أنصارها من أوروبا .

ولما كانت كل هذه الاجتهادات الدينية الداعية للخروج عن طاعة الكنيسة تستوحي مفاهيمها من المفاهيم الدينية اليهودية وتقترب منها بقدر ابتعادها عن المفاهيم الكاثوليكية ، ومن ثم ظهور الفلسفات الداعية إلى المفاهيم اليونانية والرومانية المشوبة بالتحرر من سلطان الكنيسة التي كان اليهود يروجون لها ، تعدّ معاول هدم للوجود المسيحي وللأنظمة التي كانت سائدة آنئذ

---

(1) لقد شاهد المؤلف تماثيل القرابين المقدسة عام 1950 في كنيسة بروكسل وقرأ قصتها بكل تفاصيلها .

في أوروبا، وخاصة بعد خروج بريطانيا عام 1535 عن الكنيسة على يدي هانري الثامن الذي فتح الباب على مصراعيه أمام أوليفر كروموبل وثورته التي أبدلت وجه بريطانيا إلى الأبد[1] سارعت الكنيسة والأنظمة التابعة لها عام 1540 إلى تكوين وحدات السيد المسيح (Les compagnies de Jésus) وأسندت قيادتها لايغناس لويولا (Ignace Loyola) صاحب محاكم التفتيش، فاحتدم الصراع بينه وبين الهراطقة وسالت الدماء الغزيرة مدة مئتين وأربعة وعشرين عاماً، وكان من الطبيعي أن يصيب اليهود بعض الرذاذ لوضوح بصمات أصابعهم في كل الأحداث المناوئة للكنيسة، ولمثابرتهم على ارتكاب الجرائم الدينية (Les Crimes Rituels) التي بحثنا عنها، فرفعوا عقائرهم في كل مكان يبكون ويتظلمون ويندب معهم الكتاب والمفكرون الذين كانوا يدورون في فلكهم ويعيشون على موائدهم، واستعانوا أيضاً بالملوك من آل هابسبورغ (Les Habesbourgs) الذين كانوا تحت رحمة مصارف آل فوجر (Les Fuggers) اليهودية والتي كانوا يستقرضون منها الأموال، كما كانت الدولة البريطانية التي كانت تعد قلعتهم الحصينة آنذاك تمد لهم يد العون لتنقذهم من مسؤوليات جرائمهم، هذا عدا العون الذي كانوا يلقونه من بعض الأمراء الألمان المديونين لهم، وبفضل هذه الأساليب والعوامل خرجوا من كل أحداث القرن الخامس والسادس عشر بحصة الأسد مادياً ومعنوياً مع أنهم كانوا خلف أكثرها، وهكذا دفع المسيحيون وحدهم غرم ثورة الكنيسة المضادة وتحملوا قسوة إيغناس لويولا ووحداته التي كانت الجرائم والتحركات اليهودية السبب المباشر لتكوينها[2].

---

(1) اقرأ (المفسدون في الأرض) الجرائم اليهودية في بريطانيا وثورة كروموبل عام 1645.

(2) اقرأ (المفسدون في الأرض) فصل اليهود في أوربا.

عصر النهضة ومكاسب اليهود فيه

مما لا شك فيه أن عصر النهضة كان بحق عهد التطور الفكري والعلمي الأول، إذ انطلقت فيه الأفكار والمبادئ على اختلاف أنواعها في كل الأقطار الأوربية، وتحررت العقول والأقلام من جمودها وخاصة بعد ظهور الطباعة التي كانت بمثابة الحجر الأساسي لنشر العلوم والفنون والفلسفات على أوسع نطاق وبأسهل السبل، فعمت نعمة العلم أرجاء القارة بأكملها، وغدا بمقدور كل فرد تقريباً الحصول على ما يروم من مصادر علمية وثقافية، وانتشرت في طول أوربا وعرضها إبهاء وندوات (Salons) ثقافية يديرها كبار المفكرين والأدباء، يقيمون فيها المحاضرات والمناظرات بغية تنوير الخاصة والعامة، كما تكاثرت دور النشر والطباعة التي تعهدت طبع مختلف الفلسفات والآراء والعلوم لكي يطلع الناس عليها، فأدى ذلك إلى قلب المفاهيم القديمة بمختلف اتجاهاتها الدينية والدنيوية والوطنية أو القومية، ولقد أسفر هذا التجدد الفكري عن القضاء على الكثير مما كان قائماً من الأوضاع الدينية والسياسية، حتى أن بعض الباباوات أمثال كيليانو ديللاروفير (Ciuliano Dellarevere) الملقب بجول الثاني (Jules II) الذي ترأس الكنيسة الكاثوليكية من 1503 ـ 1513 والبابا جان دوميديتشي (Jean de Médicis) الملقب ليون العاشر (Léon X) الذي رعى الكنيسة من عام 1513 إلى عام 1521، تأثراً بالثورة الفكرية وناصراً رجالها بما أوتوه من قوة، وخصوصاً الأخير الذي عاصر ماكسيمليان الأول وشارل كنت، واستقرض الأموال من المصارف اليهودية مثلهما وهو الذي ظهرت في عهده البدعة اللوثرية التي أرغم شارل كنت على الاعتراف بها فيما بعد.

وبفضل أمثال هؤلاء الأحبار والحكام أصبح القرن السادس عشر عصر أريوست (Arioste) وميكيافيل (Michiavel) وبانبو (benbo) وتاس (Tass) وليونارد دافينتشي (Léonard de Vinci) وبرامانت (Bramante) وميكائيل آنج (Michel Ange) ورافائيل (Raphaél) وسواهم من فحول الفكر والعلم والفن، ولكنه مع كل أسف كان أيضاً عهد انطلاق الشيطان اليهودي من قمقمه، إذ أن الأفكار الجديدة حيثما انتشرت منحتهم جميع الحريات التي حصل عليها المواطنون الآخرون، فاستغلها اليهود لمصالحهم العنصرية والدينية على أوسع نطاق، فبينما كانوا يتظاهرون في الأوساط العامة بمناصرة تلك المفاهيم ويفسحون المجال في

الندوات التي كانوا يديرونها أمام رجال الفكر والأدب من بني قومهم[1] وسواهم لإلقاء المحاضرات التحررية والتقدمية ويدفعون لهم بسخاء منقطع النظير كان مجلسهم الأعلى يعمل سراً على رص صفوفهم، عن طريق تلقينهم مبادئ العنصرية والدينية المتطرفة ويضيق عليهم الخناق للتعاون والتعاضد فيما بينهم، لإنقاذ أبناء قومهم القاطنين في البلاد التي كانت ما زالت تفرض عليهم القيود القديمة، وتقيد حركاتهم المجرمة، مثل فرانسا وروسيا، وذلك بواسطة نقل ونشر الأفكار الجديدة فيها بشتى السبل والوسائل، وبغية تحقيق هذه الأهداف قررت الزعامة اليهودية مساندة كافة الاتجاهات التحررية المناوئة للعقيدة المسيحية وللسلطات التي كانت تأبى منحهم الحريات المدنية والسياسية، مهما كلفها الأمر فسارعت اليهودية إلى دعم التنظيمات السرية التي كان ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، مثل الماسونية وجمعية المفكرين الأحرار، وجمعية الزنادقة (Sans Dieux) وشهود يهوه والنهلست، ومن ثم راحت تغدق عليها الأموال لتشجعها على المضي في نشر مبادئها، كما وضعت تحت تصرفها ما كان أتباعها يملكونه من أجهزة الدعاية والنشر مثل الصحف والمطابع ودور النشر لكي تعم مفاهيمها أوساط الشعوب، وتنتهي بها إلى التفسخ والانحلال.

وبفضل علاقاتهم المالية الوثيقة مع الكنيسة وبعض حكام أوربا وعون من تظاهر من أبناء قومهم باعتناق النصرانية، والمؤسسات السرية والعلنية التي أتينا على ذكرها تمكن اليهود في غضون مدة قصيرة من الحصول على الحقوق السياسية والمدنية في أكثر أقطار أوربا، وأصبح التفريق بينهم وبين مواطنيهم في كل من الأمور المعدّة وحشية وهمجية، وأصبحت تهمة اللاسامي تلصق بكل من يناوئهم مع كل مفاهيمها المختلفة فهم فسروها للفئات المتدينة وعن طريق الكنيسة بالذات، بأنها تعني محاربة السيد المسيح باعتباره سامياً مثل اليهود، أي أن من يكره اليهود يكره بالتالي المسيح، باعتبار أن الفرع يتبع الأصل، ويبدو أن هذه الفكرة الخاطئة تأصلت في نفوس بعض أحبار الكنيسة، وإلا لما سمعنا أحد مشاهيرهم يعلن تمسكه بها في إحدى مواسم الحج المسيحي بمدينة روما، وذلك عندما قال أنه وكنيسته وأتباعها هم جميعاً روحياً وفكرياً ساميون، أي أنه حرم بكل بساطة على سامعيه مناوءة اليهود ومعارضتهم بحجة أنهم إخوة المسيح.

---

(1) أمثال الأديب اليهودي الشهير هانري هين الذي كان يعتبر من فحول دعاة التحرر، بينما كانت مؤلفاته الخاصة باليهود تحضهم على التمسك بعقائدهم وقوميتهم وتعاليم زعمائهم بكل إصرار وتعنت.

وفيما يتعلق بإقناع الفئات المتحررة بخطل اللاسامية اعتمدوا على المفكرين والكتاب الذين كانوا يفسرونها بكونها عنصرية منافية للمفاهيم الإنسانية وتعصب أعمى لا مسوغ له، أما الفئات الحاكمة فكانت تفهمها بالشكل الموافق لأغراضها الشخصية، ولذا كانت لدى المتنفعين من اليهود ظاهرة لا وطنية، ودعوة للتفرقة والشغب، بينما كان الحكام المتحررون من المؤثرات اليهودية، كانوا ينظرون إليها، باعتبارها فكرة وطنية يجب مراعاتها، ومما يؤسف له أن عدد الحكام من هذه الفئات كان يتقلص يوماً بعد يوم ابتداءً من فجر عصر النهضة، حتى أصبح واحدهم فيما بعد أندر من العنقاء، وذلك بسبب تركيز اليهود على محاربتهم عن طريق تشجيع الأقلام المأجورة لمناوءتهم هذا عدا عن الفلسفات والأفكار الحديثة التي كانت في الأصل مبنية على شجب التعصب الديني والقومي وعلى المطالبة بالمساواة والحرية دون تمييز في العرق أو المذهب، ومن هنا أصبحت تهمة اللاسامية من التهم المرعبة التي كان الناس يتجنبون التصاقها بهم، فراح كتاب اليهود يرمون بها كل من أرادوا النيل منه عبر التاريخ بغية التشهير به وتسويغاً لجرائمهم، وهكذا عاد اليهود إلى أساليبهم التي اعتمدوا عليها في عصور ما قبل التاريخ التي تبحث مصادرهم عن أحداثها، حيث اتهموا كل من وقف في طريقهم في تلك العصور السحيقة باللاسامية مع أنها لم تكن بعد معروفة فيها، وحتى اليهود أنفسهم لم يكونوا قد فكروا بإيجادها، ومع هذا قال كتابهم أن كل ما أصابهم على أيدي الآشوريين والكلدانيين والفرس واليونان والرومان والنصرانية والإسلام كان مبعثه اللاسامية المتطرفة التي كانت تدين بها تلك الأقوام والملل، ولترسيخ هذه الفكرة لدى العامة أصدروا أو أوحوا بإصدار الألوف من الكتب، تبحث جميعها عن لاسامية تلك الأقوام وتدافع عن مسلك اليهود حيالها، وتزعم أن كل ما قام به اليهود في تلك الأزمان البعيدة لم تكن إلا بسائق الدفاع عن النفس[1].

مع أن المصادر التاريخية المختلفة تشهد صراحة بأنهم كانوا علة كل ما تعرضوا له، وتكشف بكل وضوح جرائمهم التي كانت السبب في كل ما أصابهم.

ومما يجدر ذكره بهذا الصدد، هو ما يذهب إليه بعض المغرر بهم، القائلون بأن التحركات اليهودية ضد تلك الأقوام كانت تحركات تحررية استقلالية ووطنية وذلك انطلاقاً من زعم كون تلك الأقوام كانت أقواماً غازية مستعمرة، وعدّ اليهود (أحفاد رعاة الشاة) وطنيين أحراراً يدافعون عن أرضهم وموطنهم.

---

(1) Antisemitise, Par F. Lovsky.

فليسمح لي هؤلاء السادة أن ألفت انتباههم إلى خطل فكرتهم التي ربما استمدوها من الأفكار السائدة منذ الأزل والتي كانت وما زالت تدعو لتمجيد كل فئة أو شعب يناضل لتحرير أرضه من الغاصبين، إذ أن مفاهيم هذه الفكرة تحدد أسباب التمجيد بهدف معين، ألا وهو الدفاع عن أرض يناضل مواطنوها عنها، ولذا لا يجوز إطلاق صفة المناضل المحرر على كل من حمل السلاح اعتباطاً، أو لتحقيق أغراض شخصية أو بقصد الاستيلاء على أرض الغير أو بغية الاحتفاظ بما سلبه من الغير، وإلا لجاز لنا أن نسمي كل المستعمرين والغاصبين الذين يقاتلون مناضلي البلاد التي سيطروا عليها ظلماً وعدواناً أيضاً بالمحررين، وفي هذه الحالة، ما هو الاسم الذي يجب أن نطلقه على المناضلين عن أرضهم إذن؟.. أنُعرفهم بالمعتدين أو المفترين؟.. فإذا اعتمدنا هذا المنطق المعوج، لجاز لنا عندئذ فقط أن نسمي التحركات اليهودية القديمة بتحركات تحررية، إذ أن اليهود لم يتحركوا قط في سبيل تحرير أية بقعة من بقاع العالم لسبب بسيط جداً ألا وهو عدم امتلاكهم لأية أرض أو وطن عبر التاريخ، حتى أرض كنعان التي يزعمون ملكيتها ويربطون حقهم في هذه الملكية بالوعود اليهوائية المختلفة، لا بحق أولوية الاستيطان أو حقوق الفتح والاستيلاء، ومصادرهم تعترف بهذه الحقيقة بكل صراحة ووضوح، وليس فيها ما يشير إلى أي اعتبار آخر، ومن هنا ومما يرويه التاريخ وما تؤيده المكتشفات العلمية الحديثة، يتضح أن أسباب التحركات اليهودية القديمة لم تكن تتسم يوماً من الأيام، إلا بطابع الاعتداء أو الدفاع عن معتقداتهم وتقاليدهم المستنبطة من قبل صانعي قوميتهم الخرافية.

كما أن مسلك اليهود بعد عهد التشرد والنفي حيال الأرض الموعودة لم تتعد حدود الترنم بها في صلواتهم ذراً للرماد في العيون، بغية إيهام الناس بأنه كان لهم يوماً أرض ووطن، والبراهين على عدم تعلقهم الجدي بوطنهم المزعوم هي أكثر من أن تحصى، فعلى الرغم من الفرص العديدة التي قيضت لهم في الماضي للتدليل على تعلقهم به، ومنها الفرصة التي أتاحها لهم كورش الفارسي[1] عام 535 قبل الميلاد للعودة إلى فلسطين والتي اكتفوا منها بإيفاد فقرائهم ومرتزقتهم إليها بينما ظل سادتهم وأغنياؤهم قابعون على ثرواتهم في بابل، ومن ثم تفضيلهم الهجرة إلى اليونان مقابل المنح المادية والميزات المعنوية التي وعدوا بها من قبل الدولة اليونانية، عوضاً عن العودة إلى فلسطين، زد عليها هجرة نخبتهم المختارة التي فضلت الإقامة في بابل

(1) كذا والمستند هنا هو ما جاء بالعهد القديم، وهو يتنافى مع المعطيات الأثرية التي برهنت أن اصطلاح «يهود» ظهر للمرة الأولى في أيام الحكم الإخميني لفلسطين، انطلاقاً من منطقة إدارية سكنتها حامية عسكرية جلبها الفرس، وكانت ممن عبد يهوه.

وبلاد فارس إلى البلاد الخزرية في القرن التاسع الميلادي بمجرد سماعهم بقيام دولة يهودية فيها، بدلاً من التوجه إلى الأرض الموعودة، أو البقاء على الأقل في المناطق القريبة منها، هذا عدا الفرص الذهبية التي أتيحت لهم طيلة الحروب الصليبية التي دامت من 1096 إلى 1270، فلو أنهم أرادوا العودة إلى فلسطين آنذاك، لساهموا على الأقل في واحدة من حملاتها السبعة، ولكنهم أمسكوا حتى عن مجرد التفكير فيها، واختاروا عليها إقراض أمراء تلك الحملات ما كانوا يحتاجونه من المال مقابل فوائد خيالية، أدت في النهاية إلى إفلاس المقترضين وانتقال أموالهم وممتلكاتهم إلى المرابين اليهود، الذين استعانوا بها فيما بعد لتهويد أحفاد هؤلاء الأمراء الذين أفلسوا على أيديهم عن طريق التزاوج ببنات المرابين طمعاً في أموالهم، ومن خلال هذه الوقائع يظهر جلياً أن علاقة اليهود بأرض كنعان لم تكن قط جدية لأنهم كانوا أعرف الناس بأنها لم تكن ولن تكون يوماً وطنهم، ولذا كانوا وما زالوا يفضلون عليها أية بقعة من بقاع العالم إن هي قيضت لهم الرخاء والسؤدد لأنهم لا يتذوقون الأفكار الوطنية ولا يستسيغونها بحال من الأحوال، فهم لم يعرفوا طعمها قط، ومصادرهم خالية تماماً من مفاهيمها، مع كل ما فيها من التزمت الديني والعنصري، وهم أصلاً يكرهونها ويعزفون عن الإقامة بين الشعوب المؤمنة بها، والتاريخ يدينهم بالخيانة لكل أرض أقاموا فيها وهم الذين اشتهروا عبر العصور بالتهرب من واجباتها، وكتبهم التاريخية تتجاهل منطقها، ولا تربط أسباب أي من أحداثهم أو ثوراتهم بعواملها بل تحصرها جملة وتفصيلاً بالنعرات الدينية والعنصرية[1] وغلاة كتابهم لا يتطرقون أبداً إليها وجل همهم كان وما زال محصوراً بالتغني من أجل نضالهم الديني والعنصري[2] ومع هذا يراد منا أن نعدّ تحركاتهم القديمة بحركات تحررية، انسجاماً فقط مع مفاهيم عصرنا الحاضر، ودون أي سبب أو مسوغ، فهل هناك خطل أكثر بشاعة من مقارنة تحركات اليهودية القديمة التي يعترف كتابهم بانبثاقها عن تعصبهم الديني والعرقي وحقدهم الأسود على كل غريب عنهم مع النضال المشرف لشعوب آسيا وأفريقيا التي تريق دماءها أنهاراً للذود عن أوطانها، إلاّ تسمية تلك التحركات البغيضة بتحركات تحررية؟..

واليهود اليوم ليسوا أكثر تعلقاً بفلسطين مما كانوا عليه في الماضي، ولولا أن التقت مصالح الدول الاستعمارية الطامعة بخيرات الوطن العربي مع مصالح أثرياء اليهود في أواخر

---

(1) اقرأ (المفسدون في الأرض) فصل جرائم اليهود السياسية.

(2) اقرأ (المفسدون في الأرض) فصل تخرصات يهودية.

القرن التاسع عشر، لما كانت هناك اليوم صهيونية، ولما كان لليهود وجود في فلسطين لا لعجز اليهود عن الاستيلاء عليها وحدهم فحسب بل لعدم رغبتهم بالاستيطان فيها، لأنها في الواقع لا تعنيهم أكثر مما عنتهم في العصور الغابرة، فهي نسبة لهم ما هي إلا ذكرى دينية أكل عليها الدهر وشرب.

ولكن وحدة مصالحهم مع مصالح القوى الاستعمارية، أوحت لهم فكرة الوطن القومي والبدعة الصهيونية، فألقموهما لداعيتهم المهووس هيرتزل فتلقفهما وراح يدعو لهما مدعوماً بكل الوسائل الدعائية التي كان اليهود والمستعمرون يملكونها، عدا الأموال الطائلة والقوى الجبارة التي سخرها اليهود والمستعمرون لمساندة هيرتزل ومن تلاه من دعاة الصهيونية لتحقيق هدفهم المشترك، الذي تحددت معالمه فيما بعد وإذ به ما هو إلاّ عبارة عن إقامة معسكر استعماري كونت سدنته من فقراء اليهود وشذاذ الآفاق ليكونوا طليعة القوات المدافعة عن المصالح الاستعمارية المتحالفة مع رؤوس الأموال اليهودية، إذ أن أثرياء اليهود وحتى القادرين منهم على مجرد العيش في البلاد الأخرى امتنعوا كالعادة من الاستيطان في فلسطين، واكتفوا كما في الماضي بتمويل مرتزقتهم فيها، أما أسباب إحجامهم عن هذا الاستيطان فكان وما زال نابعاً من معرفتهم الأكيدة بأن هذه الأرض الطاهرة التي اعتدوا عليها في الماضي، وأتوا اليوم ليعيدوا الكرة ما كانت ولن تكن لهم يوماً ومن ثم لعدم وجود أية رابطة بينهم وبينها اللهم إلا رابطة إقامة مؤقتة من الزمن عليها.

أفبعد كل هذه الحقائق الراهنة هل يمكن لعاقل أن يصمنا بالتحامل على اليهود أو التشنيع على تحركاتهم، وهل يجوز لإنسان أن ينحدر في البلاهة إلى حد عدّ الجرائم اليهودية عبر التاريخ تحركات تحررية؟ وإذا وجد هذا الإنسان فليكن الله في عونه ما أغباه.

والآن لنعد معاً إلى عصر النهضة مجدداً لنرى كيف استغل اليهود هذا العصر الخير لأغراضهم الخاصة التي أخفوها خلف مظاهر التعلق بالتطور والحضارة.

سبق وأوضحنا كيفية تسلل اليهود إلى صفوف الفئات التقدمية والتنظيمات التحررية، فلما أصبح لهم في كل منها من يعمل بتوجيهات زعامتهم، راحوا يغدقون عليها الأموال الطائلة عن طريق عملائهم المندسين في صفوفها، ويوحون إليهم بأن عونهم المادي والمعنوي ما هو إلا نتيجة تفاعلهم مع مفاهيمها وأغراضها النبيلة، وإيغالاً في التضليل وضعوا تحت تصرف كتابها وفلاسفتها كافة وسائل الطباعة والنشر التي ابتاعوها أو شاركوا أصحابها لما كانوا يعرفونه عن تأثيرها في أفراد الشعوب التي كانوا يعايشونها، وبذا ضمنوا مراقبة كل ما ينشر ويكتب، ومن ثم

راحوا يملون على الكتاب المقالات والمواضيع المتجانسة مع غاياتهم تحت ستار الدفاع عن خير الإنسانية جمعاء، مثل المطالبة بإطلاق الحريات العامة، ومنح الحقوق المدنية دون تمييز في العرق والدين، وإعلان المساواة والعدالة والإخاء، ولما كانت أكثر الشعوب الأوربية تئن تحت نير التعسف والظلم، كان الناس يتفاعلون مع هذه الدعوات المحقة، التي كانت تعبر عن ما يجيش في صدورهم، فيقبلون عليها بكل أمانة وإخلاص، دون أن يلتفتوا لما يتوخاه اليهود من خلفها، حتى أن أكثرهم كان يبارك اليهود لما كانوا يتظاهرون به من حماس ونبل لمناصرتهم القضايا العامة.

فلما أيقن اليهود من كسب عطف الشعوب وتغاضيها عن جرائمهم القديمة، وسيطرتهم على وسائل النشر والكتابة، وجهوا جهودهم إلى العمل لكسر ما تبقى من القيود التي كانت ما زالت مفروضة في أواخر القرن الثامن عشر على أبناء قومهم في فرنسا التي كانت تعد من أكثر الممالك الأوروبية تعلقاً بالكنيسة، ولما كانت وحدات السيد المسيح هي أولى العقبات التي كانت تعترض طريق اليهود في إيصال أبناء قومهم في فرنسا إلى الحقوق المدنية التي حصلوا عليها في أوروبا الوسطى منذ عهد شارل كنت، بادروا إلى تسخير أقلامهم التي كانت تنصاع لمآربهم للتنديد بالسياسة الدينية التي كانت متبعة من قبل لويس الخامس عشر من (1715 ـ 1774) وتحريض مفكري فرنسا على الاقتداء بأترابهم في أوروبا الوسطى للمطالبة بتقليص نفوذ الكنيسة، كما أنهم تمكنوا من شراء ضمائر عدد كبير من أعضاء المجلس النيابي الإفرنسي لإثارة موضوع السياسة الدينية المتبعة في فرنسا، ومن جهة ثانية أوعزوا إلى أنصارهم في بريطانيا لتوجيه صحافتها إلى نقد سلوك العاهل الفرنسي، ولقد أثمرت تحركاتهم بسرعة، وإذ بالمجلس النيابي الإفرنسي يقر إلغاء وحدات السيد المسيح اعتباراً من عام 1764، وهكذا خلا الجو لليهود ومناصريهم للعمل بحرية بغية تقويض الملكية وإقامة نظام أكثر انسجاماً مع الغايات اليهودية التي كانت تهدف إلى استرداد الحقوق المدنية الآيلة إلى حرية التحرك الاقتصادي المؤدية إلى الإمساك بناصية النفوذ المالي الذي يعدّه اليهود المنطلق الأساسي نحو السيطرة السياسية والاجتماعية.

فأغاروا كالوطاويط على خيرات فرنسا يمتصونها دون رادع أو وازع، فتضخمت ثرواتهم، وتكاثر أنصارهم، فشرعوا يناوئون الكنيسة دون هوادة حتى قلصوا نفوذها تماماً، ثم أعملوا معاولهم في أسس النظام الملكي إلى أن قوضوه عام 1789، فاندلعت الثورة التي كان أحرار فرنسا وقوداً لنيرانها والتي أججها اليهود لتحقيق أغراضهم التي موهوها بشعارات غامضة المعنى، ومطاطية المغزى مثل الحرية، والمساواة، والإخاء، التي لم يستفد من تجسدها أحد سواهم.

تغرير اليهود بجبابرة الحرية في فرنسا

من المسلم به أن اليهود كانوا وما زالوا أعجز من أن يتمكنوا بمفردهم من تفجير الثورات وتغيير الأوضاع في أي من البلاد، إلا إذا كان لهم أنصار أقوياء من أهلها، مستعدون للتعاون معهم، وفي هذه الحالة فقط يصبح اليهود أقدر من سواهم على الإخلال بالأمن أو الإطاحة بالنظام وذلك بفضل ما اكتسبوه عبر العصور من تجاربهم التي تمرس قادتهم في غضونها على مواجهة الصعاب، وتقويم نتائجها بالصورة الأقرب واقعية، ومن هنا كانوا أكثر الناس احتراساً على إخفاء مقاصدهم، وأقدرهم على تخمين نتائج الأحداث، وتقدير الفرضيات.

ولقد برهنوا مراراً عن تميزهم بهذه الأمور التي تتطلب عدا الحنكة والمعرفة، الشيء الكثير من الملكات الخسيسة الضرورية لمن يعمل في الخفاء مثل ملكات الغدر والخداع والخيانة التي تعترف مصادرهم الخاصة بإتقانهم إياها منذ الأزل، ومع كل هذا لم يجنح يهود أوروبا قبل عصر النهضة إلى الاقتداء بأبناء قومهم في بريطانيا، من جراء القيود التي كانوا يخضعون لها في أكثر البلاد الأوروبية، ولافتقارهم إلى المقدرة المالية التي يوقنون باستحالة تحقيق أي شيء بدونها، ولكن عندما أزيلت القيود عن طريقهم وتضخمت مواردهم المالية في عصر النهضة التي شمل أوروبا الوسطى بأكملها، عادت نوازعهم العنصرية تراودهم لتحرير من تبقى من أبناء قومهم في البلاد الأخرى من قيودهم، فسارعت مؤسساتهم السرية مثل الكحال والقبال وبني بريت والجمعيات الأخرى التي ذكرناها آنفاً إلى وضع الفرضيات والمخططات للإطاحة بالنظام الملكي في فرنسا الذي كان يحول دون حرية أبناء قومهم، وبعد درس وتمحيص وقع اختيارهم على المحفل الماسوني الفرنسي الذي كان يترأسه آنذاك الكونت كليرمون (Leconte Clérmont) ليعمل على تهيئة الظروف الرامية إلى منح اليهود الحقوق المدنية، ولكن موت الكونت كليرمون الفجائي عام 1771 جمد نشاط المحفل، ريثما يعثر على خلف له يناسب الأغراض اليهودية، ولما كان الأمير شارتر (Due-de-Chartres) ابن عم الملك أنسب رجالات البلاد وأقدرهم على مناوءة العاهل الفرنسي قرر اليهود إسناد رئاسة المحفل الكبير (Le Grand Orient) إليه مهما كان الثمن، فأوعزوا إلى أنصارهم في المحفل بأن يقفوا إلى جانبه في الانتخابات ففاز الأمير بالرئاسة، ولكنه أناب عنه المير مونمورانسي لوكسانبورغ (Le-Due-de Montmorenecy) (Luxembourg) الذي كان معروفاً بعدائه للأمراء المهودين واليهود سادة المحفل البريطاني الذي كان يعد المحفل

القيادي للماسونية في أوروبا، وهكذا خابت آمال اليهود للمرة الثانية في هذا المحفل، فلم يعد لهم مناص عن الصبر والانتظار، ويبدو أن القدر رق لحالهم، فرزق الأمير شارتر عام 1773 بمولود ذكر هو لويس فيليب الذي كان مفروضاً به أن يرث العرش يوماً، فانتهز اليهود هذه الفرصة، في محاولة لاجتذاب الأمير شارتر إلى صفهم، فسارع الراقص اليهودي لاكورن (La-corne) الذي كان يشغل مركز نائب الرئيس منذ عهد الكونت كليرمون، إلى زيارة الأمير شارتر على رأس اثني عشر عضواً من أبرز أعضاء المحفل ليقدموا له التهاني بالمناسبة السعيدة، فلما مثلوا بين يديه، انبرى لاكورن وألقى خطاباً مطولاً عدد فيه مناقب الأمير وولي عهده العتيد، وما ينتظره الماسون على أيديهما من خير وبركة، واستعداد أعضاء كافة المحافل البالغ عددهم الستين ألفاً للسير في ركابه وركاب ولي عهده إن هو تنازل وقبل العودة لقيادتهم الفعلية، ولما كان الأمير من عشاق التحرر، وميالاً لخدمة شعبه، تأثر ببلاغة الخطيب وبوعوده الخلابة في مناصرته لخدمة شعبه ووطنه، فقبل العودة لممارسة رئاسة المحافل الإفرنسية دون قيد أو شرط.

وهكذا وقع في الفخ الذي نصبه اليهود له وأصبح منذ ذاك التاريخ نصيرهم ومنفذاً لغاياتهم، على الرغم من البون الشاسع الكائن بين أهدافه النبيلة ومراميهم القذرة، وبما أنه كان عزوفاً عن ممارسة الرئاسة الفعلية للمحفل، ألقى مقاليدها إلى اليهودي لاكورن الذي استغل هذه الثقة العمياء، ونفوذ المحفل لتحقيق مآرب بني قومه باعتباره ممثل الأمير والناطق باسم محافله، ولكي يحول دون اطلاع الماسون غير الضالعين معه على أغراضه الخفية، أوجد لهم في كل محفل ملهاة تشغلهم عن مراقبته، فراح يشجع القائمين عليها لإحياء الحفلات الماجنة، وحلقات التنويم المغناطيسي وممارسة الشعوذة والسحر، فانغمسوا فيها حتى الأذقان، ولم يعد أحدهم يعي ما يدور حوله، فتركوه يتصرف بشؤونهم بكل أمان وحرية.

وفيما يتعلق بأوضاع المحافل الماسونية آنذاك يحدثنا الكاتب الفرنسي الشهير مونيه (Mounier) فيقول: إن هذه المحافل التي كان الناس يتصورونها معابد الإنسانية ومنابر الحرية، انقلبت قبل الثورة بفضل توجيه لاكورن الشيطاني إلى مواخير قذرة، وأوكاراً لممارسة الشعوذة والسحر، ولذا يجدر بنا أن نسميها بمملكة المشعوذين المسخرين لأبالسة المؤامرات السياسية وجلادي الأخلاق والكرامة.

وفي خضم سقوط الماسون في براثن اليهود، شاءت الأقدار أن يحتدم الصراع بين كالون (Calonne) (المراقب المالي العام من 1783 ـ 1787) وبين أثرياء اليهود الممتنعين عن دفع الضرائب للخزينة الفرنسية، فلما أحكمت الخزينة الطوق على أعناقهم، استنجدوا بواسطة

لاكورن بالأمير شارتر باعتباره ابن عم الملك، ولكن وساطته لم تثمر، فاعتبر الأمير الأمر إهانة له، وأعلن إنكاره لموقف الملك والسلطات، ومن ثم انسحب إلى أملاكه خارج باريس، حيث التف اليهود حوله، وغدا بذلك أسير مطامعهم وإرادتهم، وبغية توسيع شقة الخلاف بينه وبين الملك، سلطوا الأنوار عليه وأظهروه بمظهر المناوئ للنظام، فانقسمت الطبقة النبيلة على نفسها، وساد التناحر في صفوفها، فدعم اليهود بأموالهم أتباع الأمير لإنجاحهم في انتخابات المجلس النيابي، ففاز منهم عدد كبير بفضل نشاط السيد لاكلو (Laclos) أحد أخلص رجال شارتر، وهكذا دمر اليهودي لاكورن الطبقة الحاكمة من الداخل فشعر الأمير لوكسانبورغ بما كان يبيته اليهود لبلاده، فانشق عن الأمير شارتر والمحفل مع لفيف من أنصاره النبلاء وانضم إلى جانب الملك، وبذا أفسح المجال أمام لاكورن وزمرته لتوسيع شقة الخلاف وإذكاء الأحقاد، فانفرط عقد الماسون والنبلاء، فلم يعد أمام الأمير شارتر مناص من الرضوخ للأمر الواقع، فتزعم المعارضة بمختلف فئاتها، وانبرى في إحدى جلسات المجلس النيابي يعارض العاهل الفرنسي علناً، فاحتدم النقاش بينهما إلى أن ثار شارتر وقال قولته الشهيرة بصيحة السابع عشر من تشرين الثاني التي قال فيها: «يا صاحب الجلالة هذا غير شرعي» (Sir c'est Illegal)، وهنا وقعت الواقعة، وأصبح العداء سافراً بين الجانبين، ولقد ازداد الطين بلة، عندما انضم شارتر ومؤيدوه من النبلاء إلى صفوف طبقة العوام (Tiers) الأمر الذي قضى على هيبة الملك وأنصاره، ودفع بما تبقى من جمعيات وفئات الوسط إلى أحضان شارتر ومن ورائه اليهود الذين ثابروا على إثارة الأمير، حتى كان أول من وافق على إعدام الملك في عهد حكومة الميثاقيين (Convention) التي طرحت الموضوع على التصويت[1].

وهكذا نرى أن هذا النبيل الفرنسي الذي كان من خيرة رجال فرنسا وأكثرهم شهرة في حب الخير والعدالة، يصبح ألعوبة في يد راقص يهودي، وينصهر في بوتقة عملاء القبال والكحال ولا يتورع عن سفك دم ابن عمه ودماء الألوف من أبناء طبقته، لا لشيء اللهم إلا لينيل اليهود حقوقهم المدنية ويجعل من خيرات شعبه لقمة سائغة في أشداقهم الجشعة.

والجدير بالذكر هو أن كل هذه الخدمات التي قدمها هذا الأمير الأرعن لليهود لم تشفع برأسه لديهم عندما حان الوقت للتخلص منه فأطاحوا به تحت المقصلة في السادس من تشرين الثاني عام 1793 إسوة برؤوس أكثر فحول الحرية الذين مشوا في ركابهم.

---

(1) L'etrange Carriere Maçonnque de Philippe Egalité Par Maurice Colinon–Paris 1936.

ويبدو أن المقاصد اليهودية لم تكن خافية على كـل الأحـرار في فرنسـا ، بدليـل أن صيحـات التحذير منها لم تكن لتنقطع ، ولكن فكـرة الاسـتخفاف بقـدرة اليـهود علـى التحـرك السياسـي لقلـة عددهم ، ولما اشتهروا به من مواقف الذل والمسكنة ، وما كـانوا يتظـاهرون بـه مـن الاستسـلام للقـدر المحتوم ، كانت مسيطرة على عقول الناس ، فصموا آذانهم عـن سـماع صرخـات التحذيـر تلـك التـي كان يطلقها عقلاء المفكرين ومشاهير الكتاب ، ومن أشـهر هـذه التحذيـرات تلـك التـي عرفـت بنبـؤة جـاك كـازوت (Jaeques Cazotte) مؤلـف كتـاب الشـيطان العاشـق (Le Diable Amoureux) وأحـد قـادة الفكـر البـارزين فـي عصـر الثـورة ، ولقـد لخـص السـيد هـانري جـامس فورمـان (H.J. Forman) هذه النبوءة بمؤلفه المسمى بالتنبؤات عبر القرون (Les Prophéties A Ttavers les Siécles) الـذي أصـدره عـام 1939 فـي بـاريس ، وقـال : كـان السـيد كـازوت يتميـز عـن أترابـه المفكرين بدماثة الأخلاق ، وبعد النظر ، هذا عدا عن شهرته الواسعة في الميادين الأدبيـة والفلسـفية ، التي خولته أن يكون النجم الثاقب في كل المناسبات العلمية ، ولذا كان أترابـه يصـرون علـى وجـوده في كافة مناسباتهم ، وخصوصاً في الاجتماعات الدورية التي تكاثر عددها عام 1788م بغية البحث عن أنجح السبل لتفجير الثورة ، ولهذه الغاية أقام أحد أعضاء المجمع العلمي حفلة عشاء في داره دعـا إليها رهطاً مـن العلمـاء والقـادة أمثـال السـيد لاهـارب (Laharpe) أبـرز أعضـاء المجمـع العلمـي وأحـد مشـاهير فلسـفة الإلحـاد ، والسـيد شـامفور (Chamfort) زعيـم مفكـري الماكسـيمية (Pensées Maximes) والعلامة كوندرسه (Condercet) سـيد فلاسـفة الرياضيـات الـذي انتخب فيما بعد نائباً عن باريس في عهد الميثاقيين ، ومن ثم رئيساً للجمعيـة التشـريعية ، والسـيد فيـك دايـزر (Vicq-dazyr) من أشهر أطباء عصـره ، والسـيد بـاييي (Baiby) العـالم الفلكـي الكبيـر وأحـد قـادة الثورة الذي عين أميناً للعاصمة الفرنسية علـى أثـر سـقوط الملكيـة ومـن ثـم تـرأس المجلـس التأسيسـي فيها ، ولفيف من أشـهر الأدبـاء والمفكريـن أمثـال الكونتيسـة كرامـون (La-Comtesse Gramont) والسادة نيقولائي (Nicolai) وروشير (Roucher) ومالزيرب (Malesherbes) وغيرهم من عشاق الثورة والإنطلاق .

فلما اكتمل عقدهم ، بدأت الأحاديث المختلفة تترى كالعادة ، فتطرق بعضهـم إلـى الشـعر والأدب ، والبعض الآخر إلى الأمور الدينيـة والأخلاقيـة ، وكـان الاسـتخفاف والسـخرية بـالدين هما الطابع الذي اتسمت به المناقشـات فـي البدايـة ، ومـن ثـم انتقلـوا إلـى تـداول مختلـف شـؤون السـاعة ، خاصـة تلـك التـي كـانت تتعلـق بـالثورة المرتقبـة ، فقدمـت الاقتراحـات ووضعـت الفرضيات ، فانهال عليها كل بدوره شرحاً وتفصيلاً حتى لم يبقوا في إحداها مزيداً لمستزيد ، كـل

هذا والسيد كازوت يسمع دون أن يتفوه بكلمة، وفجأة التفت إلى الحضور، وبادرهم بصوته الجهوري الرزين قائلاً: أيها السادة إن هذه الأفكار والمفاهيم التي آمنا بها منذ أمد طويل والتي أسهمنا جميعاً في نشرها بين أفراد شعبنا اعتقاداً منا بصلاحها لخير أمتنا ووطننا، ما هي في الواقع إلا وسائل أريد بها تسخيرنا وشعبنا لدفع مغارم نجسدها لصالح غيرنا، ولقد تلقفناها مع كل ما يكمن خلفها مما يؤول إلى امتصاص الأغراب لخيرات شعبنا، وتوهمناها خير السبل لإسعاد شعبنا مع أن مغنمها لن تكون إلا من نصيب الذين أوحوا بها إلينا، وهم اليوم يدفعوننا دون هوادة لتفجير هذه الثورة التي تستعجلون ساعتها، فاعلموا أيها السادة: أن الساعة آتية لا ريب فيها، وثقوا أنكم ستندمون على لقائها يوم لا ينفع الندم، إذ أن لهيبها لن يلفح أحداً قبلكم وستكون رؤوسكم أولى قطاف مقاصلها، ودماء شعبنا الغالي ستكون وقوداً لأكوارها التي ستؤجج نيران أشداق تلك الزمرة الحاقدة التي غررت بنا وبشعبنا لنكون قرابين على مذابح شهواتها، لكي تعيش هي بأمان واطمئنان في حمى شعارات الحرية والمساواة والإخاء التي سترتفع في كل مكان بفضل الدماء الفرنسية الذكية التي ستراق لنصرتها.

وعلى الأثر سكت الخطيب فجأة مثلما بدأ، تاركاً مستمعيه مبهوري الأنفاس من هول ما سمعوا.

وهنا يترك المؤلف مهمة إكمال وقائع الجلسة للاهارب[1] الذي يقول:

ما زلت أذكر تفاصيل المناقشة وكأنها حدثت بالأمس فقط.

على أثر سكون كازوت ران الصمت على القاعة، وكأن كابوساً مزعجاً جثم فيها على الصدور، وإذا بنا نسمع السيد كوندرسه الذي كان معروفاً بمرحه، يقول: اسمع يا سيد كازوت، إن مما يسر فيلسوفاً مثلي، هو أن تسنح له الفرص ليناقش نبياً مثلك في أمور مماثلة كالتي حدثتنا عنها، وبالمناسبة هلا تكرمت وأخبرتنا عن كنه أو مصدر كل هذه المعلومات المفجعة الدائرة حول قطاف الرؤوس وإهراق الدماء؟ ومن ثم أكون ممتناً لو تفضلت وأضفت إليه ما بجعبتك من الأخبار عن مصيري أنا بالذات؟

فانبرى كازوت يقول: أيها السادة أعتقد أنكم تعلمون أنني راءٍ تنبئ بعض الشيء، فلنترك أمر مصدر المعلومات جانباً ولنبحث عن مصيرك أنت.

---

(1) إن مؤلف كتاب النبوءات عبر القرون اعتمد في سرد القصة على مذكرات السيد لاهارب الذي حضر هذه الجلسة ودون كافة تفاصيلها.

ثق يا صديقي المسكين أنه مفجع حقاً، إذ ستضطرك أيام الثورة إلى أن تتحزم بكمية من السم بصورة دائمة لتنتحر بها عند الحاجة تهرباً من قسوة رفاقك وجلاديك، وستبتلعها على عتبة معتقلك الذي ستموت فيه دون أن يهتم بك أحد.

وهنا تعالت أصوات قهقهة الحضور، ظناً منهم أن حديث كازوت لا يعدو مجرد مزاح لتسليتهم، وساد الهرج، فقال أحدهم: يزعم السيد كازوت أن ما يرتقب حدوثه سيقع في عهد الثورة، وفاته أن الفلسفة والحكمة سيسودان نظام ذاك العهد، الذي ستنطلق فيه الحريات العامة، فكيف سيوفق إذن بين أحداث نبوءته التي تتعارض كلياً مع مفاهيم ذاك النظام الذي سيبنى على العقل والمنطق؟ ألا يرى بعض التناقض فيما ذهب إليه وما ننتظره نحن من هذا النظام المرتقب؟..

فرد عليه كازوت قائلاً: كم يحز في نفسي أن أقول لك، أن هذه الفظائع ستحدث على وجه التحديد إبان الثورة، وباسم الفلسفة والإنسانية وفي ظل حكم العقل والمنطق وستكونون قرابين مفاهيم هذا الحكم بالذات.

فبادره السيد شانفور ساخراً وقال: يقيناً أنك لن تكون أحد كهنة ذاك العهد يا سيد كازوت، فرد عليه قائلاً: كم أرجو ذلك؟.. أما أنت يا سيد شانفور فثق أنك ستكون واحداً من أبرز كهنته وعن جدارة، وهذا لن يحول دونك والإقدام على تقطيع شرايينك اثنين وعشرين مرة تخلصاً من المعاملة الوحشية التي ستلقاها، ومع ذلك لن تموت إلا بعد أن تتجرع أنواع العذاب عدة أشهر.

وعلى الرغم من سخرية وهزء الحضور به، ثابر كازوت على حديثه، وقال: أما أنت يا دكتور دازير، فلن تقدم على فتح شرايينك باختيارك، بل سيفتحونها لك على أثر نوبة نقرسية وستودي بك في الحال، أما السادة بايبي ومالزيرب ونقولائي، فسيطاح برؤوسهم تحت المقصلة.

عندها صاح السيد روشير، وأردف، رحماك اللهم رحماك، أرى أن السيد كازوت مصمم على إفناء كافة أعضاء المجمع العلمي إبان هذه المجزرة الرهيبة التي يتوهمها، وعلى فكرة، ألا تكرمت بإخباري أنا الآخر عما ينتظرني بحق السماء؟ فرد عليه كازوت بكل رزانة، وقال: وأنت أيضاً ستموت تحت المقصلة، عندها صدرت عن الحضور صيحات الاستنكار، وقالوا ما للسيد كازوت ينقلب فجأة إلى حاقد أقسم أن يبيد الناس أجمعين فأجابهم كازوت، وقال: لا يا سادة أنا لست من سيبيدكم، فتساءل أحدهم وقال: إذاً لابد أن الأتراك أو جحافل التتر هم الذين سيقومون بذلك، فرد السيد كازوت قائلاً: أيها الإخوة لا أنا ولا أولئك، بل إن حكم عهد

الفلسفات والمنطق والعقل الذي تنشدون سيطرته هو الذي سيبيدكم وجلادوكم سيكونون من الفلاسفة أمثالكم، وستسمعونهم وهم يتشدقون بالأفكار والأقوال نفسها التي تتشدقون بها منذ أمد بعيد، وسيرددون مثلكم باستمرار قصائد ديدرو، والمبادئ الماكسيمية، وأقوال لابوسيل (Lapucelle) ومع ذلك سيقودونكم كالنعاج إلى المقاصل لتقطف رؤوسكم.

فعندها عاد السيد شانفور لمناقشته مجدداً، وقال له: وإن تكن نبوءتك مفجعة غير سارة، أيمكنك تحديد تاريخها، فرد عليه باشمئزاز قائلاً: ثق أن كل ما قلته سيتحقق قبل مضي ستة أعوام.

ولما كنت ممن أهمل كازوت ذكرهم في حديثه، سألته بدوري عن مصيري المنتظر، وإذ به يقول لي: أما أنت يا سيد لاهارب فستنجو من كل هذا بأعجوبة، تعقبها معجزة وهي أنك ستعود للإيمان بالرب، وستكمل ما سيتبقى لك من العمر في ظل تعاليم المسيح، وهنا صاح السيد شانفور طرباً وقال: الآن تطمئنت تماماً، فإذا كنا لن نموت إلا بعد عودة لاهارب إلى الإيمان، إنا إذاً لخالدون.

فعلقت الدوقة كرامون على الحديث وقالت: يبدو أن الحظ أسعدنا نحن النساء هذه المرة بانتسابنا إلى الجنس الآخر، وإلا لما عفا السيد كازوت عنا في نبوءته، فلم يمهلها كازوت لتكمل حديثها، بل سارع إلى القول: سيدتي إن جنسكن لن ينفعكن هذه المرة، ولذا يحسن بالعاقلة منكن أن لا تتدخل في أحداث هذه الثورة التي ستعاملكن على قدم المساواة مع الرجال، فصاحت به الدوقة قائلة: ما تقول يا سيد كازوت يعني التنبؤ صراحة بقيام الساعة، فرد عليها بكل برود: أنا لا أعلم شيئاً عن قيام الساعة، ولكني أؤكد لك أنك ستقادين إلى المقصلة برفقة سيدات كثيرات، فانتهرته قائلة: أرجو أن لا أحرم آنذاك من عربة فاخرة ومجللة بالسواد على الأقل.

فأجابها بامتعاض قائلاً: لا يا سيدتي، إن سيدات أعظم منك قدراً بكثير سيحملن إلى المقاصل بعربات نقل الخضر والقمامة، دون أي تمييز وسيحرمن حتى من حق الاعتراف وتناول القربان.

وهنا نفد صبر مضيفنا والتفت إلى السيد كازوت وبادره قائلاً: لقد طالت تفاصيل قصتك البشعة أكثر من اللزوم، ولذا أرجوك أن تعفينا من سماع ما تبقى منها، وإلا أرجو أن توجزها على الأقل، عندها تحفز السيد كازوت للانسحاب، ولكن الدوقة كرامون سدت عليه الطريق ومن ثم قالت له: أرجو يا سيد كازوت أن تكمل قصتك بالإجابة على السؤالين التاليين: أولاً من

هي الزمرة الحاقدة التي عنيتها؟ وثانياً ما هو مصيرك الشخصي في الثورة المرتقبة؟ فرمقها كازوت بنظرات ملتهبة ومن ثم أردف يقول: ليكن يا سيدتي ما تريدين، إن الزمرة الحاقدة هي هذه الفئة التي تتباكون على حرمانها من حقوقها المدنية، والتي ما انفكت تنادي بالويل والثبور منذ أن وطئت أقدامها أرض هذا البلد، من المظالم الوهمية التي ما أنزل الله بها من سلطان، وهي التي يزعم أفرادها أخوة المسيح مع أنهم قتلته، هؤلاء هم الأبالسة الذين سمموا أفكارنا، وابتاعوا ضمائرنا وسخروا عقولنا وسواعدنا لنمنحهم الحقوق المدنية، ليتمكنوا من نهب خيرات شعبنا، فهل عرفت الآن من هي هذه الزمرة الحاقدة التي ستعدم مع مئات الألوف من أحرار ومفكري بلادك قرباناً لمذبح شهواتها؟..

أما مصيري فهو أسوأ بكثير من مصائر الآخرين، وسأقتل كما قتل رائي القدس يشوع بن حنان إبان حصار أورشليم في عصر الرومان.

ومن ثم غادر القاعة تاركاً من فيها حيارى لا يدرون ما يفعلون..

وفيما يتعلق بصحة هذه النبوءة التي نشرت لأول مرة عام 1806، يقول السيد هانري جامس أنها أخذت من المذكرات التي خلفها لاهارب بعد موته عام 1803، ولقد أيد أصالتها فيما بعد العالم الألماني فالتير بورمان (Walter Bormann) الذي نشر مذكرات الكونتيسة جانليس (Genlis) التي توفت عام 1852، وذلك بناءً على ما جاء في إحدى كتبها الموجهة إلى صديقها الدكتور دولوز (Deuleuse) حيث تعترف فيه بأنها سمعت نبوءة كازوت أكثر من مائة مرة بكل تفاصيلها في أيام صباها.

وفي سياق الحديث عن طباع السيد كازوت يؤكد أحد أولاده بأن والده كان يمتاز ببعد النظر ودقة التعبير، كما أن مذكرات البارونة هانريت لويز دوبركيرش (Henriette Louise d'oberkirech) الباحثة عن الأحداث التي وقعت في فرنسا قبل سقوط الباستيل (أي عام 1789) والتي كانت صاحبتها من أشهر أدبيات عصرها وممن كانت لهم صلات أدبية وثيقة مع مشاهير كتاب وفلاسفة عصرها، مثل المفكر الألماني الشهير كوت (Goethe) والفيلسوف السويسري لافاتير (Lavater) موجد نظريات علم النفس، تعرضت هي الأخرى لهذه النبوءة في حديثها عن سوء طالع أولادها وعن المصائب التي حلت بوطنها، والأيام العصيبة المرتقبة التي عزت حتمية مجيئها في نهاية مذكراتها إلى ثقتها بصدق نبوءة كازوت التي تؤكد قراءتها وسماعها مراراً. وتعدّ هذه الشهادة حداً فاصلاً لتأكيد واقعية النبوءة بدليل أنها دونت من قبل شخص معاصر وفي الوقت نفسه الذي صدرت فيه.

أما التأكد من تفاصيل النبوءة فليست بأدنى حاجة للتأكيد إذ أن كافة المصادر التاريخية والأدبية الباحثة عن الثورة الفرنسية تؤيد حدوث ما ذكره كازوت لكل من عناهم في نبوءته.

ولكن نبوءة كازوت وسواها من التحذيرات المماثلة لم تكن بقادرة مع كل أسف على الحيلولة دون أن ينساق الشعب الفرنسي خلف أضاليل اليهود وحلفائهم التي موهت بالشعارات البراقة، والتي كان الفرنسيون يحلمون بتجسدها منذ عدة قرون.

وبهذه الأساليب حقق اليهود غاياتهم في فرنسا، وبفضلها تمكنوا من صب جام حقدهم على مناوئيهم حتى أزالوهم من الوجود، ومن ثم انهالوا على خيرات الوطن الفرنسي فامتصوها حتى الثمالة[1].

من المسلم به، أن اليهود في أوروبا تعرضوا مراراً لضغط وتنكيل السلطات الدينية والدنيوية قبل عصر النهضة، من جراء جشعهم، وسوء سلوكهم، وما كانوا يرتكبونه من الجرائم الدينية الموسمية، للتنفيس عن أحقادهم الدفينة إزاء المسيحيين، ولكن ثورة كرومويل التي دعمتهم عند عودتهم إلى بريطانيا، وتكاثر عدد المهودين بين أفراد الطبقة النبيلة الحاكمة، واعتناق الأكثرية الساحقة من أفراد الشعب للمذهب الأنكليكاني الأكثر تفاعلاً مع مذهبهم، وتعاظم سيطرتهم، التي فرضوها على الماسونية، وجمعيات الأحرار بفضل ما أغدقوه عليها من أموال، ومن ثم فوزهم في تفجير الثورة الفرنسية على أيدي أحرار البلاد الذين كانوا ينظرون إليها من زاوية غير التي كان اليهود يهدفون إليها، أطلق يد اليهود في التحرك في كل الاتجاهات وخاصة في الميدان الاقتصادي دون قيد أو شرط، وبفضل الترابط الذي تولد فيما بينهم من جراء ما كانوا يتعرضون إليه من قيود جماعية عبر العصور، والتوعية العنصرية والقومية التي كانوا يتلقونها من مجلسهم الكهنوتي الأعلى، وما انبثقت عنه من مؤسسات أخرى، تمكنوا من العمل ضمن إطار تعاوني متين لمعالجة الأمور، وراحوا يستغلون كافة الظروف الاجتماعية والسياسية التي تعرضت لها أوروبا، فاقتسموا فيما بينهم مختلف النشاطات الاقتصادية على أدق صورة، فكان لكل فرد من جالياتهم في كل بلد، نصيبه من العمل الخاص به، أو الذي قدرت أهليته للقيام به، فبينما كان رجال المال يعملون لتضخيم ثرواتهم، كان كتابهم ومؤيدوهم يعملون على إزالة الفوارق بينهم وبين سكان البلاد الأصلاء، ويركزون على التشنيع بكل رأي أو كلمة يشتم منها رائحة اللوم أو التنديد بهم، في الوقت نفسه كان كهنتهم يدأبون على إبراز أهمية التوراة

---

(1) اقرأ (المفسدون في الأرض) فصل الجرائم اليهودية في عهد الثورة الفرنسية.

ورفعة شأنه بين المصادر المسيحية الأخرى بزعم أنه بمثابة الأم نسبة للأناجيل، هادفين بذلك إلى إزالة الخلافات اللاهوتية بين المسيحية واليهودية، لقطع الطريق على المتزمتين من النصارى في مراقبتهم أو معارضتهم، أما سكان الغيطو، فكانوا بمثابة رديف ينطلق أفراده يومياً بين صفوف الشعب العامل الطيب ليحقنوه بما كانوا يقتبسوه ليلاً من توجيهات وتعليمات سادتهم القابعين في حيهم الخاص، الذي يعد في الواقع معسكر تدريب وتوجيه دائم يتمرس اليهود فيه على إتقان النهج الذي يجب عليهم سلوكه عند مطلع فجر اليوم التالي، وهذا التنظيم الرائع والدقة المتناهية في التنفيذ دون أي تمييز طبقي أو اجتماعي فيما بينهم أوصلهم في غضون بضعة أعوام إلى أوج القوة المالية، على الرغم من ضآلة عددهم وهزال قواهم البشرية.

وهكذا تجسدت سيطرتهم المالية في كل المرافق الاقتصادية في مستهل القرن التاسع عشر في أكثر البلدان الأوربية[1] ولقد أصبحت هذه السيطرة فيما بعد همهم الأول والأخير، وفي سبيلها ركبوا المخاطر العديدة إبان الأحداث والتطورات المتعاقبة على البلاد الأوربية والتي سنعمد في الفصول القادمة على شرح ملابساتها وكيفية معالجة اليهود لجوانب مسيرتها، والأغراض التي رموا إليها في كل منها، والنتائج التي أسفرت عنها ومكاسبهم التي جنوها في أعقابها، وما آل إليه تدخلهم فيها من أضرار على الشعوب الأخرى، دون تحامل أو تجنٍّ معتمدين في ذلك على ما نملكه من مصادر سياسية وتاريخية لا يتطرق الشك إلى صحتها بتاتاً.

---

(1) اقرأ (المفسدون في الأرض) فصل اليهود في أوربا.

دور الرأسمالية اليهودية ومكاسبها في ثورتي بريطانيا وفرنسا

لا ريب أن الثروات الهائلة التي جناها اليهود إبان الحروب الصليبية التي دمرت اقتصاديات أكثر الدول الأوربية وأفقرت طبقات النبلاء فيها، أقنعت الرأسمالية اليهودية بأن مجالها الوحيد للوصول إلى النفوذ والسيطرة في تلك البلاد يتوقف على مدى قوتها المالية التي تمكنها من إرغام الساسة والحكام على مسايرتها في تنفيذ مخططاتها القومية والعنصرية، وبالتالي تؤمن لها ولأبناء جلدتها الأمن والسلام.

وانطلاقاً من هذه الفكرة، عمدت إلى التدخل الخفي في الأحداث التي كانت تأمل الكسب من ورائها أسوة بالحروب الصليبية، ولذا رأيناها تسارع لتمويل مكسيميليان وشارل كنت، ومن ثم الكنيسة الكاثوليكية، وأمراء المقاطعات الألمانية، وزعماء البدع المذهبية مثل كالفين اليهودي ولوثر وسواهما، هذا عدا عن الجمعيات والمؤسسات المختلفة التي ظهرت للوجود في عصر النهضة، والتي سبق وأن بحثنا عن علاقاتها الوثيقة مع الزعامة اليهودية[1] ولكن كل هذه التحركات الخفية على الرغم من ضخامة أخطارها على اليهود لا تساوي شيئاً كثيراً إذا ما قورنت بالنتائج التي حصلوا عليها في أعقاب ثورتي إنكلترا وفرنسا، إذ أن ثورة كرومويل عام 1645 التي أعادت اليهود إلى بريطانيا وأفسحت المجال أمامهم لتدمير المقومات الدينية والقومية فيها ومن ثم نهب خيراتها التي أدت إلى تهويد خيرة أبنائها، لم تكن لتنجح لولا أن وضع مناسا بن إسرائيل كبير أغنياء اليهود في هولندا، وفرنانديز كارفاجال الشهير باليهودي البرتغالي العظيم أموالهما تحت تصرفه لكي يكون قطعات ذوي الرؤوس المستديرة التي قادها بعد نجاح الثورة العظيم بنفسه.

ولقد غنم هذان اليهوديان مبالغ قدرت من قبل اليهودي دي سالم الذي كان سفيراً لفرنسا لدى ستيوارت الأول بعدة عشرات الملايين من الجنيهات الذهبية مقابل ما أسلفاه لكرومويل[2]، وذلك عن طريق مساهمتها في المشاريع الاقتصادية التي كان المهاجرون الإنكليز قد أسسوها في

---

(1) اقرأ (المفسدون في الأرض) فصل الجرائم اليهودية في البلاد الأوربية.

(2) كتاب مذكرات دي سالم لمؤلفه إسحاق ديزرائيلي الصادر عام 1845.

القارة الأميركية منذ عام 1620 ، وهذه المساهمة المالية هي التي أصبحت فيما بعد ركيزة النفوذ المالي اليهودي في العالم الجديد ، كما حفزت أثرياء اليهود لتكوين مجلسهم المالي تحت رئاسة أمشل باور الملقب بروت شيل لتمويل الثورة الإفرنسية التي كانوا يأملون في أعقابها عدا الحصول على الحقوق المدنية والمكاسب المدنية المحلية لأبناء جلدتهم ، التسلل إلى المشاريع الاقتصادية الفرنسية فيما وراء البحار ، مثل الشركات التجارية التي كونت في كندا بعد أن سيطر شامبلان (Champlain) الإفرنسي عليها عام 1608 ، والمشاريع الهندية التي أقامها الإفرنسيون عام 1664 والتي توسعت[1] فيما بعد على يدي التاجر الفرنسي دوبلكس (Dupleix) عام 1742 ولقد تحققت آمال هذه المجلس بصورة لم يسبق لها مثيل ، بفضل غباء الأمير أوليان ، وحاجة هذا النبيل المفلس الملحة لينفقه على عشيقته اليهودية السيدة هيوز ، التي دفعها سابقاً الثري اليهودي موسى مندلسوهن ، إلى أحضان ميرابو المفلس ومن ثم راح يغدق عليه الأموال الطائلة التي أحالته إلى عبد صاغر لتعليمات المجلس الفرانكفورتي ، تماماً مثلما تمكن لاكلو اليهودي من التغرير بالأمير أوليان ، وتاليران الذي اشتهر بتقلبه العقائدي ، وهؤلاء بدورهم مهدوا الطريق أمام اليهود أمثال شابو (Chabot) الكاهن اليهودي الأصل والشهير بتارك الرهبنة وسالب الساعات[2] ، ومارا اليهودي المعروف بصديق الشعب الذي اغتالته شارلوت كورداي (Charlotte Corday) التي وصفت بعد إعدامها بحارسة الوطن الأمينة استناداً لاعترافاتها الرائعة الجريئة ، وخاصة تلك التي تقول فيها لإحدى صديقاتها : عزيزتي أنا على ثقة بأن قلبك الكبير يتفطر ألماً مثل قلبي الدامي للمصائب التي حلت بوطننا على أيدي زمرة من التعساء المختفين وراء شعارات الحرية والإنسانية ، والذين ما فتئوا ينكلون بهذا الوطن كلما سنحت لهم الأحداث بذلك ، هؤلاء الذين غرروا بنا بالتلويح لنا بالحرية ، هم أنفسهم يكتمون اليوم أنفاسنا بأصابعهم الخفية ، ويدفعون بخيرة أبناء قومنا بمختلف الأضاليل إلى التناحر فيما بينهم ليودوا بهم جميعاً إلى الفناء ، هذه الزمرة ليست سوى زمرة الجلادين ، فلنبك معاً مصير وطننا المسكين[3] .

---

(1) التاريخ الفرنسي (فصل الوجود الفرنسي في الهند) .

ملاحظة : إن إسحاق ديزرائيلي هو والد ديزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر الملقب بالكونت باكونسفيلد (Comte Baaconsfield) .

(2) إشارة إلى اغتصابه ساعة شارلوت كورداي عند اعتقالها ، ولتنكره للكنيسة الكاثوليكية بعد أن كان أحد كهنة الجزويت قبل الثورة .

(3) كتاب الأيام العشرة الأخيرة لشارلوت كورداي . للمؤلف الأفرنسي أندره كاستلو (André Castellot) .

ومما تجدر الإشارة إليه في مخططات هذا المجلس الفرانكفورتي الذي أسس عام 1773 ، هو التنظيم والتوقيت الدقيق في تنفيذ أغراضه ، وحسن اختيار المنفذين ، وإجادة طمس آثار أصابعه في كل الأحداث التي كان خلفها ، وهذه الميزات هي التي أبقته طويلاً بعيداً عن الشك والشبهة ، إذ أنه كان يختار لتحقيق أغراضه أشخاصاً من أكثر الناس بعداً في نظر الشعب عن ممالئة اليهود أو النزوع إلى مساندة الثائرة والفوضويين ، ولذا ركز جهوده في انتقاء الزعماء من النبلاء البارزين أمثال الراهب الجيزوتي آدم وايزهاربت (Adam-Weishaupt) الذي كلف عام 1776 بتنظيم جمعية النورانيين التي انبثقت عنها أكثر المحافل الماسونية ومدارسها في كل من كوردنتسون (Gordonstonn) وسالم (Salem) وأنافريتا (Anavryta) .

كما وضع برنامج الثورة الفرنسية الذي كشفته السلطات البافارية عام 1784 ونشر السيد روبنسون (John Robinson) تفاصيله عام 1798 وهو الذي أقنع توماس جيفرسون أحد مؤسسي الولايات المتحدة باعتناق الماسونية[1] ونقلها ونشرها في أمريكا ، وهو الذي كان خلف كافة الإشاعات التي راجت في فرنسا بحق الملكة ماري أنطوانيت ، وخلف الجرائم التي ارتكبت أثناء حوادث الثورة الفرنسية على أيدي اليعاقبة اليهود الذين أرغموا ميرابو على الانتحار عندما شعروا بقرب تخليه عن مؤامراتهم ، وهم أنفسهم الذين قضوا على روبسبيير (Robespierre) عام 1794 في أعقاب حملته المشهورة على الإرهابيين المتطرفين أمام الجمعية الوطنية ، التي قال فيها : أيها السادة ، وإن كنت لا أجسر على تعيين وتسمية من كانوا وما زالوا خلف الثورات التي اندلعت في أوروبا عبر الأجيال ، إلا أنني أؤكد لكم اليوم ومن هذا المنبر ، أن مخططي المؤامرات الثورية يعتمدون في تنفيذها على اثنين من أكثر الوسائل نجاعة ، الفساد ، والرشوة بين الوسائل العديدة التي استنبطها سادتهم كهنة الإلحاد والرذيلة الغرباء عن قومنا ووطننا للتغرير بضعفاء النفوس منا للقضاء على هذه الدولة بنشر الإرهاب في أرجائها وإذلال مواطنيها[2] .

وهذا التصريح الخطير هو الذي عجل بنهاية صاحبه بالصورة المعروفة في التاريخ ، للحيلولة دون إفشاء ما كان في جعبته من الأسرار؟

وهكذا نرى أن المجلس الفرانكفورتي (رديف المجلس الكهنوتي القديم والكحال والقبال) هو الذي كان خلف الثورة الفرنسية التي خرج منها بمكاسب مالية ومعنوية لا تقدر بثمن ، إذ

---

(1) الدولة الخفية ـ لجواد رفعت اتيلهان (Gizli Devlet. C.R. Atilhan) .

(2) حياة روبيسبيير لمؤلفه ج . رونيه الصادر عام 1814 .

G-Renier-Laviede Robespierre Paris 1914.

حصل على حقوق أتباعه المدنية في فرنسا فشاركوا أهلها في إدارتها، وسيطروا على مقدرات مشاريعها الاقتصادية في الداخل وفيما وراء البحار بصورة واسعة وبذا أصبحوا وكأنهم شركاؤها الفعليون، مثلما أصبحوا شركاء بريطانيا بعد ثورة كرومويل وذلك على الرغم من أحداث الجمهورية الأولى والجمهورية القنصلية (Consulat) وعهد نابليون الأول حيث كان وضعهم يتأرجح دون توقف بين تدهور تارة وتحسن تارة أخرى، والفضل بذلك يعود إلى نباهة وذكاء روتشيلد وأعوانه أعضاء المجلس الفرانكفورتي، الذين كانوا يعدون لكل أمر عدته، فهم مثلاً اعتمدوا نابليون[1] في بداية عهده ودعموه مادياً ومعنوياً ليحقق لهم تحرير أبناء جلدتهم في المناطق الأخرى ولكي يمزق الإمبراطورية الجرمانية المقدسة التي كانت تنزع من وقت لآخر إلى إعادة بعض القيود القديمة على اليهود، فلما استهلكوه سارعوا إلى التآمر عليه مع بريطانيا وحلفائها، ولقد خرجوا من حروب نابليون بأعظم المرابح المادية والمعنوية، ومن ثم راحوا يبحثون عن آفاق اقتصادية جديدة تتناسب مع أغراض شريكتيهما الكبيرتين، ولكن الأقدار لم تمهلهم طويلاً، فظهر عام 1848 على مسرح السياسة الألمانية نبيل ريفي هو أوتو بسمارك (Otto Bismarck) أحد غلاة القوميين الألمان الذي عين ممثلاً لبروسيا لدى مجلس اتحاد الدويلات الألمانية التي كانت تئن من هذا التمزق القومي الذي فرضه نابليون على الشعب الألماني عام 1806، ومن سيطرة المجلس اليهودي الاقتصادي في فرانكفورت مقر هذا الاتحاد، إذ أن بسمارك كان ينظر إلى هذا المجلس بمثابة السبب المباشر لتمزيق الوحدة الألمانية، وما آل إليه الاقتصاد الألماني من فوضى وتدهور، ولذا لم يجنح عند وصوله إلى فرانكفورت على إخفاء عدائه للرأسمالية اليهودية ولسيطرتها في الدويلات الألمانية التسعة والثلاثين، كما أعلن صراحة عن إصراره على توحيد ألمانيا تحت التاج البروسي، فكان من البديهي أن يسيطر الهلع على حلفاء روتشيلد من مسلك هذا النبيل القومي الذي تجاسر على تحدي جميع ممثلي الدويلات الألمانية وممثلي أصحاب التيجان الحليفة الذين كانت لهم علاقات وراثية في المقاطعات الألمانية، مثل ملك إنكلترا وريث التاج الهانوفري (Hanovre) وملك هولندا وريث التاج اللوكسانبورغي (Luxembourg) وملك الدانمارك باعتباره دون مقاطعة هولستين (Holestein).

فسارع المجلس الفرانكفورتي إلى الإيعاز لجمعيات النورانيين (أي الماسون) التي كانت قد وحدت قيادة مختلف المؤسسات السرية والفوضوية تحت زعامة كلينتون روزفلت منذ عام 1829

---

(1) المفسدون في الأرض (فصل نابليون واليهود).

لمجابهة أي طارئ مضاد لمصالح الرأسمالية اليهودية[1] فبادر روزفلت إلى إسناد رئاسة الفوضويين في ألمانيا إلى مازيني (Mazzini) مؤسس حزب إيطاليا الفتية (La Jeune Italie) الذي كان آنئذٍ أحد رؤساء جمهورية روما الثلاثية التي قامت عام 1849 لمدة من الزمن، ولكن هذه الجهود الخفية ومحاولات الدولة النمساوية التي كانت مدعمة من الرأسمالية اليهودية، وتهديدات إنكلترا وفرنسا شريكتي حلفاء روتشيلد في الاستثمار، والمؤامرات اليهودية المحلية ضمن الدويلات الألمانية لم تكن بقادرة على الوقوف في وجه بسمارك الذي ظل نجمه يسطع يوماً بعد يوم بفضل إيمانه بوطنه، وما لاقاه من دعم الشباب الألماني له، فثابر على مناوئة اليهود والانفصاليين مطالباً بوضع حد للسيطرة التجارية والصناعية اليهودية غير المشروعة، والتسلل اليهودي الواسع إلى المراكز القيادية والتنفيذية في دويلات الاتحاد، وقطع دابر تحكمهم في رقاب العمال والفلاحين وصغار الكسبة الذين كانوا يرزحون تحت أثقال الربا الذي فرضوه عليهم، فلم يعد أمام الرأسمالية اليهودية والماسون وشركائهم في الداخل والخارج إلا مجابهة بسمارك وملكه غليوم، فأثاروا الرأي العام عليهما، فاندلعت ثورة برلين بالشكل المعروف، وفر غليوم إلى بريطانيا خشية على حياته تاركاً لزوجته أمر معالجة الوضع، وانزوى بسمارك في قريته مؤقتاً ريثما تهدأ العاصفة.

وفي هذه الوقت بالذات فكرت الأميرة البروسية بإسناد العرش إلى ولي عهدها فريدريك (Frédéric) الذي كانت ترتاح إليه المحافل الماسونية وبيوت المال أكثر من والده، وشاءت الصدفة أن تستمزج رأي بسمارك بالأمر، فاعترض على اقتراحها وطلب منها التريث حتى الانتخابات وعاد بسمارك مجدداً للساحة السياسية أكثر إيماناً بأهدافه من ذي قبل، فتمكن في غضون مدة وجيزة من ضم بعض المقاطعات الألمانية إلى بروسيا، وكسر شوكة الدولة النمساوية المناؤة له، وألجم الرأسمالية اليهودية ضمن المناطق التي سيطر عليها حتى عام 1865 بعد أن اعترضته عقبات عديدة وهزائم رهيبة كان خلفها الذهب اليهود صانع الدسائس والمؤامرات، ولكن عقيدة بسمارك بأمته كانت أصلب من أن تنحني أمام دسائسه وبريقه، فداوم على السير نحو أهدافه دون كلل أو ملل.

ولكن الرأسمالية اليهودية بدوها لم تستكن لقدرها كما يتبادر لمخيلة القارئ، بل وقفت له بالمرصاد ريثما تحين الفرصة[2]، وبانتظار ذلك عمدت إلى الخداع فتذللت له، وتظاهرت

---

(1) الدولة الخفية لمؤلفه جواد اتيلهان.

(2) حياة بسمارك ـ لكونستانتين كرونوولد.

(Bismarck) Par-Constantin de Grunwald.

بالقناعة في العيش في حماه دون أن تنقطع عن الكيد له في الخفاء، وراح هو يتظاهر لها باللين والمسامحة بغية الحد من دسائسها، والحصول منها على المساعدات المالية التي كان بأمس الحاجة إليها لبناء إمبراطوريته وجيشها، وطبعاً دون أن يتخلى عن حذره منها، فطال أمد المراوغة بينهما إلى أن حدث ما لم يكن في حسبانهما، وهو الانقلاب الذي أطاح بعرش الملكة إيزابيل الثانية (Isabelle II) في إسبانيا عام 1868، الذي أعقبه قيام حكومة مؤقتة تحت زعامة الجنرال بريم (Prim) الذي قاد البلاد مدة عامين ريثما يقرر شكل النظام الجديد، ويبدو أن الظروف أجبرت المسؤولين الإسبان عام 1870 على إعادة النظام الملكي إلى بلادهم فقرروا بالإجماع إسناد العرش إلى الأمير ليوبولد هوهانزوللرن (Leopold de Hohenzollern) الألماني.

ولكي لا يصطدم الجنرال بريم بمعارضة جارته فرنسا بسبب هذا الإجراء أبلغ سفيرها البارون مرسيه دولوستاند (Mercier de Lostende) بما قر رأي المسؤولين الإسبان عليه، فأبلغ السفير بدوره الإمبراطور نابليون الثالث في 3 تموز عام 1870، فسارع العاهل الفرنسي بعرض القضية على وزرائه بغية إيجاد حل لاستبعاد الأمير ليوبولد الألماني عن العرش الإسباني، كي يحولوا دون قيام إمبراطورية جرمانية جديدة، وبعد مناقشة الموضوع قرروا أن يوسطوا الملك غليوم الألماني ليتدخل في الأمر وينصح ليوبولد برفض العرض الإسباني، ولما كان غليوم شخصياً لا يميل إلى منازعة فرنسا، كما كان المسؤولون في فرنسا يرومون تجنب الحرب، توصل الطرفان إلى اتفاق تام وسويت المسألة بأن اعتذر الأمير ليوبولد عن قبول العرض الإسباني، فظن العالم أن خطر الحرب قد زال عن الوجود.

ولكن الرأسمالية الفرانكفورتية والماسون كانوا يرون في هذا النزاع الألماني الفرنسي فرصتهم للتخلص من بسمارك ومشاريعه الوحدوية والقومية الرامية إلى التخلص نهائياً من سيطرة اليهود الاقتصادية والاجتماعية في ألمانيا، فأوعزوا إلى الصحافة الفرنسية[1] لتحريض الناس على ألمانيا وشجب المحاولات السلمية لنابليون الثالث، كما أمروا أنصارهم في المجلس النيابي لتهويل الأمر على الحكومة وإرغامها على مخاصمة ألمانيا، وعلى الأثر ثارت ثائرة الصحافة الدائرة في فلك الرأسمالية اليهودية، فأظهرت الأمر على غير حقيقته وأوهمت الناس أن الوقت قد حان للحد من الغطرسة البسماركية قبل أن يفوت الأوان، كما انبرى العديد من المرتشين من قبل اليهود من أعضاء المجلس النيابي أمثال كرانيه دوكاسنياك

---

(1) اقرأ (المفسدون في الأرض) فصل الصحافة المهودة.

(Granier de Cassagnac) وكرانيه بـاجي (Granier Pagés) وروشـه جوبـير (Roché-Jouber) وسواهم إلى مطالبة الوزارة بالإصرار للحصول على ضمانـات رسـمية مـن غليـوم تؤكـد دوام معارضته على اعتلاء أحد من أمراء الألمـان عـرش الإسـبان ، وعـدم الاكتفـاء بـالوعد الشـفهي الذي قدمه لفرنسا .

ويبدو أن الشعب الفرنسي وحكومته تـأثرا بالدسـائس الرأسـمالية اليهوديـة ، فـأقدمت الوزارة إلى مطالبـة الملـك غليـوم الأول بتقديـم ضمانـات رسمية يتعـهد بـها عـدم إصعـاد أي من الأمراء الألمان على العرش الإسباني في المستقبل مع أنـه كـان قـد أعلـم الدولـة الفرنسـية بـأن تعـدّ القضية منتهية بعد أن اعتذر ليوبولد عن قبول العرض الإسباني ، وهنا عـدّ غليـوم إصـرار الجـانب الفرنسي تحدياً له وتمنع عن مقابلـة السـفير الفرنسـي ، وعلـى الأثـر قـامت قيامـة الصحافـة المهودة والنواب المهودين وحتى الملكة أوجيني (Eugenie) التي عاشت طويلاً تحت تأثير كاهنها اليهودي الأصل[1] ، فأرغم نابليون الثالث تحت ضغط الرأي العام على إعلان الحرب على ألمانيـا فلـم يعـد لغليوم الأول بُداً من قبول الأمر الواقع وخاصة بعد أن لاحظ تعنت رئيس وزرائه بسـمارك وميلـه الجارف لدخول هذه الحرب التي كـان يعدهـا الوسيلة الوحيـدة لتحقيـق وحـدة الشـعب الألمـاني ، وهكذا اندلعت نيران الحرب ، فهزمت فرنسـا ودخـل الجيـش الألمـاني بـاريس ظـافراً ، حيـث عقـد الصلح ضمن الشروط المعروفة التي أسفرت عن توحيد ألمانيا وتحقيق أحـلام بسـمارك ، ومـع كـل هذا لم يخرج اليهود منها كما يتبادر لذهن القارئ بخفي حنين ، إذ أن مكاسبهم المالية كـانت خـير تعويض لهم عن خسارتهم في الميادين الخلفية الخفية ، لأن كلاً مـن الدولتـين المتحـاربتين استعانتا بالرأسمالية اليهوديـة لتمويـل حربـهما ، فلمـا انتهت اضطرتـا لتسـديد ديونـهما إليـها مـع فوائدهـا الخيالية[2] .

ومع ذلك تشاءمت الرأسمالية من نتائج هذه الحرب ، فبادرت إلى تحويل معظم أموالـها إلى أمريكـا التـي كـانت قـد أصبحـت بفضـل جيفـر سـون وسـواه مـن أقطـاب الماسـونية حصـن الرأسـمالية اليهوديـة بـدلاً مـن القـارة الأوربيـة ، بينمـا أجهزتـها الأخـرى ثـابرت علـى نشـاطها التخريبي في كافة أنحاء العـالم تحـت زعامـة الحاخـام اليـهودي لومـي (Lemmi) الـذي خلـف مازيني الطليـاني ، والجـنرال الأمريكـي المتقـاعد بـايك الـذي نظـم المحـافل الماسـونية فـي القـارة

(1) المفسدون في الأرض (فصل أساليب اليهود الوصولية) .

(2) برقية أمس لكاتبه أندره كاستيللو La dépéched'ems. André Castelot .

الجديدة[1] إذ أنها كانت تخشى أن تسيطر الأفكار القومية التي سادت ألمانيا على يدي أوتو بسمارك على البلاد الأخرى فتنزع كل واحدة منها إلى التمسك بقوميتها والحد من تحركات اليهود السياسية والاجتماعية، وسيطرتهم الاقتصادية بعدّهم أغراباً عنها، ويكون ذلك وبالاً عليهم في المستقبل، وخاصة بعد أن تخلصوا بفضل الانطلاقات الفكرية لعصر النهضة من الضغوط والقيود التي كانت تفرضها عليهم السلطات والكنيسة في الماضي، ولذا كانوا حريصين على أن لا تحل الأفكار القومية والوطنية محل العقائد الدينية التي كانت تحول دون تحقيق أغراضهم العنصرية والاقتصادية في الماضي، وهذه الفكرة هي التي دفعتهم عام 1870 إلى عقد اجتماعات سرية عديدة في سويسرا لوضع برنامج جديد لتحركاتهم السياسية يعتمدون عليه في تحويل أنظار الشعوب الأوربية التي خرجت على الكنيسة والأنظمة الملكية نحو آفاق ومبادئ جديدة ترتكز على الإنسانية والأممية، بينما ظلت مؤسساتهم السرية تعمل في البلاد التي كانت ما زالت تعتمد على الكنيسة والملكية على تهديم أنظمتها تلك ودفعها نحو المبادئ المادية[2] التي تشجب المفاهيم الوطنية والقومية، كي يقطعوا الطريق على مناوئيهم الذين تكاثر عددهم في كل مكان، وخاصة بعد أن تكشف أسرار الثورة الفرنسية وما أعقبها من أحداث مثل الصراع الدامي الذي قام بين الجيرونديين والجبليين واليعاقبة، وظهور نابليون وقيام الجمهورية الأولى، وعودة الملكية، وكارثة عام 1870، والتي أبانت للعالم أجمع بأن اليهود كانوا خلف كل واحدة منها، وأنهم خرجوا منها جميعاً بحصة الأسد، حتى أن انهزام فرنسا في حربها مع بسمارك التي قوضت قواها، جاء لصالح اليهود دون العالم أجمع إذ أن حكومة تيير (Thiers Adolphe) التي استعادت باريس عام 1870 بعد أن أطاحت بحكومة بلديتها على يدي الجنرال اليهودي كاليفه (Gaston Galliffet) بادرت إلى إصدار قرارها المشهور بقرار كريميو[3] (Ledecret de Cremieux) منحت بموجبه الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر إكراماً لكاليفه واليهود الذين ساهموا في اختلاق الأسباب التي أدت إلى قيام حكومة بلدية باريس (أمثال اليهودي راؤول الذي اشتهر بسفك دماء رجال الكنيسة في باريس) ومن ثم الإطاحة بها لإعادة نفوذ تيير ورفعه إلى سدة الرئاسة مع العلم أن احتلال الجزائر لم يكن

---

(1) إسرائيل والماسونية جواد اتيلهان (La dépéched'ems. André Castelot).

(2) الدولة الخفية لجواد اتيلهان Gizli Devlet. C.R. Atilhan.

(3) التاريخ الفرنسي فصل زيول هزيمة عام 1870.

Histoiredela Revolution Française Par. A'bert Soboul.

قد مضى عليه آنئذ أكثر من نصف قرن، كما كان الجيش الألماني الظافر لم يزل يعسكر في ضواحي باريس ومع ذلك ضرب كريميو بسمعة فرنسا في الجزائر، وسيادتها في الداخل عرض الحائط، وعدّ المصالح اليهودية أكثر أهمية وإلحاحاً من كل هذا، فسارع إلى منح اليهود الجزائريين الجنسية الفرنسية.

ولقد علق الكاتب الفرنسي هنري كوستون (Henry Goston) على هذه القرارات في صحيفة الكلمة الحرة (Libre Parole) فيما بعد فقال: منذ الثورة الفرنسية تمركز اليهود الغرباء في فرنسا مع كل ما للفرنسيين من حقوق ومكاسب، ولكن قرارات كريميو اليهودي الذي كان يرأس الاتحاد اليهودي العالمي رفعتهم إلى السيادة على الفرنسيين أنفسهم، وخاصة تلك التي منحت أبناء مذهبهم في الجزائر الجنسية الفرنسية التي جعلتهم قادة الجزائر، وكأنهم هم الذين أراقوا دماءهم لاحتلالها[1].

والجدير بالذكر هو أن هذا القرار الجائر الذي لم يسبق له مثيل أطلق يد اليهود في البلاد الجزائرية فعاثوا فيها فساداً، مما أدى إلى إثارة مشاعر أهلها وتفجير حقدهم على الحراب الفرنسية التي تحطمت بالأمس القريب تحت أقدام الألمان، ثم جاءت تستأسد في الجزائر لتشد أزر اليهود.

فاندلعت الثورة الجزائرية الثانية تحت زعامة المقراني، وأسفرت عن آلاف القتلى من الجانبين في سبيل الجشع اليهودي الذي كان في الأصل السبب الأساسي في تحريض فرنسا على احتلال الجزائر الذي أدى إلى سفك الدماء الفرنسية الغزيرة بغية تحقيق سعادة ورفاه قبضة من اليهود الدخلاء.

وهذه النتائج الباهظة الثمن المادي والمعنوي تشير بوضوح إلى مدى ما توصل إليه اليهود في أعقاب الثورة الفرنسية من نفوذ وسيطرة في فرنسا، وإلا لما أهمل تيير وحكومته أمن وسلامة الوطن الفرنسي في أحرج أيامه، والتفتا لتأمين المطالب اليهودية التافهة.

---

(1) الجمهورية العالمية لكاتبه بيير هيبس. La Republique Universelle – Par Pierre Hépess.

امتداد النشاط اليهودي إلى أوروبا الشرقية وأمريكا في القرن التاسع عشر

على أثر النجاح المنقطع النظير الذي أصاب الرأسمالية اليهودية ومؤسساتها التي تعددت في بريطانيا وفرنسا ومستعمراتها، وما لاقته من هاتين الدولتين من دعم سياسي واجتماعي باعتبارهما شريكتيها في الاستثمارات الكبرى، تعاظمت مطامع الزعامة اليهودية فبادرت إلى توسيع نشاطها في مناطق أوربا الشرقية وخاصة في الإمبراطورية الروسية التي كان اليهود يعتبرونها مسؤولة عن زوال الدولة الخزرية اليهودية من الوجود، ولذا كانوا يحقدون عليها ويرجون النيل منها، وهذا الحقد هو الذي دفعهم في القرن الثاني عشر إلى أن يتطوعوا في خدمة المغول الذين زحفوا على روسيا، كجواسيس وأدلاء، وهو نفسه الذي حفزهم ومجلسهم الفرانكفورتي لمساعدة نابليون مادياً ومعنوياً في زحفه على البلاد الروسية[1].

فلما شاهدت الزعامة اليهودية قيام التقارب بين بسمارك والعاهل الروسي الإسكندر الثاني، في أواخر القرن التاسع عشر، طار صوابها وعدّته خطراً ماحقاً لمصالحها، فعمدت إلى إيجاد تقارب بين فرنسا وروسيا لعلها تحول دون التعاون بينها وبين بسمارك، ولكن وقوف روسيا بجانب بسمارك في نزاعه مع نابليون الثالث، قضى على أحلامها، فجنحت إلى العودة لأسلوبها المعتاد، وهو تدمير خصومها من الداخل. فأمرت ممثلها الجنرال الأمريكي المتقاعد بايك منظم المحافل الماسونية بأن يوعز إلى جمعية النيهيليست (Nhihiliste) (التي كانت قد انضمت إليه في أعقاب مؤتمر نيويورك لعام 1826 والتي كانت تمول منذ ذاك التاريخ من قبل أثرياء اليهود أمثال كلينتون روزفلت وهوارس غريلي، وشاس، في أمريكا) باغتيال العاهل الروسي في أقرب فرصة ممكنة، فقام النيهيليست بتنفيذ الأمر عام 1881 رغم اشتهار الإسكندر بحبه للخير وميله للإصلاحات الاجتماعية، ولكن اليهود رفضوا كل تفاهم معه، وفضلوا البقاء على عزلتهم، والكيد له ولشعبه مهما كلفهم الأمر[2].

---

(1) (المفسدون في الأرض) فصل الجرائم اليهودية في روسيا.

(2) إسرائيل والماسونية لجواد أتيلهان IsrailVe Mason C.R. Atlihan.

وشاءت الأقدار أن يقتل العاهل الروسي في الوقت نفسه الذي تخلى فيه أطباء اليهود عن الشعب الروسي الذي كان الطاعون يفتك بأبنائه، وفروا خارج روسيا بدلاً من القيام بواجبهم الإنساني والوطني. ولقد اشتهر من بين هؤلاء المارقين الدكتور لويس دريفوس (Louis Dreyfus) مدير صحة مدينة أوديسا، الذي توارى عن مقر عمله بمجرد ظهور الطاعون، فلما طلبت السلطات الروسية منه تفسيراً عن المسلك المشين، أجابها خطياً من باريس: بأنه يفضل ألف مرة أن ينعت بالجبان، على أن يكون بطلاً هامد الجثة في لحده[1].

وعندما لاحظ الشعب هذا العقوق طفح كيله فوقعت بعض الاعتداءات الفردية التافهة على أفراد من اليهود، فاستغلتها المحافل اليهودية والماسونية وأوعزت إلى الصحافة الغربية التي كانت تمولها، فانبرى كتابها ليملؤوا الدنيا ضجيجاً بأخبار الاضطهاد المزعوم الذي زعموا تعرض اليهود المساكين له في روسيا، ومما قالوه: إن ما يجري في روسيا لهو أكثر فظاعة من كل ما تعرض اليهود إليه في الماضي من المآسي الدامية على أيدي الطغاة أمثال إدوارد الأول وإيزابيل الإسبانية ومحاكم التفتيش، بغية إثارة الضمير العالمي ليقف إلى جانبهم في صراعهم المدمر لدنيا السلاف، زعموا أن ما يلاقيه اليهود منذ القدم على أيدي طغمة اللاسامية آن له أن يتوقف وأن يعمل العالم لإنصافهم بمنحهم موطناً خاصاً بهم يلجأون إليه. وكل هذا استدراراً لعطف وشفقة الشعوب، وتمويهاً لما كانت زعامتهم عازمة على تحقيقه من تشكيلات جديدة تركن إلى مساعدتها في تحقيق أغراضها العديدة وفي مقدمتها إيجاد السبل الآيلة إلى استثمار أموالها. وكان من البديهي أن تكون لهذه الحملة الدعائية الواسعة النطاق، تأثيرها الفعال في الأوساط الأوربية المخدرة منذ عصر النهضة بالأباطيل اليهودية، ورد فعلها المعاكس لدى الدولة الروسية التي كانت التهم اليهودية الباطلة تهطل عليها مدراراً. فقام صراع بين الطرفين يقوده من الجانب اليهودي محفل شارلستون (Charleston Carolinedu Sud) الأمريكي عن طريق جمعية النيهيليست التي افتعلت الأزمة، بينما راحت المؤسسات اليهودية والمحافل الماسونية الأوروبية تحت زعامة كل من يعقوب شيف (Jacob Schiff) وأرنست كسل (Sir Erneste Cassel) مستشار عاهل بريطانيا إدوارد السابع الشهير بتعصبه العنصري تحيك المؤامرات والدسائس في تدمير الكيان الروسي، ولكن كل هذه الجهود لم تسفر في البداية عما يرضي هذين الزعيمين، لأن الأوساط الشعبية اليهودية المتزمتة في الإمبراطورية الروسية المشبعة بالأفكار الدينية والسابحة في تخيلاتها

---

(1) الجمهورية العالمية، بيير هيبس Lapublique Universclle Par. Pierre Hépéss.

الخرافية، والحالمة بالعودة إلى أرض الميعاد للنواح في ظل حائط المبكى المقدس، أبت أن تتجاوب معها بالصورة المطلوبة، فلم يريا بداً من ابتكار دعوة صالحة لاستقطاب مختلف الفئات اليهودية حولهما. فتفتق تفكيرهما عن تكوين جمعية عنصرية أطلقا عليها اسم جمعية المستعمرات اليهودية (Jewish Colonisation Association) التي مولها البارون هيرش اليهوديَ بمئتين وخمسة وسبعين مليون فرنك ذهبي كدفعة أولى وإيغالاً في تضليل الرأي العام العالمي أوعز إلى الصحافة بأن تعرِّفها بكونها مجرد جمعية إسكانية خيرية، ترمي إلى ابتياع أراضٍ سكنية صالحة في فلسطين أو سواها لتوطين اليهود فيها لإنقاذهم من الظلم والاضطهاد، بينما عرَّفاها سراً لأبناء جلدتهم بأنها نواة حركة دينية وقومية لتحقيق آمال اليهود بالعودة إلى أرض الميعاد، بغية اجتذاب واستقطاب مختلف فئاتهم حول الزعامة الرأسمالية، أما أغراضها الخفية من خلفها لم تكن سوى إيجاد عناصر متعصبة لا تحجم عن شيء في تنفيذ تعليماتها التي ترمي أولاً إلى تدمير الإمبراطورية الروسية وكنيستها، وإبدالها بدولة علمانية لا قومية يسيطر عليها اليهود بالقدر الذي سيتوفر لهم لكي تسير في ركاب زعامتهم أسوة بفرنسا وإنكلترا وأمريكا التي أصبحت الرأسمالية اليهودية شريكتها بكل معنى الكلمة. ومن المؤسف أن هذه الألاعيب انطلت على الجميع فتكاثر عدد المهتمين بالجمعية اليهودية وأهدافها بين الحكام والمفكرين، فتعددت المقترحات والفرضيات الباحثة عن حلول لمراميها، كما ازداد عدد العاطفين على اليهود من الذين تأثروا بدعاياتهم المضللة، أما الشباب اليهودي المتعصب الذي تردد في البداية، وجد في الدعوة الجديدة ما يوافق هواه، فسارع الألوف منه إلى الالتفات حول هذه الجمعية التي تأسست عام 1890، وهذه النتائج الباهرة شجعت البارون هيرش أن يؤسس فرعاً مستقلاً لها في أمريكا[1] التي كانت قد أصبحت حصن الرأسمالية اليهودية، فانهالت عليها التبرعات المالية السخية من كل جانب، فعمد الفرع تحت زعامة يعقوب شيف صاحب فكرة الإطاحة بالقيصرية في روسيا إلى جمع المتطوعين من اليهود الذين نزحوا في الماضي إلى أمريكا وتدريبهم على أعمال الشغب والفوضى لإيفادهم إلى روسيا لمساعدة النيهيليست ويهود روسيا في صراعهم مع القيصرية[2] وهكذا تقاطر الألوف من هؤلاء المتطوعين إلى روسيا، وبدأوا يساعدون شركاءهم فيها على الإخلال بالأمن كلما سنحت لهم الفرص بذلك.

---

(1) الجمهورية العالمية لبيير هيس La-République Universelle. Par Pierre Hépess.

(2) الدولة الخفية لجواد أتيلهان Gizli Devlet. C.R. Atilhan.

وفي عام 1897 أوعزت الزعامة اليهودية إلى أتباعها بتكوين حزب عمالي في روسيا ليكون بمثابة رديف لجماعات النيهيليست وشيف، فقام العمال بمحاولات عديدة لتحقيق هذا الأمر، أسفرت في النهاية عن نزول الدولة عند رغبتهم، وهكذا تشكل أول حزب عمالي في روسيا، تحت اسم حزب العمال اليهودي.

وشاءت الأقدار أن يصادف مولد هذا الحزب زمن ظهور القصة الدريفوسية القذرة في فرنسا التي انتهت بالشكل المعروف المغاير للحقيقة بفضل الأموال الطائلة التي أنفقتها الدعاية اليهودية، والجهود الجبارة التي بذلها حكام الغرب من اليهود أمثال كريميو وديزرائيلي لتشويه الحقائق لتبرئة هذا الخائن الذي أظهرته الصحافة المهودة كبطل قومي ونموذج غير عادي لاضطهاد اليهود في كل مكان، وبما أن الأكثرية من أفراد الشعب كانت تجهل الواقع تأثرت بالدعاية الكاذبة فانساقت خلف عواطفها الإنسانية وتبنت النظريات اليهودية المدسوسة عليها عن طريق وسائل النشر المختلفة، فغدت تشجب كل فكرة مناوئة لليهودية، وتكذب أية قصة تنال منها، مهما كان مصدرها، ومهما كان نصيبها من الصحة. أما الدول الغربية فلم يكن لها مناص من مسايرة الزعامة اليهودية، من جراء تكاثر عدد ذوي النفوذ منهم في مراكز القوة في تلك الدول، واحتياجها للرأسمال اليهودي الذي أصبح في أواخر القرن التاسع عشر الركيزة الأساسية لأكثر المشاريع الاقتصادية في الداخل والمستعمرات.

ومن هنا وجدت الحكومات الغربية وشعوبها نفسها مُرْغمة على مساعدة الزعامة اليهودية فيما كانت تزمع القيام به في الإمبراطورية الروسية، حتى أن بسمارك الذي عرف بعدائه السافر لليهود وزعامتهم، لم يجد له مخرجاً لتحقيق أحلامه في المجال الحيوي اللازم لبلاده سوى التقرب من هذه الزعامة ومساندتها أكثر من مرة أملاً بالحصول على معونتها المالية لتسوية بعض أموره الداخلية[1].

وهكذا أطلق يد الزعامة اليهودية في التآمر والتحرك في شرق أوربا بعد أن تهيأت لها كافة أسباب النجاح، من دعم مادي، وعطف عالمي، ومساندة سياسية غير محدودة.

أما أنصارها في روسيا فكانوا يزدادون يوماً بعد يوم بفضل المتطوعين الذين كان شيف يوفدهم إليها من أميركا بالاتفاق مع رئيسها تيودور روزفلت (Théodore Roosvelt) الذي عُرف بتطرفه لليهودية[2].

---

(1) الدولة الخفية لجواد أتيلهان Gizili Devlet. C.R. Atilhan.

(2) الجمهورية العالمية لبيير هيبس La Republique Universelle. Par Pierre Hépéss.

فبادر اليهود إلى العمل بموجب تخطيط زعامتهم الرامية إلى تدمير الإمبراطورية فكانوا يوماً يطالبون بالهجرة إلى فلسطين بحجة تعرضهم للاضطهاد فتتلقف الصحافة الغربية مطلبهم، وتنسج ألوف القصص حول تسويغه، وتنشرها في العالم أجمع بقصد التشنيع بالسلطات الروسية. وأخرى يتظاهر حزب العمال اليهودي مطالباً بتحسين أوضاع العمال وإنصافهم، فتنبري الصحافة الغربية لمساندته وتهول بسوء أوضاع العمال ما شاء لها التهويل والتدجيل، وأحياناً يرسلون وفوداً شعبية احتجاجاً على الكتب المزعوم للحريات العامة، فتسارع الصحافة الغربية لتروي للعالم قصصاً خيالية عما يتكبده اليهود من ضرر على أيدي السلطات الروسية، وتتباكى على مصيرهم المظلم، وتحرض الشعوب والحكومات للتدخل لدى السلطات الروسية لحمايتهم، ضناً بالكرامة الإنسانية، وبالوقت نفسه تبادر جمعيات الأحرار (Les Libres Penseurs) في أوروبا وأميركا والبالغ عدد أعضائها عدة ملايين، مع جمعية اللاربيين (Les Sanns Dieux) التي أسسها أثرياء اليهود في روسيا إلى إصدار المنشورات المحرضة على الدولة والكنيسة المؤيدة للتحركات اليهودية. تناشد الجماهير للخروج على هاتين السلطتين ودعم الفوضويين بزعم أنهم طليعة تحرير الشعب من نير الاستعباد واسترداد حقوقه السلبية، وإيصاله إلى مستوى الشعبين الإنكليزي والإفرنسي، وبفضل هذه الوعود العرقوبية التي أصرت تلك الجمعيات على ترديدها، بدأ الشعب الروسي ينسجم تدريجاً مع الأكاذيب اليهودية، فتفاقمت الأمور يوماً بعد يوم، وتدهور الاقتصاد الروسي على أثر جنوح الأثرياء إلى تهريب أموالهم تحت تأثير الدعايات المضللة، فانتشرت البطالة ومن ثم الفاقة، فازداد عدد المنضمين إلى التجمعات المناوئة، وظهرت بوادر الضعف في هيئة الحكم فاستبشر اليهود بقرب انهيار القيصرية، ومع كل هذا ظلت الأوضاع تتأرجح بين المد والجزء حتى بداية القرن العشرين. وبانتظار نتائج هذا الصراع عمد اليهود في الوقت نفسه إلى تنفيذ الفقرات الأخرى من برنامجهم العام القاضي:

أولاً: بتدمير المعتقدات الدينية والوطنية والأخلاقية والقومية لدى الأجيال الصاعدة، والاستعاضة عنها بالأفكار المادية والأممية عن طريق نشر مبادئها في أوساط الطلبة والشباب بواسطة عملائهم من أساتذة المعاهد والجامعات.

ثانياً: تحقيق السيطرة التامة على كافة وسائل الإعلام لتسخيرها في ترويج هذه المبادئ والأفكار بين الجماهير الشعبية في كل مكان.

ثالثاً: تدمير العائلة والمجتمع بالترويج للتهتك والخلاعة والغرائز الجنسية.

رابعاً: تدمير الوحدة الوطنية بتشجيع الطائفية والشعوبية والنزعات الانفصالية.

خامساً: الإطاحة بالأنظمة المناوئة لأغراضهم، وإبدالها بأنظمة جديدة يرأسها زعماء من التوراتيين والفئات الضالعة معهم.

سادساً: خلق تكتلات عسكرية متعارضة الأغراض والأطماع، لزجها في حروب ضروسة طويلة الأمد لتدمير اقتصادياتها أملاً بإرغامها جميعاً على الاستنجاد بالرأسمالية اليهودية، لتمويلها مقابل فوائد خالية، لتودي بها في النهاية إلى الوقوع في براثن أثرياء اليهود[1].

ولكي يكون التحرك اليهودي عاماً وشاملاً ضمن إطار هذا البرنامج، أوعزت الزعامة اليهودية إلى ممثلها الرسمي تيودور هرتزل مؤلف كتاب الدولة اليهودية ومؤسس الصهيونية، وصاحب فكرة تنصير اليهود مقابل حصولهم على وطن قومي[2] بأن ينادي بعقد مؤتمر عام لممثلي الجاليات اليهودية في العالم، فسارع هرتزل بإصدار ندائه الشهير الذي أسفر عن عقد أول مؤتمر علني يهودي عالمي عام 1898 في مدينة بال (Bale) السويسرية، حيث تلا هرتزل على المؤتمرين هذا المنهج المستمد من البروتوكولات القديمة لحكماء صهيون، وبعد نقاش سري دام عدة أيام أقر المجتمعون هذا المخطط، وتعهد كل منهم بتنفيذ ما يتعلق منه بالبلاد التي يقطنها[3].

وفي نهاية المؤتمر خرج اليهود على العالم بطلبهم المتعلق بإيجاد وطن قومي لهم، وكأنهم لم يجتمعوا إلا لبحثه، بينما أبقوا المقررات الأخرى في طي الكتمان، وعلى الأثر انبرت الصحافة العالمية لتشيد بوجاهة وشرعية هذا الطلب، وتهيب بالشعوب والحكومات للإسراع بتحقيقه في أقرب فرصة لرفع الحيف (على حد زعم الصحافة) عن هذا الشعب المسكين الذي ما انفك منذ عصور يئن من الاضطهاد في كل مكان.

---

(1) لقد وضعت أسس هذا المنهج عام 1770 من قبل الكاهن الجزويتي آدم وايزهابت (Adam Weishaupt) عميل المجلس الفرانكفورتي.

والملاحظ أن هذه الأسس مستمدة روحاً ونصاً من منهج حكماء صهيون Les Protocoles des Sages de Sion الذي ظهر للوجود في أواخر القرن التاسع عشر، فأنكر اليهود طويلاً ملكيته، ونسبوا وضعه ونشره إلى الفئات اللاسامية، حتى ذاع أمره عام 1917 على يدي الكاتب الروسي نيلوس (Nilus) ومن بعده على يدي الألماني مولر (Muller) عام 1919 ومن ثم الكاتب الكبير تؤدور فريتش T.Fritch 1925 وأخيراً أذاعته الصحافة العالمية على أوسع نطاق فاضطر اليهود على مقاضاة ناشريه السويسريين واتهموهم بالتجني عليهم، فدامت الدعوى مدة أربعة أعوام صدر في نهايتها القرار الحاسم المؤكد لمصدره اليهودي، رغم كل محاولات اليهودية العالمية، وهكذا ثبت للعالم أنه المنهج العلمي الأصيل للشعب المختار.

(2) من مذكرات هرتزل التي نشرت عام 1895 في باريس Les Némoires de Herzel Paris 1890.

(3) الدولة الخفية لجواد رفعت أتيلهان.

وللتدليل على صحة مزاعمها راحت تذكر الناس بما أسمته بالمذابح اليهودية التي وقعت في روسيا بين عام 1881 ـ 1882 (التي اتخذت في حينها حجة لتجهيز بعض اليهود إلى فلسطين كنواة لمعسكرات جمعية المستعمرات اليهودية التي تأسست فيما بعد) وما لحقهم من جور وظلم عام 1892 في قضية قناة بنما (مع العلم أن تلاعب الرأسمالية اليهودية في حسابات هذا المشروع والاختلاسات التي أقدمت عليها كانت أصرح من أن يتطرأ الشك إليها)، وأخيراً قضية الخائن دريفوس التي كانت آنئذ قضية الساعة، والتي تمكن اليهود بفضل الأموال الطائلة التي بذلوها لشراء ضمائر الكتاب والحكام لقلب الأباطيل إلى حقائق لإنقاذ رجلهم العاق من الجزاء العادل الذي كان يستحقه.

وهكذا ظهرت في أواخر القرن الماضي مسألة جديدة في أوروبا عرفت فيما بعد بالمشكلة اليهودية التي تمخضت عن ولادة الصهيونية العنصرية التي ظل اليهود طويلاً يرعونها سراً في الأركان المظلمة لإحيائهم للخاصة ويغذونها خفية بأبخرة خرافات الماضي، والآمال المنبثقة عن بروتوكولات حكماء صهيون.

ومما يؤسف له حقاً هو أن يتفاعل العالم الغربي آنذاك بقضه وقضيضه بتلك السهولة مع أضاليل الدعاية اليهودية، فتبادر جماهيره الشعبية تساندها الفئات الضالعة مع الصهيونية، بل حتى الفئات الوطنية والقومية التي عرفت بعداوتها التقليدية للوجود اليهودي في أوطانها[1] إلى توحيد جهودها للضغط على حكوماتها لكي تسعى لإيجاد الحل السريع المناسب للمشكلة اليهودية، وذلك بمد يد العون لداعيتهم المهووس هرتزل الذي كلف بزعامة التحركات اليهودية العلنية التي سندون تفاصيلها في الفصول القادمة.

---

(1) يبدو أن الفئات المناوئة لليهود كانت في أواخر القرن الماضي قد عجزت عن الحد من الآثام التي كان اليهود يرتكبونها في بلادها، ولذا اعتبرت المشكلة اليهودية مخرجاً ملائماً للتخلص من هذا الوباء، فانضمت إلى أنصار اليهود لعلها تتمكن من تحقيق هذه الغاية المستعصية.

التحركات اليهودية في الشرق

من المعروف أن الرسول الأعظم كان قد أوصى منذ فجر الإسلام بطرد اليهود من شبه الجزيرة العربية، ولقد فسر اليهود والضالعون معهم هذا الإجراء بأنه كان وليد التعصب الديني والقومي، ولقد أرادوا بهذه الفرية إيهام الناس بوجود عداوة متأصلة في نفوس المسلمين والعرب نحو كل من هو على غير دينهم، ولكن مسلك الفاتحين العرب المستمد من هذا الدين الذي أرادوا التشنيع به، رد كيدهم إلى نحرهم، عندما أظهر للعالم أجمع مدى ما كان لهذه العقيدة من مفاهيم نبيلة وسمحاء من خلال مواقف أصحابه المشرفة حيال أهل الذمة في كافة البلاد التي افتتحوها عبر تاريخهم المجيد.

وهنا لابد للقارئ أن يتساءل عن الأسباب التي حدت بسيد المرسلين للجنوح إلى هذا الإجراء المغاير لما عرف عن خلفائه في هذا الصدد، والجواب على هذا التساؤل يكمن في مسلك اليهود في الجزيرة العربية قبل الإسلام، إذ أن العالم أجمع يعرف أن تزمت اليهود الديني والعنصري هو الذي أفقد بلاد كنعان الأمن والاستقرار طيلة أجيال عديدة، وهو الذي أنزل الويلات العديدة بعرب الجنوب في عصر الدولة الحميرية، وهو الذي جر الاحتلال الحبشي أولاً، ثم الفارسي ثانياً على تلك البلاد حتى كان أن يقضي على استقلال الحجاز.

ناهيك عن المؤامرات والدسائس القذرة التي حاكوها على الرسول الأعظم رغم كل ما أظهره نحوهم في البداية من العطف والحب لعلهم يهتدون، ولكنهم أبوا إلا أن يناصبوه العداء فأيقن أن لا مجال للتعايش معهم، ومن ثم خشي على قومه من أن يدمروه في المستقبل من الداخل، فلم يسعه إلا أن يتخلص منهم بعد أن أعيته الحيل معهم، فكان الأمر الحاسم.

فلو أن العرب كانوا يحملون العداء لهم مثلما زعموا لكان المفروض بهم أن يطاردوهم حيثما وجدوهم، لا أن يتركوهم يعيشون في ظلهم بالرخاء والنعيم، ولما كانوا ساعدوهم في بعض البلاد التي افتتحوها لينالوا من حكامها الماضين منحاً سخية تعويضاً عن أضرار ماضية زعموا أنها لحقت بهم على أيدي هؤلاء الحكام، ومن هنا يتضح لكل ذي بصيرة مدى تجني اليهود على الرسول وأصحابه.

ومن خلال مواقفهم وتحركاتهم في العصور المتعاقبة نلمس مدى عمق الحكمة التي اعتمدها الرسول الكريم في اتخاذ ذاك الإجراء، إذ أننا نراهم فيها سادرين أبداً في غيهم،

يحيكون المؤامرات دون هوادة، ويستنبطون الدسائس للوقيعة بين المسلمين تارة، وأخرى بينهم وبين سكان البلاد التي خضعت لهم. أما أساليبهم فلم تختلف عن تلك التي اعتمدوها في مهاجرهم الأوربية، فهنا أيضاً كان لهم كرومويلهم بشخص ابن سبأ، وميرابوهم وسارتر بشخص محمد بن حذيفة ومحمد بن أبي بكر[1].

وهنا أيضاً اعتمدوا على الرشوة في شراء الضمائر لتضليل السوقة في كل من مصر والبصرة والكوفة، مثلما اعتمدوها فيما بعد في كل من بريطانيا وفرنسا، وهكذا تمكنوا ولو لمدة وجيزة من الإخلال بأمن الوطن العربي من داخله، ولكن شاء القدر أن يثوب العرب إلى رشدهم بسرعة، وأن يعودوا إلى إتمام الرسالة التي سخرتهم الأقدار لتحقيقها، فاضطر اليهود إلى الرضوخ للأمر الواقع، بانتظار الفرص المواتية لإعادة الكرة، ولقد وجدوا في الصراع بين الإسلام والمسيحية غايتهم المنشودة، فسارعوا إلى إيهام كل من الطرفين باستعدادهم -لخدمته بوفاء وإخلاص، في نضاله مع الطرف الآخر، بينما كانوا في الواقع يتوخون إذكاء نيران الحرب بينهما لعلهما ينهاران معاً، ويبدو أن خدعتهم هذه انطلت على المتخاصمين، وإلا لما رأيناهم عبر التاريخ يصولون ويجولون في كل من المعسكرين، ولقد تجلت خدعتهم إبان الصراع الإسباني العربي بأجلى مظاهرها، ويذكر التاريخ لنا تعاملهم في بداية الصراع مع الجبهتين المتخاصمتين، فلما استتب الأمر للعرب. انحازوا كلياً لجانبهم وصبوا جام حقدهم وغضبهم على الإسبان المقهورين، ولم يتورعوا عن ارتكاب أسفل أنواع الموبقات بحقهم، مثل المتاجرة بالأسرى منهم وبيعهم كالعبيد في مختلف البلاد الإفريقية، وتعذيب بعضهم حتى الموت، ومن ثم الدس على كرامهم لدى السلطات العربية للإيقاع بهم، بغية احتلال مراكزهم وابتياع ممتلكاتهم التي كان العرب يصادرونها عندما تثبت التهم اليهودية عليهم.

حتى غدوا في مدة قصيرة أثرى أهل إسبانيا، وهذا المسلك المشين هو الذي أدى فيما بعد إلى طردهم من إسبانيا في أعقاب جلاء العرب عنها على الرغم مما أظهروه من لؤم ونكران للجميل إزاءهم في محنتهم أملاً بإرضاء سادتهم الجدد، ولكن الحيلة لم تنطل على الإسبان هذه المرة فدفعوا بهم إلى محاكم التفتيش التي أوفتهم حقهم من الجزاء العادل.

---

(1) (المفسدون في الأرض) فصل التسلل اليهودي في الصفوف الإسلامية، وقد بات هذا الآن مرفوضاً علمياً، وهناك شبه إجماع على أن ابن سبأ شخصية مخترعة، وينبغي اتهام كل من محمد بن حذيفة ومحمد بن أبي بكر.

ومع هذا ظل العرب يعاملون اليهود على قدم المساواة مع الآخرين في كل مكان، ولم يجنحوا قط إلى التنكيل بهم أو معاملتهم بصورة مغايرة لمعاملة كافة المواطنين، ولذا برز منهم العديد في صفوف الحكام وأصحاب الحل والربط في أكثر العصور العربية.

ولكن اليهود دأبوا على تحين الفرص للنيل منهم كلما قيض لهم ذلك، فانتهزوا كل سانحة للكيد لهم، وانسجاماً مع هذا المبدأ أقدموا في عهد كافور الإخشيدي الذي اشتهر برعايته لأهل الذمة، على عدة جرائم سياسية واجتماعية، أخص بالذكر منها تلك التي ارتكبوها في مدينة القدس عام (836) وفي عهد واليها إسماعيل الصنهاجي الذي اختلف مع بطرك النصارى على بعض الشؤون الإدارية فاستفحل الأمر بينهما، فقرر الوالي استدعاء البطرك بغية التفاهم معه، فتسرب الخبر إلى مسامع اليهود فعمدوا إلى إيهام البطرك بأن الصنهاجي يروم البطش به بعيداً عن أنصاره، فجازت الحيلة على البطرك فاعتصم مع أنصاره في كنيسة القيامة وامتنع عن تلبية الطلب، فثارت ثائرة الوالي فأمر بأن يؤتى به عنوة، فكان من الطبيعي أن يصطدم رجاله بعصبة البطرك، فوقع قتال عنيف بينهما فانتهز اليهود الفرصة وانحازوا إلى جانب رجال الوالي، فاحتلوا معاً الكنيسة ومن ثم انفرد اليهود بمهمة إحراقها وذبح المعتصمين فيها، ومن ثم توجهوا إلى كنيسة صهيون ودمروها أيضاً وقتلوا رهبانها عن بكرة أبيهم[1].

ومن هناك انطلقوا كالوحوش الضارية إلى الأحياء المسيحية فأوقدوا النار فيها وقتلوا كثيراً من أهلها ونهبوا أموالهم واستباحوا أعراضهم. وكأنهم غزاة البربر الفاتحين، ولما خمدت نيران الفتنة سارعوا لملاقاة الوالي، وقدموا له المال الذي نهبوه من الأحياء النصرانية، وبذا حصلوا على رضاه، فكلفهم بمراقبة النصارى، وإعلامه بتحركاتهم، فانقضوا على هؤلاء التعساء يسومونهم سوء العذاب دون وازع أو رادع، حتى كادوا أن يفنوهم.

وكان زعماؤهم في مصر يعملون ليلاً ونهاراً للوقيعة بين الدولة الإخشيدية والطوائف المسيحية، بغية النيل من تلك الطوائف من جهة والتشنيع في العالم المسيحي بموقف الدولة الإخشيدية من النصارى من جهة ثانية.

وكان الذي يحيك أكثر هذه الدسائس القذرة هو يعقوب بن يوسف بن كلس وزير المال الإخشيدي الذي كانت له في البداية حظوة كبرى لدى صاحب الدولة، فلما انكشفت مؤامراته وتحيزه السافر لبني قومه اليهود طرد من منصبه، فعظم الأمر في نظره وتنكر لولي نعمته، فتمرد

---

(1) خطط الشام، فصل (الفاطميون للعلامة محمد كرد علي).

عليه وأعلن بكل وقاحة أنه سيقضي عليه وسيعود رغماً عنه لسدة الوزارة، ومن ثم راح يحرض المواطنين على الدولة بكل الوسائل التي كان يملكها، ولما يئس من بلوغ مراميه محلياً، فر إلى المغرب، والتجأ إلى الدولة الفاطمية الناشئة حيث تضافرت جهوده مع جهود أبناء قومه فيها للوقيعة بينها وبين الدولة الإخشيدية، وبفضل ما بذلوه من أموال طائلة تمكنوا من إيقاد نار الفتنة بين الدولتين العربيتين فوقعت الوقيعة بينهما فاحتل الفاطميون مصر عام 910.

ولقد كوفئ يعقوب من قبلهم بأن أسندوا إليه الوزارة مجدداً، وهكذا توصل هذا اليهودي الحقود بفضل ذكائه ليغرر بالعرب ويحقق أحلامه الشخصية.

ويبدو أن هذا النصر السهل الذي أحرزه يعقوب جسره أكثر من ذي قبل على الكيد للمسلمين، فعاد لسيرته الأولى في معاونه أبناء جلدته فانهال على مراكز النفوذ والسيطرة يملؤها باليهود ليكيدوا للدولة الفاطمية ما شاء لهم الكيد.

ولقد اشتهر من بين هؤلاء اليهود بصلفه وجبرته وعقوقه المدعو منسا متولي خزينة الدولة في دمشق، إذ كان لا يتورع عن فرض أقسى الضرائب غير المشروعة على المواطنين لإثارة حفيظتهم على الدولة ودفعهم إلى التآمر عليها، ولما حبطت مساعيه في هذا المضمار، بادر بنفسه إلى محاورة الدولة الحمدانية للإطاحة بالنفوذ الفاطمي في دمشق، فانكشف أمره واعتقله العزيز الفاطمي وأعدمه جزاءً لخيانته[1] فلما علم يعقوب بن يوسف بما حل بربيبه، سارع إلى التنصل منه بإعلان براءة اليهود منه، ومن ثم قدم للعزيز كل ما بوسعه من ترضيات مالية وعينية حتى تمكن من إعادة المياه إلى مجاريها.

أما الأغراض التي كان اليهود يرمون من مراء مؤامراتهم هذه، فلم تكن سوى الحيلولة دون قيام الوفاق والتآلف ما بين الدويلات العربية لكي لا تعود لفكرة الوحدة، وحتى يظل النيل منها وإضعافها أكثر سهولة عليهم عندما تسنح الظروف لهم بالانقضاض عليها.

ولقد برهنت الأحداث فيما بعد على تأصل هذه الفكرة العدائية الحاقدة في نفوس اليهود من خلال مسلكهم نحو العرب إبان الغزوات الصليبية، إذ يذكر التاريخ تطوعهم في خدمة الغزاة في كافة المجالات، مثل التجسس لحسابهم، أو إهدائهم إلى مداخل ومنافذ المدن المسلمة التي تعرضت لحصارهم، ومدهم بالمعلومات عن تحركات القوات العربية.

---

(1) مخطوطات الشام، فصل (الفاطميون) للعلامة الكبير محمد كرد علي.

ومن أشهر الخيانات التي أقدم اليهود عليها آنذاك تلك التي فتحوا فيها أبواب القدس في غفلة عن أهلها والتي أسفرت عن احتلال الغزاة لها وقتلهم سبعين ألفاً من أهلها.

ولكن هذه الخيانة لم تشفع لهم لدى الغزاة، الذين كانوا ما زالوا يذكرون ما ارتكبه هؤلاء المارقون بحق النصارى وكنائسهم في العصر الإخشيدي، ولذا بادروا إلى معاقبتهم حال استتباب الأمر لهم بأن أعدموهم ضمن معابدهم جزاءً وفاقاً[1].

ومع هذا ثابر اليهود على غيهم، وظلوا على ولائهم للصليبيين حتى النهاية، لعلهم يشهدون مصرع الطرفين المتقاتلين، وليت حقدهم وقف عند هذا الحد، بل تعداه إلى أن يمدوا أيديهم المجرمة إلى كل من أغار على هذه البلاد عبر التاريخ، ومنها تعاونهم الوثيق مع هولاكو عام 128 ومن بعده مع تيمورلنك عام 101.

ولقد تميز يهود الخزر إبان هذه الإغارات المغولية بالوحشية والقسوة في معاملة العرب، وخصوصاً عند احتلال بغداد التي يعزى إحراقها وإبادة مكتبتها التاريخية إلى أحدهم الذي تسميه المصادر التركية بجبار أوغلو اليهودي[2].

ومن أقذر الجرائم التي ارتكبها اليهود في هذه البلاد تلك التي وقعت عام 1250 في أعقاب هزيمة لويس التاسع في مصر، التي استخدمها اليهود في سورية ذريعة لمهاجمة قرى النصارى في البقاع ونهبها وقتل سكانها بحجة إقامتهم الحداد على أسر هذا القائد الصليبي.

ويبدو أن الحيلة انطلت آنذاك على السلطات فلم تجنح لمعاقبة المعتدين رغم بشاعة وزيف حجتهم[3].

ومما يحز في النفس هو هذا الكرم العربي الذي كان الشفيع الدائم لإنقاذ اليهود من مغبة جرائمهم بيسر وسهولة، وتشجيعهم على التمادي في شططهم، على الرغم مما كان يعرفه العرب من حقدهم ولؤمهم نحوهم. ففي كل مرة كانوا يخرجون من ورطتهم دون أن يصيبهم إلا القليل من الجزاء، باعتبار أنهم من أهل الذمة وقليلي العدد، وضعفاء الشكيمة، ولذا كان العرب يجنحون إلى أخذهم بالرأفة في كل مكان، الشيء الذي مكنهم من الإيغال في جرائمهم دون كبير عناء. ومن غير أن ينكشف طابعها الأصيل الرامي إلى تدمير كل كيان يستظلون في كنفه مهما أحسن إليهم طالما أنه غير يهودي.

---

(1) الحملات الصليبية، فصل (فتح القدس).

(2) التاريخ العثماني ـ فصل (المغول وبيازيد).

(3) خطط الشام، للعلامة محمد كرد علي.

هذا عدا ما كان اليهود يرتبكونه من جرائم فردية في مناسباتهم الدينية، وخصوصاً تلك التي أقدموا عليها في ظل الدولة العثمانية أيام سطوتها التي حالت دونهم والتحركات الجماعية، ولقد اشتهرت بعض تلك الجرائم في الأوساط العالمية لما كان لها من أصداء سيئة، مثل اغتيال الطفل هانري عبد النور في دمشق عام 1290، ومقتل الراهب توماس الذي وقع أيضاً في دمشق عام 1840، وذبح الطفل اليوناني المعروف بجريمة أزمير التي وقعت عام 1881، وعشرات الجرائم الأخرى التي ارتكبها اليهود في مختلف أمصار الإمبراطورية العثمانية والتي ما زالت بعد الانتصارات التي حققوها في أعقاب الثورة الفرنسية في أوروبا، والتي ملفاتها محفوظة في الدوائر القضائية التركية حتى اليوم[1].

أما الجرائم الجماعية التي أقدم اليهود عليها في البلاد الشرقية، بعد أن توحدت تحركاتهم في ظل الزعامة اليهودية التي انبثقت عن الانتصارات التي حققوها في أعقاب الثورة الفرنسية في أوروبا، والتي جرأتهم وأنصارهم الماسون وأعضاء المؤسسات الأخرى الضالعة معهم، فهي أكثر من أن تحصى، ومع هذا سنعمل فيما يلي على سرد بعضها على سبيل الذكرى لعلها تنفع.

في بداية القرن التاسع عشر كانت الدولة العثمانية ما زالت تعتمد في جباية أموال الخزينة على الأسلوب اللامركزي الذي كان بموجبه على الولاة أن يقدموا سنوياً مبلغاً معيناً من المال على مجموع الضرائب والمكوس المفروضة على ولاياتهم، التي كانت تعتمد على محاصيلها الزراعية في تأدية هذه الضرائب، ولذا كانت بعض الولايات تعجز أحياناً عن تسديد المبالغ المطلوبة منها لأسباب شتى كالجمود التجاري أو الجفاف وظروف قاهرة أخرى، وفي هذه الحالات كان الولاة يلجأون إلى الاستقراض من ذوي اليسار لتغطية فريضة الخزينة، بانتظار تحسن الأحوال لتسديد ما اقترضوه لهذه الغاية.

وفي هذا الصدد يحدثنا التاريخ العثماني عن عدد من الولاة اضطرتهم ظروف ولاياتهم للاستعانة بهذا الأسلوب، ومنهم والي دمشق درويش باشا، الذي ألجأه الجفاف عام 1816 إلى البحث عن مصدر يمكنه من دفع ما ترتب على ولايته من ضرائب للخزينة المركزية، فلما أعيته الحيل لم يعد له مناصاً من الاستعانة بمرابي اليهود، على الرغم مما عرف عنه من احتقارهم.

فلما بلغ الخبر مسامع اليهود طار صوابهم من الفرح، وشكروا العناية الإلهية التي أوقعت خصمهم في براثنهم، وقيضت لهم سبيل الكسب دون عناء. ولكن عندما استدعاهم الوالي أبدوا

---

(1) الجرائم اليهودية الدينية لجواد أتيلهان Ligneli Fiçi – C.R. Atlihan.

سيلاً من الأعذار والمصاعب فألح عليهم الوالي فأظهروا استعدادهم لتلبية رغبته ضمن شروط قاسية، كان أهمها قصر مدة السداد وارتفاع الفائدة، ولما كان الباشا حريصاً على إرضاء الباب العالي لم يسعه إلا الرضوخ دون قيد أو شرط.

ولما حان أجل سداد القرض، لم تكن أحوال الولاية الاقتصادية بأحسن من ذي قبل فطلب منهم الوالي التريث لوقت أكثر ملاءمة، فأبى اليهود تأجيل الموعد، وهددوا بإعلام السلطان بالأمر، فأسقط في يد الوالي فالتمس منهم أن يجدوا له مخرجاً من مأزقه.

وهنا تفتقت الحيلة في أذهان اليهود، فاقترحوا عليه إيفاد جنوده لغزو قرى الساحل الدرزية والمارونية التي اشتهرت بثرائها ووعدوه بابتياع ما سيسلبه منها بأسعار مناسبة لكي يسدد لهم ما بذمته، فلم يكن للوالي بد من الرضوخ للأمر الواقع، فانساق خلف خدعتهم اللئيمة، وأوفد رجاله فغزوا قرى لبنان وعكا، وعادوا منها بالشيء الوفير، ولما سأل الوالي اليهود أن يبتاعوا تلك المنهوبات بأسعار مناسبة تمنعوا عن ابتياعها بأثمانها الحقيقية بشتى الحجج، ليجبروه على التنازل عنها مقابل مالهم في ذمته علماً منهم أن أحداً من أهل البلاد لن يقدم على شرائها باعتبارها محرمة، وأمام هذه المعضلة الجديدة لم يكن للوالي مناص من دفعها إليهم مقابل ما لهم عليه، على الرغم من أنها كانت تساوي عشرات أضعافه.

ولكن القضية لم تنته عند هذا الحد، إذ أن كلاً من الأمير بشير الشهابي ووالي عكا استنكرا فعلة درويش باشا وطالباه برد منهوبات ولايتيهما، فتمنع درويش باشا عن إجابة طلبهما، فأغاروا على ولاية دمشق، فتصدى لهما درويش باشا في مشارف قرية المزة حيث دارت معركة رهيبة بين الطرفين ذهب ضحيتها ثلاثة آلاف مقاتل، بعد أن أحرقت القرية بمن فيها، ولم يتوقف الصراع، حتى أمر الباب العالي الولاة بالإقلاع عنه[1].

وعندما حققت السلطات العليا بمجمل القضية، افتضح أمر درويش باشا، فعوقب على غبائه بالطرد من الولاية، وهكذا تمكن اليهود منه باعتباره عدوهم اللدود، كما انتقموا بهذه المناسبة من مختلف طوائف البلاد بإفقارها وسوق أبنائها إلى تلك المجزرة الرهيبة التي سببوها، ومن ثم استعادوا أموالهم مع عشرات أضعافها، وهكذا خرجوا من هذه المحنة التي أنزلوها بالمنطقة بحصة الأسد دون أن يمسوا بأدنى سوء.

---

(1) خطط الشام للعلامة الكبير محمد كرد علي.

ومع كل هذا لم تتبلور أغراض التحرك اليهودي في الشرق إلا بعد أن انتظم في إطار التحركات الأوربية، ولم يتوسع نشاطه إلا في أعقاب وقوع النزاع المدمر بين الدولة العثمانية ومحمد علي الكبير، الذي أفسح المجال أمام الدول الأوربية الضالعة مع الرأسمالية اليهودية في التدخل بشؤون الإمبراطورية العثمانية، حال انسحاب إبراهيم باشا المصري عام 1840 من سورية، التي تركها وهي تتنازعها ميول مختلفة، وتسودها فوضى قاتلة في ظل حكم مهلهل قاب قوسين أو أدنى من الانهيار.

إذ أن الملفات الإدارية التركية تشير بوضوح إلى تزايد النشاط اليهودي آنذاك في كافة أنحاء الإمبراطورية بشكل ملفت للأنظار، ولكن ضعف جهاز الدولة وتفاقم الاضطراب والفوضى، حالا دون تقييد السلطات لهذه الانطلاقات اليهودية المدمرة في المنطقة، فراح اليهود يعملون دون هوادة لتدمير وحدة الطوائف في المنطقة عن طريق تلفيق الإشاعات الكاذبة، كأن يوهموا المسلمين أن الدولة العثمانية تخلت عن حمايتهم وباعتهم للدول الأوربية مقابل مبالغ طائلة لتسديد ديونها التي تكاثرت من جراء الحروب التي خاضتها في مختلف الجهات، بينما كانوا يتهمون المسلمين لدى الحكام بالتآمر مع الدول الأجنبية على الدولة العثمانية، ويزعمون لدى الموارنة أن الدولة العثمانية مزمعة على التنكيل بهم لانحيازهم في الماضي إلى جانب إبراهيم باشا المصري، كما كانوا يشيعون في الداخل أن المسلمين وطدوا العزم على ذبح النصارى للتخلص منهم، وسلب ممتلكاتهم.

وكانت السفارات والقنصليات الأجنبية تقوم بدورها تقوم بنشر دعايات مماثلة ولا تتورع عن تزكية الأكاذيب اليهودية وتضخيمها بالشكل المناسب لأغراض كل منها.

ولما كانت أهداف الدول الأجنبية في المنطقة تتعارض فيما بينها، كانت المؤسسات اليهودية في كل منها تتظاهر بمساندتها دون سواها، وتوهمها أن جميع اليهود يسيرون في ركابها، ولذا كانت كل واحدة منها تعتمد اعتماداً كلياً عليهم، وتبادر إلى معاونتهم عند وقوعهم في مأزق ما، وكان الفضل في ذلك يعود إلى الرجالات اليهودية التي تكاثر عددها آنذاك في مراكز السلطة في كل من تلك الدول. ومن العدل أن نعترف أن اليهود كانوا في كل منها يخلصون لها باعتبارهم شركاءها في المجالات التجارية والاقتصادية وبالتالي لكون البيوتات الرأسمالية في كل منها كانت شريكة البيوتات الرأسمالية في الأخرى، أي أن ربح أي من الأطراف كان ربحاً للأطراف الأخرى، ولذا كان اليهود في كل مكان يسعون لإنجاح أهداف الدول الاستعمارية باعتبارها أهدافاً مشتركة ومستمدة من المنهج اليهودي العام المتوافق

من حيث الأغراض الاقتصادية مع الـدول الطامعـة فـي المنطقـة رغـم الاختلافـات الخفيـة التـي كانت سائدة بينها.

أمـا أغراضـهـم السياسـية الواسـعة فكـانوا يخفونـها خلـف شـعارات ذكرياتـهـم التاريخيـة والدينية المتعلقة في المنطقة، ويوجزونها بأنها لا تتعـدى حـدود الحصـول علـى حـق الاستيطان أو الإقامة في بعض مناطق فلسطين وخاصة في مدينة القـدس، التـي يعتبرونـها كعبتـهم، دون المس بالأوضاع السياسية فيها[1].

ومن المؤسف حقاً هو أن هذه الشائعات المغرضة والأضاليل اليهودية المبطنـة لاقـت رواجـاً في كل مكـان. ففـي البـلاد الأوربيـة التي ذاقـت الأمريـن مـن جرائـم اليـهود أصبـح النـاس علـى مختلف فئاتهم يؤيدون حق اليهود بالاستيطان في فلسطين، فالحياديون والضـالعون معـهم كـانوا يرون في هذا الاستيطان نوعاً من الإنصاف لـهم، أمـا أعداؤهـم فكـانوا يـرون فيـهم مخرجـاً لبقـاً للتخلص منهم، وفـي الشـرق لـم يكـن النـاس يـرون فـي هـذه الشـعارات المبطنـة أي ضـرر لـهم، ويعتبرون حصولهم على حق الإقامة في القدس نوعاً من مظاهر الشـفقة والاحـترام لحقـوق أهـل الذمة المنبثقـة عـن تعـاليم الديـن الإسـلامي الحنيـف. أمـا مسـلكهم فـي ميـدان الدعايـات الكاذبـة والإشاعات المغرضة فكان مجهولاً لدى الأوربيـين، وجـل مـا كـانوا يسـمعون عنـه، هـو الجـانب المختص بالمظالم التي زعموا أن النصارى كانوا يتعرضون لها في العالم الإسلامي، والـذي لـم يكـن له أي رد فعل إيضاحي من قبل الدولة العثمانية، ولذا كان الناس يتقبلونه وكأنـه حقيقـة مسـلم بهـا، فيبادرون إلى الضغط على دولهم لتسارع إلى حماية أبناء دينهم المضطهدين في الشرق.

أمـا البـلاد العربيـة فلـم يكـن حـظ دعاياتـهم بـأقل مـن حظـها فـي أوروبـا، إذ أن الدولـة ومختلف الطوائف انساقت خلف تلك الأضاليل فاستنت الدول قوانين مراقبة جديدة على بعـض الطوائف المسيحية كما فرضت على بعضها نوعاً خاصاً من القيود، وبدأ الصراع الخفـي يـذر قرنـه بـين العـرب والأتـراك، وفقـد النـاس الثقـة بالدولـة وفـي بعضـهم بعضـاً، وظـهرت الانقسـامات الطائفية في كل مكان، وجنحت كل طائفة إلى البحث عن قوة من القوى المتصارعة لتسـتظل فـي حماها.

وكان من البديهي أن تستثمر الدول الأجنبية مواقف تلك الطوائف وترحـب باحتضـان أيـة واحدة منها لتكون لها بمثابة عون داخلي في تحقيق أحلامها، ولذا كانت السفارات الأوربية تعمل

---

(1) الدولة الخفية أو المجلس الفرانكفورتي ـ لجواد رفعت أتيلهان Gizli Devlet C.R. Atilhan .

جاهدة لإذكاء نيران التنازع والتفرقة، وتساندها بذلك المهاجر اليهودية، والفئات الدائرة في فلكها، ويبدو أن هذه المساعي أينعت بسرعة، بدليل أن الأحداث الطائفية انفجرت في المنطقة بصورة فجائية اعتباراً من عام 1840 أي في الوقت نفسه الذي تحالفت فيه الرأسمالية اليهودية مع الدول الاستعمارية لسلب خيرات البلاد الشرقية التي تركزت عليها أنظار أوروبا منذ ما شعرت دولها بضعف الإمبراطورية العثمانية.

ولقد اعتمدت كل دولة من هذه الدول على إحدى الطوائف في المنطقة لدفعها للقيام بأعمال الشغب لكي يتسنى لها التدخل في الشؤون الداخلية للإمبراطورية العثمانية وتقول الملفات التركية العائدة لسورية[1] إن الإنكليز كلفوا المهاجر اليهودية لتحقيق أغراضهم فيها، بينما السفارة الفرنسية أوكلت بذلك بعض عملائها من أبناء المنطقة، أما ألمانيا فكانت تعتمد على مؤسساتها الدينية في الإمبراطورية العثمانية للإيحاء إلى الجهات الضالعة معها بما يجب أن تنشره من الشائعات.

وهذا التشعب في مسلك تلك الدول فتح الباب على مصراعيه أمام اليهود من مواطنيها لارتياد المنطقة بجوازات سفر مزورة منحت لهم من قبل تلك الدول باعتبارهم من أتباعها، وهكذا تسلل الألوف منهم إلى البلاد المقدسة وتمركزوا فيها دون أن يعلنوا عن هوياتهم الدينية كي لا تنتبه الدولة إلى مقاصدهم الخفية وتحول دون دخولهم، ومن هنا تكاثر عددهم في المنطقة وبدأوا يعملون من وراء الستار لتدمير الوشائج الطبيعية التي كانت سائدة بين مختلف طوائف البلاد من جهة وبينها وبين الدولة من جهة أخرى، كما تمكنوا من التغرير في بعضها لتعمل بوحي منهم أو بالتي يمثلونها من تلك الدول الطامعة في المنطقة.

ومما يحز في النفس هو أن أضاليل هذه الفئة الضالة أثمرت بسرعة فائقة وإذ بفتنة هوجاء تجتاح لبنان الجنوبي فجأة دون سابق إنذار نحو عام 1841، وتتلخص بأن يهود المنطقة أوهموا الزعيم الدرزي شبلي عريان بأن الموارنة يتحفزون لقتله ونهب قرى عشيرته وطرده وإياهم من راشيا، وأقنعوه بضرورة المبادرة إلى كسر شوكتهم قبل استفحال أمرهم فاغتر بأقوالهم، واتفق معهم، ومن ثم قام في 30 تشرين الأول مع لفيف من رجاله ويهود المنطقة بمداهمة حاصبيا بغتة، وجرد أهلها من أسلحتهم ونهب أموالهم ومواشيهم، ورحلهم من منازلهم بعد أن قتل خيرة رجالهم، وسبى بعض نسائهم، وعلى الأثر رفع أهل جزين عريضة إلى كل من الأميرين ملحم

---

(1) كتاب أيها التركي اعرف عدوك - لجواد رفعت أتيلهان Turk Dusmaneni bil C.R. Atilhan.

وسلمان، وطلبوا منهما التدخل في الأمر قبل استفحاله[1] ولكن مساعي أهل جزين ذهبت أدراج الرياح بمجرد أن ذكروا تدخل اليهود في هذه المجزرة، إذ أن السيد وود (Wood) الذي كان يمثل بريطانيا في المنطقة سارع إلى رفع تقرير في اليوم النفسه إلى نجيب باشا والي دمشق آنذاك، واتهم فيه ممثلي الحكومة التركية بتحريض شبلي العريان على الموارنة، كما أنه رفع تقريراً مماثلاً إلى دولته وطلب منها التدخل لحماية الموارنة على حد زعمه من الفناء على أيدي الدروز، وكل هذا لكي يطمس معالم هذه الجريمة الوحشية التي نفذها يهود المنطقة الذين يتعاونون مع العقيد هيكنس لابتياع الأراضي والأطيان لليهود تحت أسماء إنكليزية مستعارة، بمساعدة بعض سكان المنطقة الذين غرر بهم بوسائل شتى.

ولقد كشفت التحقيقات التي أجرتها الدولة في هذا الصدد تفاصيل أدواره في كافة هذه الأمور، ولكن ضعف الدولة العثمانية حال دون معاقبته على هذا التدخل السافر في الشؤون الداخلية لولاية دمشق، فثابر على غيه بكل أمان واطمئنان[2].

ويا ليت الأمر انتهى عند هذا الحد بل تعداه إلى أن أصبح أمراً دولياً بكل معنى الكلمة، إذ أن الصحافة المهودة في أوربا سارعت إلى التهويل بعواقبه ونادت بضرورة حماية الموارنة مما يتعرضون له على يدي الدولة العثمانية، وهنا انبرى السيد كريميو النائب الفرنسي اليهودي (صاحب القرارات الشهيرة بمنح يهود الجزائر الجنسية الفرنسية) الذي كان آنئذ عائداً من جولة تفقدية لأبناء جلدته في فلسطين، والذي كان قد عرج في طريق عودته إلى لوندرا حيث اتفق مع زميله وابن جلدته الكونت موسى مونت فيوري وأعضاء المجلس اليهودي على توحيد الجهود للتدخل في شؤون سورية، فراح يحرض الصحافة الفرنسية مدة من الزمن حتى هيأ الأفكار العامة لتسانده في تحقيق مراميه الخفية، ومن ثم قام في 6 كانون الثاني عام 847 باعتلاء منصة الخطابة في المجلس الوطني الفرنسي وألقى خطابه الشهير الذي قال فيه: «أيها السادة إنه لمن عجب العجاب أن تتخذوا هذا الموقف المخزي من الجرائم القذرة التي يرتكبها المسلمون في سورية بحق الموارنة، إخوتكم في الدين، دون أن تحركوا ساكناً، وكأن الأمر لا يعنيكم، فهل غاب عنكم أنهم أحفاد من وقفوا في الماضي بجانب أجدادكم إبان الحروب الصليبية ليدافعوا عن

---

(1) المراسلات السياسية للمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان من سنة 1840 ـ 1910 تعريب السيدين فيليب وفريد الخازن.

(2) التاريخ العثماني (تقرير نجيب باشا والي دمشق عن أحداث حاصبيا) وتقرير السيد وود ممثل بريطانيا في الشرق إلى موسى مونت فيوري.

المقدسات المسيحية التي دنسها الكفرة. وهل نسيتم أنهم بقايا من استشهدوا في ساحات الشرف جنباً إلى جنب مع أبطال بلدكم في عهد القديس لويس، وفي عهد الإمبراطور نابليون بونابارت، وكل ذلك حباً بالسيد المسيح والشعب الفرنسي، أترضون أن ينكل بهم بتلك الصورة البشعة التي شاهدتها بأم عيني، دون أن تسارعوا لإنقاذهم، أهذا هو ما تسمونه بالوفاء وأخوة الدين، أبلغ الجبن بكم حد ترك حلفائكم يذبحون ذبح النعاج، لا لذنب جنوه اللهم إلا لوقوفهم في الماضي بجانبكم ولتعلقهم اليوم بكم؟..

أيها السادة: إن أقدس واجباتكم اليوم هو الإسراع لنجدتهم، وثقوا أن أوربا بكاملها وعلى رأسها بريطانيا ستقف إلى جانبكم. فبادروا أيها السادة إلى انتشالهم من محنتهم قبل أن يدركهم الفناء[1]».

وعلى الأثر هاج المجلس النيابي الفرنسي وطالب حكومته بالتدخل لحماية الأقليات عملاً بمعاهدة باريس التي عقدت بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية عام 1856 في أعقاب حرب القرم، والتي نصت على حق الدول الأوروبية في حماية الأقليات المسيحية في الإمبراطورية العثمانية في حالة تعرضها للاعتداء وعجز السلطات المحلية عن حمايتها.

ولكي تسوغ الدول الأوربية التدخل الذي أزمعت عليه، أوعزت إلىْ ممثليها في سورية أن يفهموا الجاليات اليهودية ضرورة القيام بنشاط تخريبي أوسع من السابق إن هي أرادت الحصول على حماية الدول الأوربية أسوة بالنصارى، كما قامت الزعامة اليهودية من جهتها بتحريض أبناء جلدتها لافتعال الشغب. ولقد كان اليهود في كل مكان عند حسن ظن الدول الأوربية بدليل أن كلاً من الثريين ستنبيك وديكسون اللذين اشتريا في العام الماضي أطياناً واسعة في يافا بصفتهما مسيحيين أولهما بروسي والثاني أميركي، أعلنا في إحدى منازعاتهما مع عمالهما العرب فجأة، بأنهما يهوديان، وليس كما يظنونهما من المسيحيين، وأنهما لن يخضعا لمطالبهم، وكل ذلك بغية إثارتهم، وإغاظة الدولة التي كانت تحرم التملك على المهاجرين اليهود الموجودين في فلسطين.

فلما استدعيا من قبل السلطات جاهرا بكونهما من اليهود، فاضطرت السلطات أمام الأمر الواقع على إخلاء سبيلهما، على أن يركنا إلى السكينة، ولكنهما أبيا إلا أن يعاودا التحدي

---

(1) من المراسلات السياسية للمفاوضات الدولية المتعلقة في سورية ولبنان بين عام 1840 ـ 1910 تعريب فيليب وفريد الخازن.

لشعور المواطنين بالنيل من معتقداتهم، وإزاء وقاحتهما وتحديهما لم يسع هؤلاء المواطنين إلا قتلهما بغية التخلص منهما نهائياً، وهنا أقامت الصحافة البريطانية الدنيا ولم تقعدها بغاية إثارة الرأي العام الإنكليزي الذي انساق خلفها وراح يصر على الدولة لتثأر لهذين اليهوديين، فقامت الدولة البريطانية بدورها بالضغط على الباب العالي وطالبته بإعدام القتلة حالاً، فلما ماطل العثمانيون في التنفيذ تدهورت العلاقات بينهما بصورة منذرة بالشر المستطير[1].

وفي الوقت نفسه تقريباً أي في شهر آذار عام 1860 قام يهود حلب ليلاً تحت ستار الظلام بتدمير قسم من أحد الجوامع، ومن ثم أشاعوا في الأوساط المسلمة بأن النصارى هم الذين أقدموا على تدمير الجامع مما أدى إلى تدهور الصداقة بين المسلمين والنصارى حتى كادت الكارثة أن تقع لولا أن حالت الدولة دون تصادم الطرفين، ولم تنكشف الخدعة اليهودية إلا بعد أن وضعت السلطات التركية يدها على نسخة من الكتاب ذو الرقم 121 والمؤرخ في 28 نيسان 1860 الموجه من قبل السيد سكين (القنصل البريطاني العام في حلب) إلى السيد يوليفير الذي كان آنذاك سفيراً لبريطانيا لدى البلاط العثماني يخبره فيه عن تفاصيل هذا الحادث ودور اليهود فيه[2].

(ومع كل هذا ظلت كل من بريطانيا وفرنسا على إصرارهما في اتهام الدولة العثمانية بالتقاعس عن حماية الأقليات، والتشجيع على التحرش بها، وإنكار علاقة اليهود وممثليهما بهذه المؤامرة، ليضماها إلى باقة الحجج التي سيتذرعان بها لتسويغ ما كانا يبيتانه لها، وبغية قطع الطريق على السلطات التركية، والحيلولة دون إعلانها عن اكتشافها الجوانب الخفية لحادث حلب ومن ثم إشغالها وإنهاكها، أوعزتا إلى يهود دمشق بافتعال حادث جديد فيها، فقام حاخامهم الأكبر حاييم رومانو في 9 تموز 1861 بإصدار منشور مزور ومغفل عن التوقيع، جاء فيه أن أئمة المسلمين وكبار رجالات الدولة في الأستانة قرروا خلع السلطان عبد المجيد (1839 ـ 1861) نظراً لزندقته وانحيازه إلى الدول الأوربية ومناصرته للمسيحيين ومنحهم امتيازات خاصة وإعفائهم من الجزية، ولكي يتمكن هؤلاء الزعماء الأبرار من تحقيق هذه الغاية شرعوا يطالبون الأمة بدورها أن تساندهم، وتبادر إلى إفناء النصارى الذين تحلل الفتاوى الشرعية دماءهم بعد أن أعفوا من دفع الجزية، ولتسويغ هذا التحريض الإجرامي وإيهام الناس بشرعيته، استشهد المنشور بفتاوى بخارية ونقشبندية مزعومة، ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يسمع بها قط إنسان.

---

(1) الخطر المحيق بالإسلام ـ لجواد أتيلهان Islami Saran Tehliké C.R. Atilhan.

(2) الملفات العثمانية ـ ومن المراسلات السياسية عن سورية ولبنان للفترة الواقعة ما بين 1840 ـ 1910 تعريب فيليب وفريد الخازن.

ومن ثم كلف الحاخام كلاً من داود حربي، ويعقوب حليفي، ويعقوب برنس، وهارون يعقوب وآخرين من أتباعه بتوزيع هذا المنشور سراً في المدينة، وفي اليوم الثاني انتشرت أخبار محتوياته في كافة الأحياء، فأخذ بعض الصبية الصغار بجديته، فخرجوا إلى الشوارع يرسمون الصلبان عليها، إيغاظاً للمسيحيين، مما حدا بهؤلاء إلى رفع الأمر للسلطات، التي بادرت إلى اعتقال هؤلاء الصبية، وإزالة معالم الرسوم، حرصاً منها على مشاعر النصارى، فاستغل اليهود هذه البادرة الطيبة، لإثارة الرعاع من المسلمين، وفسروها لهم بأنها إهانة لهم وانتصار للنصارى، فهاج الرعاع بقيادة بعض من عرفوا بسوء سلوكهم وتعاملهم مع اليهود، وهاجموا مراكز الشرطة، وأطلقوا سراح الأطفال المعتقلين، ومنها توجهوا إلى الأحياء المسيحية وأعملوا القتل بأهلها، والنهب والسلب بمحتوياتها طيلة عدة أيام، دأب فيها اليهود أمثال مناحيم فارصي، وروفائيل حليفي وإسحاق ميمون على تحريض الناس في المثابرة على إيذاء النصارى، مما أرغم السلطات العليا على التدخل بعنف وقسوة، فأرسلت فؤاد باشا لقمع الاضطراب وإجراء التحقيق لمعاقبة المسببين والفاعلين، ولقد تمكن فؤاد باشا من إعادة المياه إلى مجاريها، وكشف النقاب عن دور اليهود في المؤامرة القذرة، ولما أراد اعتقال الحاخام الأكبر وأنصاره، بادر اليهود إلى تكذيب ما عزى إليهم، ومن ثم رفع الحاخام والوجهاء اليهود احتجاجاً إلى السلطان واتهموا الحاكم الجديد بالتحيز والمغالطة، كما أرسلوا في 23 أيلول 1860 كتاباً مماثلاً إلى السير موسى مونت فيوري الزعيم اليهودي البريطاني حملوا فيه على السلطات التركية وعلى النصارى واتهموهم بالتجني عليهم، وطلبوا منه الإيعاز إلى ممثلي بريطانيا وقادة أساطيلها للتدخل لدى السلطات العثمانية لصالحهم، فسارعت الدولة البريطانية بالتدخل لمصلحة اليهود وطلبت من الباب العالي إخلاء سبيل من اعتقل منهم، ورد الاتهامات الموجهة إليهم، وعدم سماع شهود العيان بحقهم، بمزاعم كان سياسيو أوروبا آنذاك يخفونها بمهارة فائقة خلف قضية الأقليات المسيحيين والمسلمين، ومن جهة ثانية حالت بريطانيا دون تدخل اللجنة الخماسية بهذا الموضوع، ليقينها بقدرة أعضاء هذه اللجنة على كشف الحقيقة وإدانة اليهود، وبذلك حصرت الأمر في الدولة العثمانية، وكلفت الكونت روسل (Russell John) بأن يعالج الموضوع معها، فأرسل هذا الأخير كتاب الحاخام الموجه إلى مونت فيوري إلى السيد برانت قنصل بريطانيا في دمشق في 25/ 10/ 1860 مع إيعاز بضرورة تداول القضية مع فؤاد باشا بالذات، وطبعاً بعد أن حصل من السلطان على موافقة مناسبة لطي معالم الجريمة اليهودية، وإلقاء تبعتها على منفذيها من المسلمين فقط، وأمام الأمر الواقع، اضطر فؤاد باشا إلى إخلاء سبيل اليهود بزعم عدم المسؤولية، على

الرغم من أن مئات الشهود من المسيحيين كانوا قد أكدوا للمحققين اشتراك اليهود الفعلي في كل ما جرى إبان الحوادث، كما اعترف المنفذون بأن اليهود هم الذين وزعوا عليهم نسخ المنشور وهم الذين حرضوهم على النصارى وأنهم اشتركوا فعلياً معهم في القتل والسلب والنهب.
ولكن فؤاد باشا أصم أذنيه عن سماع كل هذه الأمور وجنح إلى فرض غرامات كبيرة على الدمشقيين ليدفعها إلى النصارى تعويضاً عما أصابهم على أيدي اليهود، إرضاءً للدول الأجنبية التي كانت تضغط على الدولة العثمانية من كل الجهات ولما كانت هذه الغرامات تفوق قدرة الدمشقيين المالية بعشر أضعافها، أعلنوا عجزهم عن تحقيق رغبة الوالي، فعمد إلى اعتقال المئات منهم، فحار الدمشقيون في الأمر، ولم يجدوا مناصاً من الاستنجاد بأثرياء اليهود ليقترضوا منهم المال اللازم، لعلهم ينقذون أخوانهم من الاعتقال، لكن اليهود الذين غرروا بهم في الأمس القريب، وأوقعوهم في هذا الشرك الذي أعدوه لهم، تخلوا عنهم بعد أن تنصلوا من مغبة جرائمهم، وأبوا أن يقرضوهم أي فلس، إلا بموافقة الوالي، وكفالة الدولة[1] ولما كان كل من الوالي والدولة يحرصان على تسوية القضية، أبديا استعدادهما لقبول الشروط اليهودية.

عندها فقط قبل اليهود أن يسددوا الغرامة المفروضة على الدمشقيين، ومن ثم راحوا يجبونها منهم مع فوائدها الكبيرة عن طريق الدولة العثمانية، دون رحمة أو شفقة.

ومن المؤسف أن حوادث مماثلة أخرى وقعت آنذاك في كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية المستضعفة، فاستشرى داء الطائفية في كل مكان، وكثرت الشكايات الملفقة من عجز الدولة العثمانية عن حماية الأقليات التي كانت الصحافة الأوربية الممولة من قبل اليهود والخاضعة لتأثير زعمائهم أمثال كريميو ومونت فيوري وروتشيلد (أقطاب العنصرية اليهودية وشركاء الدول الاستعمارية في استثمار الشعوب المستضعفة) اتخذتها ذريعة لتحريض الدول الأوربية على التدخل في شؤون البلاد السورية.

فاستغلت الدول الأوربية الطامعة والضالعة مع الرأسمالية اليهودية هذا الإجماع السياسي على تدهور الأوضاع في شرق البحر الأبيض المتوسط، فقررت عام 1860 التدخل في سورية لتحقيق مآربها ومآرب اليهود فيها تحت ستار حماية الأقليات المسيحية، وهكذا أنزل الجيش الفرنسي في لبنان، وزحف حتى جبل العرب ولم ينسحب من سورية إلا بعد أن أوجد له فيها قواعد عديدة للتآمر والتجسس وبعد أن مهد الطريق أمام شذاذ الآفاق من اليهود التابعين لجمعية

---

(1) من المراسلات السياسية للمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان من سنة 1840 ـ 1910 تعريب فيليب وفريد الخازن.

المستعمرات اليهودية لدخول سورية وفلسطين بواسطة جوازات سفر مزورة باعتبارهم من أبناء تلك الدول المسيحيين، مما أدى فيما بعد إلى تكاثر عدد اليهود في المنطقة، وتمكينهم من العمل لتخريبها وسلطاتها من الداخل دون رقيب أو حسيب.

ومما سردناه يتضح أن التحرك اليهودي في الإمبراطورية العثمانية لم يكن وليد الصدف بل كان مبيتاً وموقوتاً بالاتفاق مع الزعامة اليهودية التي تمكنت بفضل الكتاب الضالعين معها من إيهام البريطانيين والفرنسيين بضرورة السيطرة على المنطقة، لا لحماية أقلياتها واستثمار خيراتها فحسب بل لضمان طرق المواصلات بين أوربا ومستعمراتها في الهند والصين التي نفذ لأجلها مشروع قناة السويس الذي ساهمت الرأسمالية اليهودية بقسط وافر في تمويله، والذي كانت حمايته والسيطرة عليه من أهم العوامل المؤدية لهذا التدخل، إذ كان آنذاك قيد التنفيذ، ويخشى عليه في المستقبل من أن يصبح ورقة رابحة في يدي السلطات العثمانية، للحد من تدخل الدول الأوروبية في شؤونها فيما إذا ظلت هذه السلطات حرة التصرف في مقدراته، (مع العلم أن قناة السويس دشنت عام 1869).

وهذه الأسباب هي التي شجعت الدول الأوروبية لمد أصابعها إلى بلاد شرق بحر الأبيض المتوسط، دون أن تخشى معارضة الرأي العام في بلادها، لأنها كانت حاوية على جميع المسوغات المقنعة لمختلف الفئات الأوربية، ولهذا ظل الرأي العام الأوربي ينظر إلى الأغراض اليهودية في كل هذه القضية وكأنها أغراض ثانوية، لا تعدو حدود النوازع الدينية، لأنه كان يجهل تفاصيل الجوانب الخفية للغايات اليهودية التي كان سياسيو أوروبا آنذاك يخفونها بمهارة فائقة خلف قضية الأقليات المسيحية والمصالح القومية، ولكن أحداث الإمبراطورية العثمانية التي أعقبت دخول الجيش الفرنسي إلى سورية، كشفت الستار عن خفايا الأمور السابقة بصورة جلية، وأبرزت للعالم أن قضية الأقليات المسيحية التي تسترت خلفها الدول الأوروبية لم تكن إلا سراباً يهودياً للتغرير بالشعوب الأوروبية، والأقليات المسيحية، ومخلب قط لتنفيذ أغراض الرأسمالية اليهودية في الإمبراطورية العثمانية.

وبغية وضع القارئ في الصورة الحقيقية نعمد فيما يلي لشرح الملابسات الكائنة في هذا التحرك اليهودي لنظهر له مدى خبث اليهود في مجابهة التقلبات السياسية وقدرتهم الفذة في التكيف مع مساربها، وسرعة بداهتهم في التحول مع ظروفها.

أول المسامير اليهودية في نعش الإمبراطورية العثمانية

إن أبرز جريمة ارتكبت من قبل سلاطين بني عثمان بحق إمبراطوريتهم وشعوبها، هي السماح لليهود الذين طردوا من إسبانيا بالاستيطان في تركيا.

هذه الجريمة التي أقدم عليها السلطان محمد الرابع (1642 ـ 1692) في القرن السابع عشر[1]، بزعم خدمة الإنسانية وتنفيذ تعاليم الشريعة السمحاء بخصوص أهل الذمة، إذ أن هذه الزمرة الحاقدة التي امتنعت الدول الأوربية عن قبولها في بلادها، سارعت بمجرد تمركزها في السلطنة العثمانية إلى الكيد لها ضاربة بكرمها الإنساني عرض الحائط، لأنها في الأصل لم تكن لتبغي من تمركزها في هذه البلاد إلا تدميرها من الداخل باعتبارها بغيتها الأولى في المرامي البعيدة لأبناء جلدتها في أوربا الذين تعمدوا دفع الدول الأوربية إلى رفض استيطان أفرادها في بلادها، وركزوا جهودهم وجهود الضالعين معهم من حكام أوربا والفئات السياسية لإقناع السلطان لقبولهم في بلاده وكل ذلك بغية إقامة مراكز تجمع وانطلاق لأنصارهم في قلب البلاد الإسلامية ليسهل عليهم النيل منها عندما تحين الفرص باعتبارها المجال الاقتصادي المناسب لاستثمار أموالهم ومحط أطماع الدول الأوربية الضالعة معهم، وبالتالي لكونها العقبة الكأداء في طريق أهدافهم الدينية والتاريخية، وهذه الأسباب هي التي كانت كامنة خلف السعي الحثيث ليهود العالم لإسكان يهود إسبانيا في تركيا.

فلما تحقق لهم ما أرادوه على يدي السلطان الغبي، بادروا حالاً إلى تحقيق خطوتهم الأولى المعتادة، وهي تحقيق سيطرتهم المالية حيثما تمركزوا، ولكن هذه الخطوة في تركيا لم تكن سهلة المنال قطعاً، إذ كان فيها آنئذ جالية أخرى لا تقل براعة عنهم في الميادين الاقتصادية والتجارية، وهي الجالية الأرمنية التي كان أفرادها يسيطرون على الاقتصاد التركي بصورة تامة، كما كان للكثير منهم حظوة لدى السلاطين من جراء الخدمات التي كانوا يقدمونها لهم ولبلادهم، ولذا لم تكن زحزحتهم من مراكزهم من الأمور الميسورة، فاحتار اليهود في أمرهم ولم يجدوا مخرجاً لورطتهم سوى تحين الفرص، وبانتظار ذلك عمدوا إلى الدس والوقيعة بين

---

(1) بدأ اليهود السفرديم يهاجرون إلى الدولة العثمانية بتشجيع من السلاطين قبل فتح القسطنطينية.

الأتراك والأرمن لعلهم ينسفون روابط الصداقة التي كانت سائدة بينهما، ولكي يسهل عليهم ذلك طرقوا باب الانتظام في صفوف الزندقة السرية، فأوعزت إليهم زعامتهم الدينية بضرورة تظاهر بعض أذكيائهم باعتناق الإسلام على الأسلوب نفسه الذي اتبعوه في إسبانيا[1]، فبادرت جيروسات جالياتهم في كل الإمبراطورية العثمانية إلى اختيار من توسمت فيهم الذكاء والفطنة من شبابهم، وأمرتهم بإشهار إسلامهم بغية تسهيل تسللهم إلى صفوف الطبقة النيرة من المجتمع العثماني، وهكذا وجد في الطليعة التركية فئة من اليهود المتسترين بالإسلام عرفوا فيما بعد بالدونما أي (المرتدين).

ومن المؤسف أن أفراد هذه الفئة لاقوا من المجتمع التركي والإسلامي في بداية الأمر كل عون وتقدير إكراماً لاعتناقهم الدين الحنيف هذا عدا العون اللامحدود الذي كانوا يلقونه سراً من أبناء جلدتهم في العالم الإسلامي والبلاد الأوربية، مما جعلهم محط أنظار الناس لما كانت لهم من قدرة في حل المستعصي من الأمور العامة والخاصة فبدأت السلطات العليا تعتمدهم في معالجة أمورها الخارجية، التي برهنوا عن مقدرتهم الفائقة في تسويتها بفضل ما كانوا يلقونه من عون ومؤازرة من المؤسسات اليهودية في الخارج، التي كانت حريصة على إبرازهم في تركيا مهما كلفها الأمر.

وبفضل هذا الأسلوب الشيطاني ظهر منهم في تركيا عدة رجالات سياسية وعسكرية فاقت شهرتها كل حد وتقدير، أمثال المشير مدحت، وعلي باشا الدونما، والأستاذ جاويد، والأستاذ سالم، وقره صو ومئات سواهم، فلما أيقنت الزعامة اليهودية بقدرة يهود تركيا في العمل، بعثت إليهم بما يخصهم من مقررات مؤتمرها الذي عقدته عام 1845 في مدينة كوتوفيج البولونية (Katowice) الذي يعد بحق بداية التحرك الصهيوني، وطلبت منهم تنفيذه في الإمبراطورية التركية وكانت مسألة إثارة النعرات الطائفية في مقدمة تلك المقررات بغية تهديم الوحدة الوطنية، وخاصة تدمير الصلات التركية الأرمنية لكي يسهل على اليهود الحلول مكان الأرمن في السيطرة الاقتصادية التي كانوا يرجون من تحقيقها إخضاع السلطات العثمانية ذات الحاجة الدائمة إلى المال لإرادتهم في الحصول على ما يبتغون.

ولقد كان يهود تركيا وعلى وجه التخصيص يهود سلانيك عند حسن ظن زعامتهم، إذ تمكنوا في غضون وقت قصير نسبياً من تدمير العلاقات بين السلطات التركية والأقليات المسيحية في كل مكان وفي مقدمتها العلاقات التركية الأرمنية.

---

(1) (المفسدون في الأرض) فصل الجرائم اليهودية في إسبانيا.

ولقد اعتمد اليهود والماسون لتجسيد الوقيعة على الدس المتواصل لدى السلطات التركية على الأرمن وإظهارهم بمظهر المتآمرين على سلامة الدولة مع الدول الغربية، بينما أوحوا إلى الأرمن بأن السلطات التركية مزمعة على الفتك بهم في أول فرصة، وشجعوهم على الاتصال بالدول الأوربية لضمان حمايتها، كما سهلوا لهم الاتصال معها، ولما كانوا بالوقت ذاته يعلمون السلطات التركية بتحركات الأرمن هذه، تفاقمت الأحوال في الأناضول فوقعت عدة حوادث مؤسفة استغلتها الصحافة الأوربية المهودة للتشنيع بالدولة العثمانية وتحريض الأقليات عليها، فبدأت شقة الخلاف تتوسع بين الأتراك والأرمن يوماً بعد يوم، مما أدى إلى تدخل الدول الأجنبية[1] في شؤون تركيا أكثر فأكثر، وشاءت الأقدار أن يعتلي العرش العثماني عام 1861 السلطان عبد العزيز الذي اشتهر بفطنته وذكائه، وحبه للعدل والسلام، وتعلقه العميق بقومه ووطنه، فهاله ما وصلت إليه أمور بلاده، فسارع إلى إيجاد حلول مناسبة لإعادة المياه إلى مجاريها، فسن تشريعاً جديداً حفظ بموجبه حقوق الأقليات، ومنع اتصال الأمراء العثمانيين بالدول الأجنبية، وأعاد إلى الأرمن ما كانت لهم من حقوق، وشجعهم على المثابرة في العمل مثل الماضي، وحد من نفوذ الحكام المتسلطين أمثال الأمير مراد الذي كان يدور في فلك الماسون والمشير مدحت باشا الدونما الهنغاري الأصل الذي كان يتزعم التحركات اليهودية في الإمبراطورية العثمانية، والذي منح كاموندو (Camondo) وساسون (Sasson) وسيمون دوتش (Simon Deutch) رخصة فتح المدارس اليهودية، وإقامة المحافل الماسونية في تركيا.

فخشي اليهود مغبة مسلك السلطان التحرري، وعقدوا العزم على الإطاحة به، فاتصلوا بالسفارات الأجنبية ليضمنوا مساعدتها ومن ثم أوعزوا إلى المشير اليهودي مدحت باشا بالقيام بانقلابه الشهير بانقلاب 30 أيار لعام 1876، الذي أسفر عن تولي الأمير مراد عرش البلاد على الرغم من إرادته وتحت ضغط حسين عوني باشا الماسوني وزملائه من قادة الانقلاب، وذلك بعد أن اغتالوا السلطان عبد العزيز الذي سقط قتيلاً تحت طعنات خناجر المارقين بعد أن دافع عن نفسه أروع دفاع.

وهكذا قضى مدحت وزمرته الخائنة على هذا السلطان ذي الميول الإنسانية النبيلة، ليفسحا المجال أمام اليهود والضالعين معهم لتدمير الإمبراطورية عن طريق دفع أجهزة الدولة إلى الإساءة للطوائف المسيحية وتحريضها بدورها على التمرد والعصيان، ومد العصاة منها بالمال والعون بواسطة الدول الطامعة في الإمبراطورية العثمانية، والتي كانت الرأسمالية اليهودية شريكتها في كل مشاريعها الاستعمارية الاستثمارية، فكان من الطبيعي أن ينشط بعض رجال الدولة الضالعين مع اليهود، والذين كانوا يلقون الدعم والتشجيع من رئيس الوزارة مدحت

(1) أيها التركي اعرف عدوك لجواد أتيلهان Turk Dusmaneni Tani C.R. Atilhan.

اليهودي وأن يغالوا في الإساءة للنصارى في كل مكان، فاندلعت الثورات في كل من البوسنة والهيرسك، وبلغاريا، والصرب، ومنتونيكرو، لا بل حتى في بعض الولايات المأهولة بالأرمن، كما بدأت روسيا التي كانت تطمع في البوسفور في التحرك لتحقيق حلمها القديم، فاندلعت نيران الحرب بين الدولتين في خضم هذه الأحوال المتردية في تركيا التي أرغمت فيما بعد على قبول المطالب الروسية في البلقان وعقدت معها عام 1878 معاهدة سانستيفانو لعجزها عن مجابهتها بمفردها، وهكذا خلا الجو لليهود للحلول مكان الأرمن الذين كانت الدولة تجافيهم في كافة المجالات، فالتجأ بعض الأرمن للدولة الروسية، لتتوسط لهم لدى الباب العالي لرفع الحيف عنهم، فاستجابت الدولة للطلب الروسي، وأوعزت بالحد من غلواء الدونما مجدداً، فطار صواب اليهود من مغبة هذا الانقلاب المفاجئ على أوضاعهم في تركيا، وخشوا ألا يقف النصر الروسي عند حد ازدياد نفوذ القيصرية في الإمبراطورية العثمانية بل يتعداه إلى تثبيت أقدام القيصرية في روسيا نفسها، التي كانت الزعامة اليهودية تعمل منذ أمد بعيد للقضاء على القيصرية فيها، وأن يؤدي كل هذا في النهاية إلى تبخر الأحلام اليهودية في الإمبراطورية العثمانية برمتها.

ولتفادي هذه المخاطر سارعت المحافل اليهودية في أوربا إلى العمل تحت زعامة البارون هيرش (Hirsch) الثري اليهودي الألماني الذي كان قد منح من قبل مدحت باشا الدونما وزمرته امتياز إنشاء وإدارة واستثمار الخطوط الحديدية العثمانية، فأوعزت إلى الصحافة الغربية المهودة بأن تندد بمعاهدة سانستيفانو (San-Stefano) وتهول بما سينتج عنها من أخطار على المصالح الغربية في شرق بحر الأبيض المتوسط إن تمكنت القيصرية من السيطرة على تلك البلاد، فانبرت الصحافة تعزف هذه الألحان المفزعة دون هوادة حتى خيل للشعوب الغربية أن نهاية العالم ستكون وشيكة الوقوع إن لم يحل دون تنفيذ بنود معاهدة سانستيفانو المعقودة بين روسيا القيصرية المنتصرة والدولة العثمانية المغلوبة على أمرها، فلم تر هذه الشعوب المغررة بداً من الضغط على حكوماتها للتدخل دون تنفيذ هذه المعاهدة.

ويبدو أن الدول الغربية ذاتها كانت ميالة لهذا التدخل، ولذا سارعت بريطانيا إلى إقناع الدولة العثمانية بالتخلي عن معاهدتها مع روسيا ومتابعة القتال، وعلى الأثر انفجرت الحرب مجدداً وتابع الجيش الروسي زحفه نحو القسطنطينية، وكاد أن يدخلها ظافراً، لولا أن اجتاحت الأساطيل البريطانية البحر الأسود وضيقت الخناق على الروس فاضطرتهم إلى الانسحاب من الأراضي التي احتلوها، وهكذا نسفت معاهدة سانستيفانو نهائياً، وعاد نفوذ الدونما في تركيا إلى سالف عهده وعادت معه معزوفة حماية الأقليات المسيحية إلى المسرح السياسي مجدداً بعد أن وقعت الدول العثمانية مرة أخرى تحت رحمة الدول الغربية المتآمرة عليها مع الرأسمالية اليهودية

التي كانت تعمل دون هوادة لأطماع تلك الدول في خيرات تركيا، وتستنبط لها المزاعم والحجج بفضل تحكمها في الصحافة الغربية، لتفسح لها المجال للتدخل في الشؤون الداخلية للإمبراطورية العثمانية، لكي تستفيد هي بدورها من مشاركتها المادية لها في استثماراتها الاستعمارية، وبالتالي لتستفيد من نفوذها لتحقيق أحلامها البعيدة المدى في المنطقة، بعد أن تمكنها بفضل حججها المستنبطة مثل حجة حماية الأقليات من وجود نفوذها فيها[1].

ولقد انكشفت هذه الألاعيب اليهودية بأجلى مظاهرها إبان مؤتمر برلين الذي عقد في 13 حزيران عام 1878 في أعقاب إلغاء معاهدة سانستيفانو، والذي قيل أن الغرض من انعقاده كان يهدف إلى إعادة النظر بنتائج المعاهدة الملغاة، ووضع الأسس الكفيلة لحماية الأقليات المسيحية في الإمبراطورية العثمانية، ولكن نتائج المؤتمر جاءت مغايرة كلياً لما كان العالم ينتظره، وخاصة ممثلو الأقليات أمثال البطرك كريميان (MGR-Khrimian) زعيم الطائفة الأرمنية وسواه من زعماء المسيحية الذين تقاطروا على برلين لعرض وجهات نظرهم المتعلقة بطوائفهم، إذ أن المؤتمرين رفضوا كافة مقترحاتهم، وضربوا بمصالح الأرمن عرض الحائط ولم يولوهم أي اهتمام، وتركوهم عرضة لحملات التغرض اليهودي التي اشتكى ممثلهم من ضراوتها بعد أن شرح ما يلاقيه أتباعه من التعنت على أيدي الدونما في تركيا، وكان اتهام اليهود وحده كافياً لرد دعواه من قبل المؤتمرين ومن ثم إهمال مجمل قضيته، والسبب الأساسي لهذا الموقف العدائي نحو الأرمن، كان ناتجاً عن تكوين أعضاء هذا المؤتمر الذي ترأسه ممثل ألمانيا وزعيمها الشهير بسمارك، الذي سقط في نهاية أيامه فريسة لنفوذ الرأسمال اليهودي الفرانكفورتي بعد أن عرف طويلاً بعدائه لليهود، ومثل فيه بريطانيا رئيس وزرائها آنذاك اليهودي ديزرائيلي الملقب باللورد باكونسفيلد (Disraeli Lord Beaconsfild) وهو ابن إسحاق ديزرائيلي الكاتب اليهودي الشهير بتطرفه العنصري والذي نشر مذكرات اليهودي مليخور دي سالم سفير فرنسا لدى شارلس ستيورات الأول والمتعلقة بملابسات وخفايا ثورة كرومويل، أما ممثل فرنسا فادينكتون (Waddineton) فكان هو الآخر يهودياً، كما مثل النمسا الكونت أندراسي (Lecomte Andrassy) الذي كان أيضاً يهودي الأصل، وحتى ممثل الدولة العثمانية محمد علي باشا نفسه كان يهودياً بدليل شهرته بمحمد علي الدونما، وكان ممثل إيطاليا الكونت كورتي (Lecomte Corti) وحده البعيد عن اليهودية أو تأثيرها بين أعضاء هذا المؤتمر، ولذا كان من الطبيعي ألا يكون له تأثير ملموس في قرارات المؤتمر والتي أسفرت عن استبعاد القضية الأرمنية عن ميدان البحث، وترك أصحابها فريسة بين براثن الأتراك الذين حقدوا عليهم من جراء مسلكهم الذي عدوه مروقاً

---

(1) بيير هيبس (الجمهورية العالمية) La Republique Universelle – Pierre Hrpéss.

ونكراناً للوطن التركي، مع أن سفراء الدول المؤتمرة هم الذين شجعوا الأرمن على سلوك هذا الطريق بوحي من المحافل اليهودية والبارون هيرش لا بل حتى الجنرال كوهلمان (Kohlman) اليهودي المجري الذي أتى به هيرش إلى تركيا ليقود جيوشها في أعقاب إلغاء معاهدة سانستيفانو والذي عرف فيما بعد باسم فوزي باشا بعد أن تظاهر باعتناق الإسلام، كما أن ممثلي بريطانيا وفرنسا في المؤتمر اشتركا بهذا الإيحاء[1].

وكان الغرض من التغرير بهم نسف آخر وشائج الصداقة بينهم وبين الشعب التركي، ولقد نجحوا بمآربهم هذا خير نجاح إذ أن الشعب التركي الذي كان يجهل ما يدور خلف الكواليس عدّ موقف الأرمن هذا عداوة سافرة له، فلم يعد يشك بأية تهمة من التهم التي ألصقها الدونما بهم فيما بعد، وهكذا تحقق حلم اليهود وحدثت مذابح أرمنية عديدة انتهت بأن تقلمت أظافرهم في تركيا، وأبعدوا تدريجياً عن الميادين الاقتصادية والتجارية، وحل اليهود الدونما في أمكنتهم بكل يسر وبساطة وهكذا حققوا هدفهم الأول في تركيا وهو السيطرة المالية فيها، ومما يؤسف له أن هذه السيطرة ازدادت فيما بعد يوماً عن يوم وعمرت طويلاً بدليل أن جذورها ما زالت غارسة في أعماق الاقتصاد التركي حتى اليوم[2]، وهذه السيطرة كانت بمثابة أول مسمار دقه اليهودي الحاقد في نعش الدولة العثمانية التي أحسنت إليه دون العالمين.

وعندما تحققت السيطرة المالية للجالية اليهودية في تركيا تحولت زعامتهم إلى النواحي الأخرى من مخططاتهم السرية التي كانت أصلاً متجانسة مع المخططات الصهيونية التي ظهرت للوجود في أواخر القرن التاسع عشر والتي تمثلت بشخص تؤدور هيرزل داعية الصهيونية الأول.

وهنا بدأ اليهود بالتحرك في كافة أقطار العالم معاً وبموجب مخططات مترابطة وموحدة الغاية والهدف، ترمي في مجموعها إلى تحقيق أحلامهم القديمة المستمدة من خرافات تاريخهم المصطنع ومصادرهم الأسطورية، إذ إنهم أيقنوا في أواخر القرن التاسع عشر أن هذا التاريخ وهذه المصادر التي كرسوا القرون العديدة لترديدها على مسامع شعوب العالم، والتي ملؤوا المكاتب والمحافل العلمية في الدنيا بملايين من نسخها حتى غدت بمتناول كل فرد، أصبحت محتوياتها وأضاليلها أموراً مسلماً بها، كما أيقنوا أن سيطرتهم المالية وصلت إلى أوج قوتها وأصبحت قادرة على حل كل ما يستعصي عليهم من العقد والعقبات، ولقد ازدادوا وثوقاً بها عندما وجدوا أن الدول الاستعمارية بحاجة ماسة إلى الاستنجاد بها لتحقيق مشاريعها الاقتصادية الواسعة الآفاق

---

(1) بيير هيبس (الجمهورية العالمية) Republique Universelle – Par Pirre Hépéss.

(2) الدولة الخفية ـ لجواد أتيلهان Gizli Devlet – C.R. Atilhan.

التي كانت مؤسساتهم المالية والسرية والمؤسسات الضالعة معها تشجعها دون هوادة لتحقيقها، ولقد أسهمت الصحافة المهودة التي سيطروا عليها في أواخر القرن التاسع عشر عن طريق الرشوة وابتياع الضمائر والأقلام كثيراً في إقناع تلك الدول بضرورة الاندفاع في دروب الفتح والاستيلاء والاستفادة من استعداد الرأسمالية اليهودية لتمويل تلك المشاريع.

ولقد كانت هذه الدعوات تلقى القبول والرضى بصورة دائمة، وخاصة عندما تكاثر عدد اليهود في صفوف قيادات تلك الدول، إذ كان هؤلاء المارقون أول من يندفع لتحقيق مطالب الصحافة باعتبارها الناطقة باسم الشعوب التي كانوا يمثلونها ظلماً وعدواناً بقوة الرشوة وبذل المال، بينما كانوا في الواقع لا يعملون إلا بوحي زعامتهم الخاصة التي كانت خلفهم وخلف الصحافة المسخرة لتحقيق أغراضها قبل كل شيء.

ومما يحز في النفوس هو سكوت وتجاوز الشعوب الأوربية الدائم عن الإساءات التي كانت تصدر بحقها من قبل المسؤولين اليهود الدخلاء عليهم، إذ أن الشعوب كانت بعيدة عن معرفة خفايا الأمور وملابساتها، اللهم إلا الأمور التي كانت الصحافة تطرحها عليها.

ولما كانت الصحافة بأكثريتها الساحقة تخضع للرأسمالية اليهودية، فإنها كانت تتجنب البحث عن كل ما يتعلق بمسؤول يهودي، أما الصحف القليلة الباقية، والقلة العالمة بخفايا الأمور فكان سكوتها يشرى بالمال، وهكذا ظلت الشعوب الأوربية الغربية جاهلة بكل ما كان يجري خلف الكواليس، وذلك بفضل الذهب اليهودي الذي كان أبداً بالمرصاد لكل فم يحاول النطق بما لا يروق لأصحابه، ولكل قلم يجنح إلى تدوين وسرد ما لا يعجبهم.

ومن الغريب أن هذه السيطرة الإعلامية المركزة على الرشوة وشراء الضمائر ما زالت سائدة حتى هذه الساعة في أكثر البلاد الأوربية، على الرغم من أن بعض كتاب اليهود أمثال ر. فانيير[1] (R. Wagner) لم يحجموا عن التبجح بأسباب هذه السيطرة، التي يقول عنها هذا الكاتب حرفياً: إن اليهود ليسوا حالياً عتقاء من القيود فحسب، بل هم حكام أكثر الدول الأوربية وسيظلون حكامها طالما كان المال هو القوة التي تتحطم أمامها كل إرادة أو عمل وكل إبداع وجهد.

وقول فانيير هذا لا ريب في صحته على الأقل فيما يتعلق في أحداث العالم في الماضي القريب والبعيد، إذ أن السيطرة اليهودية التي تحققت في أعقاب عصر النهضة في أوربا انبثقت بكليتها عن مقدرتهم المالية وحدها فقط، مثلما سردنا تفاصيلها في الفصول السابقة.

---

(1) أثر اليهودية في الموسيقى لمؤلفة ر. فانيير Judaisme dans la Musique – Par. Wagner.

ولقد تعاظمت هذه السيطرة في العصور الحديثة بصورة متوافقة مع تعاظم الرأسمال اليهودي من جراء مساهمتها الواسعة في كافة المشاريع الاستثمارية لشريكاتها الدول الاستعمارية التي اجتاحت جيوشها بلاد أكثر شعوب العالم في القرون الماضية بقصد استثمار خيراتها وإذلال أبنائها، وعلى وجه التخصيص في أواخر القرن التاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين، والسيطرة المالية اليهودية هذه التي استحوذت على تفكير الرأي العام الأوربي في القرن التاسع عشر لم تبق مقتصرة على أوربا وحدها، بل تعدتها إلى بلاد الشرق بعد أن تمركزت الجالية اليهودية في تركيا، والأدلة على ذلك هي أكثر من أن تحصى، إذ أن آثارها ظهرت للوجود بكل جلاء ووضوح في أعقاب أحداث صمصون (Samsoun) التي وقعت بين عامي 1894 ـ 1896 والتي أسفرت عن ذبح أكثر من مائتي ألف أرمني في تركيا، أي تقريباً في الوقت نفسه الذي وقعت فيه بعض الاعتداءات الإفرادية على الجالية اليهودية في البلاد الروسية التي أقامت الصحافة الغربية الدنيا وأقعدتها، وطالبت الدول الغربية أن تتدخل لإنقاذ حفنة من اليهود الذين أسمتهم بالأبرياء من براثن الروس المتوحشين، على الرغم من ارتكابهم عدة جرائم قذرة بحق الحكومة الروسية وشعبها، ولكن عندما وقعت المذابح الأرمنية في صمصون لم تنبث تلك الصحافة بكلمة دفاع واحدة، لأن الدس والتحريض اليهودي والماسوني كانا خلف تلك المذابح، وليتها والزعامة اليهودية اكتفتا بتجاهل وقوعها، بل سارعتا إلى مطالبة الحكومة الفرنسية بمنع الكتاب الفرنسيين الذين انضموا للصحفي الفرنسي دنيس كوشين (Denys Cochin) للقيام بحملة لإيقاف مذابح صمصون، فلم يسع الحكومة الفرنسية إلا النزول عند رغبة الزعامة اليهودية والصحافة الدائرة في فلكها، وهكذا نكل بالأرمن دون أن يرتفع أي صوت في أوروبا لإنقاذهم، لأن الرأسمالية اليهودية وواجهتها الممثلة بالصهيونية العالمية خليفة الكحال والقبال كانت مؤيدة لهذا التنكيل[1].

وهذه الحادثة ليست الفريدة من نوعها للتدليل على قدرة الذهب اليهودي في تحقيق أغراض الزعامة اليهودية أو لتحوير نتائج الأحداث لمصلحة اليهود، بل هناك أدلة وإثباتات عديدة على ما كان لرأس المال اليهودي من تأثير فعال في أكثر أحداث العالم التي ستدون وقائعها في الفصول الآتية.

---

(1) بيير هيبس (الجمهورية العالمية La République Universelle. Par Pierre Hépéss).

العوامل التي حققت لليهود السيطرة في أوربا ومراحل تطورها

إن أكبر فرية عرفها التاريخ هي تلك التي تتبجح اليهودية بها، والتي تزعم أن أبناءها انفردوا دون العالمين بالاحتفاظ على نقاء دمائهم وصفاء عنصرهم على الرغم من كل ما تعرضوا إليه من كوارث وتشريد، وتعزو أسبابها إلى امتناعها عن التبشير بمذهبها بين الأقوام الأخرى، وإمساك أبنائها عن الاختلاط بالأغراب عنهم، باعتبارهم من نسيج خاص يختلف عن أنسجة الشعوب الأخرى.

مع العلم أن علماء التاريخ أجمعوا كما شرحناه في مستهل هذا الكتاب، على عدم وجود أية رابطة لغوية أو قومية أصلاً بين القبائل البدائية التي أطلق على تجمعها فيما بعد اسم الشعب اليهودي، اللهم إلا رابطة المذهب الذي أخذوه عن سيدهم صموئيل بن القانة.

أما الأسباب التي تتذرع بها للترويج لفريتها هذه، فهي أكثر وهناً من الفرية ذاتها، إذ أن مصادرها التاريخية تعترف ضمناً بقيام اليهود بالتبشير طيلة إقامتهم في بابل بدليل تضاعف تعدادهم عشرات المرات في غضون جيل واحد، الشيء الذي يرفضه العقل والمنطق، ومن هنا يتضح بجلاء أنه لولا التبشير الذي أضاف الكثير من الناس إلى مجتمعهم لما بلغ تعدادهم هذا المبلغ الفاحش في غضون تلك المدة الزمنية القصيرة.

كما أن انتشار اليهودية في اليونان ومن ثم في شبه الجزيرة العربية وخاصة في الجنوب العربي حيث قامت الدولة الحميرية، ومن بعدها ظهور الدولة الخزرية اليهودية، لهي أدلة قاطعة على طول باع اليهود في ميدان التبشير، أما الصراع الدامي الذي دام عصوراً عديدة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيس اليهودي فما كان إلا وليد التسابق فيما بينهما في حلبة التبشير، ولولا انهزام اليهود في هذا الصراع لما اختاروا في أواخر القرون الأولى التقوقع والانعزال ولولا خشية مثابرتهم على التبشير، وتضليل بعض البسطاء من الأقوام الأخرى، لما جنحت بعض الأمم لإرغامهم على حمل شارات تميزهم عن سواهم من أفرادها.

كما أن القيام بعملية إحصائية للخسائر التي تعترف مصادرهم بتكبدهم إياها منذ ظهورهم على مسرح التاريخ قمينة لتبرهن بكل بساطة عن أنه لولا التبشير الذي أمد صفوفهم بعناصر جديدة لما بقي منهم نافخ في النار منذ أمد بعيد.

ومن هنا يتضح أن الفضل في بقاء هذا الشعب على قيد الحياة يعود إلى العناصر الغريبة التي انضمت إلى صفوفه عبر تاريخه الطويل وخاصة في البلاد الأوربية، أما العناصر القليلة التي نجت من الموت بعد تدمير القدس، والتي ساقها تيتيوس إلى أسواق النخاسة، حيث بيعت كالأنعام اضمحلت بأسرها بعد أن قامت حيثما حلت بالتبشير لمذهبها، ولم يبق منها إلا الذكرى، وما نفخته من سموم، ولربما بعض قطرات من الدماء الشرقية التي ذابت هي الأخرى مع الزمن، وهكذا نرى أن كل ما يتعلق وما يتصل بهذه الفرية لا يمت إلى الحقيقة بأية صلة، اللهم إلا تلك السموم التي ما زالت تغالب الزمن وتزداد انتشاراً وتفاقماً كلما زادت دورات الفلك.

هذه السموم المكونة من الغرور الكاذب المنبثق عن فرية انتساب أهل هذا المذهب إلى من زعموا زوراً وبهتاناً بأنهم شعب الله الخاص.

ومن التعالي الفارغ الناتج عن خرافة حقهم في قيادة ما تبقى من الشعوب في آخر الأزمان، ومما يتفرغ عنهما من وعود خرافية، هم أكثر الناس إيماناً بكذبها وبهتاناً، ولكن ما رضعوه في طفولتهم من أضاليل التلمود والقبال والزهر وسواها من مصادرهم الخاصة الداعية إلى الحقد على غير اليهود ومخادعتهم والإيقاع بهم، وتدمير كل ما يملكونه من أسباب الحياة المادية والمعنوية والعقائدية، أعمت قلوب وأبصار أجيالهم المتعاقبة، ولذا تعامى اليهود ويتعامون عن الحق والحقيقة، ويصرون على السير في مسلكهم مهما كانت الصعاب ومهما بهظ الثمن.

وهذا التعنت هو الذي دفع زعاماتهم التي تعاقبت عبر الزمن على وضع المناهج الآيلة إلى تحقيق هذه الغايات بكل أناة وصبر، ودون إهمال حساب الاحتمالات للعوامل الزمنية والظروف السياسية، ولذا رأينا اليهود في بداية عهد التشرد، وبعد أن أيقنوا بعدم جدوى استعمال القوة وافتعال الثورات لا يأبهون إلا بجمع المال، إيماناً منهم أنه الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم تجنب الفاقة وسطوة الأعادي عند الملمات، وللوصول إلى هذه الغاية عمد مجلسهم الأعلى إلى الترخيص لأتباعه بتعاطي أي عمل مدر للمال حتى وإن كان من الأعمال المحرمة بشرعهم، وعلى الأثر انهال اليهود على تعاطي كافة الأعمال والمهن التي كانت الأقوام الأخرى تأنف وتعزف عن ممارستها، فامتهنوا القوادة والربا والتجسس وتجارة الأشياء البالية، ولما كانت كل هذه الأعمال مربحة، ما لبثوا إلا قليلاً حتى أصبحوا يملكون ما يؤهلهم لتعاطي كافة أنواع التجارة بمختلف الأساليب، كتمويل التجار المسيحيين أو مشاركتهم سراً، حتى أصبحوا في غضون قرون قليلة من أغنى سكان أوروبا وخاصة في بريطانيا التي توافقت ظروفها السياسية لأمد طويل مع الرغبات اليهودية، إذ أن اشتراك أمراء الإنكليز في الحروب الصليبية أعوزهم إلى أموال طائلة فانبرى أثرياء اليهود لتمويلهم

بفوائد خيالية، أعجزت أكثر الأمراء عن سدادها، وبهذه الوسيلة تمكن اليهود من الاستيلاء على أملاكهم، وبذلك أصبح أكثر مرابيهم من أصحاب الأطيان.

وفي أعقاب انشقاق بريطانيا عن الكنيسة الكاثوليكية (1504 ـ 1547) وقيام كريمويل بثورته التي جعلت من بريطانيا شبه دولة يهودية باتخاذه العهد القديم كمصدر ديني وتشريعي وحيد، وإعلانه بكون بريطانيا وريثة إسرائيل لإعلاء كلمة يهوه وتحقيق أوامره، زالت كافة العقبات الدينية والاجتماعية التي كانت تحول دون اليهود والتسلل إلى صلب المجتمع البريطاني، وخاصة عندما بدأ أبناء النبلاء الذين أفلستهم الظروف السياسية بالاقتران من بنات اليهود الأثرياء طمعاً في أموالهن، وبذلك تمت عملية الاندماج بين اليهود والنبلاء البريطانيين، ولكن من طرف واحد فقط، إذ أن اليهود أمسكوا عن الاقتران بالإنكليزيات من غير اليهود كي يحافظوا على أجيالهم المتعاقبة من الانزلاق خلف العقائد المسيحية، في الوقت الذي أدخلوا بناتهم فيه إلى قلب العائلات البريطانية، ليرضعن أطفال الإنكليز حبَّ اليهود ومساعدتهم ويهوِّدن عقائدهم وتقاليدهم، والجدير بالذكر أن اليهوديات نجحن في مهمتهن أحسن نجاح بدليل أنهن أزلن حتى الفوارق البيولوجية التي كانت تفرق اليهودي عن النبيل البريطاني[1].

وهكذا انتصرت اليهودية في بريطانيا بفضل المال الذي أفسدته بقوته كل شيء حتى الضمائر، ومن هنا رأينا الفيلسوف الألماني الشهير هيردير (Herder) مؤلف كتاب أفكار حول فلسفة التاريخ البشري (Les Ideés Surla Philosophie de L'humanite) يقول: إن بعض الشعوب الجبارة وأوروبا تنازلت عن كبريائها في سبيل الحصول على المال وأسلمت قيادها لليهودي العتقي (روبابيكا) وأصبحت طوع بنانه[2].

وهذا النفوذ الرخيص الذي غنمه اليهود في بريطانيا أحيا آمالهم القديمة، فاتخذوا عوامله أساساً لتحركاتهم في كل مكان، ولذا رأيناهم في أعقاب عصر النهضة يناصرون كل تمرد أو مناوءة للكنيسة الكاثوليكية ويمدون القائمين بها بالمال الوفير لعلهم يطيحون بها، ويتخلص اليهود من سيطرتها، ليتمكنوا من التسلل إلى صفوف الشعوب التي يعايشونها أسوة بما حصلوا عليه في بريطانيا، وفي سبيل هذه الغاية عمدوا إلى دعم كل ثورة أو اضطراب، وبذلوا لقيامها الأموال الطائلة دون حساب، كما جندوا لها المحافل الماسونية التي كانت من ألد أعداء الكنيسة،

---

(1) المفسدون في الأرض (فصل جرائم اليهودية في بريطانيا).

(2) صدر كتاب هيردير ما بين 1784 ـ 1791 على ثلاث طبعات.

ودعموا جمعيات الإنسانيين والنورانيين، والمفكرين الأحرار، والنهيلست لينشروا الإلحاد والمادية، وساهموا مادياً ومعنوياً في الثورات الاجتماعية وشجعوا أقطابها مثل لوثر وكالفين على المضي في تدمير نفوذ الكنيسة، ولما بدأت معاول الهدم التي مولوها تعمل عملها في بنيان الكنيسة أجهزوا عليها بإشعالهم نار فتنة الثورة الفرنسية التي أفسحت ذيولها أمامهم المجال لبلوغ أقصى الآمال تدريجياً.

ففي مستهل الثورة لم يتظاهروا إلا بطلب الحقوق المدنية، ولما حصلوا عليها، بادروا إلى العمل للوصول إلى المراكز المرموقة في السلطة، ولذا رأيناهم يستقطبون اليعاقبة لإيقاف تيار اليسار المتطرف الذي كانوا رواده منذ قليل، فلما تمكنوا من الإطاحة بالجيرونديين ساهموا في إقامة حكومة المجلس الإداري (Directoire)، ولما ظهر لهم طموح نابليون ظاهروه إلى أن وصل إلى الحكم، فدفعوا به إلى ميادين السيطرة والاستعمار عن طريق تمويل مشاريعه، ولقد جاءت أطماع نابليون خير عون لتحقيق مآربهم، إذ إن بفضل أعماله التوسعية التي شملت أوروبا بأسرها مكنوا جالياتهم التي كانت تعيش في البلاد التي استولى عليها نابليون من الحصول على حقوقها المدنية مع كافة المكاسب التي منحت لليهود في فرنسا، وفي عهده حصلوا على حق استبدال أسمائهم بأسماء مسيحية، فلم يعد أمام أفراد جالياتهم حيثما وجدوا أية عقبة تحول بينهم وبين الوصول إلى أية غاية يمكن للمسيحيين أن يصلوا إليها، هذا عدا الأموال الطائلة التي جنوها من فوائد أموالهم التي مدوا نابليون بها، وعند استنفدوا أغراضهم منه تحالفوا مع بريطانيا سراً، وأمسكوا أيديهم عنه لإضعافه والإطاحة به فكان لهم ما أرادوه في عام 1814[1].

ولكي يحافظوا على مكاسبهم في فرنسا جنحوا إلى إعادة الملكية إليها بالاتفاق مع بريطانيا، فدعموا شارل العاشر، ولما شعروا بميوله الانتقامية انقلبوا عليه وساهموا في ثورة تموز لعام 1830 التي أسفرت عن صعود لويس فيليب على العرش، ولكن مسلكه نحو اليسار اليهودي أرعبهم فانضموا بقضهم وقضيضهم إلى جانب لويس نابليون الذي أصبح يعرف فيما بعد بنابليون الثالث، فاشتركوا معه في انقلابه الأول الذي انبثقت عنه الجمهورية الثانية، ومن ثم دفعوا به عام 1852 للقيام بانقلابه الثاني الذي أصعده إلى العرش، ولذا عرف نابليون الثالث وزوجته أوجيني بولائهما لليهود طيلة وجودهما على العرش، ولما قامت حرب السبعين التي ورط اليهود نابليون الثالث بإشعالها ضد عدوهم اللدود آنذاك بسمارك، وأسفرت عن انهزام

---

(1) بيير هيبس (الجمهورية العالمية La République Universelle. Par Pierre Hépress.

فرنسا واعتقال عاهلها كان اليهود في مقدمة من تخلوا عنه ولاموه علناً على مسلكه في الحكم، ومن ثم سارعوا إلى دعم حكومة تيرس (Thiers) التي اختلفت مع الأحزاب اليسارية في مدينة باريس فخشيت الزعامة اليهودية عواقب هذا الخلاف فأوعزت إلى اليهود اليساريين بأن يتظاهروا بمحالفة الباريزيين، حفاظاً لخط الرجعة، وبذلك أمسكوا بطرفي حبل السياسة الفرنسية، ولذا وجد قادة يهود أمثال موسى هيس (M. Hésse) ومايز (Mayer) وفيرميخ (Wer Mesch) وداكوستا (Dacosta) ليرأسوا النظام المشترك الباريزي (La Commune) وليبنوا حكومة الدفاع الوطني التي كانت السيطرة فيها أيضاً لليهود أمثال كريميو، والجنرال كاليفه (Calliffet) الذي احتل مدينة باريز وأعاد نفوذ تييرس إليها.

ولما أوعز تييرس إلى مرؤوسيه باعتقال زعماء العصاة، تبخر الزعماء اليهود اليسارين ولم يعثر لهم على أثر، إذ أن كاليفه وزمرته سهلوا لهم مجال الفرار، ولم يعد أمام تييرس إلا أن يصب جام غضبه على العصاة الفرنسيين، وهكذا دفع الباريزيون وحدهم الغرم في كل من الجبهتين، بينما انسل اليهود بعد أن رموهم بدائهم، دون أن يصابوا بأي ضرر.

والعوامل التي أدت إلى تنصل اليهود من مسؤولية الجرائم التي ارتكبوها في كل هذه الأحداث، تتلخص بأن أكثر الشعوب الأوربية آنئذ لم تعد تنظر بعد الثورة الفرنسية إلى اليهود في بلادها، سوى نظرتها للمواطن العادي، إذ أن انتشار الإلحاد وحصول اليهود على الحقوق المدنية التي كانت الكنيسة تضن عليهم بهم، وتكاثر التزاوج بين بنات اليهود والفئات المختارة في تلك الشعوب، واتخاذ اليهود أسماء مسيحية بدلاً عن أسمائهم اليهودية ولانحدار أكثريتهم الساحقة أصلاً من أصول تلك الشعوب نفسها، قضى لدى المواطن العادي على كل نزعة تفريق بين اليهود وأبناء وطنه الآخرين ومن هنا التبس على الناس، ولم يعد يعرف اليهودي من غير اليهودي إلا إذا أراد هو تعريف نفسه، فاستغل اليهود هذا الوضع على أحسن وجه، واندمجوا في كافة الأوساط المسيحية حتى أنهم ولجوا حرم الكنيسة الكاثوليكية، وأصبحوا فيه كرادلة وباباوات[1] كما توصل منهم الكثير إلى سدة الحكم في البلاد الأوربية المختلفة أمثال كريمويل، ومارا، وكريميو، ومونت فيوري، وديزرائيلي، ومئات الآخرين، وذلك بصفتهم مواطنين مثل غيرهم، ولتقوية مراكزهم أمام الرأي العام، وضعوا أيديهم على وسائل الدعاية والنشر حتى تكون سنداً لهم في الترويج لما يشاؤون، أضف إلى كل هذا مقدرتهم المالية التي بلغت قبل نهاية

---

(1) المفسدون في الأرض (فصل اليهود والفاتيكان).

القرن الأخير أوج عظمتها، وهذه القدرة المالية هي التي كانت وما زالت دعامتهم في كل أمر عسير، وسلاحهم الفتاك في كل نزاع، والذي اعتمدوه في تحقيق كافة غاياتهم في كل مكان وزمان، فهم عندما يخشون افتضاح أمر إحدى جرائمهم، يبادرون إلى الإيعاز لصحافتهم بعدم إثارتها، وإذا جنحت الصحافة الحرة (إن وجدت) لكشف أسرار ما أقدموا عليه يسارعون إلى كتم أنفاسها بإملاء أفواه كتابها والمشرفين عليها بالذهب الرنان، كما يستنجدون بنفوذ أولي الأمر من أبناء جلدتهم أو الضالعين معهم والعائشين على فتات موائدهم، وبذلك يطمسون معالم جرائمهم، ويبعدونها عن متناول الرأي العام، وهكذا يتنصلون من المسؤولية، إذ أن اليهود لم ينسجموا مع المسلك الأوربي حيالهم قط، على الرغم من أنهم تظاهروا علانية بالرضوخ له، وبالقبول به، بينما دأبوا على العمل سراً للبقاء على انعزاليتهم، وتوثيق عرى التعاون فيما بينهم، وإخفاء أسرارهم عن الآخرين مع المثابرة على خداعهم والحقد عليهم، ولذلك فهم يغرسون في نفوس أبنائهم كل نوازع التفرقة العنصرية، والغرور القومي والتعالي المفرط على غير اليهود، هذا عدا عما يحشون به أدمغتهم اليافعة من الأساطير والخرافات، ولذا ينشأ واحدهم وهو أشبه ما يكون بالثعلب مراوغة وزيفاً وأكثر غدراً من الثعبان، وأقطع ناباً من الذئب حيال كل من لا ينتسب إليه بوشائج المذهب والعقيدة، ومن خلال هذه النوازع ينطلق في الحياة مراوغاً من يخشاه فيسترضيه بما يكفل رضاه، وعند سنوح الفرصة ينقض عليه لينفث سمومه فيه ويجهز عليه بأنيابه القاطعة، دون رحمة أو شفقة.

ولذا رأينا عبر التاريخ وبشكل خاص إبان الثورة الفرنسية، كيف ورطوا زعماءها في البداية، وأغدقوا عليهم الأموال الطائلة، حتى بلغوا على أيدي هؤلاء التعساء أقصى أمانيهم، ولما استنفدوا منهم أغراضهم، ساقوهم إلى المقاصل وأعواد المشانق بواسطة سواهم ممن غرروا بهم بدورهم، وكل ذلك بفضل المال وحده، هذه القوة المادية التي جمعوها من امتهان أحط الأعمال، وسلوك أقذر المسالك، وعندما أصبحوا سادتها سخروها لإذلال الناس، وإفساد الضمائر والأخلاق، وتدمير المجتمع، وإشعال نيران الفتن والثورات، وتخريب الحضارات، وتزييف التاريخ والمفاهيم، والتلاعب بمقدرات الأمم والشعوب، ولولاها لما قامت لهم قائمة ولما سمع لهم صوت.

وفي صدد وصف حسن مقدرة اليهود على التصرف بالمال ونتائجه، قال كارل ماركس بالحرف الواحد: إن اليهودي الذي تحرر من قيوده على طريقته الخاصة، ما كان ليتم له ذلك لولا أن سيطر على الأسواق المالية، وحصر تداول النقد فيها بنفسه أي منه وإليه، حتى غدا المال قوة

عالمية وملك يديه ، عندها تبدلت الأدوار وبدأ اليهودي يفكر مثل تفكير النصراني واحتل مكان الصدارة ، ومن ثم فرض على المسيحي الشروط والعوامل التي كان يعيش هو في ظلها ، وهكذا أصبح المسيحي مقام اليهودي وانعكست الأوضاع[1] .

ومن هنا يتضح لنا مدى ما وصل إليه اليهود في ميدان السيطرة المالية في أوروبا ، ومدى تحكمهم في اقتصاد شعوبه ، وإلا لما حمل عليهم هذا الفيلسوف هذه الحملة الشعواء التي تدينهم صراحة ، وتفضح أساليبهم القذرة وخاصة وهو من أبناء جلدتهم .

ومن كل هذا نستنتج أن المال كان العامل الأساسي الذي اعتمده اليهود في تخدير الشعوب الأوربية وساستها للحصول على حريتهم الكاملة في التحرك الاجتماعي والاقتصادي ، وللتسلل إلى صلب الشعوب الأوروبية ، وإزالة الفوارق التي كانت بينهما ، والتحكم في الكثير من شؤون تلك الشعوب المادية والمعنوية .

وهذه السيطرة المالية هي التي أحيت آمال اليهودية وشجعتها في أواخر القرن التاسع عشر للتفكير بتحقيق أحلامها الأسطورية المنبثقة عن خرافات مصادرهم الدينية ، والداعية إلى إقامة دولة إسرائيل وإعادة بناء الهيكل ، وخلق الدولة العالمية الواحدة في ظل زعامتها ، لتتحكم بمفردها بمصير العالم أجمع ، ولتجسيد هذه الأوهام بدأت الزعامة اليهودية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بوضع المخططات والمناهج التي قدرت صلاحها لهذه الغاية ومن ثم راحت في أواخر القرن نفسه تنفذ فقراتها وبنودها بالصورة المدونة فيما يلي من الفصول .

---

(1) بيير هيبس (الجمهورية العالمية) La République Universelle. Par Pierre Hépress .

منطلق فكرة الوطن القومي اليهودي

من الواضح أن فكرة استيلاء اليهود على فلسطين ليست من الأفكار المستحدثة في العصور الأخيرة بل هي فكرة قديمة، ومغروسة في نفوس أجيال الدين اليهودي، منذ أن طردت بقايا أحفاد القبائل المختلفة من رعاة الشاة للمرة الثانية من أرض كنعان على يدي تيتوس الروماني الذي شرد أفرادها في كل صقع ومكان، إذ أن هؤلاء المشردين حملوا معهم أحلامهم الخرافية وأغراضهم الأسطورية، وراحوا ينشرونها حيثما حلوا، ويزرعونها في نفوس أبنائهم وأحفادهم ويلقنونها لكل من ينضم إلى عقيدتهم بكل فخر واعتزاز، حتى جعلوا منها تراتيل دينية يرتلها واحدهم في صلواته اليومية، ويذكر بها أفراد عائلته في كل المناسبات ويقص عليهم ما يعن له على بال عن عظمة أسلافهم الغابرين وعما كان لهم من البطولات والأمجاد، لكي يتعلقوا بهذه الأوهام تعلقهم بالحياة ويرددوها بدورهم لأجيالهم القادمة، وبفضل هذا الإصرار تمكن اليهود حتى قبل ظهور الطباعة للوجود من إقناع ليس أبناء جلدتهم فحسب بل الأكثرية الساحقة من الأوربيين بصحة تلك الخرافات والأساطير، وخاصة بعد أن اعترفت الكنيسة بقدسية التوراة، وصحة ما جاء فيها من قصص، فلما ظهرت الطباعة للوجود استغلها اليهود أحسن استغلال، فراحوا يطبعون ملايين النسخ عن مصادرهم تلك ليوزعونها في الأوساط الأوربية بشتى السبل والوسائل، وعلى الرغم من أن الكنيسة أرادت الحد مراراً من نشر مصادرهم وأحرقت بعضها وعاقبت ناشريها إلا أن اليهود ثابروا على نشرها دون هوادة، وعندما تقلص نفوذ الكنيسة توسع اليهود في نشرياتهم فأصبحت في متناول كل يد، مما أدى إلى تعميم مزاعمهم وخرافاتهم في كل بلد، وبالتالي إلى عدّها من قبل الأكثرية الساحقة الساذجة مصادر تاريخية صادقة، ومع كل هذا ظل اليهود طيلة القرون الطويلة سكوتاً، ولم يطرقوا قط باب العودة إلى فلسطين أو احتلالها قبل أواخر القرن التاسع عشر، إذا كانوا على يقين بعدم قدرتهم على تحقيق هذه الغاية بمفردهم، ولذا كانت الفكرة لديهم مجرد ذكرى يتغنون بها على سبيل التفاخر وإظهار التعلق بالخرافات اليهوائية التي بني مذهبهم على أضاليلها، وجل ما كانوا يبغونه في الماضي لم يكن سوى العيش بأمان، ولكن شاءت الأقدار أن تقف بجانبهم، وأن ينتصر كريميول في ثورته التي جاءت كبلسم لإبراء جراحات اليهود بعد أن كانت آمالهم على وشك الانهيار من جراء الهزائم التاريخية التي لحقت بمحاولاتهم العديدة لإقامة كيان لهم في كل من جنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد الخزر، والتي أفقدت الشعوب التي كانوا يعايشونها ثقتها كلياً بهم، ولذا كان انتصار كريميول بمثابة بارقة أمل جديدة فالتفوا حوله بكل إمكاناتهم، إلى

أن حصلوا على ما ذكرناه من مكاسب مادية ومعنوية أسبلت على مجتمعاتهم شيئاً من الطمأنينة والجرأة، فاندفعوا خلف مغامراتهم الأخرى التي أسفرت عن الثورة الفرنسية وذيولها التي أتت بكاملها في صالحهم، إذ أنها أوهمت الشعوب الأوربية أنهم نبذوا انعزاليتهم القديمة وارتضوا الانصهار والاندماج بأوساطهم أي أنهم عادوا إلى حظائرهم الأصلية في صفوف الشعوب، وهكذا غرروا بمجتمعاتهم فأفسحت لهم المجال ليصولوا ويجولوا في كافة الميادين، ومن هنا رأيناهم أصحاب ندوات ثقافية، وسادة محافل سياسية، وقادة فكر، وأصحاب رأي، وبشكل خاص أرباب بيوت المال وعباقرة الاقتصاد، وكل هذه المكاسب تحققت لهم قبل نهاية القرن التاسع عشر، بفضل اعتمادهم السرية في كل تحركاتهم، وتوثيق عرى التعاون فيما بينهم، فهم منذ مؤتمر كاتوفيج وحدّوا برامجهم وحددوا أهدافهم، ولذا كانت جالياتهم في القارات الخمس تتفاعل مع كل حدث تتعرض له إحداها، مهما بعدت المسافة أو صعب الأمر، ولقد توضحت معالم هذا الترابط الوثيق الكائن بينهم، من خلال مختلف الأحداث التي تعرض اليهود إليها في التاريخ الحديث وعلى سبيل المثال لا الحصر، نذكر القارئ بالصخب والضجيج الذي أحدثه اليهود في العالم عندما تعرض أفرادهم من الجالية الأمريكية إلى المثول أمام القضاء الفرنسي لإقدامهم على ابتزاز الأموال من الفرنسيين لصالح الولايات الجنوبية الأمريكية إبان حرب تحرير العبيد، وقصة دريفوس وما رافقها من العويل اليهودي الذي ملأ الدنيا وما فيها، ومن ثم قصة تلاعبهم بسندات قنال بناما، وما أعقبها من التباكي على أبطالها الذين سلبوا أموال الناس بكل جرأة وقحة، وهذه الأمثلة ما هي إلا غيض من فيض، إذ أن هناك مئات الحالات المشابهة التي فضحت تزمت اليهود العنصري، على الرغم من كل مظاهر اللاعرقية واللادينية التي تظاهر بها اليهود بعد عصر النهضة.

ولكن ومع كل أسف ظلت الشعوب الأوربية غافلة عن هذا الخداع والمكر وكأن الأمر لا يعنيها، لأن أبناءها كانوا يجهلون خفايا الأمور تمام الجهل، إذ أن الصحافة ما كانت تنطق إلا بما يوحي إليها من قبل الزعامة اليهودية والضالعين معها من الحكام الذين كانوا يدينون بمراكزهم لبيوتات المال اليهودية، أو الذين كانت تربطهم مع اليهود صلات القربى أو مصالح مادية مشتركة وخاصة في بريطانيا، ومن هنا كانت الحقائق تطمس ويستعاض عنها بما يبرئ ساحة المجرمين من اليهود، وتلقي مسؤولية الجريمة المقترفة على من لا حول له ولا قوة، ولقد تجسدت هذه السيطرة المالية اليهودية في أواخر القرن التاسع عشر بأجلى مظاهرها وذلك عندما تمكنت بريطانيا من ابتياع القسم الأعظم من سندات قناة السويس بواسطة البنوك اليهودية التي أصرت فيما بعد على بريطانيا بضرورة احتلال مصر لحماية حقوقها من ثورة عرابي باشا الوطنية، وذلك بعد أن ضمنت عدم معارضة الدولة العثمانية التي كانت آنئذ ترزح تحت حكم شريك الزعامة اليهودية المشير الدونمة مدحت باشا، فسارعت بريطانيا التي

كانت منذ أمد بعيد تطمع بالسيطرة التامة على القناة إلى احتلال مصر عام 1874 أي في الوقت نفسه الذي وقعت فيه الإمبراطورية العثمانية تحت وطأة الدونما والماسون الموالين لليهودية، ولقد عدّ احتلال مصر فاتحة عهد الاستعمار الأوربي على أوسع نطاق.

إذ دفع بكل الدول الأوربية إلى الجنوح نحو إيجاد مجالات حيوية لشعوبها أسوة ببريطانيا، وهنا ابتسم الحظ للرأسمالية اليهودية التي سلف وأن ذاقت حلاوة استثمار أموالها في المستعمرات البريطانية والإفرنسية والأمريكية في الصين والهند وجزر الباسفيك، فاغتنمت نزوع تلك الدول إلى التوسع في الاستعمار مجدداً، فأوعزت إلى صحافتها في كافة الأقطار الأوربية لتدعو إلى الفتح والاكتشاف، بينما عمدت هي والمحافل الماسونية والهيئات الضالعة معها إلى إقناع زعماء تلك الدول بحسنات التوسع وما سيدر على شعوبهم من خيرات، وتعدهم بالوقت ذاته بعونها المالي والمعنوي لتحقيق أهدافهم الاستعمارية، ولما كانت كل دولة من الدول الأوربية ترجو أن يتحقق لها أكبر مجال حيوي لتأمين مصالح شعبها، تفاعلت أكثرها مع الإيحاء اليهودي، وهكذا أطلقت شارة بدء الصراع الاستعماري في أوروبا وبدأت دولها بالتحرك لتسيطر كل واحدة منها على إحدى البلدان الإفريقية أو الآسيوية لتمتص خيراتها وتستعبد أبناءها، بغية إيجاد الأسواق المناسبة لاستهلاك سلعها التي كانت تزداد يوماً بعد يوم، في أعقاب تعاظم الثورة الصناعية في أوروبا.

أما غاية اليهود من كل هذا كانت تتلخص بأن يشتركوا في مشاريع كل دولة تتمكن من استعمار إحدى البلاد، ليقاسموها مرابحها، ومن ثم يضمونها عن طريق هذه المشاركة إلى قائمة أنصارهم ليضمنوا معونتها في تحقيق أغراضهم الخاصة التي بدأت في هذا الوقت بالذات بالتبلور والتحول، إذ انتقلت من الرغبة في الإثراء والحصول على حرية التحرك الاجتماعي والأدبي، إلى الرغبة في الحصول على حرية التحرك السياسي، وإقامة كيان قومي لهم، ينطلقون منه إلى الآفاق البعيدة في مجال أحلامهم الأسطورية الرامية إلى التحكم بمقدرات العالم أجمع اعتماداً على سيطرتهم المالية والصناعية والتجارية التي كانوا يتصورون اقتراب تجسدها، بفضل ازدياد تشابك مصالحهم مع مصالح الدول الاستعمارية، وللتغرير بالشعوب الأوربية وإبقائها على غفلتها اعتمد اليهود على الصحافة التي كانوا يسيطرون عليها كل السيطرة، فجعلوها لا تنقطع عن التنديد باللاسامية واللاساميين ليلجموا أحرار الكتاب والمفكرين الذين كانوا من حين إلى آخر ينزعون إلى إيقاظ الشعوب الأوربية وإنذارها بالأخطار الكامنة خلف تحركات الزعامة اليهودية، ولكن امتلاك اليهود لناصية الدعاية والنشر، واستعدادهم لكم الأفواه وتجميد الأقلام عن طريق الرشوة وشراء الضمائر كان يشل عزائم هؤلاء الكتاب والمفكرين، فتذهب تحذيراتهم أدراج الرياح هذا عدا عن الأساليب القذرة التي استنبطها اليهود وروجوا لها بواسطة من أسموا أنفسهم بأنصار الحياة الرومانية،

بغية تهديم القواعد الأخلاقية في المجتمعات الأوربية كما اعتمدوا على المفكرين الأحرار واللاربيين وجمعيات أخرى معروفة لترويج المبادئ المدمرة للمفاهيم القومية والمثل العليا، ولقد ضمنوا لكل هذه الفئات كل ما تحتاج من المعونات المالية ووسائل النشر والتوزيع، وكل ذلك بغية تمزيق المجتمع الأوربي ومن ثم توجيهه حيث يشاؤون، ومن خلال أحداث القرن التاسع عشر التي رويناها، يتضح أن اليهود تمكنوا من السيطرة على تفكير الشعوب الأوربية إلى حد بعيد، وإلا لما حظوا بكل تلك الانتصارات، وبالتالي لما تمكنوا من التنصل من مسؤولية الجرائم التي ارتكبوها مراراً.

وهذه السيطرة الفكرية المقرونة بالسيطرة المالية هي التي دفعت الزعامة اليهودية إلى التفكير بتهجير اليهود إلى فلسطين بحجة اضطهادهم من قبل الدولة الروسية، هذه الحجة الوهمية التي ناصرها آنذاك مئات من أشهر الكتاب والمفكرين الأوربيين الذين استأجرتهم الزعامة اليهودية للترويج لفريتها، فانبروا يملؤون الأرض والسماء بالصخب والضجيج انتصاراً لليهود وتشنيعاً بالقيصرية، ولقد أسفرت حملتهم الدعائية هذه عن تكوين جمعية أحباء صهيون عام 1890، التي مولها البارون هيرش اليهودي بأكثر من مئتي مليون دولار من الأموال التي جمعها بفضل امتياز إدارة السكك الحديدية التي حصل عليها من المشير مدحت معتمد اليهودية في تركيا[1].

كما أن هذه السيطرة هي التي دفعت الزعامة اليهودية في عام 1896 لتعتمد هرزل ليمثلها في الأوساط السياسية وليصدر كتابه المعروف بالدولة اليهودية، وهي التي جرأتها عام 1897 لعقد المؤتمر اليهودي الأول في مدينة بال الذي تمخض عن ظهور الصهيونية العالمية، ومطالب اليهود القومية ضمن نطاق مفاهيم كتاب الدولة اليهودية.

وهنا أيضاً انبرت الصحافة الأوربية المهودة والأقلام الضالعة مع الزعامة اليهودية وراحت تروج الأفكار الصهيونية وتدافع عن شرعيتها وعدالة أغراض أصحابها، كما أصدرت هذه الزعامة مئات بل الألوف من المصادر الملفقة دعماً لمزاعم الصهيونية وإيغالاً في التغرير بالمجتمع الأوروبي، وهكذا ظهرت للوجود القضية اليهودية أو فكرة إنشاء الوطن القومي اليهودي علناً ولأول مرة في التاريخ.

لم يكن توقيت الإعلان عن الفكرة الصهيونية في عام 1897 عفوياً قط

من المعروف أن قضية إنشاء وطن قومي لليهود كانت مدار بحث أكثر من مرة في العهود التي أعقبت عصر النهضة، ومنها أن صاحب الثورة الإنكليزية كريمول الذي أرغمت هولاندا في عهده على الاعتراف بسيادة بريطانيا البحرية، أراد تأكيد هذه السيادة وتمتينها فيما وراء البحار،

---

(1) كتاب ما هي الزندقة (الدونما) لكاتبه جواد أتيلهان Gizli Devlet. C.R. Atilhan.

فعمد في عام 1652 إلى منح اليهود الذين سلف وأن طردوا من بريطانيا وإسبانيا جزر رأس الرجاء الصالح التي كانت تمتلكها آنئذ شركة الهند الشرقية الهولندية، ولكن محاولته هذه باءت بالإخفاق، كما أخفقت المحاولة الفرنسية عام 1654 التي كانت ترمي إلى إسكان اليهود في غايان، ومحاولات مماثلة أخرى كان نصيبها الإخفاق أيضاً لأن الزعامة اليهودية لم تكن واثقة بعد من قدرتها على تحقيق أهدافها ومن ثم لأنها ما كانت راغبة سوى بفلسطين، إذ أن أتباعها الذين كانت تعتمد عليهم لخلق وطن قومي ما كانوا ليقبلوا عن عروسة أحلامهم فلسطين بديلاً، ولما كان تحقيق هذه الرغبة في تلك العهود من الأمور المستحيلة، نظراً لقدرة الدولة العثمانية التي كانت جيوشها آنئذ في أوج قوتها بدليل تحقيقها عدة انتصارات في البلدان الأوروبية مثل احتلالها عام 1541 لهنغاريا ومحاصرتها عام 1683 لفيينا عاصمة النمسا، وإذاً لم يكن في مقدور أية قوة أوربية آنذاك أن تثبت أقدام اليهود في فلسطين، ولذلك كان اليهود يفضلون السكوت وعدم التورط بما لا يرجى منه فائدة[1].

ولكن لما برز نابليون في عالم السياسة والتوسع، سارع روتشيلد عام 1799 إلى إقناع نابليون بتوطين اليهود في فلسطين إن هو نجح في توطيد أركان سيطرته على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ولقد استحسن نابليون هذه الفكرة ولكن شاءت الأقدار أن تخفق حملته، وأن تذرى رياح أحلام روتشيلد وبني قومه، ولقد علق اليهودي سوكولوف على هذه المحاولة المخفقة وقال بمرارة: إن انقسام الرأي العام اليهودي حول اقتراح نابليون لم يكن وليد عدم الرضى به، بل كان ناتجاً عن عدم امتلاك اليهود لإمكانيات تجسيده ولعدم ثقتهم بقدرة نابليون في الاحتفاظ بفلسطين، ولذا تجنبوا إثارة الموضوع إمساكاً عن إيقاظ غفلة الدولة العثمانية عن مآربهم في فلسطين[2].

ومن هنا يتضح جلياً أن التوقيت عن إعلان الفكرة لم يكن قط عفوياً بل كان مدروساً بصورة مفصلة، وأن اليهود استنسبوا هذا الوقت بالذات لإعلان رغبتهم في إنشاء الوطن القومي اليهودي لأسباب يكاد حصرها أن يكون غاية في الصعوبة نظراً لتعددها، أما الاقتراحات العديدة بهذا الصدد التي ظلت تترى دون هوادة فلم يكن القصد منها سوى تهيئة الرأي العام العالمي وترويضه على تقبل الفكرة عندما يحين بحسب تخطيطهم الوقت الموائم لطرحها، والمبادرة لتحقيقها.

---

(1) الإسلام وبنو إسرائيل ـ لجواد أتيلهان. Islam Vebeni Israil. C.R.A.

(2) الدولة الخفية لجواد أتيلهان.

مؤتمر بال أو بداية المسرحيّة اليهودية

قبل عام 1897 كانت المحافل اليهودية تميل إلى إيهام الرأي العام الأوربي، بأن قضية الوطن القومي تفتقر إلى الجدية، لعزوف الأكثرية الساحقة من الجاليات اليهودية عن الإيمان بها، وللتدليل على صحة هذه النظرية كانت توعز من وقت لآخر إلى بعض تلك الجاليات لتعلن عن استنكارها لما يشير إلى قبولها التخلي عن أوطانها، وعلى سبيل المثال نذكر المديح الذي كالته الصحافة المهودة عام 1818 على الإصلاحات التي أدخلت على الكنيس اليهودي في ألمانيا، وعلى إعلان الجالية اليهودية عن كون شتودغارت أورشليمها الأبدية، ولقد قصدت من وراء هذا الضجيج الدعائي الرد على بعض المحافل الألمانية التي شجبت محاولة استعمار اليهود لفلسطين في عهد نابليون بونابرت، وإيهام الألمان ببدء اليهودية بالانصهار في البوتقة النصرانية وتعلق أبنائها في الوطن الألماني.

ولما قامت في بريطانيا الشركة الاستعمارية السورية الفلسطينية التي دعا أصحابها اليهود إلى الانضمام إليها، بادرت جمعية الصليب والعلم الأمريكية المناوئة لليهودية إلى التنديد بالفكرة واتهمت اليهود بالمروق للبلاد التي يعيشون فيها، فسارع رجال الدين اليهودي إلى عقد مؤتمر في مدينة بيتسبورغ (Pittsburgh) للرد على التهم الموجهة إليهم، وأعلنوا في نهايته رفضهم لفكرة الهجرة وتمسكهم بالوطن الأمريكي نهائياً.

وهذا المد والجزر المصطنع لفكرة الوطن القومي كان الغرض منه إبقاء الفكرة حية في أذهان السواد الأعظم من اليهود، ومن ثم تجنب سخط الشعوب التي يعايشونها دون طائل، بانتظار الفرصة السانحة.

ولكن عندما افترضت اليهودية تكامل عناصر النجاح لمخططاتها البعيدة المدى، بفضل ما حققته من القدرة المالية، التي أسفرت عن استقطابها حولها العديد من المحافل السياسية، والجمعيات الفكرية، والدول الغربية ذوات المطامع الاستعمارية المحتاجة أبداً إلى دعمها المالي، وبعد أن تعاظمت سيطرتها على وسائل الدعاية والنشر، وتكاثر عدد المتنفذين من أبنائها في عالم السياسة بادرت كافة جالياتها في مختلف أقطار الأرض، حتى تلك التي كانت بالأمس القريب تتنكر لكل المحاولات الرامية لغزو فلسطين إلى إيفاد ممثليها للمؤتمر الذي نادى لعقده هيرزل المهووس في مدينة بال السويسرية عام 1897 دون حرج أو وجل[1].

---

(1) الإسلام وبنو إسرائيل - لجواد أتيلهان Islam Ve Beni Israil C.R Atilhan.

ويبدو أن أبحاث هذا المؤتمر لم تقتصر على المطالبة بوطن قومي لليهود الذين اضطهدوا آنذاك في روسيا وبولونيا ورومانيا والذين أرادت الصهيونية العالمية إخفاء أغراضها الحقيقية وراء حجة العمل لإنقاذهم من العنت السلافي المزعوم عن طريق المطالبة بإسكانهم في فلسطين، التي زعموا أنها كانت في الأصل أوطان أسلافهم الغابرين، بل تناولت أموراً أكثر أهمية في نظرهم من قصة الوطن القومي، وأكثر خطراً على المجتمع البشري فيما لو تحققت، إذ أن في هذا المؤتمر بالذات تبنى أقطاب اليهودية العمل بنصوص بروتوكولات حكماء صهيون التي سبق وأن عرضت على زعماء اليهود عام 1890 من قبل الزعيم الصهيوني آشير غنيسبيرغ (Asher Ginsberg) في المؤتمر اليهودي الذي عقد في مدينة أوديسا في أعقاب الحوادث التي وقعت في أوربا الشرقية[1] والتي اتخذتها الزعامة الصهيونية حجة مثلى أمام الرأي العام العالمي لإقامة مؤتمر بال، ومسوغاً لإقناع اليهود ببدعتهم الجديدة، ومن ثم إطلاعهم على الوضع العام وتحديد ما يجب على كل جالية تحقيقه في مهجرها.

ولكن تفاصيل المؤتمر ظلت سرية، ولم ينشر منها إلا ما كان زعيمه هيرتزل يجاهر به، ومع هذا تسربت بعض المعلومات الغامضة عن مقرراتهم، مثل تصنيف الدول وجعلها فئتين - معادية، وصديقة، فكانت كل من الإمبراطوريات العثمانية والألمانية والروسية، في مقدمة الدول التي عدّوها معادية لمخططاتهم، فأقروا السعي للإطاحة بأنظمتها واستبدالها بأنظمة متجانسة مع مفاهيم البروتوكولات الصهيونية، ومن ثم جرها خلف رغباتهم، أو تجميدها وشل تحركها السياسي والاجتماعي، أما الدول التي عدوها صديقة وشريكة، فكانت تتكون من: بريطانيا، وأمريكا، وفرنسا، فقرروا توثيق عرى الصداقة معها، والسعي لإزالة بعض الخلافات الطفيفة التي كانت تظهر أحياناً فيما بينها، ومن ثم دعمها مالياً بكل قدرتهم لضمان عونها ومساندتها في كل ما يتعلق بتحقيق غايات الصهيونية التي أوكلوا إليها أمر تجسيد مخططاتهم[2].

وعلى الأثر خرجت الصحافة الغربية المهودة على العالم بسمفونية الوطن القومي اليهودي، وأكثرت من التباكي على هذا الشعب المضطهد المظلوم على أيدي غلاة اللاسامية، وأنكرت مسلك روسيا حياله، ونعتته بمسلك البرابرة غير اللائق في عصر الحضارة والمدنية، وألحت بمطالبة الدول المتحضرة بالمبادرة إلى إنقاذ هذا الشعب المسكين من براثن جزاريه، وإعادته

---

(1) بيير هيبس - الجمهورية العالمية La Republique Unvierselle. Par Pierre Hepess.

(2) أيها التركي اعرف عدوك - لجواد أتيلهان Turk Dusmaneni Tani C.R. Atilhan.

إلى موطنه الأصلي، وفي الوقت نفسه انطلقت عقائر الخطباء من عملاء الصهيونية لتعيد إلى الأذهان كافة المقترحات المتقدمة بهذا الصدد، مثل الاقتراح الذي قدمه شافتسبوري (Shaftesbury) عام 1850 إلى وزير خارجية بلاده بالمرستون (Palmerston) وطالب فيه باستعمار فلسطين لصالح اليهود، واقتراح الاستعماري هاولر، واقتراح مؤسس جمعية الصليب الأحمر، وعشرات المقترحات الأخرى التي كانت جميعها ترمي إلى الغاية نفسها، كما ظهرت في المكتبات ألوف الكراسات والكتب لمؤلفين من عملاء الصهيونية تدعو جميعها إلى إنصاف شعب الله المختار، ومساعدته للعودة إلى ما سمي بوطنه الأصلي وتندد بكل الأطراف المناوئة لهذه الدعوة، وتعدد حسنات تحقيق الغاية اليهودية، وتحرض الدول الأوربية على الإسراع بتنفيذ هذا الهدف الإنساني دون إبطاء، ولقد تكاثرت هذه النداءات يوماً بعد يوم، وتعددت المصادر الباحثة عنها شهراً فشهر، أما الصحافة فجعلتها غايتها الأولى والأخيرة حتى يومنا هذا، وكان من الطبيعي أن يتفاعل المواطن الأوربي مع هذه الأساليب الدعائية الدائمة المركزة، ويقتنع بشرعية وعدالة القضية اليهودية، خاصة وهو لم يكن ليسمع قبل نهاية الحرب العالمية الأولى، صوت أي محتج على هذه الدعوات الباطلة، أو يرى رأياً مخالفاً لأكاذيب وأضاليل دعاتها، وهكذا تجسدت هذه البدعة الظالمة في مخيلة الأوربيين وغدت وكأنها قضية مسلم بعدالتها.

وهنا بدأت الصهيونية بالتحرك السريع وسارعت عام 1902 بإيجاد الشركة الاستعمارية المساهمة لتحقيق أغراض الصهيونية التي أصبحت قدوة فيما بعد لقيام شركات استعمارية مماثلة، مثل شركة بورنيو الشمالية، والشركة الروديسية وسواهما من الشركات التي ساهمت الرأسمالية اليهودية في تأسيسها على أوسع نطاق، وبذلك أصبح للصهيونية ضلع ورأي في الكثير من الأمور الخارجية للدول التي كانت تسعى آنذاك لتوسيع مجالاتها الحيوية «طبعاً بتشجيع المحافل الصهيونية والجهات الضالعة معها» مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا، على حساب الإمبراطورية العثمانية التي كانت تزداد ضعفاً يوماً بعد يوم في أعقاب مؤتمر برلين الذي وضعها تقريباً تحت حماية الدول الطامعة فيها، إذ أن ألمانيا كانت تروم السيطرة على الخط الحديدي برلين - بغداد، لتنطلق عبره إلى الهند والصين لتشارك بريطانيا وفرنسا في مكاسبهما الاستعمارية بعد أن تكون قد أرغمت الدولة العثمانية لإرادتها.

أما فرنسا التي كانت تخشى عاقبة المطامع الألمانية، فقد اتخذت قضية حماية الكاثوليكية «التي افتعلتها الدسائس اليهودية في منتصف القرن التاسع عشر» ذريعة للتدخل في شؤون الشرق الأوسط، بغية تحقيق مطامعها من جهة وسد الطريق على المطامع الألمانية فيها من جهة

أخرى، وروسيا بدورها كانت تطمع في خيرات الشرق الأوسط، ولذا كانت تلقي أحياناً بدلوها في هذا الميدان بحجة حماية الأرثوذكسية والأراضي المقدسة التي كانت كنيستها تدعي الوصاية عليها باعتبارها خليفة الكنيسة البيزنطينية.

ولكن إنكلترا برهنت في هذا الصراع عن نضوجها السياسي باختيارها الورقة الرابحة، فطالبت موافقة زميلاتها في مؤامرة برلين على حق حماية الأقلية اليهودية في الدولة العثمانية، بزعم أنها كانت تكابد آنذاك الأمرين من اعتداءات السلطات التركية إشارة إلى رغبة الحكومة التركية بمحاكمة اليهود الذين سببوا مذابح دمشق عام 1860 وما أعقبها من الدسائس اليهودية التي أسفرت عن إدانتهم بافتعال الفوضى لأغراض أجنبية.

وهكذا تشابكت المطامع الاستعمارية في المنطقة فتحفزت كل دولة على اقتطاع قسم من الإمبراطورية التركية قبل سواها، ولقد استغلت الصهيونية الثرية هذه المطامع على أحسن صورة لأغراضها الخاصة، فانبرت محافلها في كل من هذه الدول تتقرب من ساستها وتلوح لهم بدعمها المادي المقرون بتأييد الجاليات اليهودية في تركيا، إن هم ساعدوها في تحقيق أغراضها في فلسطين في حالة تحقيق أطماعهم في الإمبراطورية العثمانية، ولما كان أكثر الساسة آنذاك يميلون بدرجات متفاوتة إلى القضاء على الإمبراطورية العثمانية التي أرهبتهم طويلاً في الماضي، ولا يرون غضاضة في تمزيقها ومنح قسم منها لليهود الذين طال أمد سماعهم لمطالبهم القومية، هذا عدا عن الساسة من أصل يهودي، أو الساسة من الماسون الذين كانوا أكثر حرصاً على تحقيق الرغبات اليهودية من اليهود أنفسهم، ولذا وجدت الصهيونية في كل الجهات المعنية الرغبة في مساعدتها، فقامت بدورها بتوجيه جالياتها في كل دولة بأن تتظاهر بالولاء لها، واستعدادها لتحقيق ما يطلب منها شريطة أن يبقى التنفيذ رهناً بموافقة الزعامة الصهيونية التي اشترطت على جالياتها إعلامها بكل ما يطلب منها لتوجهها فيما يجب أن تقدم عليه من تلك المطالب وما تحجم عنه[1].

ومن هنا نلاحظ أن المفاهيم والطباع اليهودية بعد عهد التشرد ببضعة قرون خرجت كلياً عما كانت عليه في الماضي السحيق من تعنت وتزمت، فأصبحت في أواخر القرون الوسطى تتكون من غاية واحدة فقط وهي الانعتاق من العبودية، فلما تحققت انطلق اليهود خلف الحصول على حرية التحرك المعيشي، وعندما قيض لهم ذلك، جدوا وراء السيطرة المالية، وفي ثورة كريميول تحقق أحلامهم في التحرك الاجتماعي، وفي أعقاب الثورة الفرنسية اكتسبوا الحقوق

---

(1) التحقيقات الخاصة مع جواسيس الصهيونية ـ لجواد أتيلهان Casuslerle Tehkikatem. C.R. Atilhan.

المدنية والسياسية واندمجوا ظاهرياً في المجتمعات الأوربيـة ، وفـي بداية عـهد الاسـتعمار شـاركوا دولها في مغنمها وفي أواخر القرن التاسع عشر انتقلوا فجأة إلى أحـلام ماضيـهم السـحيق ولكـن بعقلية مرنة ، وأسلوب حاذق ومفاهيم مطاطية ، بعيدة كل البعد عن التعنـت والتزمت فـي تحقيق أهدافـهم بسـواعدهم التي خبروا منذ أمـد بعيـد عجزهـا وهزالـها بمفردهـا ، فراحـوا يسـخرون لأغراضهم سواعد أبناء الشعوب الأخرى التـي ضللوهـا عـبر الزمـن ، أقـلام مفكريـها ، ووسـائل دعايتها ، وعقول ساستها ، وكل ذلك بواسطة المال التي سلبوه من أفرادها بشتى السبل والوسـائل القذرة التي اعتمدوها طيلة القرون العديدة ، ومن ثم عـادوا وأغرقوهـم بـه بعـد أن ضمنـوا طريـق عودته إليهم ، على حد قول كارل ماركس في وصفه لهم .

وهكذا وبكل هذه الوسائل العديدة وهذه الظروف المناسبة انطلقـت اليهوديـة تحـت زعامـة هيرزل لتحقيق فكرة إنشاء الوطن القومي التي كان لها أكثر من مفهوم في ضمائر اليهود أنفسهم ، إذ كانت الفكرة نسبة للرأسمالية اليهودية عبارة عن مشروع إقامة معسكر مشترك لحماية مصالحـها المشـتركة مـع الـدول الاسـتعمارية ، وخاصـة شـريكتها الأولـى بريطانيـا التـي كـانت تخشـى علـى خطوط مواصلاتها مع مستعمراتها فيما وراء البحار ومن ثم لتسيطرا معاً على شبه الجزيرة العربيـة التـي سـبق لبريطانيـا أن مسـحت مختلـف أجزائـها ، وأيقنـت ممـا تحويـها مـن ثـروات هائلـة يمكـن استغلالها في حال السيطرة عليها ، أمـا نظـرة اليـهودي العـادي فكـانت فـي البدايـة مجـرد ذكـرى دينية ، فأحالتها الدعاية الصهيونية المركزة إلى فكرة قومية في تصوره .

فانساق خلفـها بكـل جوارحـه ليكـون جنديـاً فـي المعسـكر الرأسـمالي المزمـع إقامتـه ، أمـا اليهودي المتدين فهلل للدعوة الصهيونية وباركها أملاً بأن يجد له مرقداً فـي ظـل هيكـل أسـلافه ، فاندفع خلف الصهيونية مثل سواه ، هذا عدا عن اختلاف غايات شركاء الرأسمالية اليهودية مثلما أوضحناه ، ومع كل هذا توفقت الصهيونية بسرعة قياسية لإخراج مسرحيتها للوجود بفضـل المـال وبالمال وحده .

اصطدام الصهيونيّة بالصخرة الحميدية

بعد أن أعلن مؤتمر بال عن تفويض هيرزل للقيام بالمساعي الرامية إلى إنشاء الوطن القومي اليهودي، ظنت المحافل اليهودية أن الموضوع سيتبلور نظراً لسيطرة الدول الأوربية آنذاك على الدولة العثمانية التي كانت لتوها خارجة من الثورات البلقانية التي أعقبها الاصطدام مع روسيا والذي انتهى بمعاهدة سانستيفانو، ومن ثم مؤتمر برلين الذي سلخ عن النفوذ التركي مقاطعتي آبيرو تيسالي اليونانيتين، ومنح بلغاريا وروميلي استقلالهما الذاتي، واعترف بانفصال الصرب نهائياً عن الدولة العثمانية، هذا عدا عن المشاكل الداخلية التي كانت تعانيها تركيا منذ التحركات اليهودية التي تفاقمت بعد تدخل الجيش الإفرنسي عام 1860 في شؤون سورية، وبشكل خاص النعرات الطائفية التي كانت السفارات الأجنبية والمحافل الماسونية ومن ورائها الرأسمالية اليهودية تغذيها وتؤجج أوارها دون حرج أو خوف، وأملاً باستغلال الوضع العثماني السيء بادر هيرزل إلى القيام بمساع جبارة لمقابلة ويلهلم الثاني عاهل ألمانيا، فتمت له المقابلة التي تمكن فيها من إقناع الإمبراطور بالتدخل لدى السلطان عبد الحميد الثاني لجره إلى الموافقة على السماح لليهود في استيطان فلسطين، إذ كان ويلهلم يطمع هو الآخر بالاستفادة من المعونة المالية والبشرية اليهودية لتحقيق أطماعه في الإمبراطورية العثمانية، ولذا اتفقا على أن يلتقيا في عام 1898 في مدينة القدس التي كان الإمبراطور قد أقر زيارتها لإنشاء كنيسة ألمانية فيها، وذلك بعد أن يكون قد قابل السلطان عبد الحميد في الآستانة، وبالفعل تحقق هذا اللقاء في الوقت المحدد بين ويلهلم وهيرزل الذي كان يرافقه وفد من زعماء اليهود، فعرض الأمر على الإمبراطور مجدداً وكأنه لأول مرة، وطلب تدخله لدى السلطان، فأجابه ويلهلم قائلاً: يمكنكم الاعتماد على وساطتي لدى حليفي الكبير عبد الحميد الثاني على أن تراعوا في المستقبل حقوق السلطنة العثمانية في حكم البلاد، ومن هنا تظهر معالم التآمر بينهما على الإمبراطورية العثمانية بكل وضوح، ولكن هيرزل اعتمد على غباء الرأي العام الذي كان يعده عاجزاً عن إدراك مغزى جواب العاهل الألماني، فسارع إلى إستنبول حيث تمكن بواسطة السفير الألماني من مقابلة عبد الحميد الثاني، فقدم له التماساً بالسماح لليهود بإقامة مخترة لهم في فلسطين مقابل أي شرط يستنسبه، ولكن السلطان اكتفى بسماع حديث هيرزل، ولم يعقب عليه إلا بابتسامة عريضة، ومن ثم صرفه من لدنه[1].

---

(1) جريدة الحرية التركية، بقلم ن. ن. تبه ده لنلي أوغلو، إستنبول 1958

Hürriyet Gaza Tesi. N.N. Tepedelenliglu.

فلم ييأس داعية الصهيونية، وأعاد الكرة وقابل بعد أسبوع السلطان عبد الحميد للمرة الثانية بواسطة السفير الطلياني، وعرض الأمر بصورة مفصلة، وتبّله بسيل من وعود المعونات المالية اليهودية لتركيا، فلم يجبه السلطان هذه المرة أيضاً إلا بابتسامة عريضة أخرى، ومن ثم أمر بأن يمنح الوسام المجيدي من الدرجة الثالثة ويصرف للمرة الأخيرة بخفي حنين.

ولما خرج هيرزل التفت السلطان إلى رئيس ديوانه تحسين باشا وبادره بالقول: سترى يا تحسين أن هذا الرجل سيطيح بعرشي إن عاجلاً أو آجلاً، ولما أظهر رئيس الديوان استغرابه، أردف السلطان قائلاً: نعم إنه قادر على ذلك، لأنه يمثل أكبر قوة مالية في أوربا، هذا عدا عما لليهود من السيطرة على التجارة الدولية، ناهيك عن سيطرتهم الدعائية التي بلغت الأوج، وغدوا قادرين على إقامة الدنيا على أية جهة مناوئة لأغراضهم، ولهم أيضاً القول الفصل في التوجيه الفكري في كافة أنحاء أوروبا، بفضل تمويلهم الدائم للمؤسسات والمحافل العديدة الكائنة في مختلف أقطارها، ولا تنسَ أيضاً أن أنصارهم في تركيا الذين يزدادون دون انقطاع عن طريق المحافل الماسونية الضالعة معهم، ومن ثم الرشوة والإفساد اللتان عمتا كافة أرجاء الإمبراطورية، فلا تستغرب ما أفضي به إليك، ومع هذا ثق إنني لن أتنازل لهم عن قيد أنملة من الأرض المقدسة مهما كانت العواقب.

وهذا التصريح إن دل على شيء فإنما يدل على ما كان عليه عبد الحميد من حرص على إبعاد خطر اليهودية عن فلسطين، ولقد برهن مرة أخرى على هذا الحرص المكين بإرساله عدة كتب تحذيرية إلى علماء الدين الإسلامي في أقطار الإمبراطورية، ومنها كتابه لشيخ الإسلام في دمشق، حذرهم فيها من أطماع الصهيونية، بعد أن أيقن من قوة وسطوة مناوئيه في داخل الإمبراطورية وخارجها، ويئس من التغلب عليهم، ولكن مع كل أسف ذهبت صيحات عبد الحميد أدراج الرياح، ولم يعرها أحد الاهتمام اللائق بها، إذ كان الكل آنئذ في هذا الشرق مهتماً بشؤونه الخاصة والطائفية التي كانت تلقى التشجيع من عملاء الصهيونية، الذين كانوا لا ينقطعون عن الدس على عبد الحميد ودولته بمختلف الذرائع والأوهام المادية والمعنوية بغية تحطيم وحدة الأمة وتمزيق روابطها حتى يسهل الانقضاض عليها، مع شركائها الدول الاستعمارية التي ما انفكت أطماعها عن الازدياد في خيرات الشرق يوماً بعد يوم، وذلك عندما تحين الساعة التي كانت الصهيونية تنتظرها بفارغ الصبر[1].

---

(1) الإسلام وبنو إسرائيل، لكاتبه جواد أتيلهان Islam Ve Beni Israil. C.R. Atilhan.

الصراع بين السلطان عبد الحميد والصهيونية

على أثر خيبة الأمل التي أصيب بها داعية الصهيونية هرزل في مقابلته للسلطان عبد الحميد، قامت قائمة الصهيونية، فتنادت مع شريكاتها إلى العمل لتخريب الإمبراطورية العثمانية من الداخل مهما كلفها الأمر، ولتحقيق هذه الغاية أوعزت إلى المحافل الماسونية بتوسيع نشاطها في تركيا، فهب كل من ممثلي ماكيدونيا ريزورتا (Macédonia Risortas) ولا بوره لوكس (Laborex-Lux) إلى العمل وخاصة فرع ريزورتا في سالونيك الذي بادر إلى تجنيد كل أخصام السلطان عبد الحميد الفارين من أوطانهم إلى أوروبا وكلف برعايتهم وتوجيههم كل من محفلي الشرق الأعظم الإفرنسي، وفلورانسا الإيطالي اللذين استقطبا حولهما كل من اشتهر بعداوته للدولة العثمانية من المقيمين في أوروبا ومن ثم قام أعضاؤهما بتدريبهم وتوجيههم للعمل ضد السلطان عبد الحميد.

وبعد ذلك مهد لهم سبيل الاتصال السري بالمؤسسات الاجتماعية والدينية غير الموالية للسلطان مثل الباكتاشية والملامية والمولوية، ودعوة أعضائها للانضمام إلى الماسونية بمختلف المرغبات، ومن ثم تحريضهم على مناوءة السلطات الحاكمة، بالتعاون مع فرع ريزورتا في سالونيك. وفي مدة قصيرة، تمكنوا من التغرير بالكثير من علية القوم، نذكر منهم على سبيل العد لا الحصر، الزعيم الملامي الشهير السيد طاهر ملامي مؤسس جمعية الوطن والحرية، وشيخ الإسلام خيري أفندي الأوركوبي، وشيخ الإسلام موسى كاظم أفندي، والفيلسوف الشهير رضا توفيق، ومن البكتاشية السادة: كاظم، ونامي، وطلعت باشا، وسليمان باشا العسكري، ووهيب باشا، والملازم عاطف الذي اغتال شمسي باشا، والعقيد نيازي، والعقيد أيوب صبري، وغالب باشا الأسكوبي، والزعيم الكوبرولو سليمان آغا، وعوني باشا البكتاشي، وعمر فوزي عميد البكتاشية في ماردين، وناصيف سليمان بن حسين باشا، ومحمود بن طاهر باشا مؤسسا جمهرة قوالا الشهيرة، وقره باكير باشا، وعصمت باشا مؤسسا جمهرة أدرنة، وسيفي باشا البكتاشي، وحسين قدري، وعظمي بك مدير عام الشرطة التركية وأحد معتمدي السلطان عبد الحميد، وزميله تحسين أوزر اللذان عرفا ظاهرياً بإخلاصهما للسلطان عبد الحميد حتى يوم سقوطه، أضف إلى هؤلاء عدة ألوف من رجالات مختلف الطوائف في المملكة العثمانية، انضموا جميعاً تحت لواء محفل سالونيك لمناوءة السلطان والعمل على الإطاحة به[1]، والجدير بالذكر أن هذه المجموعة الكوسموبوليتية (Cosmopolite) التي تكونت من زعماء ورجالات

---

(1) جريدة الحرية لكاتبه ن. ن. تبه ده أوغلو، إستنبول 1958

Hurriyet Gezetesi - N.N. Tepedelenli Ogli Istambul 1958.

الطوائف الدولة العثمانية المختلفة، لم توجه من قبل محافلها الماسونية المتعددة لوحدة العمل والتعاون إلا فيما يتعلق بالإطاحة بالسلطان عبد الحميد، أما فيما عدا ذلك فكانت المحافل الماسونية توجه رجالات كل طائفة منها، وجهتها الطائفية الخاصة المتعارضة لوجهات الطوائف الأخرى، إذ أن الماسونية الضالعة مع الصهيونية والدول الاستعمارية، ما كانت لترضى بأي ثمن قيام الوحدة الوطنية بين تلك الطوائف لتعارضها مع أهداف سادتها البعيدة المدى التي ترمي إلى استعمار مناطق الإمبراطورية العثمانية وفي مقدمتها فلسطين العزيزة[1].

ولقد تجلت هذه الحقيقة فور التخلص من السلطان عبد الحميد، إذ رأينا كيف تفرقت هذه المجموعة إلى فئات وأحزاب تطاحنت فيما بينها طيلة عشرات السنين، بعد أن اتخذت فئة كل طائفة منها اسماً سياسياً خاصاً بها واتجاهاً يختلف عن اتجاه سواها مثل زعماء حزب الطاشناق الأرمني الذين وضعوا حزبهم تحت تصرف الماسوني الدونما أحمد رضا، للعمل ضمن المخطط الرامي إلى الإطاحة بعبد الحميد جنباً إلى جنب مع حزب تركيا الفتاة عميل الماسونية الأصيل، وألد أعداء حزب الطاشناق، ورديف حزب الاتحاد والترقي الذي كان أكثر زعمائه من اليهود الدونما من أبناء سالونيك، والذين نكلوا فيما بعد بحزب الطاشناق أبشع تنكيل، كما أن بعضاً من شهداء 6 أيار ورفاقهم الذين ظلوا على قيد الحياة بعد محاكمات عاليه، كانوا أصلاً ضمن المجموعة التي عملت للإطاحة بالسلطان عبد الحميد، ولما انتهوا منه، سارعوا ورفاقهم بالأمس أعضاء الاتحاد والترقي وأعضاء تركيا الفتاة (الضالعين مع الصهيونية التي كانت تخشى تغلب النزعة القومية على رفاقهم العرب في المستقبل) إلى التنكيل بهم بالصورة المعروفة، هذا عدا عن الموقف العدائي الذي وقفه كل من الزعيمين الماكيدونيين سانداسكي (Sandaski) وبانيتشا (Panitcha) من رفاق الأمس أعضاء الاتحاد والترقي حال الإطاحة بالعاهل التركي[2].

ومن هنا يتضح مدى عمق المؤامرة الصهيونية التي لم تهدف إلى إزاحة السلطان فحسب بل إلى تهديم كيان الدولة أولاً، ومن ثم توسيع شقة الخلافات الطائفية (التي نتجت عن تدخل الدول الأجنبية في شؤون الإمبراطورية العثمانية والذي كان أصلاً وليد أطماع ودسائس الزعامة اليهودية السالفة ومن غرس أيديها) حتى لا تقوم وحدة وطنية في أي جزء من أجزاء الإمبراطورية المريضة، ولكي يخلد الخلاف بين طوائفها، لترغم كل واحدة منها على البحث عمن تحميها من الدول المتنفذة لدى الدولة التركية، وليغدوا أبناءها عيوناً وحلفاء لها فيما كانت تبيته تلك الدول من مصير أسود

---

(1) برميل الإبر لكاتبه جواد أتيلهان Igneli Fiçi. C.R. Atilhan.

(2) كتاب كيف عملت الماسونية لتهديد الإسلام والإمبراطورية التركية
Farmasolnar Islamiyeti Ve Turklugu Yikmak Için calistilar - C.R.A.

للعثمانيين وللشعوب التي كانت تحت سيطرتهم، وهذه الأهداف هي التي دفعت بالماسونية لتكريس جهدها في جعل التوجيه لمنتسبيها من أبناء الشرق ذو محاور مختلفة ومرام متباينة.

ولما كانت الخطوة الأولى لتجسيد هذا المخطط هو الإطاحة بعبد الحميد العنيد، بادرت الماسونية إلى خلق هذا التجمع البابلي الغريب، الذي اندفع خلف الشعارات الماسونية، وطالب بتحقيق المشروطية، وإعلان الحرية والعدالة والمساواة، دون قيد وشرط، وبلا حساب لظروف الدولة العثمانية الصعبة، وبذا أثارت حفيظة العاهل التركي الذي عزم على وضع حد للفوضى التي سادت بلاده، فأمر عام 1905 باعتقال الصحفي اليهودي توفيق نوزت لنشره مقالات عديدة دفاعاً عن اليهودي الإفرنسي بارالي (Barali) الذي اعتقل لتهجمه على السلطان، ومقالات أخرى تحرض الشعب على العصيان والتمرد.

وبعد أن زج توفيق نوزت في السجن بأربعة أيام اغتيل ليلاً في سجنه من قبل سجين يوناني[1] ولما ذاع خبر موته في اليوم الثاني قامت قيامة الصحافة اليهودية في سالونيك والصحافة المهودة في أوربا، واتهمت السلطات التركية بخنق توفيق نوزت للتخلص من نزعته التقدمية، كما عمد شقيقه الدكتور رفيق نوزت إلى الفرار من تركيا إلى فرنسا حيث عقد اجتماعات عديدة ومؤتمرات صحفية بالاشتراك مع أبناء جلدته من يهود فرنسا، وندد بالسلطات التركية علناً ورماها باضطهاد كافة الأقليات، واغتيال رجالاتها، وعلى الأثر دعي من قبل محفل الشرق الأعظم لإلقاء محاضرات عن مظالم عبد الحميد، فانبرى يشنع بالدولة العثمانية ما وسعه التشنيع، فاستغلت الأوساط السالونيكية اليهودية هذه الحملة الدعائية الواسعة للتغرير بضباط الجيش، واشترت المئات منهم، ودفعت بهم إلى السير خلف الضباط الماسون في سالونيك الذين غرروا فيما بعد بدورهم بقائد موقعهم محمود شوكت باشا، وأقنعوه بضرورة إزاحة السلطان عبد الحميد، فاقتحم محمود شوكت عاصمة بلاده في تموز 1908 واعتقل السلطان عبد الحميد وساقه إلى سالونيك، ومن ثم أعلنت المشروطية، فرفع حزب الاتحاد والترقي شعارات الماسونية المعهودة، وهنا بزغ فجر الدونما الذين ناضلوا طويلاً للوصول إلى هذا الهدف، فانهالوا باعتبارهم أتراكاً على مراكز السلطة، لتركيز أبنائهم في قمة الحزب الحاكم، وهكذا أصبح كل من جاويد، وقراصو، وسالم من الدونما سادة النظام الجديد، بينما احتل مراكز القيادة في الجيش ضباط ماسون أمثال: طلعت باشا، وأنور باشا من أعضاء المحفل السالونيكي المعروف، وكان من الطبيعي أن يعترض محمود شوكت صاحب الانقلاب على هذا الشطط الصهيوني، فتآمر الاتحاديون عليه، وأرسلوا من يغتاله، ومن ثم اتهموا الجالية الأرمنية بقتله، فثارت ثائرة الأهلين

---

(1) كتاب الجمهورية العالمية لبيير هيبس La Republique Uvierselle par Pierre Hepéss.

على الأرمن، فوقعت حوادث عديدة كان أشدها إيلاماً تلك التي وقعت في أضنة، حيث قتل عدة مئات من الأرمن الأبرياء.

ولكي يثبت الاتحاديون أقدامهم في الحكم أرسلوا وفداً إلى فرنسا لتقديم تحيات تركيا الحديثة إلى دولتها، أولاً ولكي يضمنوا سكوت صحافتها ومحافلها السياسية ذات الصبغة المسيحية عن مذابح أضنة، ولكن الجالية الأرمنية في مارسليا علمت بأغراض الوفد فسارعت إلى إصدار بيان أعلنت فيه أن الدولة التركية الحديثة هي أكثر ظلماً للأرمن باعتبارها واقعة تحت سيطرة الأتراك الدونما «أي اليهود» الذين كانوا منذ استيطانهم في تركيا خلف كل المصائب التي حلت بالأرمن في الإمبراطورية العثمانية، وأنهم أسباب الوقيعة بينهم وبين الأتراك لأنهم يرمون إلى الحلول بديلاً عنهم في الميدان الاقتصادي في تركيا، ومن ثم عزموا على القيام بمظاهرة يعلنون فيها استنكارهم لاستقبال هذا الوفد الذي لا يمثل إلا اليهود في تركيا[1].

فلم يرق هذا التحرك الأرمني لليهود في فرنسا، فسارعوا إلى إقناع الحكومة بقمع المظاهرة، فكان لهم ما أرادوا، وقمعت المظاهرة الأرمنية في مهدها، كما تجاهلت الصحافة الفرنسية ـ التي كانت معروفة بحماسها المنقطع النظير للذود عن المبادئ الإنسانية كلما أصيب اليهود بلمسة عابرة ـ كل شيء عن البيان والمظاهرة الأرمنية، ومما يؤسف له هو أن هذه الحادثة التي وقعت في فرنسا، والتي لم يستفد منها الأرمن أي شيء، كانت وبالاً على الجالية الأرمنية في داخل تركيا، لأن حكومة الاتحاد والترقي، وحزب تركيا الفتاة أعلنا على الأرمن حرباً سافرة، فوقعت عدة أحداث مؤسفة كان الأرمن ضحاياها، كما عمدت الحكومة إلى غل أيديهم في كل عمل صناعي أو تجاري، فلم يعد أمامهم إلا التخلي لليهود عن مواقفهم الأخيرة في كل الميادين الاقتصادية، وبهذا حقق اليهود أغلى أمانيهم التي كانوا يعملون لتحقيقها منذ ما أقدم الثري اليهودي كاماندو (Camando) الإفرنسي وزميله البلجيكي بومبارجير (Beaumbarger) على إصدار الأسهم التركية (Lots Turcs) عام 1854، بزعم دعم الاقتصاد التركي المنهار، والتي لم تعد بالفائدة على أحد اللهم إلا على من تكفلا بإصدارها.

ومما أوضحنا يتبين للقارئ كيف أن الصهيونية التي صفعها السلطان عبد الحميد بشخص هيرزل، تمكنت بفضل أموالها وأنصارها وعملائها من تجنيد أكبر شخصيات ورجالات الإمبراطورية العثمانية لتنتقم على أيديهم ممن أهانها، وليوصل أبناء جلدتها الدونما إلى مراكز القوة ليسيطروا بدورهم على اقتصاد البلاد، ويدمروا تكوينها الاجتماعي والوطني من الداخل،

---

(1) كتاب الجمهورية العالمية لبيير هيبس La Republique Universelle. Par. Pierre Hepess.

ليزجوا بها حيثما شاؤوا من المتاهات السياسية لتكون لقمة سائغة في أشداق شريكاتها الدول الاستعمارية المتربصة بها، لتفوز الصهيونية بحصتها الموعودة من أسلابها.

ومما يحز في النفس هو أن الصهيونية حققت قبل الحرب العالمية الأولى كل أغراضها في تركيا على أيدي أبنائها، وراحت تعمل في ميادين أخرى لتهيئة الظروف المناسبة الضرورية لإيصالها إلى نهاية الشوط في فلسطين، إذ أنها كانت واثقة من قدرة عملائها في الإمبراطورية العثمانية على توجيه دفة السياسة التركية إلى الاتجاه المحقق لرغباتها، ولقد كان عملاؤها عند حسن ظنها، إذ أنهم قادوا تركيا من خزي إلى آخر طيلة الأعوام السابقة للحرب العالمية الأولى، فدمروا اقتصادها أبشع تدمير، وفرقوا مجتمعاتها إلى شيع وأحزاب متطاحنة وبذروا بذور الطائفية والعرقية في كل مكان، حتى غدت البلاد وكأنها ساحة قتال، وأهلها وكأنهم في يوم الحشر لا هم لأحدهم إلا المصلحة الشخصية، أما الاعتبارات الأخرى مثل سلامة الوطن أو وحدة الأمة أو سلامة المصير فأصبحت في نظر الناس وكأنها خرافات وأساطير، كما أن شقة الخلافات أخذت تتسع يوماً بعد يوم، فأصبحت الدولة في واد وطوائف البلاد في أودية أخرى، هذا عدا عن الفوضى المسلكية التي سادت عقول ممثلي الدولة، فلم يعد يحول بينهم وبين جمع المال وتخزينه أي اعتبار، مما سهل ليهود الأقطار الأوربية سبل التسلل إلى البلاد وشراء ما يحلو لهم من أملاك وأطيان في فلسطين على الرغم من أن القانون كان يمنع تملك اليهود أية قطعة فيها رسمياً، ولقد اشتهر بين حكام القدس في هذا المضمار كل من حسن موسى بورسلي، وأحمد خورشيد الذين أثريا من الرشاوي والسمسرة لليهود، دون وازع من ضمير أو رادع من خلق، حتى كثر في فلسطين عدد اليهود بصورة لم يسبق لها مثيل، ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء اليهود هم الذين تشكلت منهم فيما بعد شبكات التجسس والتخريب في كافة أنحاء البلاد العربية، وهم أنفسهم الذين كانوا يطلقون الإشاعات المدمرة أو الداعية للعصيان والتمرد، وهم الذين كانوا خلف الفساد والرشوة اللذان سادا صفوف الموظفين والضباط في الدولة العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى، وهم الذين كانوا فيما بعد عيوناً وأرصاداً للسلطات المستعمرة في كل بلد عربي، إذ كانوا يعرفون ميول ونزعات أكثر رجالات البلاد، كما كانوا يعرفون كل شيء عن التجمعات والمنظمات السياسية فيها، وذلك بفضل تعاملهم الطويل مع الجهات التي ناوأت السلطان عبد الحميد، وبذلك أصبح للغرب نواة دعم قوية في السلطنة العثمانية قبل أن تجهز دولها عليها، وهكذا غدت منطقة الشرق الأوسط مرة أخرى تحت رحمة ألد أعدائها الذين كانوا يترقبون ساعة الصفر للانقضاض عليها بعد أن انتهت معركة الصهيونية مع العاهل التركي الذي كان يعدّ الحجر العثرة الأولى في طريق أحلامها.

الصراع على إسلاب الرجل المريض

منذ قيام الوحدة الألمانية على يدي الداهية بسمارك، شعرت الزعامة اليهودية القديمة، ومن بعدها الزعامة الصهيونية المستحدثة بخطر النزعة العرقية التي كانت تنمو في ألمانيا ساعة بعد ساعة، وخاصة بعد أن أخفقت في الحد من اندفاع بسمارك عن طريق إشعال نار الحرب بينه وبين كل من فرنسا والنمسا التي خرج منهما بسمارك وأكاليل النصر تتوج هامته، فلم يعد أمام الزعامة اليهودية التي كانت تستميت للحفاظ على ما حققته من مكاسب مادية ومعنوية على يدي بونابرت في ألمانيا، سوى اعتماد الغش والخداع للتعايش مع الألمان، ولذا بادرت جاليتهم فيها إلى التظاهر بالتمسك في الوطن الألماني بشتى السبل والطرق، مثل إعلانهم عام 1818 عن أشتودغارت هي أورشليمهم الدائمة، أو الخدعة التي أطلقها مؤرخهم الشهير ناحوم سوكولوف ليميع النداءات المتطرفة التي أطلقها هيرزل في أول عهده، والتي قال فيها سوكولوف: حيثما قطن اليهودي فهو وطنه، ومصالح شعبه هي مصالحه وليس لديه قطعاً ما يتعارض مع مصالح الشعوب التي يعايشها[1]، وللتدليل على صدق هذه التصريحات الخادعة، انطلقت عقائر كتابهم وأدبائهم أمثال هانري هين ليكيلوا الثناء والمديح للشعب الألماني، ويزعموا أنهم منه وإليه، كما أقاموا مئات الندوات الأدبية والثقافية، حيث كانوا يجمعون العديد من مثقفي الألمان يتبارون معهم بالتشدق بالوطنية ليبرهنوا لهم على تعلقهم بالوطن الألماني، وكان من البديهي أن تتخاطف الصحافة المهودة حصيلة هذه الندوات لتذيعها أول بأول على الشعب الألماني، ومن ناحية أخرى أطلقوا الثريات من فتياتهم خلف نبلاء ألمانيا المفلسين ليتصيدنهم ويتزوجن منهم، ليكن في المستقبل شفيعاتهم لدى السلطات الألمانية في كل أمر ذي بال.

هذا عدا عما كان لليهود من مواقع اجتماعية واقتصادية ممتازة بلغت حد إذهال أحد النقاد، حتى قال: فيما لو طرد اليهود يوماً ما من ألمانيا، لرأيت برلين وليس فيها صحيفة تقرأ، أو طبيب يعالج مريضاً، أو محام يدافع عن بريء، أو مصنع يسد حاجة المتاجر من السلع، أو حتى كوب من الحليب لسد رمق طفل جائع[2] ومن هنا يتضح أن اليهود كانوا يسيطرون على مرافق الحياة في ألمانيا سيطرة تامة ويتبوءون في مجتمعاتها مكاناً مرموقاً، وكل هذا بفضل مسلكهم

---

(1) بحث الازدواجية الوطنية للشعب اليهودي لكاتبه سوكولوف.

(2) اقرأ (المفسدون في الأرض) ـ فصل الجرائم اليهودية في ألمانيا.

المخادع الذي سلكوه مع أهلها، حتى أن غليوم الثاني كان يتبجح بعدم وجـود يهودي واحد في صفوف جيشه، لم يكن بمنجى من التأثير اليهودي، إذ أنه ظل حتى آخـر أيامه محاطاً بزمرة من أثريائهم أمثال راتنو (Ratnenau) والأخوين بول وماركس فاربورغ (Paul etmarx Warburg) مدير شركة هامبورغ - أميركا البحرية، وهذه المواقع الممتازة التي كـان يحتلها اليهود قيضت لهم معرفة كل شيء في الدولة الألمانية، حتى أدق أسـرارها المتعلقة بأطماعها السياسية في العالم، وخصوصاً تلك التي كانت تتعلق بتركيا، والتي كانت تتعارض مع أهدافهم كلياً، إذ أن العاهل الألماني الذي كان يلوح لهم بمساعدته لإدخالهم إلى تركيا، كان يقصد في الواقـع توطينهم على طول الخط الحديدي برلين - بغداد ليقوموا بصيانته وحمايته في حال تمكنه من الاستيلاء على الإمبراطورية العثمانية، ولم يكن يقصد قط إقامة دولة لهم في فلسطين، ولما كـان اليهود أعجز من أن يرغموه على الإقلاع عن فكرته هذه، أوهمـوه بتقبل مشروعه، وأظهروا لـه استعدادهم التام لدعمه، كي لا يحل الجفاء محل اللين في معاملته لـهم، وليظلوا بـالقرب منه ليتمكنوا من الوقوف على نواياه ومخططاته، ويزودوا حلفاءهم الغربيين بكـل صغيرة وكبيرة عنها، حتى لا يؤخذوا وإياهم على حين غرة، إذ كانوا في الواقع يبيتون له منزلقاً يقوده وحليفه السلطان محمد رشاد إلى اشتباك مسلح مع الحلفاء، كانوا يعتقدون بضرورة وقوعه، ويقدرون بأن تكون نتائجه مواتية لأهدافهم، إذ أنهم كانوا على ثقة تامة بأن السلطان رشاد مـا كـان في الدولـة العثمانية إلا مجرد ستار يختفي خلفه حكام تركيا الأصلاء من أنصارهم الدونما والماسون المندمجين في حزبي الاتحاد والترقي - وتركيا الفتاة، الذين لن يوفروا جهودهم لتهديم أحـلام غليوم الثاني، وتحطيم الغلواء الفارغ لحليفه، وذلك عندما تحين الفرصة التي من أجلها جاؤوا إلى الحكم.

وبانتظار ذلك عمد الدونمـا في تركيـا للتظـاهر بتمسكهم في الصداقـة الألمانية إرضـاءً للسلطان وتغريراً بالأكثرية الساحقة من مثقفي البلاد الذين كانوا بحكـم ثقافتـهم الألمانيـة أكثر ميلاً إليها من سواها من الدول الغربية التي كانت تظاهر الحركات الانفصالية فـي الإمبراطورية العثمانية بصورة أكثر وضوحاً مما كان عليه موقف ألمانيا من تلك الحركـات، وهـذه الازدواجية فـي السياسـة التـي اعتمدهـا الدونمـا انطلـت علـى الجميـع بكـل يسر وسـهولة، مثلمـا انطلـت ازدواجية المواقف اليهودية على العاهل الألماني، الذي وثق بمـن كـان يحيطـون بـه مـن أبنائـها، وخاصة المدعو آلبير باللان، الذي كان يعتمـده غليـوم الثـاني، فـي حـل أكثر الأمـور تعقيـداً، وكل ذلك في سبيل الحصول على قروض مالية مـن المصـارف اليهوديـة التـي كـان بـاللان أحد المتنفذين في شؤونها.

ولما كانت الصهيونية العالمية آنذاك في شبه ورطة من جراء البرود الذي ساد بين حليفتيها فرنسا وإنكلترا، بسبب انفراد الأخيرة في السيطرة على مصر منذ عام 1882، بعد أن كانتا أصلاً شريكتين في إدارة قناة السويس على قدم المساواة، والخلاف الجزئي بين الدولتين أثر بصورة مباشرة على حسن سير التخطيط اليهودي، ولذا كانت الصهيونية حريصة كل الحرص على إيجاد مخرج مناسب لتقريب وجهات النظر بين حليفتيها، وتسييرهما معاً ضمن الأهداف المشتركة، ولقد وجدت هذا المخرج في المعلومات المتعلقة بنوايا ألمانيا التي استقاها بالالان من العاهل الألماني، والذي كان يثق به بفضل تظاهره بالوفاء له والعداء للدول الغربية، وهذه المعلومات كانت تتلخص بأن ألمانيا ترغب في الاستيلاء على المملكة المغربية أسوة بفرنسا وإنكلترا اللتين تقاسمتا إفريقيا الشمالية في مستهل الثمانينات من القرن الماضي، ولكي تحد من أهمية جبل طارق الاستراتيجية في حال حدوث الاشتباك المسلح الذي كان منتظراً وقوعه من جراء التنافس الذي ساد آنئذ بين الدول الأوربية لأجل السيطرة على الإمبراطورية العثمانية، التي كانت الدول الغربية تتوخاها بمختلف الأعذار التي بحثنا عنها، والتي كانت ألمانيا ترمي من خلفها سلب بريطانيا سيادتها على قناة السويس وبحر العرب مفتاحي طريق الهند الذي كان غليوم الثاني يستميت في سبيل اقتلاع الجذور الغربية منه، هذه الأغراض الاستعمارية هي التي كانت كل من الجبهتين تسعى بشتى الأساليب لاستقطاب أكثر عدد ممكن من الدول الأخرى حولها لتضمن النصر النهائي لجبهتها في حال وقوع الحرب بينهما، وبما أن باللان كان من الصهاينة الضالعين في إذكاء نار الحقد بين الجبهتين رغبة في زجهما في الحرب المنتظرة والتي كانت الصهيونية تعدّها أملها الوحيد في تحقيق أغراضها المالية «أسوة بكل النزاعات الدولية التي لم تسفر إلا عن تضاعف رؤوس الأموال اليهودية، ولم تكن نتائجها إلا لصالح اليهود وحدهم» من جهة، وأهدافها البعيدة المدى المتعلقة بفلسطين من جهة أخرى، ولذا سارع إلى وضع هذه المعلومات تحت تصرف الدول الغربية عن طريق الزعامة الصهيونية، التي كان موكلاً آنذاك برئاستها ماكس نوردو (M. Nordau) والذي سبق سلفه هيرزل في التشدد لإقامة الدولة اليهودية، والذي تبنى المؤتمر الصهيوني السابع (عام 1905) كافة نظرياته المتعلقة بهذه الدولة وحدودها والتي ازدادت رقعتها اتساعاً في أعقاب المؤتمر الصهيوني الثامن (عام 1907 في لاهاي)، فانبرى نوردو - والمحافل الضالعة معه في تهويل الأمر على ساسة كل من فرنسا وإنكلترا، وبذلوا جهود الجبابرة لحل الخلاف بينهما على حساب المغرب، فاتفق الجانبان على أن تكون لفرنسا امتيازات في المملكة المغربية اعتباراً من عام 1904 شريطة أن تتخلى عن

مناوءة بريطانيا في المجال المصري[1] وفي عام 1911 اضطر غليوم على الاعتراف بهذه الامتيازات بعد أن أخفقت كل محاولاته من جراء تسرب أسراره إلى الغرب، عندها أقدمت فرنسا على فرض حمايتها التامة على المغرب ووضعت العالم أمام الأمر الواقع، ومنذ ذاك التاريخ توحدت الاتجاهات السياسية لكل من فرنسا وإنكلترا، وأقرتا بالحد من شراهة غليوم الثاني، وهكذا أثبت باللان صحة تساؤل الزعيم الألماني الشهير بسمارك الذي قال يوماً: لم خلق الله اليهود؟ إن لم يكن ليعملوا جواسيساً في خدمة كل فاتح؟..

والجدير بالتنويه هو أن الرأسمالية اليهودية الممثلة بالصهيونية العالمية، لم تكتف من هذه الصفقة بجمع شمل حليفتيها، بل أصرت على تقاضي ثمن خسة ممثليها في ألمانيا، بأن طلبت من فرنسا منحها حق استثمار أموالها في المحمية الجديدة، فلم يخيب رجاءها بريان (Briand) رئيس وزارتها آنذاك وأعطى لهوراس فينالي (Horaçe Finaly) اليهودي السوري الأصل امتيازاً لتأسيس شركات عديدة مثل شركة (S.A.M.) التي احتكرت كافة أنواع المواد الغذائية، وشركة (S.M.D.E) التي كانت تحتكر الكهرباء والغاز والماء وصناعة التبغ، وهكذا أصبح اليهود سادة المصير المراكشي، ولم يبق للأهلين ما يتعاطونه من أعمال سوى خدمة هذه الشركات التي ظلت تمتص دماء هذا الشعب المنكود طيلة بقاء الاستعمار الفرنسي.

ولقد أفقرت هذه الشركات المواطنين لدرجة اضطر معها أغنياؤهم إلى بيع أملاكهم ليقتاتوا بأثمانها، حتى أن الأمير الجليل عبد الكريم الخطابي نفسه أجبر على بيع ممتلكاته لتسديد الديون اليهودية التي أثقلت كاهله، ولما تذمر الشعب من السيطرة اليهودية هذه، عمدت السلطات الفرنسية إلى كم الأفواه بالقوة، فاندلعت الثورة المغربية عام 1921 تحت زعامة الأمير الخطابي، فاغتنمها اليهود فرصة أخرى للإثراء، على الرغم من أنها كانت موجهة أصلاً ضدهم، فأوفدت الصهيونية ممثلها المدعو باسيل (Basile) اليهودي التركي الأصل الذي اشتهر في المحافل الأوربية بلقب (رجل أوربا الغامض) لكثرة تدخله في المؤامرات والاضطرابات التي كانت تحدث في مستهل القرن العشرين في البلقان والبلاد الأوربية الأخرى، إلى المغرب ليفاوض ثوارها لمدهم بالسلاح والذخيرة، ولقد تم الاتفاق سريعاً بينه وبين الثوار، فانبرى يقدم لهم السلاح والذخيرة بأثمان خيالية بموافقة وعلم السلطات المستعمرة التي كانت معاملها تستفيد من هذه التجارة. ولكن غلاء الأثمان وشح المال لدى الثوار أعجزهم في النهاية عن دفع ما ترتب

---

(1) بيير هيبس ـ الجمهورية العالمية La Republique Universelle. P. Pierre Hepées.

عليهم لباسيل عام 1926 فتخلى عنهم بعد أن امتص دماءهم. وتوارى عن الأنظار فكان من الطبيعي أن يستسلم الثوار من جراء افتقارهم لمقومات المقاومة، وانتهت الثورة كما هي معروفة، ولم تسفر نتائجها عن خير سوى لليهود الذين تضاعفت ثرواتهم وازدادت سيطرتهم بعد أن كسرت شوكة النضال المراكشي، فأصبحوا سادة المغرب لأمد طويل[1].

هذا عدا عن النصر السياسي الكبير الذي حققوه بتوحيدهم سياسة كل من فرنسا وإنكلترا، لتطويق عدوة الصهيونية الثانية (أي ألمانيا) التي كانوا يخشون اتجاهاتها القومية المتطرفة التي تعاظمت منذ قيام وحدتها، والتي كانوا يشكون في نواياها المتعلقة بفكرة استيطانهم في فلسطين، ولذا صمموا على العمل لتدميرها في آن واحد مع الإمبراطورية العثمانية، على أيدي هاتين الدولتين، والدول التي كانوا يرجون ضمها إلى صفهما، وبانتظار ذلك ثابر ممثلوهم في ألمانيا على التظاهر بالولاء لعاهلها، وتحريضه على إقامة تحالف عسكري مناهض للدول الغربية التي كانوا يتهمونها قصداً، بالانفراد دونه بخيرات المستعمرات الشاسعة، والسعي لتطويق ألمانيا اقتصادياً ومنعها من الخروج إلى الآفاق الحيوية اللازمة لتطورها، ولإقناعه بصحة مزاعمهم، كانوا يأتونه بالبراهين والأدلة، ذات المظهر القاطع، عن طريق معلومات سياسية، واقتصادية مزورة متفق على صياغتها المضللة مع المحافل الصهيونية في الدول الغربية، وكل ذلك بغية توسيع شقة الخلاف بينه وبين الدول الغربية.

وفي هذا الصدد قال السيد هيبس مؤلف التوراة الجديدة، إن اليهودي باللان الصديق الحميم للعاهل الألماني الذي قتل قبل إعلان الهدنة عام 1918 ببضعة أيام بصورة غامضة، كان المحرض الأكبر في زج غليوم الثاني في أتون الحرب العالمية الأولى التي كانت الصهيونية تعدها المخرج الوحيد لتحقيق أهدافها في منطقة الشرق الأوسط، ولذا بذلت زعامتها أقصى جهودها لخلق الجو المؤدي لاندلاعها، ولقد استعانت في سبيل ذلك بكل أسلحتها المادية والمعنوية والدعائية، وخاصة في الجاسوسية ذات الألف لون ووجه التي امتهنها أنصارها حيثما وجدوا لحساب كافة الدول، وضمن نطاق التوجيهات التي كانوا يتلقونها من زعامتهم الخادعة.

---

(1) بيير هيبس ـ الجمهورية العالمية La Republique Universelle, P. Pierre Hépess.

الحقائق التي تكمن خلف التقلّب الصّهيوني عبر التاريخ

قبل أن يصدر هيرزل كتابه (الدولة اليهودية عام 1896)، كان العالم لا يعرف شيئاً واضحاً عما سمي فيما بعد بالمسألة اليهودية، كما أن أحداً لم يكن قد سمع قبل الإعلان عن مقررات مؤتمر بال لعام 1897 بشيء اسمه الصهيونية، ومع هذا يصر زعماء الصهيونية وكتابها أمثال ن. سوكولوف، وج. براندي، ون. بلتفيتش على الزعم بأن مبادئها وفلسفتها وأفكارها مستمدة من أقدم المشاعر والأحاسيس والمعتقدات اليهودية التي تضاهي في قدمها، قدم التاريخ والزمن، والتي تنبثق عن الأهداف التي ناضلت لتحقيقها كافة الأجيال اليهودية التي تعاقبت بعد عهد السبي وتدمير الهيكل إلى يومنا هذا، والتي تتلخص بالعودة إلى فلسطين التي حنّ ويحنّ إليها كل يهودي عاش ويعيش في هذا الكون لأنها من صميم معتقداته ومبادئه الدينية والدنيوية التي تشير إلى حتمية هذه العودة التي تؤكدها كافة نبوءات أنبياء إسرائيل والذين حددوا حدوثها قبل قدوم المسيح المنتظر (على حد زعمهم) الذي ستتحقق على يديه سيادتهم على العالم أجمع تنفيذاً للوعود اليهوائية الواردة في مصادرهم الخاصة، مع العلم أن التاريخ لا يذكر بعد ثورة عام 66 ميلادية وقوع أية حادثة يهودية، سياسية كانت أم اجتماعية اتسمت أسبابها بطابع إرادة العودة لفلسطين، بل كان العكس هو الصحيح.

ولإثبات هذه النظرية لسنا بحاجة إلى أكثر من عودة سريعة لاستعراض الحوادث اليهودية العديدة عبر التاريخ، وإمعان النظر فيما قيل عن أسبابها ونتائجها، وإلقاء نظرة عابرة أخرى، على بعض ما قاله أساطين الصهيونية أنفسهم عن غايات تنظيماتهم في مختلف المناسبات والظروف التي تحدثوا عنها.

من الأمور البديهية أن تتفاعل الأكثرية الساحقة من أنصار أية فكرة جديدة بخطوطها ومفاهيمها العريضة، من خلال ما فيها مما يدغدغ أحاسيسهم الكامنة في أعماقهم، ومما يثير مشاعرهم المكبوتة، فينسجمون معها بصورة عفوية دون البحث عما وراءها، وعما يمكن أن ينتج عنها، ودون أن يسبروا غور مقاصد دعاتها، أما أولئك الذين يجنحون إلى التعمق المسبق في كنه الأغراض الأصيلة أو الغايات الخفية القابعة خلف الفكرة، فهم عادة قلة لا تذكر، تعجز في أكثر

الأحيان عن الوقوف في وجه التيار الفكري بعد أن يكون قد انطلق، وأحياناً يعجز أصحاب الفكرة أنفسهم ذات الغايات غير المشهرة، عن السيطرة على اندفاع أنصارهم خلف المنطلقات السطحية المعلنة من الفكرة التي نادوا بها، وبالتالي يتعذر عليهم، تحويل مسيرة مريديهم نحو المآرب الجوهرية التي أخفوها عنهم في البداية.

وهذا هو بالذات ما حدث للزعامة الفرانكفورتية التي رفعت أعقاب الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث الشعارات التي أسفرت عن تحرر اليهود من قيود مهاجرهم، وحصولهم على كافة الحقوق المدنية، مع سبل الاندماج في الشعوب الأخرى، هذه المكاسب التي لم تكن الزعامة اليهودية تتوخى من وصول اليهود إليها قط ما كان يعنيه ظاهر شعاراتها المبسط، بل كانت ترجو أن تكون بمثابة مرحلة بدائية، يظل فيه اليهود على ارتباطهم الوثيق بها، لتدفع ببعضهم إلى المراكز الاجتماعية والسياسية المرموقة في الدول الغربية، ليكونوا عوناً لها في استغلال واستثمار ثرواتها في المشاريع الاقتصادية التي كانت تأمل أن تقيمها الدول الاستعمارية في مجالاتها التوسعية المنتظرة، على أن يبقى السواد الأعظم من الشعب اليهودي على تقوقعه خلفها، ليكون رديفاً لها فيما يستلزمه تحقيق الجوانب الخفية من مخططاتها.

ولكن اليهود الذين كانوا يجهلون غايات الزعامة الفرانكفورتية الخفية، انطلقوا في منتصف القرن التاسع عشر خلف المفاهيم العريضة للفكرة، ورموا بتقاليدهم وأعرافهم القديمة وتزمتهم العنصري البغيض جانباً، وانهمكوا في ترتيب عيشهم على الأسس الجديدة، وكادوا في فترة وجيزة أن ينصهروا في بوتقة الشعوب الأخرى، ويخرجوا نهائياً من قبضة هذه الزعامة المتزمتة التي أسهمت كثيراً في انعتاقهم مما كانوا عليه، فهالها الأمر، وخشيت من أن يؤدي بها الوضع هي الأخرى بدورها إلى الانصهار والاضمحلال، فبادرت إلى معالجة المشكلة باستنباط بدعة موائمة لإعادة الخراف الضالة لمربطها، وهيأت لها الظروف، والمناسبات، والمسوغات «مثل افتعال ما سمي بمذابح أوربا الشرقية، وقصص الاضطهاد العنصري على أيدي من نعتتهم باللاساميين الخ» ومن ثم أطلقت هيرزل وأعوانه لينادوا بالصهيونية التي اقتبسوا مبادئها ومنطلقاتها من جعبة خرافاتهم العفنة المكتظة بسموم التزمت العنصري والعقائدي، مع كل ما فيها مما يناهض الشعارات العديدة للثورات والأحداث التي أسهمت زعامتهم بخلقها في الماضي، ولقد اتخذوا المذابح التي نوهنا إليها وما ابتدعوه من حجج أخرى، مثل الاضطهاد اللاسامي الذي ابتدعوه بأنفسهم، مسوغات لترويج مخترعاتهم الجديدة مثل الدولة اليهودية والوطن القومي، والقومية اليهودية، هذه الأشياء التي كانت الزعامة الصهيونية آخر من يفكر في

الإيمان بها، وهي لم تناد بها إلا لاستقطاب اليهود حولها لتستعين بهم لتحقيق أغراض الرأسمالية اليهودية الطامعة في خيرات الشرق الأوسط بالاتفاق مع شريكاتها الدول الاستعمارية، وذلك عن طريق تركيز معسكر يهودي في قلب العالم العربي ليكون بمثابة مخلب قط للمحافظة على الاستثمارات الاستعمارية التي أقر إقامتها في هذا الشرق منذ فجر عصر الاستعمار، والتي كان تنفيذها مرهوناً بتحقيق سيطرة الغرب الفعلية المنتظرة على السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، ومن ثم التحول إلى تحقيق سيطرة الرأسمالية اليهودية القابعة في نيويورك ولوندرا وسواهما على الميادين الاقتصادية والفكرية، في العالم أجمع.

أما المزاعم المتعلقة بالعودة والاستيطان التي اعتمدتها الصهيونية لإقامة معسكرها في فلسطين، ما كانت سوى عمليات تمويهية لتغطية مآربها ولاجتذاب الفئات اليهودية القليلة المعدمة إلى الأرض المقدسة لتسخر أفرادها لخدمة الأهداف الحقيقية لقيام هذا المعسكر.

والبراهين على صحة نظريتنا هذه تكمن في سلوك اليهودية القديم حيال فلسطين، وفي التناقض الفاضح الكائن بين مختلف التصريحات التي صدرت عن الزعامة الصهيونية في المراحل المختلفة لدعوتها الباطلة.

عندما تدعي الزعامة الصهيونية بأصالة فكرتها في القدم وتزعم تعلق اليهود المكين بها منذ عهد السبي، فإنها تدين نفسها بالكذب والافتراء بصورة واضحة حيال التاريخ، إذ أن العالم أجمع يعلم بأن الأكثرية الساحقة المتنعمة من يهود مدينة بابل استنكفت عن العودة لفلسطين، على الرغم من كل المرغبات والتسهيلات والمعونات التي قدمت لها من قبل كورش الفارسي، واكتفت بأن توفد إليها العبيد والمرتزقة الذين غررت بهم بشتى الوسائل المادية والمعنوية، في الوقت الذي لم يكن اليهود يتورعون عن مواكبة الجيوش الفارسية الغازية، بصفة تجار متجولين للاستفادة من تموينها، والاستيلاء بأثمان بخسة على ما كان يسلبه أفرادها من تحف ثمينة من البلاد التي أخضعوها لسلطانهم، كما أن الذين أثروا من بين هؤلاء التجار لم يعزفوا عن الاستيطان في مدن البلاد المجتاحة التي توخوا فيها طيب الكسب والإقامة، وهذه الحقائق يعترف بها حتى غلاة كتاب الصهيونية أمثال حاخام إنكلز الأكبر، والمؤرخ الصهيوني الأميركي (أ-ب- أولمستد) ون. سوكولوف ويعزونها إلى ما لقي اليهود من طيب الإقامة ورغد العيش في بابل والبلاد الأخرى، نسبة لما كانت عليه حياتهم في فلسطين القاحلة.

أما المؤرخ الصهيوني الأميركي (س-و-يارون) فيضيف على كل هذا تصريحاً أكثر عمقاً في نسف الأضاليل الصهيونية، وذلك باعترافه بأن المجلس الكهنوتي الأعلى في بابل كان يبشر

بانتقال مصدر إلهام الحكمة والنبوءة اليهودية من القدس إلى بابل نهائياً، أي أن بابل أصبحت مركز الإشعاع الديني القومي بديلاً عن القدس.

والتاريخ الروماني يؤكد بدوره بأن اليهود كانوا يهجرون فلسطين بأعداد كبيرة بتشجيع من يهود الإسكندرية، مما اضطر الإمبراطور الروماني كلاديوس إلى إصدار تشريع خاص للحيلولة دون هذه الهجرة.

والمصادر التاريخية الإغريقية تخبرنا أيضاً بأن اليهود في الإمبراطورية الإغريقية، أقلعوا نهائياً عن تداول لغتهم القديمة، واستعاضوا عنها باليونانية، وخير دليل على ذلك، هو المخطوطات اليهودية التي صدرت في الإسكندرية وسواها قبل عهد المسيح.

ولما هيمنت الدولة العربية على أكثر أجزاء العالم القديم كان اليهود أحراراً في التنقل حيثما شاؤوا، ومع هذا لم يجنحوا قط للتجمع في فلسطين، بل فضلوا التمركز في العراق والأندلس، حيث كان العيش أهنأ وأرغد، حتى إن الجالية اليهودية التي بلغت أوج الثراء في قرطبة، اتخذ أفرادها الأسماء العربية بدلاً عن أسمائهم اليهودية، وتنكروا كلياً لأنسابهم القديمة.

وعند ظهور الدولة الخزرية التي تهودت عام 692 على أيدي مبشري اليهود الذين أموها من بيزنطة وفارس، التفت حولها أكثر أفراد الجاليات اليهودية في البلاد المحيطة بها بغية تعزيزها.

أما في الممالك الأوربية القديمة التي اشتهر أثرياء اليهود فيها بالتقرب من ملوكها وامتلاك الحظوة لدى أباطرتها، فلم يذكر التاريخ قط أن أحداً من هؤلاء المقربين وأصحاب الحظوة اليهود، أقدم يوماً إلى التماس العون من أحد هؤلاء الأباطرة ليساعده في العودة أو الاستيطان في فلسطين على الرغم من الفرص العديدة التي قيضت لهم وخاصة إبان الحروب الصليبية التي اكتفوا بتمويل قادتها بغية الإثراء بما تقاضوه من فوائد هذا التمويل فحسب.

وفي عصر السلطنة العثمانية التي يعترف بعض كتاب الصهيونية أمثال بن هاليبرين بفضلها على الجاليات اليهودية لما منحت أفرادها من حرية التنقل والعمل في كافة أرجاء بلادها، لم يفكر اليهود قط بالعودة إلى فلسطين، واختاروا الإقامة في المدن التجارية الكبرى مثل إستنبول وإزمير والقاهرة ودمشق، حيث كانت سبل الإثراء السريع أسهل تناولاً.

وهذا العزوف اليهودي عن الإقامة في فلسطين، هو الذي كرس التقلص الذي أصاب تعدادهم في أعقاب ثورة 66 ميلادية في فلسطين، ولذا ظل تعدادهم فيها محدوداً حتى عام 1700 بما لا يربو عن الألفي نسمة.

ومن هنا يتضح بجلاء أن اليهود بعد التشرد لم يفكروا قط بالعودة لفلسطين، فلو أن فكرة العودة كانت متأصلة في نفوسهم مثلما يزعم فلاسفة الصهيونية، لكان المفروض فيهم أن يستغلوا كافة الفرص التي أتيحت لهم لتحقيقها، ولو تدريجياً وألا ينتظروا ألفي عام للعودة إلى التفكير بها، ومن ثم لو كانوا فعلاً يقدسون أرض فلسطين كما زعموا، لكان على الأقل استفاد متدينوهم من كل تلك المناسبات للعودة إلى أرض هيكلهم، ولازداد بذلك تعداد بني قومهم الذي ظل متجمداً طيلة تلك الأحقاب ولو ببضعة ألوف، ولما تجرأ مجلسهم الكهنوتي في بابل على إعلان انتقال إشعاع الوحي والإلهام إليها بدلاً من بيت المقدس. ولما صرح كهنتهم فيما بعد في نيويورك ومن ثم في أشتودغارت بكون هاتين المدينتين أورشليمتيهما الأبديتين.

ومن خلال هذه المواقف والتصريحات، يظهر جلياً بهتان قصة قدم الفكرة الصهيونية، وكذب زعم تعلق اليهود بقدسية أرض الميعاد، وإلا لما تقاعسوا عن تحقيق الفكرة كل هذه القرون الطويلة، ولما أعلنوا مراراً عن ازدرائهم لقدر القدس وعدولهم عن تقديسها.

أما تذرع الصهيونية بعداوة اللاساميين للمطالبة بالعودة لفلسطين فهو أيضاً لا يعدو عن كونه فرية مصطنعة رخيصة، تتجلى معالم زيفها من خلال سير الأحداث التاريخية، ومن فحوى تصريحات فلاسفة وكتاب الصهيونية أنفسهم، إذ أن العالم بأجمعه يعلم علم اليقين أن اليهود على الرغم من كل الجرائم الجماعية القذرة التي ارتكبوها عبر التاريخ، مثل المذابح الوحشية التي أقدموا عليها إبان ثورة عام 66 في مختلف أقطار الإمبراطورية الرومانية، وما أنزلوه من كوارث على سادة الكنيسة المسيحية وأتباعها في فجر ظهور النصرانية، وما ارتكبوه من وحشية وهمجية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، والمؤامرات العديدة التي حاكوها على الإسلام طيلة أربعة عشر قرناً، والجرائم الدنيئة التي أقدموا عليها في عهد ثورة كروميل في بريطانيا، والمذابح الشرسة التي افتعلوها إبان الثورة الفرنسية وما تمخضت عنها من أحداث، عدا عن ألوف الجرائم الفردية في مناسباتهم الدينية التي أقدموا عليها في مختلف أقطار الأرض، وما أنزلوه من النكبات المالية والسياسية، وما افتعلوه من ثورات وحروب في كل بلد نزلوا فيه، فإنهم لم يتعرضوا قط لجزء من ألف مما تذكر مصادرهم الخاصة بهم عما عرضوا إليه الشعوب الكنعانية التي يزعمون انتصارهم عليها، إذ أن هذه المصادر تفاخر بكل وقاحة وسفالة بأن أصحابها لم يعفوا قط عن أي من الشعوب التي انتصروا عليها، وأنهم قضوا على كل حي فيها، وحتى المواشي والبهائم لم تنج من حقدهم الأسود، ومع كل هذا لم يتعرض اليهود في أعقاب أي من هذه الحوادث لعقوبة القتل العام والإفناء التام التي طبقوها على أعدائهم، بعد أن اعترفوا

بشرعيتها بزعم أنها إحدى أوامر يهواهم ورسله ، أما العقوبات العادلة التي كانت تنزلها سلطات الشعوب التي عايشوها ، فقط بالمجرمين منهم ، فهي التي يعدوها ناتجة عن العداوة اللاسامية نحوهم ، وكأنني بهم يرومون أن ينجو كل مجرميهم من العقاب مهما كانت معالم جرائمهم واضحة ، مع العلم أن بدعة العداء اللاسامية التي اتخذوها حجة للتنصل من مسؤولية جرائمهم ، أنقذت الكثير من مجرميهم ، على الرغم من ثبوت ما اقترفت أيديهم .

فلو كانت اللاسامية من العقائد الراسخة في أذهان أولئك القادة والشعوب الذين تتهمهم الصهيونية باعتناقها ، لما بقي يهودي واحد على وجه البسيطة ، بعد كل الجرائم الجماعية والفردية التي ارتكبوها عبر التاريخ ، وفي هذا الصدد نرى أن العكس هو الصحيح ومع كل أسف ، إذ التاريخ متخم بالوقائع التي تشهد بأن مسلك الشعوب وقادتها في معاملة مجرمي اليهود لم ينحرف قط عن المفاهيم الإنسانية وعن الشفقة بهم لقلة تعدادهم وخفوض أجنحتهم ، وإلا لما ازداد نفوذهم كل هذه الزيادة ، على الرغم من كل الموبقات التي أقدموا على ارتكابها والتي كانت واحدة منها كافية لكي يقدم أي من قادة الشعوب التي أساؤوا لها على اجتثاث شأفتهم من الوجود .

والأغرب من كل هذا هو أن كلمة اللاسامية وما تدل عليه ، لم تكن معروفة قبل القرن الثامن عشر ، وهي لم تستعمل قط حتى من قبل كتاب اليهود أنفسهم قبل العصور الحديثة ، مما يدل صراحة على أنها بدعة جديدة ، لم يجدها أحد قبل فلاسفة الصهيونية الذين اعتصموا خلفها ، للتدليل بها على من يتصدى لأضاليلهم ، أو من يقف في طريق غاياتهم ، ومن ثم لتسويغ مساعيهم لإقامة معسكرهم الاستعماري في قلب العالم العربي ، وهذه الحقيقة تظهر لنا بكل وضوح من خلال أقوال سادة الصهيونية أمثال ل. وولف (L. Wolfe) الذي يعترف بكل بساطة أن الصهيونية ظهرت للوجود بعد أن تحرر اليهود من قيودهم ، أي في وقت لم يكن اليهود فيه بحاجة لما يتذرعون به لحماية أنفسهم ، ومع ذلك يصرح وولف بظهورها ، دون أن يشير إلى أسباب هذا الظهور ، وهنا لابد للمرء أن يتساءل عمن أوجدها وعن عوامل إيجادها؟ والجواب على هذه الأسئلة يأتينا في إحدى تصريحات الزعيم الصهيوني الأول هيرزل حيث يقول : إن قيام الصهيونية لن يتطلب جهوداً كبيرة طالما كانت اللاسامية موجودة ، فهي ستتكفل بقيامها بكل يسر وسهولة ، وهذا يعني أن اللاسامية وجدت لخير ومصلحة الصهيونية باعتبارها حافزاً قوياً لالتفاف اليهود حولها .

ومن هنا يتضح أن الزعامة اليهودية هي التي أوجدت اللاسامية لتغرر بهولها الوهمي بكل من يعتنق اليهودية ، حتى يحتمي منها بالصهيونية ، كما أرادت منها استدرار عطف كل الفئات

ذوات النزعة الإنسانية والمجتمعات المتأثرة بتعاليم العهد القديم، وإلا لما كانت بحاجة لاستنباطها في أواخر القرن التاسع عشر، قرن الحضارة والمدنية التي زالت فيه كافة الفوارق المذهبية في أوربا، وانطلقت فيه المفاهيم الإلحادية واللاقومية على أوسع نطاق، ولم يعد فيه من يفرق بين الناس، سوى الصهيونية إياها التي انفردت دون العالمين بالدعوة للعنصرية والقومية بأعنف صورة عرفت في التاريخ، ولإدانتها بهذه الدعوة لسنا بحاجة لأكثر من أن ندون فيما يلي بعض أقوال سادة الصهيونية أنفسهم، ومنها تصريح هيرزل الذي قال فيه: إن إيماننا وحماسنا، وتضحياتنا في سبيل رفعة أمجاد أوطاننا التي أسهمنا في تطوير حضارتها، ومضاعفة ثرواتها، كلها كانت عبثاً ودون طائل، كما قال في مناسبة أخرى: إن المأساة التي يعيش اليهود فيها، هي نتيجة لاستنزاف قواهم العقلية التي سخروها لإسعاد الألمان الذين اغتنوا بها، بينما فقد اليهود ثمرات كل ما تمخضت عنها.

وهذه الأقوال إن دلت على شيء فإنما تدل على الدعوة الصريحة ليهود العالم للتنكر للأوطان التي عايشوها، وتحفزهم للتمسك بالعنصرية المتطرفة، وتحضهم على التعالي على الآخرين بزعم أنهم أكثر نضوجاً منهم.

هذا عدا التبجحات المماثلة التي صدرت عن الكثير من دعاتهم أمثال بنسكر الذي يزعم أن اليهود هم أنقى عرق في العالم، في الوقت الذي أيقن فيه الناس بأن كلمة اليهود (أو اليهودية) لا ترمز إلى شعب معين، وما هي إلا تعبيراً اصطلح عليه لتعريف أناس من مختلف الشعوب جمع بينهم مذهب معين، لا يملك أتباعه أياً من الميزات العلمية الدالة على الخصائص المعرفة للشعوب والأمم. وعلى الرغم من ذلك نرى أن الداعية الثانية للصهيونية ماكس نوردو لا يتورع في مؤتمر بال عن التبجح باعتزازه ببني قومه ويزعم أنهم أشد مراساً من الشعوب الأوربية وأفضل تفكيراً من كل سكان إفريقيا وآسيا الخاملين، ومع هذا لا تخجل الصهيونية من اتهام سواها بالتطرف العنصري، ولا عن دعوة الشعوب الأخرى لنبذه، وكأنها ليست هي التي تنشر هذا التطرف المشين على لسان سادتها ومفكريها.

ومن ثم تطالب العالم بأن لا ينعت هذه التصريحات الغوغائية الفارغة، والتعالي السخيف النابعين من تزمت مصادر أسلافها العفنة التي أكل الدهر عليها وشرب بالعنصرية، أو ليست هذه الترهات التي يطلقها كتابها بكل خبث ودهاء دعوات صريحة لإثارة مشاعر البغضاء نحو اليهود لتتخذها الصهيونية سلاحاً ترهبهم به ليلتفوا حولها، وليعترفوا بزعامتها، ولتقودهم

صاغرين في متاهات أغراضها الاستعمارية ومشاريعها الاستثمارية بزعم إنقاذهم من غول اللاسامية الأسطوري الرهيب؟.

ويا ليت التناقض الصهيوني وقف عند هذا الحد من المفارقات، والأنكى من كل هذا هو التباين المضحك الكائن في الآراء المتعلقة في وصف كنه الدولة اليهودية، والذي ينضح من خلال التصريحات الصهيونية المختلفة، التي تكشف زيف وبطلان زعم إرادة اليهودية في إقامة هذه الدولة لإنقاذ أبنائها من الاضطهاد والتشرد وبالتالي تفضح الغايات الأساسية الكامنة خلفها، وللتأكد من ذلك يكفي أن نستعرض الغايات الأساسية الكامنة خلفها، وللتأكد من ذلك يكفي أن نستعرض بعض هذه التصريحات.

ومن المعروف أن سيد الصهيونية هرتزل انطلق في البداية من فكرة إيجاد وطن قومي لليهود يجمع شملهم ويصون حياتهم، وعلى هذا الأساس استدر عطف الشعوب، وطالب عون الدول، ودعا يهود العالم للاستقطاب حول فكرته وكأنه موسى الجديد.

فلما تبلورت فكرته، وتكاثر أنصارها، وإذ به يعدل عن فكرته ويصرح في أعقاب المؤتمر الصهيوني الثالث، بأن الغاية من فكرته هي تسوية الأمر بصورة تكفل لليهود قيام كيان خاص بهم، دون التقيد بتهجيرهم جميعاً إليه.

أما بنسكر فهو يعلن صراحة بأن الغرض من إقامة الدولة اليهودية يجب أن لا يفهم منه هجرة اليهود الكاملة إليها، ويجب أن تحدد الهجرة نسبة لما تتطلب الظروف الاقتصادية للبلاد التي يقطنون فيها، أما فكرة الهجرة العامة فيجب أن تستبعد كلياً من الموضوع.

ولقد أكد الزعيم الصهيوني أحد هاعام رأي بنسكر بأن قال: إن الدولة اليهودية هي ضرورة معنوية، إذ أننا بحاجة لمركز روحي وقومي، للحفاظ على وحدة العمل اليهودي، أما الهجرة الشاملة فليست قطعاً من أهدافنا التي نتمسك بها.

وفي الصدد نفسه عاد بنسكر ليقول: يجب أن نتجنب التمركز العام حيث تحطمت حياتنا في الماضي كدولة وشعب، فنحن لسنا بحاجة لأكثر من منطقة تصبح ملكاً لنا دون تمييز لننقل إليها ما أنقذناه من تراثنا المقدس، إن القدسية بالنسبة لنا تكمن في الاعتراف بيهوه والتوراة، وليس في بيت المقدس أو نهر الأردن.

ولكن الزعيم الصهيوني ريتشارد ليشتيم (Richard Lichtéin) كان أكثرهم صراحة عندما كتب يقول: إن استعمار فلسطين بصورة عاجلة، وإيفاد ملايين اليهود إليها هو عمل طائش عقيم، إذ أن فلسطين لن تستوعبهم جميعاً، كما أن الجماهير اليهودية ليست على استعداد

للهجرة إليها فالقضية إذاً ليست عملية نقل أو تهجير الجماهير اليهودية، وجل ما نطلبه، لا يعدو إحياء الكيان القومي اليهودي، وإيجاد مركز قيادي للتأثير على العقلية اليهودية المشبعة بفكرة السيطرة على العالم في المجالات السياسية والاقتصادية التي سيساهم في تحقيقها كل يهودي حيث يقيم بالتعاون مع المتنفذين من أبناء جلدتهم وأصدقائهم ساسة تلك البلاد.

فهل أدل من هذه الأقوال على عدم تعلق الصهيونية في كل ما يتعلق بالوطن القومي أو الدولة اليهودية؟.. أما تدينها هذه التصريحات بالدجل والشعوذة؟.. ألا تفضح أغراضها الرامية إلى التغرير بالعالم واليهود معاً لتحقق أهداف الرأسمالية اليهودية في السيطرة والاستثمار والاستغلال دون التحرك قيد أنملة من قلاعها الحصينة في أوروبا وأمريكا وذلك عن طريق تسخير المأجورين والعملاء من ساسة الغرب وعلى حساب الدماء التي يسفكها وسيسفكها الفقراء والأغنياء من أبناء قوميتها المصطنعة؟..

والجدير بالذكر هو أن الصهيونية التي تناصب الاشتراكية العداء اليوم لإمساك دولها عن مساندتها في غلوائها، لم تكن في الأمس القريب لتحجم عن التمرغ في أعتاب فلاسفتها، والتزلف لدولها، والتظاهر بصداقتها، ليس طبعاً حباً بها وتعشقاً لمبادئها بل لغايات في نفس يعقوب، فقد كشفت الأحداث المتعاقبة الستار عن ملابساتها بكل وضوح، وعلى سبيل المثال نذكر القارئ بما كتبته المجلة الباريزية Revuede Paris بصدد المحاولات الصهيونية للتغرير بسيد الاشتراكية كارل ماركس (1818 ـ 1883) وذلك بعددها الصادر في 1/ 6/ 1928 والذي قالت فيه أن أكبر دليل على جنوح الصهيونية لاستثمار الاشتراكية وتسخيرها لمآربها الخاصة منذ فجر ولادتها ينجلي من خلال أسطر كتاب الزعيم الصهيوني المعروف باروخ ليفي الذي وجهه إلى كارل ماركس والذي جاء فيه: إن المجتمع الإنساني الحديث (ويعني به مجتمع عهد التحرر اليهودي في أوروبا) سيساعد أبناء إسرائيل للعمل في كافة أقطار الأرض وسيتمكنون قريباً من تسيير الأمور في كل مكان، فإذا قيض لهم التحكم في الطبقات العاملة، بفضل شعار نصرة العمال (أي الشغيلة) التي سيرفعونها تحت رايتكم، فسيهون عليهم القفز إلى مراكز القوة والحكم، ومن ثم السيطرة على الأموال والممتلكات العامة لتلك الشعوب، وبهذه الوسيلة سنخضعها بكليتها لإرادتنا، وهكذا ستتحقق نبوءة التلمود القائلة: عندما يحين موعد ظهور المسيح سيمتلك اليهود أموال ومقدرات كافة الشعوب.

ولقد قصد ليفي من هذا الكتاب إثارة النعرة القومية لدى كارل ماركس ودفعه للتعاون مع الصهيونية، عن طريق إيهامه بعدم تعارض مبادئها مع المبادئ الماركسية، وللتدليل على جدية هذا

الزعم لماركس، عمدت الزعامة اليهودية إلى الإيعاز لأتباعها في فرنسا ومن ثم هولندا ليقدموا لهذا الفيلسوف المادي كل عون ورعاية عندما طورد فيهما من قبل سلطاتهما نحو عام 1860.

وبادرة ليفي هذه ليست الفريدة من نوعها، إذ أن الكثيرين من زعماء الصهيونية ساروا على غراره في مغازلة الاشتراكية لربطها بعجلة مخططاتهم، وفي سبيل ذلك عمد فيلسوفهم الكبير نعوم سوكولوف إلى إصدار نظرية الصهيونية الاشتراكية التي طبقت فيما بعد في المستعمرات اليهودية في فلسطين، كما أن الكاتب الصهيوني بيير يوركوف أعلن أن الصهيونية الاشتراكية صنوان لا يفترقان، وأردف يقول: إننا حيثما نفلس يجب أن نتحول إلى بروليتاريين عتاة.

كما أدلى الزعيم الشيوعي اليهودي مارنوف بدلوه في هذا المضمار عندما قال عام 1895 أننا سنجعل من الحركة الشيوعية حركة يهودية بواسطة حزب العمال اليهودي في روسيا.

ومن الأرجح أن بعض الفئات الاشتراكية في أوربا أخذت بهذه التصريحات في بداية الأمر، وإلا لما رأيناها تتقبل زعامة كل هذا العدد الكبير من اليهود في صفوفها، أمثال تروتسكي، وكيرنسكي، وبلاكوم، وآنابوكر، وروزالو كسانبورغ وكاكانوفيتش، وكورت أيزنير، وجابوتشكي ومئات سواهم، ممن كانوا يتظاهرون باعتناق الاشتراكية بغية تحقيق الأهداف الصهيونية المختلفة، مثل الإطاحة بالقيصرية في روسيا وضمها إلى صفوف شريكاتها الغربية، وتمزيق ألمانيا وجعلها خاضعة لمآربها، والثأر من العناصر القومية المناوئة لأغراضها في البلدان الأخرى.

ومن العجيب أن الفئات الاشتراكية غير اليهودية، لم تنتبه لنواياها الخفية حتى بعد أن رأت دعاة الاشتراكية اليهود يتعاونون مع ممثلي الرأسمالية اليهودية، (والدول الضالعة معها كأميركا وإنكلترا وسواهما) أمثال يعقوب شيف، وبول هاربورغ، ودون ليفي، ويتلقون منهم العون المادي والمعنوي لا يقاد نيران الثورات في روسيا وألمانيا وفي غيرهما.

ويبدو أن أسباب التباس موقف الصهيونية (أو بالحري موقف اليهودية) على الفئات الاشتراكية، نتج عن الموقف المزدوج الذي تظاهر به اليهود في كل من روسيا وألمانيا، ففي الوقت الذي سارعت الرأسمالية في البلاد الغربية لمساعدة عملائها اليهود في الجبهة الاشتراكية، وقف أثرياء اليهود أمثال غوراتسي غينتسبورغ اليهودي الروسي، وباللان اليهودي الألماني في الجبهتين الروسية والألمانية الملكيتين، بغية تضليل الطرفين المتصارعين، والاستفادة من المنتصر بينهما.

ومن هنا نرى أن الصهيونية كانت تسعى بكل قواها لتجمع أطراف المجد لصالحها، ومما يحز في النفس أنها تمكنت من استثمار كلا الجهتين لتحقيق غاياتها، أما مزاعمها المتعلقة بضخامة

المبالغ التي أنفقتها في سبيل إشعال الفتنة في روسيا، فهي محض هراء إذ أن العالم أجمع يعرف أن الرأسمالية اليهودية استفادت من الثورة الروسية بعشرات أضعاف ما أنفقته في سبيلها، كما سنوضح تفاصيلها في الفصل التالي.

ومما أسهبنا في شرحه يتضح للقارئ الكريم مدى حذق الصهيونية، في التلون والتقلب دون وازع من ضمير أو رادع من أخلاق في سبيل تجسيد مآربها، كما أن النتائج التي أسفر عنها قيام إسرائيل بوضعها الراهن على الرغم من مرور عشرين عاماً على قيامها لأكبر برهان ساطع على أن الصهيونية التي ملأت الأرض والسماء بنحيبها لإقامة الدولة اليهودية التي زعمت أنها ستحتوي على كافة يهود العالم لإنقاذهم من ظلم وعسف اللاسامية الوهمية، التي لا نرى لها اليوم أي أثر في الدنيا، لم تكن جادة في مزاعمها ومنطلقاتها بدليل أن عدد اليهود الذين ارتضوا الإقامة في فلسطين لا يربو عن عشر تعدادهم في الكرة الأرضية، وهم جميعاً من الفئة المعوزة المرتزقة، التي غررت بها الرأسمالية اليهودية الممثلة بالزعامة الصهيونية، لتسخر أفرادها لإقامة هذا المعسكر الاستعماري بغية حماية مشاريعها الاستثمارية المتشابكة مع مشاريع شريكاتها الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة، كما أن العون غير المحدود الذي تلقاه إسرائيل من أميركا والدول الغربية الأخرى إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تشابك المصالح الرأسمالية اليهودية مع مصالح الدول الاستعمارية، وبالتالي تفضح لنا كذب مزاعم الوطن القومي الذي اتخذتها الدول الغربية حجة لإقامة هذا المعسكر المشترك لحماية مصالحها الموحدة مع الصهيونية العالمية، رغم كل ما لاقته هذه الدول من الصعوبات، وما ارتكبته من مظالم، وما حنثت به من وعود، وما حبكته من مؤامرات. مما حدا بأكثر نقاد العالم بأن يؤمنوا بأنها تهودت فكرياً وأخلاقياً من جراء تعاملها الطويل مع الصهيونية العالمية المتقلبة التي كذبت في كل مزاعمها إلا بواحدة، ألا وهي انسجامها مع ما قيل عن تعدد مفاهيم نصوص التوراة التي اتخذتها شعاراً لمسلكها السياسي المتقلب، ولذا دأبت على قول ما لا تعنيه، وعمل ما لم تقله، طالما كان هذا في صالحها.

وظاهرتها هذه تتجلى بكل وضوح في مسلكها مع شريكاتها إبان الحرب العالمية الأولى، ومن ثم مع الدول الاشتراكية فيما بعد، والذي سنوضح متاهاته في الفصول القادمة بصورة مفصلة.

تطور أساليب التفكير الصهيوني

من المعروف أن هرتزل الذي أوكلت إليه الزعامة اليهودية أمر إخراج الدولة اليهودية إلى حيز الوجود، اعتمد في مساعيه التحرك السياسي المدعوم بالرشوة والدعاية الصحفية، ومن هنا كانت مساعيه منحصرة في البداية في مقابلة الحكام والأباطرة أمثال ولهلم الألماني والسلطان عبد الحميد العثماني، وبليهف (Plohve) الروسي، ومن ثم تشامبرلين البريطاني، وفي آخر أيامه أما نوئيل الثالث الإيطالي، لعله يحصل من أحدهم على الأرض المنشودة. ولكن الأقدار أبت عليه التوفيق رغم كل ما بذله من رشوات وسوده من أوراق، وما حققه من أهداف الصهيونية الأخرى، مثل تنظيم اليهود في مؤسسات سياسية عالمية ومحلية، وتقوية وعيهم القومي والعنصري، وتشجيع المزارعين والعمال منهم على الهجرة إلى فلسطين. إذ أن كل دولة من الدول التي ساومها كانت لها أعذارها للإمساك عن منح هرتزل ما يطلبه منها، وهكذا مات هذا المهووس وغصة الوطن القومي عالقة في حلقه.

وعلى الأثر أيقن حلفاؤه أمثال دافيد ولفتسون واوتو رمبرغ، وفرانز، وروبين، وسواهم الذين تكونت منهم الزعامة الصهيونية عام 1903 أن لا خير يرجى من محاورة الألمان والروس والترك بأسلوب هرتزل. فاعتصموا بحبل مبادئ مؤتمر كاتوفتج لعام 1845 الذي انبثقت عنه مبادئ الفكرة الأساسية التي كانت ترمي إلى تدمير أعدائهم عن طريق اختلاق الأسباب الضرورية بزجهم في الحروب أو الثورات الآيلة إلى الاندلاع في بلادهم، وهنا بدأوا باستغلال الأوضاع السياسية المتردية في أوروبا، والتي عملت الزعامة الرأسمالية كثيراً لتفاقمها، عن طريق تشجيع الدول المختلفة على التنابذ في ميادين الاستعمار، والبحث عن المجالات الحيوية، والتسابق في التسلح.

فبادروا إلى الإيحاء للصحافة المهودة بإطلاق الإشاعات المختلفة عن نوايا الدول الأوربية المتنازعة نحو بعضها بعضاً، وانتشر جواسيسهم في كل بلد للحصول على أسرار كل منها بغية المقايضة عليها بما يكفل تأمين غاياتهم لدى البلد الآخر، وفي الوقت ذاته أوعزوا إلى المؤسسات الضالعة معهم، للقيام بأعمال الفوضى والشغب في كل من روسيا والإمبراطورية العثمانية التي كانت ما تزال تسيطر على بعض أجزاء البلقان، فسارعت المحافل الماسونية بتحريك مختلف الأحزاب في روسيا التي كانت لتوها خارجة (عام 1905) من حرب اليابان منهوكة القوى،

فتكونت فيها جبهة معارضة تحت قيادة حزب العمال اليهودي، الذي أثار عشرات المواضيع الاجتماعية في مدة قياسية في القصر، فالتف حوله الكثير من ذوي الميول المعادية للقيصرية من شتى الفئات، بينما أسرعت الزعامة الصهيونية في أمريكا بإعادة الألوف من فوضويي اليهود الذين سبق وأن فروا إليها من روسيا، وذلك بعد أن دربتهم على أعمال الشغب وزودتهم بجوازات سفر أميركية مزورة بعلم حكومة الولايات المتحدة وبمساعدتها، وهكذا غصت البلاد بالفئات الضالعة مع الصهيونية وإن اختلفت ظاهرياً في أهدافها، وكان الأنكى من الكل هو ما كانت تلقاه كل هذه الفئات من العون والمساعدة من قبل سفارات الدول الغربية، حتى المتحالفة منها رسمياً مع القيصرية، فعم بلاء الفوضى كافة أنحاء البلاد الروسية، واندلعت ثورة عام 1905 التي باءت بالإخفاق، ولكنها لم تخمد، وظل جمرها تحت الرماد يزداد يوماً عن يوم توهجاً، إلى أن وقعت مذابح كييف عام 1912 التي أسفرت عن توثيق التعاون بين حزب العمال اليهودي، والفئات الثورية الأخرى، مما أحيا آمال الصهيونية في النجاح في الإطاحة بالقيصرية[1] فنزعت إلى مغازلة الزعامة اليسارية أكثر من ذي قبل وكلفت ممثل مصارفها الأميركية يعقوب شيف بتمتين أواصر الصداقة معها على أساس مدها بالعون المادي والمعنوي، وعلى الأثر أخذت الصحافة المهودة في كل مكان تحرض الناس على الدولة الروسية وتدعو مواطنيها على الثورة للتخلص من مظالمها، حتى أصبحت الإمبراطورية الروسية برمتها وكأنها على فوهة بركان.

ومع هذا ظل الجمود مسيطراً على السياسة الأوربية، كما ظل شبح الحرب التي كانت الصهيونية تسعى لإيقاد نارها معلقاً، إذ أن التطور الكبير الذي طرأ على الأسلحة الحربية في بداية هذا القرن، جعل قوتها التدميرية رهيبة لدرجة أفزعت العالم بأسره مما قد تسببه من ويلات وكوارث عامة في حال نشوب اشتباك مسلح، ولذا كانت كل من الدول الأوروبية تسعى بقدر المستطاع لتحقيق أغراضها التوسعية دون أن تضطر لدخول حرب شاملة، ومع ذلك ظلت كل واحدة منها تعمل دون هوادة لإيجاد السبيل المؤدي إلى تجسد غاياتها في الإمبراطورية العثمانية المستضعفة التي كانت الصهيونية تعدّه الضحية الأولى على مذبح شهواتها.

ولكن تشابك الأطماع الأوربية فيها كان يقف حائلاً دون أن تتجرأ أية واحدة من دولها على الانفراد بالانقضاض عليها، إذ أنه من المعروف أن القيصرية الروسية التي هزمت عام 1905

---

(1) الكسندر نتفولدوف (الجبهة الموحدة أو روسيا واليهود)

Alexandre Netvoldoffe (Le Front Unique Article La Russie et les Juifs).

من قبل اليابان كانت بحاجة قصوى إلى تسجيل نصر عسكري يعيد لها هيبتها في الداخل ومكانتها الدولية في الخارج، ولما كانت تظن أن هذا النصر لا يمكن أن يتحقق لها إلا في الساحة العثمانية، اتجهت نحو أحلامها القديمة في اغتصاب مضائق الدردنيل، آملة بأن تنطلق منها إلى داخل الإمبراطورية التي كان العالم يعرف أنها تعوم على بحر من البترول، وتزخر بخيرات لا حد لها، هذا عدا عن مكانتها التجارية والاستراتيجية، كما أن ألمانيا التي كانت تبحث عن مجالات حيوية لها، كانت بدورها تطمع بابتلاع الإمبراطورية العثماينة لتنعم بخيراتها، ومن ثم لتنفذ منها إلى المستعمرات الغربية في آسيا، بعد أن تكون قد سيطرت على المسالك المؤدية إليها، بينما كانت تسعى الدول الغربية والرأسمالية اليهودية الضالعة معها لبسط هيمنتها على تركة الرجل المريض، والسيطرة على منابع البترول، وقطع الطريق على محاولات الدول الأخرى، ومن ثم اقتسامها فيما بينهما، ومنح الرأسمالية اليهودية الممثلة بالصهيونية حصتها المقررة فيها، لكي تمركز فيها معسكرها الذي سيصون مكتسباتها المشتركة، في حالة انحسار ظل الاستعمار عن ربوع الشرق.

ولما كانت الصهيونية تؤمن بأن قيمة حقيقة الشيء تظهر من خلال نتائجها العملية، لم تيأس من جمود السياسة الأوربية، ولا من الهلع الذي كان يسيطر على العالم، إذ أنها أيقنت أنه لابد من اندلاع الحرب إن عاجلاً أو آجلاً، طالما كانت أطماع الأطراف المتنازعة على الإمبراطورية العثمانية متعارضة، ولذا بادرت إلى السعي لتوسيع شقة الخلافات الكامنة بين تلك الأطراف، معتمدة على دغدغة أحاسيس كل طرف منها على حدة، وبالصورة المنسجمة مع نوازعها وأطماعها، دون المس بأسس منهجها المقرر حيال كل منها.

ومن هنا رأيناها تسلك مع كل واحدة منها أسلوباً مغايراً لما سلكته مع الأخرى، ففي الوقت الذي اعتمدت فيه الصدق والصراحة مع الدول الغربية وأميركا التي كان أكثر حكامها من أبناء جلدتها أو الضالعين معها، بينما كانت في ألمانيا تظهر بمظهر المؤيدة لسياستها حتى تحافظ على حظوة عملائها لدى العاهل الألماني، ليثابروا على تحريضه لمناوئة الغرب، وليقفوا عن كثب على أسراره العسكرية والسياسية وليمدوا بها شريكاتهم من الدول الغربية.

أما في روسيا، فإنها أوعزت إلى أثرياء اليهود بالتظاهر بمعاضدة القيصر، وإيهامه بمناوءتهم للجبهة اليسارية، تغطية لتحركات يعقوب شيف ممثل الرأسمالية اليهودية، الذي كان يمول بعض المنظمات السرية، ومن ثم العمل لجر روسيا إلى الحرب في حالة وقوعها، وأخيراً وضع الترتيبات اللازمة لاسترداد بعض مما كان ينفقه يعقوب شيف على تفجير الثورة بعد اندلاعها.

ومن خلال هذا التخطيط الدقيق للتحرك السياسي يظهر جلياً مدى انسجام التفكير الصهيوني مع المفاهيم البراغماتيكية (Pragmatique) في كل مراحل وجودها، وإلا بماذا نفسر مسلكها المتقلب الذي بحثنا عنه في فصلنا السالف؟ وجرأتها المتناهية في المثابرة على السعي لزج أوروبا في أتون حرب لا تبقي ولا تذر، على الرغم من الجمود الذي كان مسيطراً على دولها وشعوبها، وأخيراً حماسها المنقطع النظير، وكرمها الأسطوري في سبيل إشعال نار الفتنة الروسية، على الرغم من كل ما عرف عن اليهود من الحرص المتين على المال، ومزية العزوف عن التصدي للأخطار.

ومما يجدر ذكره، إن النتائج التي حصلت عليها الصهيونية في نهاية مسيرة هذا التخطيط، جاءت كلها متوافقة كل التوافق مع تقديراتها بشكل مذهل للغاية، مثلما سنروي تفاصيلها في الفصل الآتي مما جعل الصهيونية منذ ذلك التاريخ صاحبة راية البراغماتيكية في العالم، بدليل أنها استنت لنفسها شريعة الاعتراف بقيمة الحق أو الحقيقة في أعمالها وأقوالها من زاوية ما تدرها عليها نتائجها العملية بما يناسب مصالحها، دون أي تقدير آخر للمفاهيم أو المثل العليا التي اصطلحت عليها البشرية جمعاء.

الحرب العالمية الأولى - أو حرب التحرير اليهودية

بعد أن آمنت الصهيونية بصدق رغبة الدول الغربية في الانقضاض على الدولة العثمانية في أول فرصة سانحة، وأيقنت بعزم ألمانيا على مناوأة هذه الرغبة، وتأكدت من قرب انهيار القيصرية بفضل مساهمتها المادية والمعنوية والعملية الواسعة لتفجير الثورة في إمبراطوريتها في الوقت المناسب، ووثقت من نجاح المؤامرات الماسونية التي مزقت تركيا شر ممزق وأخضعت مقدراتها للدونمة وحلفائهم أعضاء حزبي الاتحاد والترقي، وتركيا الفتاة، اللذين جعلوها من الانهيار قاب قوسين أو أدنى من جراء مسلكهم المشين نحو مختلف شعوب السلطنة العثمانية، التي استثاروا مشاعرها القومية والوطنية بأعمالهم وأفعالهم المنافية لكل المفاهيم الإنسانية، عندها بدأت تبحث عن الشرارة الموقدة لنار مرجل البارود، الذي كانت الدول الأوربية الطامعة في خيرات الشرق قابعة عليه، ولكن العثور على هذه الشرارة لم يكن من الأمور السهلة، لأن الأوضاع الداخلية في البلاد الأوروبية لم تكن مناسبة تماماً لحكوماتها، ففي الدولة الفرنسية التي كانت الصهيونية تعتمد عليها في المرتبة الثانية لتحقيق أحلامها، كانت الأمور لا تسير وفق رغبات الصهيونية، إذ كان اليسار الفرنسي (بشخص كل من الوزير كايبو Caibau) العنيد الذي كان همه الأكبر ينحصر في التفاهم مع ألمانيا بغية إبعاد شبح الحرب ومن ثم سن التشريعات المالية المؤدية لتحقيق العدالة الاجتماعية، والزعيم اليساري جان جوريس (Jean Jaures) الذي كان ينادي بضرورة التفاهم مع ألمانيا التقدمية وعدم تعريض السلم العالمي للخطر) يقف سداً منيعاً في وجه مؤامرات الجهات الاستعمارية الضالعة مع الصهيونية، كما أن بريطانيا كانت آنذاك تجابه خطر حرب أهلية من جراء التمرد الإيرلندي، زد عليها ضعف عزيمة العاهل الروسي نقولا الثاني، وتردده في دخول المغامرات بعد الهزيمة التي لحقت به عام 1905، وانشغاله ببوادر الثورة الأهلية في بلاده، كانت جميعها تحول دون الفرصة المنتظرة من قبل الصهيونية الفاقدة الصبر، وحيال هذه العقبات لم يكن لها بد من اللعب بأخطر أوراقها وهي الجنوح إلى إزالة معارضيها، عن طريق التشهير بهم بواسطة الصحافة المهودة، أو التصفية الجسدية، فسارعت في فرنسا إلى الإيعاز لمدير تحرير صحيفة الفيغارو اليهودي كاستون كالميت (Gaston Calmette) الملقب بصبي

الأزقة Boulvardier لاختلاق ما يحطم سمعة الوزير كايبو، فانبرى كاستون لتنفيذ الأمر، فكتب مقالات عديدة اتهم فيها كايبو بالتواطؤ مع ألمانيا لإشراكها في حكم المغرب، وبالعمالة لجهات أجنبية، وأخيراً وصل حتى إلى النيل من سمعة وشرف زوجته، مما أطاش صواب آل كايبو، فاندفعت السيدة كايبو التي أفقدتها التهمة أعصابها إلى مكتب كاستون وأطلقت عليه عدة عيارات نارية، كانت كافية للقضاء عليه وعلى مستقبل زوج القاتلة كوزير، وبعد محاولات مريرة تمكن بوانكاره (رئيس الجمهورية الفرنسية آنذاك) المعروف بصداقته لآل روتشيلد من تشكيل وزارة مهلهلة تحت رئاسة فيفياني (Viviani) السكرتير الثاني لمحفل الشرق، الذي اشتهر بانصياعه التام للزعامة اليهودية في باريس، ولكن وجود جوريس العنيد على رأس اليسار الفرنسي حال دون إعلان بوانكاره عداءه لألمانيا، كما حال دون تمديد مدة خدمة العلم وإلغاء قانون الضريبة التصاعدية، مما أثار عليه حفيظة الجبهة الاستعمارية، والزعامة الصهيونية، فأوعزتا إلى اليهودي رؤول فيلن (Raoul Villain) باغتياله، فنفذ الأمر في 31 تموز 1914، وعلى أثر مقتل جوريس ظن الناس أن العمال سوف ينتقمون له بإشعال نار الثورة، ولكن خاب فألهم، إذ أن الصهيونية كانت قد احتاطت للأمر منذ أمد بعيد، وذلك بتركيز العمال اليهود على رأس النقابات المختلفة، فحال هؤلاء دون أي تحرك عمالي، وهكذا خلا الجو لبوانكاره وأنصاره من دعاة الحرب للترك الحر نحو عقد التحالفات العسكرية، أما في روسيا فكانت القيادة العسكرية المدعومة من قبل الأثرياء والمحافل الماسونية تعمل جاهدة لإقناع نقولا الثاني على التأهب لاقتحام المغامرة المنتظرة، وبما أن الصهيونية التي نشرت عملاءها وجواسيسها في كل مكان كانت على علم بما يجري في روسيا، شجعت بوانكاره وفيفياني على الاتصال المباشر مع نقولا الثاني وإقناعه بالتحالف مع فرنسا، فبادر بوانكاره في 16 تموز 1914 إلى السفر للعاصمة الروسية، حيث عقد مباحثات مع نقولا الثاني أسفرت عن عقد تحالف عسكري.

وفي هذا الوقت بالذات كانت الزعامة الصهيونية في ألمانيا تقدم تقارير سرية غالباً ما تكون مزورة عن نشاط الدول الغربية لتطويق ألمانيا وتجميد نشاطها، مما حفزها وحلفاءها للتأهب إلى مجابهة أخصامها، أما في إنكلترا التي قال عنها توسونيل (A. Toussenel) بأنها تعدّ المثل العليا كالشرف والإخلاص، والإنسانية كلمات جوفاء لا معنى لها أما الوفاء بالعهود والمواثيق الدولية فما هو في مفهومها سوى أداة غش وخداع، ولذا فهي ليست سوى وكر جوارح علق في جنب الإنسانية لتمتص دماءها دون رحمة أو شفقة، وهي خلف كل الكوارث التي أصابت هذا الكون، بدليل أنها لم تقف عن إذلال أي شعب فيه، وعظمتها الحالية ترتكز على التسلط والغدر

بأصدقائها، وهي تعدّ أي تحرك إنساني أو تحرري في العالم بمثابة العداء المباشر لها، ولذا فهي تقاومها بكل ما أوتيت من قوة، نعم إن العالم بأسره يئن اليوم من جورها، بعد أن أغرقته مراراً في بحر من الدماء، ولكن هذه الجبارة العنيدة ما هي في الواقع إلا عبدة مطواعة لليهود سادتها غير الرسميين[1].

ومن فحوى وصف هذا الكاتب لبريطانيا نرى أن الصهيونية لم تكن بحاجة لمساع كبيرة لجر إنكلترا إلى الحرب المرتقبة، بل كان يكفيها أن تجد لها المسوغات التاريخية لتسارع قبل سواها بدخولها.

والظاهر أن زيادة الأرشيدوق فرانسوا فرديناند ولي عهد النمسا والمجر لمدينة سيراجوفا عاصمة البوسنة في 28 حزيران 1914، كانت كافية لإيصال الصهيونية إلى مبتغاها، إذ إن جمعية الكف الأسود (Lemain Noire) السرية الصربية تكفلت بذلك، فاغتال اثنين من أفرادها الأرشيدوق وزوجته في رابعة النهار، ولدى التحقيق تبين أن كلا من القاتلين الصربيين، تشابيرينوفيتش (Tchabrinovitch) وبرنسيب (Princip) كانا ضحية لتغرير كل من الرائد تانكوسيك (Major–Tankosic) والسيد سيكانوفيتش (Sicanovic) والدكتور كازيميروفتج (Casmirovic) أعضاء المحفل الماسوني، وهم الذين مدوا القاتلين بالمال والسلاح ليقوما بفعلتهما الشنيعة، وهكذا حققت رصاصات برنسيب الغادرة حلم الصهيونية التي كانت تعدّ الحرب مخرجها الوحيد لنيل ما تصبو إليه، فاندلعت الحرب العالمية الأولى، مثلما يقول المؤرخ الكبير جاك شاستونت (Jaeques Chastenet) لأسباب محض خيالية (Apocalyptique) أو رمزية، أسهمت الصهيونية في تصويرها للعالم أجمع وكأنها ضرورة لا معدى عنها.

ومن أغرب الأمور التي حدثت قبل اندلاعها، هو هذا الانقلاب المفاجئ الذي طرأ على موقف الجبهة اليسارية التي كانت تعارض قيام الحرب وتهدد بأن يوجه أفرادها رصاصاتهم الأولى إلى صدور جنرالاتهم والذين سيعلنونها، وإذ بها تبز المجتمع الفرنسي بأكمله في ميدان التسابق لحمل السلاح، وينادي أفرادها دون أي تحفظ بضرورة السير في الصراع حتى الموت أو النصر.

ولقد بحث الكثير من نقاد التاريخ عن أسباب هذا التطور غير المنتظر لليسار الفرنسي بعد مقتل جوريس، فتبين لهم أنه كان ناتجاً عن تغرير النقابيين اليهود بالوسط العمالي بعد أن خلا لهم الجو في أعقاب اغتيال زعيمه الأصيل.

---

(1) أ. توسونيل في كتابه (اليهود ملوك العصر) A. Toussenel (Les Juifs Rois de L'Epoque).

ولقد أكد العاهل الألماني ويلهلم الثاني هذه الحقيقة من خلال تصريحه الذي أدلى به لرئيسة دير مندذه (Abbaye Mendzet) إبان زيارته - لآخر مرة - لبلجيكا، وذلك جواباً لتساؤلها عن الأسباب التي دفعت به إلى خوض هذه الحرب المشؤومة، والذي قال فيه - وآثار الامتعاض واضحة على محياه -: سيدتي، شهد الله أنني لم أكن راغباً في ويلاتها، ولقد تجنبتها طويلاً، ولكن ما حيلتي، وهي قد فرضت علي فرضاً من قبل اليهود وأنصارهم الماسون، فأرجو أن تثقي بأني قطعاً لست المسؤول عن اندلاعها، وكان العاهل الألماني يشير بذلك إلى التضليل الذي تعرض له بواسطة اليهود أمثال راتينو (Rathenau) والأخوة فاربورغ، وآلبير باللان، ومن لف لفهم من أعضاء جمعية الحضارة اليهودية التي أسسها في مطلع القرن الماضي الأديب اليهودي المعروف هنري هاين (Henri Heine) والتي كان أعضاؤها يسعون لخداع الألمان عن طريق التظاهر بالانصهار في قوميتهم، بينما كانوا في الواقع من أشد أنصار التعاليم التلمودية القاضية بتدمير كل المؤسسات القومية والاجتماعية غير اليهودية في أول فرصة سانحة[1].

أضف إلى ذلك المحاولات العديدة التي أقدم عليها الصهاينة في كل من فرنسا وإنكلترا لزجهما في هذه الحرب، والتي سبق وأن بحثنا عنها مطولاً في مؤلفنا (المفسدون في الأرض).

كما أن المكاسب الكبيرة التي نالتها الصهيونية في أعقاب هذا الصراع الكوني مثل نكوث الحلفاء عن وعودهم التي قطعوها للأمة العربية التي ساهمت كثيراً في تحقيق النصر النهائي، ومنح شذاذ الآفاق حق استعمار أرض فلسطين العربية، تشير كلها لما كان للرأسمالية اليهودية من دور فعال في خلق هذه الكارثة الكونية لأسباب أقل ما يقال عنها، وهمية وخرافية، ذهب ضحيتها الملايين العديدة من أبناء الشعوب المختلفة قرابين بريئة لجشع عباقرة الشر وسادة الاحتكارات الذين لم يخض أحد منهم أهوالها، ولم يحمل أوزارها.

أما الفيلق اليهودي الذي ظهر قبل نهاية الحرب بمدة وجيزة، والذي قتل أكثر أوقات وجوده باستعراض عضلاته في ساحات العواصم الغربية، لم يظهر للوجود إلا بغية ذر الرماد في العيون وإيهام الشعوب التي ثكلت بأبنائها على مذابح مصاصي الدماء البشرية، بأنهم هم أيضاً دفعوا ضريبة الدم مثلها، ولذا حق لهم أن يجنوا ثمار النصر الذي أسهموا في تحقيقه.

ومما يدين اليهود بمساهمتهم في افتعال هذه الحرب القذرة، هو تشدق كتابهم المقرون بالسفالة والوقاحة باشتراك زعمائهم في اختلاق أسبابها، والأنكى من كل هذا هي صفاقتهم في تسميتها بدون خجل أو حياء بحرب التحرير اليهودية، فيا لها من وقاحة يندى لها الجبين؟.

---

(1) بيير هيبس - الجمهورية العالمية La. Republique Universelle. P. Pierre Hepess.

الستافيسكية: شريعة صهيونية عريقة في القدم

منذ أكثر من نصف قرن ما زال الكثير من الناس يشكون بصدق المعلومات المؤكدة للتعاون المادي والمعنوي الوثيق الذي ساد عام 1917 بين الرأسمالية اليهودية وبعض الجمعيات السرية الروسية التي اجتثت جذور القيصرية من بلادها، ونحن لا نلوم ذوي النوايا الطيبة من بين هؤلاء المشككين، إذ إن المنطق السليم يرفض قبول إقدام اليهود على كل تلك التضحيات المادية الضخمة، مع كل ما عرف عنهم من عبادة المال وتعشق تخزينه، ولكن إذا عرف السبب بطل العجب، وهو أن الرأسمالية اليهودية لم تنفق كل تلك الأموال، وما أقدمت على كل تلك التضحيات إلا بعد أن قامت بحساب دقيق لكل الاحتمالات والفرضيات المتعلقة بأغراضها في الإمبراطورية القيصرية.

ولإيضاح ما يمكن أن يلتبس على القارئ الكريم لابد لنا من أن نعود قليلاً بالذاكرة إلى أهداف الصهيونية في روسيا ومجريات الأمور إبان هذه الثورة التي قلبت الأوضاع السياسية ليس فيها فحسب، بل في أوربا بأكملها.

من المعروف أن الزعامات اليهودية القديمة منها والحديثة كانت أبداً على خصام مع القيصرية والأورثوذكسية، اللتين وقفتا منذ أقدم العصور سداً منيعاً في وجه مبشري اليهود، وجشع تجارهم وشطط صعاليكهم، ولما ظهرت المطامع الصهيونية للوجود، التزمتا مجدداً جانب المعارضة في إسكان اليهود في فلسطين، لاعتبار نفسيهما وريثتي بيزنطة فيما كانت لها من حقوق في الشرق ورعاية على مدينة القدس الحاوية على كنيسة القيامة المبجلة لدى أتباعهما، ولذا كان من الطبيعي أن تسعى الصهيونية للقضاء عليهما، وتمزيق الإمبراطورية الروسية إلى دويلات عديدة لإزاحتها نهائياً عن طريقها، ولما كانت هذه الأهداف تتوافق مع الأغراض السياسية الخفية لكل من ألمانيا والدول الغربية الضالعة مع الصهيونية، انجرفت كل منها خلف الأضاليل الصهيونية ذوات الألف وجه ومعنى، فتعاونت كل واحدة منها معها ضمن مخططاتها الخاصة بها، وهكذا قيض للمؤسسات الصهيونية في كل منها أن تتظاهر بالولاء لها لتحقق بعونها ما ترمي إليه من غاياتها المتشعبة، ولذا رأينا اليهود في ألمانيا يتطوعون في خدمة أجهزة المخابرات بعد أن أقنعوا سلطاتها بمقدرتهم الخارقة على تصيد الأسرار العسكرية الروسية بزعم فضل تعاون أبناء جلدتهم المنتشرين في كافة أرجائها معهم، وبذا أمكنهم أن ينشروا منذ اللحظة الأولى للحرب الفوضى ونزعة التمرد في صفوف الجيش الروسي، ويزودوا الدول الغربية بالمعلومات عن التحركات الألمانية التي كانوا يحصلون عليها بحكم عملهم المقيت، ولقد اتضح مسلكهم

هذا من خلال الاعترافات التي أدلى بها مئات الجواسيس الألمان من اليهود الذين اعتقلتهم المخابرات الروسية بالجرم المشهود، بينما كانوا ينشرون الأفكار الثورية في صفوف الوحدات القيصرية.

ولقد عمدوا في فرنسا إلى إزاحة زعماء الجبهة اليسارية التي كانت تعارض اشتراكها في الحرب بعد أن خدعوا رئيسها بقوة الجيش الروسي، ومن ثم شجعوه بشتى السبل على الإسراع لعقد تحالف عسكري مع القيصر الروسي المتردد، وذلك بناءً على إيحاء الزعامة الصهيونية في أميركا التي كانت ضمنت لهم إخراج الولايات المتحدة عن علتها وضمها إلى جانب الحلفاء الغربيين في الوقت المناسب وفي حالة ظهور بوادر الغلبة الألمانية، ومن هنا كانت الصهيونية في أوروبا تفكر وتعمل انطلاقاً من مركز القوة، وواثقة كل الثقة برجحان كفة شركائها الدول الغربية، ولذا تقصدت إدخال روسيا الحرب بجانب الحلفاء، رغم كل ما كانت تعرفه عن تردي أوضاعها الاقتصادية والعسكرية لا اعتماداً على عونها، بل لتحول دون القيصر، والبقاء خارج النزاع كي لا تتوفر له فرصة التقاط أنفاسه التي انبهرت في حربه مع اليابان، وتوطيد حكمه الوشيك الانهيار، حتى لا يعود وكنيسته للوقوف في وجه أطماعها المشتركة مع الغرب.

وإيغالاً في التضليل تبنت الصهونية في كل من البلدين ترويج الدعاية المعظمة لأهمية التحالف العسكري الذي قام بينهما، فبادرت الصحافة المهودة منذ اليوم الأول للحرب تشيد بالقوى المتحالفة، وتؤكد انتصارها القريب فاغتر الروس بهذه الترهات، ونسوا أوضاع جيوشهم المتردية، وأهملوا التحركات الثورية التي كانت الصهيونية تغذيها دون هوادة، فأقاموا الاحتفالات ورحبوا بالحرب، فألبسوا عاصمتهم بترسبورغ (Petersbourg) أجمل الحلل احتفاءً بدخولها، ولكن كل هذا الحماس ما عتم أن تبخر على أثر الهزائم المروعة التي ألحقت في 30 آب 1914 بجيشهم، ومن ثم أعقبها تراجعه العام في كافة الميادين، مما حدا بنقولا الثاني إلى إقالة الدوق الكبير عن قيادته، واضطلاعه شخصياً بمهام القائد العام، ومع هذا لم تتحسن الأحوال واضطر الجيش إلى التزام الدفاع، وبهذا تعرضت البلاد لعدة هجمات ألمانية ضارية كادت أن تهدد العاصمة الروسية بالسقوط، فخشي نقولا على الخزينة الملكية من الوقوع في أيدي الألمان، فأوعز بنقل مقتنياتها التي كانت تتكون مما يقارب المليار روبل ذهبية، ومبالغ طائلة من أوراق النقد الأجنبية، ومئات السبائك البلاتينية، وعشرات الصناديق المليئة بالماس والأحجار الكريمة المتنوعة، إلى مدينة قازان بغية إبعادها عن متناول أيدي الأعداء.

وفي خضم هذه الأحوال المتردية انفجرت الثورة الشيوعية عام 1917 ، وأعقبها توقيع معاهدة الصلح بين ألمانيا من جهة ، وكل من ممثلي الثورة اللينينية ، والدولة القيصرية من جهة ثانية في مدينة برست ليتوفسك (Brest – Litovesk) وتلا ذلك خروج روسيا نهائياً من الحرب وسقوط القيصرية ، وقيام الجمهورية المؤقتة تحت زعامة كيرنسكي الذي لم تعمر ولايته إلا قليلاً ، أرغم بعدها (أو أمر بعدها) على التخلي عن الحكم والفرار خارج البلاد على متن سيارة تابعة للسفارة الأميركية في موسكو ، وهكذا تسلم لينين حكم البلاد ، ووضع يده على الخزينة القيصرية في قازان في وقت تكاثرت فيه الفئات اليسارية المتنازعة على السلطة ، مثل حزب الثوريين الاشتراكيين الذي نال ثقة الأكثرية الساحقة في انتخابات عام 1917 ونادى بإلغاء معاهدة برست ليتوفسك ، والعودة إلى مقاتلة الألمان .

ولكن لينين تمكن من كبح جماحه بفضل وقوف القطعات التشيكية اليسارية (التي كان يربو عددها على الخمسين ألف مقاتل) بجانبه ، مع قطعات أخرى صربية ولتوانية ، التحقت بالثورة الروسية في مستهل شهر تشرين الأول عام 1917 ، ومع ذلك ظل حزب الثوريين يناوئ لينين في السيطرة على الحكم ، بدعم من الأوساط الغربية ، هذا عدا عن بقايا الجيش القيصري الذي انقسم قادته على بعضهم ، واستقل كل واحد منهم بمجموعة من فلوله ، بغية تحقيق غاياته الشخصية ، التي لم تخرج في جوهرها عن نطاق اقتطاع إحدى أجزاء الإمبراطورية الروسية وإعلان استقلالها تحت زعامته . على الرغم من تظاهر كل منهم بالعمل لإعادة الشرعية إلى البلاد[1] أمثال الجنرال البارون فون أونجيرن (Géneral - Baron - Von - Ungern) الأستوني ، قائد فيلق الفرسان الذي اشتهر بفظاظته في معاملة سكان دوريا (Dauria) المغولية التي سيطر عليها ، والذي انحاز فيما بعد إلى الدولة اليابانية مقابل الحصول على عونها المادي والعسكري ، ولما استجابت اليابان لمطالبه ، اغتر بقوته وجنح إلى توسيع رقعة دولته ، فهاجم مدينة أوركا (Urga) عاصمة دلاي لاما ، وبعد قتال عنيف تمكن من احتلالها ، ولكن سوء تقديره ورطه في قتل الدلاي لاما ، مما أدى إلى اندلاع ثورة بوذية عارمة ضده ، أسفرت عن طرده من المنطقة ، فتخلى عنه الكثير من أنصاره المغول ، وانتهى بأن أسره الجيش الأحمر وأعدمه في 14 أيلول 1921 في مدينة نوفوسيبريسك (Novosibirsk) .

---

(1) تاريخ الثورة الشيوعية في روسيا La – Revolution .

والاتامان سيميونوف (L'Ataman – Semionov) الذي التجأ إلى اليابان وأعلن استقلال المقاطعات الشرقية السيبيرية تحت حمايته.

وأخيراً الأمير كولتشاك (Koltchak) قائد أكبر مجموعة من القوات القيصرية وأكثر القادة اليمينيين إخلاصاً للنظام القيصري وأشدهم عداوة لنظام لينين اليانوف الثوري.

والظاهرة الغريبة التي اتسمت بها قيادات كل هذه الفئات المتصارعة على المسرح الروسي، على الرغم من اختلاف مشاربها ونوازعها، وجنسياتها، كان وجود اليهود في تكوين كل منها، وعلى سبيل المثال، نذكر أن رئيس الدولة اليسارية المؤقتة كيرنسكي الذي كان الناس يعتبرونه روسياً، أعلن عن هويته اليهودية بكل وقاحة، عندما ظهر فجأة عام 1956 في المؤتمر الذي عقد في سويسرا لمناوءة الشيوعية، باعتباره ممثلاً عن اليهود، بعد كل ذاك الغياب الطويل عن المسرح السياسي.

كما أن تروتسكي، اليد اليمنى للينين ووزير دفاعه، وصاحب نظرية الثورة الدائمة، كان يهودياً معروفاً لدى العالم أجمع. والمؤرخ التركي اتيلهان يؤكد انحدار العقيد قابل (Kappel) قائد الجيش القيصري لمنطقة الأورال، من عائلة منغولية يهودية، كانت تدعى في الأصل قبلان (Kaplan) أي النمر. والمقدم بلاكوتيتش (Blagotitch) قائد الكتيبة الصربية التي عهد إليها لينين حراسة الخزينة القيصرية في قازان كان هو أيضاً يهودياً معروفاً في بلاده، أما الزعيم الاشتراكي الثوري مورافيوف (Mouraviov) الذي عينه تروتسكي قائداً عاماً لمنطقة قازان كان ماسونياً معروفاً في أوكرانيا.

وسجلات الثورة الروسية تؤكد بدورها، وجود مفارز ووحدات صرف يهودية في صلب تشكيلات مختلف القوى التي تصارعت آنذاك في الوطن الروسي. وهذا الوجود اليهودي المريب في صفوف مختلف الفئات المتنازعة، يدفع القارئ إلى التساؤل بصورة طبيعية عن الغاية التي حدت بهم إلى التقاتل والتصارع في سبيل أمور لا ناقة لهم في أكثرها ولا جمل، مع كل ما عرف عنهم عبر التاريخ من التعلق بأهداف التعاون والتآزر أو على الأقل الوقوف على الحياد فيما لا يعود عليهم بالخير والمنفعة، ولكن إذا تمعنا قليلاً في مجريات الأمور وما آل إليه صراع الفئات الروسية في نهاية الثورة، لأزيح الستار عن المآرب اليهودية ولانقشع الضباب عن غاياتها السرية، ولتوضيح ذلك لابد لنا من إلقاء نظرة على الأحداث التي أعقبت تخلي كيرنسكي عن الحكم.

وعلى أثر هرب كيرنسكي سيطر لينين على قازان والمناطق الأخرى التي كانت قد خضعت لنفوذ الحكومة المؤقتة، وهكذا أصبح سيد مصير الخزينة الروسية، فبادر إلى ترسيخ قواعد نظامه

معتمداً على سواعد الشيوعيين والوحدات التشيكية والصربية واللتوانية التي التحقت بثورته منذ البداية، كما أن السفارة الألمانية لم تضن عليه بالعون، بغية ضرب محاولات الحزب الاشتراكي الثوري الرامية إلى إلغاء معاهدة برست ليتوفسك، والعودة لمقاتلة الألمان، ولذا ظل الصراع الخفي قائماً بين الشيوعيين والاشتراكيين على الرغم من مظاهر التعاون الكاذبة التي كان الجميع يتستر خلفها.

ولقد زاد وصول البعثة الحليفة تحت رئاسة الجنرال لافيرن (Lavergne) إلى سيبريا الطين بلة، إذ اتسع نطاق التحرك السياسي السري، وتكاثرت المؤامرات وخاصة بعد أن وصل ممثلو الجنرال لافيرن إلى مدينة أومسك (Omsk) وتيسر لمختلف الفئات المتصارعة أمر الاتصال بهم.

وفجأة ظهر خلاف شديد على مصير الخزينة الروسية بين مورافيوف قائد منطقة قازان والممثل السياسي للجنة المركزية بوبوف (T.i – Popov) الذي رادوته الشكوك في إخلاص مورافيوف، فاقترح نقل الخزينة إلى مدينة نيجني نفو كورود (Nijni Novogorod) بغية إنقاذها من براثن رئيسه المريب، ولكن مورافيوف اعترض على هذا الإجراء بشدة، وأرسل برقية إلى لينين قال له فيها بالنص الواحد: نحن نسيطر هنا على الوضع، لا خطر على الخزينة بتاتاً، وأخيراً أنا الذي سيقرر كل شيء هنا.

فاغتاظ لينين من هذا التحدي ولكنه عجز عن مساندة بوبوف، لوقوف تروتسكي، والزعيم الاشتراكي الثوري بورس سافينكوف (Boris – Savinkov) بجانب مورافيوف، فترك الموضوع بين أيدي تروتسكي الذي أصدر قراراً بترفيع مورافيوف المريب إلى رتبة قائد عام للجبهة الشرقية اعتباراً من 10 حزيران عام 1918، وبذا أصبح مصير الخزينة بين يدي مورافيوف، وخذل بوبوف نهائياً، وفي هذا الوقت بالذات خرجت القطعات التشيكية عن طاعة لينين، وانضمت إلى القوى البيضاء، بعد أن سيطرت على عدة مدن سيبيرية، وفي مطلع شهر تموز أعلن موارفيوف بدوره انفصال منطقة الفولغا عن نفوذ لينين وانضمامه إلى القوات الملكية، كما أن قائد الكتيبة الصربية بلاكوتيتش الذي كان على اتصال دائم بعملاء الجنرال لافيرن، عقد اجتماعاً سرياً مع العقيد قابل قائد الوحدات القيصرية في الأورال أسفر عن انضمامه إلى الملكيين، ومن ثم بادر في 27 تموز 1918 إلى احتلال مدينة قازان وطرد أتباع لينين منها، وذلك بالتعاون مع القطعات الموالية لمورافيوف، والوحدات التشيكية، والضباط الموالين للأميرال كولتشاك وهكذا سيطر على الخزينة فنقل محتوياتها إلى مقر الأميرال ووضعها تحت تصرفه، وعلى الأثر ظن الأميرال أن النصر أصبح منه قاب قوسين أو أدنى، فانهمك بالاحتفال بهذه المناسبة بدلاً من استغلال النصر

ومطاردة فلول أنصار لينين، وراح يفكر بعشرات المشاريع لإعادة بناء جيشه، وتجهيزه بالأسلحة والمعدات الحديثة انسجاماً مع الإرشادات التي تلقاها من البعثة الغربية، وقواد القطعات اليسارية التي انضمت إليه مؤخراً، فطار إلى إنكلترا لعقد صفقات سلاح عديدة مع مصانعها التي كانت بأكثريتها الساحقة تابعة للرأسمالية اليهودية، وأوفد الأمير لفوف (Lvov) إلى أمريكا لتحقيق الغاية نفسها، كما ولج اليهودي رافالوفيتش (Rafalovitch) بشراء الطائرات الحربية من فرنسا، ولما كان نظامه غير معترف به دولياً، اضطر إلى إرسال الأموال اللازمة لتأمين كل هذه الصفقات مقدماً إلى الجهات المتعاقد معها، عن طريق سيبيريا.

وهكذا ذاب الذهب القيصري تحت شمس سيبيريا، وتبخر بين أيدي سادة الاحتكارات الغربية شريكة الرأسمالية اليهودية، بينما قعد الأميرال المسكين ينتظر وصول ما تخيل ابتياعه من عتاد وأسلحة، والتي لم يصل منها شيء قط، وإذا بالقوات الشيوعية تسترد نشاطها وتبادر إلى مهاجمة كافة الجبهات ابتداءً من عام 1919 فتنهار مقاومة الجيوش الملكية لافتقارها للعتاد والسلاح التي ضنت عليها المصانع الغربية به، رغم استلامها لأثمانها مقدماً، وعلى أثر هذه الهزيمة الشنعاء اعتقل الأميرال مع عشرات الألوف من أنصاره وأعدموا جميعاً في السابع من شباط عام 1920، وهكذا أضحت المقاومة الملكية في خبر كان، بعد أن كانت أقرب إلى النصر من حبل الوريد.

وكان من البديهي أن تسترد السلطات السوفييتية ما تبقى من أموال الخزينة، ولكنها فوجئت بالنقص الهائل الذي طرأ على محتوياتها، ولدى التحقيق تبين لها، أن خمسة ملايين روبل ذهب دفعت للدولة الأمريكية سلفة عن الصفقات الخيالية التي عقدها معها الأمير لفوف، وعشرة ملايين أخرى دفعت لرافالوفيتش سلفة على صفقة الطائرات الفرنسية التي لم تصل قط، وأربعين مليوناً حولت إلى إحدى البنوك الأمريكية على سبيل التأمين، وستين مليوناً إلى إحدى المؤسسات المالية في بريطانيا للغاية نفسها، هذا عدا عن سبعمائة وخمسين وزنة ذهب التي أرسلت إلى فرنسا، وخمسمائة وستة عشرة وزنة أخرى إلى بريطانيا، وكل ذلك مقابل وعود خلابة للحصول على الأسلحة، أما مصير الماس والأحجار الكريمة فلم يعرف حتى اليوم[1].

---

(1) الخزينة الأسطورية القيصرية للكاتب فيكتور الكسندروف

Le Fabuleux Trésor des Tsars. Par Victor Alexandrov.

ومن خلال مسلك تروتسكي الغريب في دعم مورافيوف الذي أثبتت الأحداث خيانته فيما يتعلق بمصير الخزينة، وخذله لاقتراح بوبوف المخلص الحصيف، ومن ثم إطلاق يد مورافيوف في الجبهة الشرقية، على الرغم من الشكوك التي حامت حوله، وتعاطف القادة اليهود التشيكيين، والمقدم بلاكوتيتش اليهودي الصربي معه، واتصالهم جميعاً فيما بعد بالعقيد قابل اليهودي الملكي بوساطة عملاء الجنرال لافيرن الفرنسي، ومن ثم انضمام الكل في آن واحد إلى الأميرال كولتشاك رغم تباين مبادئهم، واتفاقهم التام في الاستيلاء على الخزينة القيصرية، ووضعها بكل أمانة تحت تصرف القيادة الملكية المحاطة بعملاء البعثة الغربية وزمرة اليهود الأثرياء، يتضح لنا أن هذه الملابسات لم تكن وليدة الصدف، إذ أن تسرب الأموال بهذه الكميات الكبيرة، وفي زمن قياسي في السرعة إلى المؤسسات المالية الغربية التي كانت تخضع آنذاك بكليتها إلى البيوتات الرأسمالية اليهودية، دون أن يحصل الأميرال كولتشاك مقابلها على أي شيء يشير بإصبع الاتهام إلى إقدام الصهيونية العالمية (التي وضعت أعضاءها في صفوف مختلف المنظمات السياسية والفكرية ليعملوا لصالحها عندما تحين الفرص بناءً على تخطيط دقيق لا يخرج أحدهم عنه مهما كان المبدأ أو المذهب الذي يتظاهر باعتناقه). على التآمر والتحايل لسلب أموال الخزينة القيصرية، وإلا بماذا نفسّر هذا الانقلاب المباغت الذي طرأ على مسلك كل هؤلاء القادة اليهود معاً؟ وكيف نعلل تساهل تروتسكي العجيب مع مورافيوف الذي ظهرت خيانته ليس من خلال شكوك بوبوف فحسب بل من خلال نص برقيته الدالة على الخداع؟ أما مصير الأموال فهو حجة مثلى تدين الصهيونية بكل صراحة بالاختلاس والسرقة، بصورة يصبح معها الأسلوب الذي اشتهر بالستافيسكية أسلوباً صبيانياً يستحق مبدعه الشفقة والرثاء، ولذا يحق بمن أطلقوا عليه هذه التسمية أن يبدلوها باسم الأسلوب الصهيوني الذي ورث ستافيسكي المسكين عنه طريقته هذه كابراً عن كابر باعتباره هو الآخر منحدراً من الأصل نفسه المشهور بالغش والخداع.

وهكذا نرى أن يعقوب شيف ومن كان وراءه لم يقدموا للثورة الروسية أموالهم الطائلة حباً بسواد عيون لينين وأنصاره، بل بوحي من براغماتيكيتهم التي استوحوا منها فرضياتهم والتي على أساسها أعدوا العدة لتحقيق غاياتهم في البلاد الروسية، وكان من ضمنها هذا المشروع الفذ في عالم النصب والاحتيال.

أما زعم بعض المنجمين القائل بأن تلك الأموال كانت من نصيب الدول الغربية فقط، فهو زعم باطل، وضرب من وحي الخيال لأن الرأسمالية اليهودية كانت طيلة القرن التاسع عشر شريكة كافة البيوتات المالية والصناعية الغربية، وبنسب فاقت في أكثر الأحيان الخمسين بالمئة.

كيف نسجت الخيوط الأولى للمؤامرة الكبرى

لم يشهد التاريخ نشاطاً سياسياً أوسع مما أبدته الصهيونية إبان الحرب العالمية الأولى والمدة التي أعقبتها، إذ أنها لم تهدأ عن التحرك في كل اتجاه والتآمر في كل مكان، فبينما كانت مؤسساتها الأوربية تعمل في البلاد الغربية وألمانيا وروسيا لتوريط دولها بدخول الحرب، كانت مؤسساتها الأمريكية تسعى لإبقاء دولتها خارج النزاع أطول مدة ممكنة وبالوقت نفسه تدفعها للتسلح والتأهب لتكون عندما يحين الوقت القوة الضاربة الفاصلة لمصير المعركة، ومن ناحية أخرى لتستفيد من حرية تحركها السياسي باعتبارها على الحياد، بغية تأمين مراقبة سير الأمور في البلدان المتصارعة، وحرية تحركاتها الخاصة بوساطة الدبلوماسية الأمريكية التي كان أكثر ممثليها ينتمون إليها، بفضل الجهود التي بذلتها في الماضي لتركيز الكثير من أبناء جلدتها والماسون الضالعين معها في مراكز القوة والنفوذ في أكثر الدول الأوربية، وخصوصاً في أمريكا التي كانت وزارتها الخارجية شبه مستعمرة يهودية لكثرة ما كان فيها من يهود، وعلى سبيل المثال نذكر أن السفارة الأمريكية في إستانبول كانت بمثابة وقف على السفراء من أبناء إسرائيل منذ عام 1889 حتى عام 1922، ولقد تعاقب عليها منهم كل من السفير اليهودي سالمون هيرس (S. Hirsch) وأوسكار سالمون ستراوس (O. S. Strauss) وهنري مورغانتو (Henry Morgenthao) وهؤلاء الثلاثة هم الذين قيضوا لليهود فرص التسلل إلى فلسطين، تارة بجوازات سفر مزورة وأخرى بحجة انتسابهم للبعثات العلمية والدراسية المختلفة، وذلك بفضل مؤازرة السلطات الاتحادية، ومؤسسات حزب تركيا الفتاة والمحافل الماسونية التي كانت جميعها تخضع لتوجيهات السفارة الأمريكية، وعند دخول أمريكا الحرب عين الحاخام إبراهام الكوس (Abraham Elkus) قيماً على المصالح الأمريكية في تركيا، ومن ثم استبدل بالمحامي اليهودي لورانس ستينهردت (Lawrence A. Steinherdt) لتوجيه دفة سياسة الإمبراطورية العثمانية المنهارة.

ناهيك عما كان لها من عملاء في أعلى المستويات لدى الدول الأوربية الأخرى بالشكل الذي ألمحنا إليه في أبحاثنا السابقة، وهذا النفوذ السري غير المنظور، هو الذي مكن زعماء الصهيونية أمثال آشير كينسبرغ خليفة هيرزل، وحاييم وايزمان الذي آلت إليه الزعامة إبان الحرب على التحرك السياسي على أوسع نطاق، حتى أنهم أصبحوا بمثابة ممثلين جوالين للدول الغربية، ومما لا شك فيه أن فضل توريط العاهل الطلياني والرئيس البرتغالي الماسونيين في دخول الحرب

إلى جانب الحلفاء يعود بكليته إليهم، أضف إلى ذلك النصر الساحق الذي حققوه في روسيا التي أصبحت قبل انتهاء الحرب تأتمر بأمرهم وكأنها مزرعة خاصة لأبناء جلدتهم الذين سيطروا على مقدراتها السيطرة الكاملة لتسير في ركاب غاياتهم بعد أن كانت العقبة الكأداء في طريقهم[1].

ومع كل هذا كان العامل الأساسي لفوزهم الباهر في نهاية الحرب، هو الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي المرموق الذي كانوا يتبوؤونه في أمريكا، والذي يعود تاريخ تبلوره إلى عام 1626 أي إلى عهد تأسيسهم لمدينة نيويورك في ظل الدولة الهولندية التي تخلت عنها فيما بعد للاستعمار البريطاني الذي ساد أكثر أقطار العالم الجديد بفضل دسائس الجالية اليهودية التي كانت تسانده.

ولما اندلعت الثورة الأمريكية، خشي اليهود مغبة تعاونهم مع الاستعمار البريطاني، فاستنجدوا بأبناء جلدتهم في أوربا ليجدوا لهم مخرجاً من الورطة المنتظرة، فهرعت الصهيونية والماسونية لنجدتهم، وتمكنتا من إقناع العاهل الفرنسي لويس السادس عشر (الذي كان في الأصل مغتاظاً من الدولة البريطانية التي جردته والعاهل الإسباني من مستعمراتهما) بضرورة مساعدة الثورة الأمريكية، فوافق على إيفاد حملة عسكرية من خيرة جنوده تحت قيادة لافيت الماسوني الذي دعمه محفل الشرق بالمال والعتاد، فسارع هذا الأخير إلى الالتحاق بالثائر الأمريكي جورج واشنطن، مما أدى فيما بعد إلى اضطرار فرنسا وإسبانيا وهولندة على إعلان الحرب رسمياً على بريطانيا.

ولما كانت الحملة الفرنسية ممولة من قبل الرأسمالية الفراكفورتية والماسونية، كان قائدها لافيت يعزو الفضل في وجوده بأمريكا إلى اليهود، ويشيد بمناقبهم التحررية على الملأ، وبذا رفع من شأنهم في نظر الأمريكان، وثبط عزائم أعدائهم أمثال فرانكلين بنيامين (Franklin – Benjamin) الذين كانوا يميلون إلى الثأر منهم جزاء لما اقترفوه من آثام في عهد الاستعمار، وبالتالي ثبت أقدامهم في البناء الأمريكي الجديد، على حساب الدماء الفرنسية الذكية التي أهرقها على مذبح غايات سادته الماسون عبيد الصهيونية العالمية، إذ أن اليهود استغلوا هذا العون الفرنسي أحسن استغلال، وأظهروه وكأنه كلياً من صنع أيديهم، حباً في التحرر وتعاطفاً مع البوريتان أصحاب المذهب المتقارب جداً مع مذهبهم، ويبدو أن هذه الخدعة انطلت على الأمريكان فرموا بصيحات التحذير العديدة التي أطلقها الكثير من زعمائهم

---

(1) المفسدون في الأرض - فصل الجرائم اليهودية في روسيا أو السهم المرتد.

عرض الحائط[1] وتركوا حبل اليهود على الغارب، فاستثمر اليهود غفلتهم هذه طيلة العصور الطويلة، حتى غدوا قبل الحرب العالمية الأولى سادة أمريكا في كافة مجالاتها لا ينازعهم في واحدة منها منازع.

وهذه السيطرة هي التي مكنتهم إبان الحرب من تحديد موقف أمريكا من الصراع العالمي، وجعلوا منها أداة لمساومة الدول الغربية التي كان بعض ساستها يعارضون إقامة الوطن اليهودي في فلسطين، نظراً للعهود التي قطعوها على أنفسهم حيال الشعب العربي وسواه من شعوب السلطنة العثمانية، ولذا منعوا أمريكا من دخول الحرب على الرغم من أن الجيش الألماني الذي تحرر من مهام الجبهة الشرقية، كان قاب قوسين أو أدنى من احتلال العاصمة الفرنسية، فعندها لم يعد أمام الحلفاء مناصاً من قبول الشروط الصهيونية، فرضخوا لمطالب زعامتها دون قيد أو شرط، وإذ بأمريكا تخرج عن عزلتها فجأة وتدخل ميادين الحرب بكل ثقلها، وفي الوقت نفسه تندلع نيران الثورة في كل من كييل (Kiel) وبرلين، ويعلن مازاريك (Masaryk) الماسوني الذي اعترف الحلفاء به كممثل للشعب التشيكي منذ عام 1916 استقلال بلاده في شهر تشرين الثاني عام 1918، ويعقبه إعلان استقلال هنغاريا في 16 تشرين الثاني 1918، وتقوم فيها ثورة شيوعية تحت زعامة اليهود بلاكون (Bélakun) فيضطر الجيش الألماني على التراجع، بعد أن تنهار مقاومته، فيتنازل غليوم الثاني عن العرش ويعلن استسلام ألمانيا ونزولها عند مشيئة الحلفاء، وتقوم فيها جمهورية مؤقتة تكلف بتنفيذ الشروط المترتبة عليها كدولة منهزمة، وهكذا ينتصر الحلفاء.

وتحقق الصهيونية العالمية المجرمة بفضل سيطرتها على الدولة الأميركية والماسونية في كل مكان أعز غاياتها، وهي اعتراف الدول المنتصرة بحقها في إنشاء الوطن القومي لأبناء جلدتها، ليقوموا بمهمة توطيد أقدام الاحتكارات اليهودية الضالعة مع الاستعمار في منطقة الشرق الأوسط.

وللتدليل على قوة النفوذ الصهيوني في أميركا التي كانت العامل الأول والأخير لتحقيق النصر للحلفاء، وإيصال اليهود إلى احتلال فلسطين، يكفي أن نلقي نظرة على المقالات العديدة التي نشرها أندره تارديو (Andre Tardieu) المفوض السامي الفرنسي لدى الدولة الأميركية عن ملابسات مهامه آنذاك في جريدة الغرانغوار الباريزية: إذ قال بالحرف الواحد: منذ أن عينت مفوضاً سامياً لبلادي في أميركا كانت العقبات تحول دون نجاحي في حل أي من المشاكل المعلقة

---

(1) المفسدون في الأرض - جرائم اليهود في أمريكا.

بين البلدين، إذ أن اليهود كانوا أبداً خلف كل قضية أخفق فيها، حتى كاد اليأس أن يقتلني، ولما أطلق اللورد بلفور عام 1917 وعده المعروف، الذي اعترفت بريطانيا بموجبه بشرعية إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، اعتبرت الموضوع فرصتي الفريدة لإزاحة العراقيل التي تراكمت في وجه مشاريعي السياسية، فبادرت إلى مطالبة السيد بيشون (Pichon) رئيسي المباشر بأن يوجه لي برقية تشير إلى موافقة الجمهورية الفرنسية على التصريح المذكور، ولقد أبرق لي وزير الخارجية بالإيجاب على طلبي، فأسرعت لإبلاغ موافقة دولتي على وعد بلفور إلى القاضي الأميركي العام اليهودي براندس (Brandis) الذي استقبلني بالترحاب، ومن ثم بكى وامتلأت مقلتاه بدموع الفرح وأمطرني بسيل من آيات الامتنان راجياً تبليغها لدولتي، وعندما قابلت رئيس الجمهورية ويلسون (Wilson) بادرني بدوره قائلاً: إن أسعد أيامه هو هذا اليوم الذي أعلنت فيه الجمهورية الفرنسية قرارها المشرف في هذه القضية العادة.

وعلى الأثر سارت كافة أموري مع الدولة الأميركية وكأنها أمور مسلم بها، ولم يعد أمامي أي من العقبات التي هدت في السابق كياني كمفوض سام لفرنسا[1].

وفي 24 تموز 1918 عينت بقدرة قادر راعياً للحفلة التي أقيمت في باريز تكريماً لمرور أول قطعة يهودية أميركية جاءتها لتلتحق بالجبهة الفلسطينية، ولقد حضر الحفلة أكبر الشخصيات اليهودية أمثال البارون روتشيلد، فلما عدت بعدها إلى أميركا شعرت وكأني فاتح من عظماء التاريخ، إذ أنني أصبحت محور اهتمام الصحافة والمحافل السياسية الأميركية التي كنت في الماضي أتحرق شوقاً للحصول على جزء ولو يسير من اهتمامها، وهكذا أصبحت رغباتي في أميركا أوامر يتوجب على الجميع تنفيذها.

ومن هنا يتضح أن السيد تارديو تمكن في غضون إقامته في أميركا من سبر غور المشاعر السياسية فيها، فضرب على الوتر الحساس منها وكان له كل ما أراد، كما أن مسالك المحافل السياسية الأميركية حياله بعد موافقة فرنسا على نص وعد بلفور يفضح مدى انسجام هذه المحافل مع الرغبات الصهيونية، وهكذا نرى أن الصهيونية العالمية فازت في إشراك جميع الأطراف المتصارعة في نسج خيوط المؤامرة الكبرى، وإن كان هناك بعض التفاوت في النسب التي تقاسمها المشتركون في مجمل النسيج.

---

(1) بيير هيبس ـ الجمهورية العالمية La Republique Universelle. P. Pierrs Hepées.

ملابسات إخراج مسرحيّة المؤامرة

مما يؤسف له حقاً حتى اليوم، هو وجود بعض الناكرين لعمق وأصالة التحرك السياسي الصهيوني الذي آل إلى إقامة الوطن القومي اليهودي على الرغم من كل الإثباتات والبراهين التي تشير إليه.

بدءاً من جريمة رشوة أثرياء اليهود لحكام روسيا بغية دفعهم إلى توسيع اضطهادهم لليهود ليجبروهم على الخروج من روسيا إلى فلسطين الذي سبقه إقدام الثري اليهودي موسى مونت فيوري عام 1840 على شراء بعض الأراضي في القدس لإيواء اليهود الذين هاجروا إليها فيما بعد من مختلف أقطار أوروبا، إلى مقررات مؤتمر بال وما أعقبه من مؤتمرات أسفرت عن إعلان الصهيونية عن تصميمها على احتلال فلسطين، ومن ثم تحركاتها المحمومة ومؤامراتها الشيطانية في هذا المضمار طيلة قرن ونيف بالشكل الذي رويناه في أبحاثنا السالفة.

ونحن وإن كنا نعذر بعض هؤلاء الناكرين لهذه الحقيقة سواءً عن جهل أو تعامٍ، إلا أننا لا يسعنا قط أن نعذر أحداً مهما اتصف بالغباء بتجاهل هذه الحقائق، بعد التصريح الذي أدلى به الزعيم الصهيوني الشهير اللورد ميلشت في المؤتمر اليهودي عام 1928 حيث قال: أيها السادة لو سمعتموني عام 1913 وأنا أدعوكم لمؤتمر نبحث فيه أمر تأسيس وطن قومي في فلسطين، وقلت لكم: إن القدر سيقيض لنا مقتل الأرشيدوق ليسنح لنا فرصة تأسيس الوطن المنشود، لرميتموني بالخرف أو الدجل، والآن ألا يأخذكم العجب، من تحقق هذه المعجزة، في وقت يسبح فيه العالم في محيط من الدماء؟ أتعتقدون أن الموضوع مجرد صدفة، وأننا اليوم في إسرائيل بفضل لعبة عارضة من ألاعيب القدر؟ ألا تدركون أن لهذه الحقيقة أسباباً أوجه وأعمق من المصادفات ولعب الحظ، لكي نكون بعد ألفي سنة من التشرد والغربة في أرض الوطن المقدس، في حين أن الكثيرين من أبناء جلدتنا لا يظهرون بالأمر أي اهتمام، يا ترى هل فكر هؤلاء بالجهود الجبارة والمفاوضات المعقدة التي جعلت من فلسطين دولة لنا[1].

إذ إن تصريح اللورد ميلشت ما هو إلا رد قاطع لكل متشكك، وجواب مفحم لكل تساؤل عن العوامل التي أدت إلى انتصار الصهيونية فيما رمت إليه، وجر العالم إلى تلك الحرب المدمرة.

هذا عدا عن الجهود التي بذلها سادة الصهيونية من الرعيل الثاني أمثال: سوكولوف، ووايزمان، ودافيد بن غوريون، وشاريت، ومناحيم بيغن، وسواهم من ورثة هيرتزل وشركائه،

---

(1) موشيه هانوهين مؤلف كتاب انحطاط اليهودية في العهود الماضية الصادر 1950 في نيويورك.
Moshé Henohin – Décadance of Judisim in our Times New-Yurk. 1950.

الذين أحيوا ما تسمى باللغة العبرية بفضل الأموال التي أغدقها عليهم روتشيلد وهيرش تحت زعامة حاييم وايزمان، الذي كان في بداية الأمر من أنصار التريث، ولكن ما عتم أن انقلب إلى متحمس متهور تحت تأثير بن غوريون وأنصاره الذين جنحوا إلى استعمال القوة في تحقيق نصوص وعد بلفور في أقرب وقت ممكن.

من المعروف أن وايزمان كان على اتصال دائم منذ عام 1915 بكل من سايكس (Sykes) البريطاني وبيكو (Picot) الفرنسي الذين صنعا نصوص المعاهدة الإنكليزية الفرنسية المعروفة باسميهما، والتي أعقبت المباحثات الإنكليزية ـ العربية الشهيرة بمباحثات الشريف وماكماهون (MacMahon) في الوقت الذي كان فيه كل من لويد جورج (Lloyd George) وكليمانصو (Clémenceau) وجورج مانديل اليهودي (Géorge Mandel) يتعاونون لوضع مخططهم الإجرامي الذي أسفر عن خلق وعد بلفور، ومع ذلك كان ماكماهون يلوح للشريف حسين بجدية الوعود البريطانية في تحقيق وحدة البلاد العربية، وإخراج إمبراطوريتها في أعقاب الحرب إلى حيز الوجود، مما أدى بالشريف حسين إلى الاستكانة ومن ثم التعاون الصادق مع الحلفاء، إذ أنه كان يجهل كل ما يجري خلف الأروقة السياسية في كل من باريز ولوندرة.

ومن الأمور التي دعمت المحاولات الصهيونية، السيطرة اليهودية على المصانع الحربية والتموينية الأمريكية التي اعتمدها اليهود للضغط على المحافل الأميركية والدول الغربية الأخرى التي كانت بحاجة ماسة لإنتاج تلك المصانع، ومن جهة أخرى اعتمدت الصهيونية على الفوز الباهر الذي حققته في كل من روسيا التي انسحبت من الحرب وانهكمت في لعق جراحاتها الداخلية، وألمانيا والنمسا اللتين أنهكتا تحت الضربات القاصمة التي تعرضتا لها إبان الحرب ولم يعد بإمكانهما مقاومة الصهيونية والفئات الضالعة معها التي انهالت عليهما تقطيعاً وتمزيقاً دون رحمة أو شفقة، كما أن القطعات الطليانية الماسونية التي كونها الماسوني ريشيوتي (Ricciotti) غاريبالدي الصغير، والتي كانت تقاتل تحت العلم الفرنسي في الحرب العالمية الأولى، ساهمت كثيراً في دعم الصهيونية، وهذه العوامل هي التي أرغمت القلة المناوئة من ساسة بريطانيا وفرنسا للمشاريع الصهيونية على التراجع عن معارضتها، والنكوص بوعودها للشعب العربي الذي وقف بجانبها. وهكذا أصدر بلفور وعده المشؤوم قبل أن تضع الحرب أوزارها بما يقارب من عام[1].

ولقد ظهرت نتائج هذه المؤامرات بأجلى مظاهرها إبان مؤتمر الصلح الذي عقده الحلفاء تحت زعامة الرئيس الأمريكي نيلسون صاحب البنود الأربعة عشر الذي أتى إلى فرنسا محاطاً بحاشيته الصهيونية أمثال القاضي العام اليهودي لويس برانديس (L. Brandeis) والزعيم

---

(1) الدولة الخفية ـ لجواد أتيلهان Gizli Devlet. C.R. Atilhan.

الصهيوني المعروف باروخ (baruch) مدير عموم المصانع الحربية الأميركية، وهانري مورغانتو (H. Morgenthau) سفير أميركا الماضي في تركيا، وراندولف هيرست (Randolph Hearst) صاحب العديد من الصحف الأميركية، ودون ليفي (Don Lewis) زعيم حزب العمال الأمريكي، والمالي المغامر يعقوب شيف (J. Schiff) وبول فاربورغ (Paul Warburg) مدير بنك كوهن لوب (Kuhn-Loeb) ومستشار نيلسون المالي، وعشرات اليهود الآخرين.

ولقد انتبه العالم بأثره لهذا الطوق الصهيوني الذي ضرب حول الرئيس الأميركي، وخصوصاً عندما استقبل بكل تلك الحفاوة من قبل الحزب الاشتراكي الفرنسي الذي كان يرأسه اليهودي لويس ليفي (Louis Levy) والذي كان يعدّ حزبياً مناوئاً للدولة الأميركية الرأسمالية، ومع ذلك خرج يستقبل نيلسون بقضه وقضيضه إذ كان في الواقع يخضع للسيطرة الصهيونية بشخص زعيمه اليهودي العريق في الماسونية.

كما أن الوفد البريطاني الذي كان يرأسه لويد جورج المتقلب الذي عرف بتأييده للصهيونية رغم تظاهره أحياناً بمناصرة الوعود المبذولة للعرب، والذي كان يرافقه اللورد اليهودي رايدينغ (Lord-Reading) الذي أصبح فيما بعد نائباً للملك في الهند، ولقب بحامي الموانئ الخمسة، وصاحب أكبر نفوذ في بريطانيا، لم يكن أقل يهودية وصهيونية من الوفد الأميركي.

أما الوفد الفرنسي فكان بكليته من الصهاينة العتاة أمثال مانديل (Mandel) ويرأسه كليمانصو (G. Clemenceau) الشهير بتعاطفه مع اليهود.

وكان من الطبيعي أن لا ينتظر العالم من هذه الطغمة الصهيونية سوى تحقيق الأحلام اليهودية، على حساب الشعوب المغلوبة على أمرها. إذ بادر المجتمعون منذ بداية شهر حزيران إلى وضع الخطط لتقسيم مناطق النفوذ، وتمزيق الإمبراطورية العثمانية إلى أشلاء فخشي نيلسون مغبة هذا التكالب الغربي، وأظهر امتعاضه، فلم يكن من الصهيونية في أمريكا إلا أن سارعت إلى الإخلال بالأمن في أمريكا نفسها لترغم نيلسون على العودة إلى بلاده ليخلو الجو لمؤتمري فرساي في الاقتسام والاستيلاء على ما شاؤوا من أسلاب الدولة العثمانية، ولما شعر نيلسون بالخطر الذي كان يهدد مركزه في أميركا سارع بالعودة إليها تاركاً الأمر بين يدي زبانيته، وكان يترأسهم في غيابه أمين سره اليهودي س. فيس (S. Weiss) الذي استفاد من غياب رئيسه وانبرى يضع شروط المعاهدة بالشكل الموافق لأغراض بني قومه والدول الغربية معاً[1].

وهكذا خرجت بنود معاهدة فرساي وكأنها صيغت بيد الكاهن الأكبر لمجلس الكهنوت الأعلى، حتى أن فرنسا نفسها غدت ضحية الرغبات الصهيونية، إذ أنها أرغمت على التخلي عن

---

(1) بيير هيبس - الجمهورية العالمية La République Universelle. P. Pierre Hepéss.

منطقتي السار ودانتزيغ للجمهورية الألمانية الفتية، التي كانت الصهيونية قد سيطرت عليها وبدأت تعمل على تجزئتها إلى دويلات، مثل جمهورية برلين وجمهورية بافاريا ودويلة فرانكفورت التي لم يتم لها إقامتها، وذلك بفضل أنصارها من اليهود أمثال روزا لوكسانبورغ، وكارل ليبكنشت، وكورت وخليفته أوجن لوفيه، ومن لف لفهم من الماسون وبعض اليساريين الذين كانت الصهيونية ترجو السيطرة على ألمانيا بوساطتهم لأمد طويل، ولذا عمد المؤتمرون وعلى رأسهم اللورد ريدينغ إلى الضغط على الوفد الفرنسي ليتخلى عن تلك المناطق للزعامة الألمانية الجديدة التي كانت قد كونت بقوة الحراب الحليفة ومن اليهود والضالعين معهم[1].

ولما رجع نيلسون عام 1919 إلى أوروبا اعترض على هذا الجشع الغربي اليهودي وأراد أن يحول دون تنفيذ المقررات التي وضعت أثناء غيابه، كما أوفد لجنة تحقيق مكونة من السيدين هنري كينك (H. King) وتشارلز كرين (Crane) وذلك على أثر تلقيه في 2/ 7/ 1919 مذكرة احتجاج من المؤتمر العربي الذي عقد آنذاك في دمشق، ولكن اللجنة أخفقت في مهمتها من جراء رفض كل من فرنسا وإنكلترا الاشتراك معها، وعلى الأثر أصيب الرئيس نيلسون بمرض عضال أقعده عن العمل، وغلب على أمره أمام المؤامرات الصهيونية، فانفردت بريطانيا وزميلتها فرنسا في اقتسام الغنائم، وفاز لويد جورج في مؤتمر سان ريمو في إقرار انتداب بريطانيا على فلسطين، وهكذا أصبح وعد بلفور حقيقة واقعة، ونجحت مساعي يهود أوروبا الشرقية في إرغام العالم للاعتراف بحقهم في احتلال فلسطين، ولقد تضامن معهم كافة يهود أمريكا، فسارع الجميع إلى تهجير أكبر عدد ممكن من أبناء جلدتهم إلى فلسطين التي أصبحت ترضخ اسماً لبريطانيا، أما فعلياً فكانت ترزح تحت حكم الصهيونية بكل معنى الكلمة، إذ أن بريطانيا أوكلت إلى الصهيوني هربرت صموئيل إدارة البلاد وأطلقت يده في شؤونها.

وهنا أطلق الزعيم الصهيوني الأميركي برانديس صرخته الشهيرة التي قال فيها: الآن وبعد أن تحقق وعد بلفور، وأسند انتداب فلسطين إلى بريطانيا، لم نعد بحاجة إلى العمل السياسي بقدر ما نحن بحاجة إلى تنظيم الجهود العامة ليهود العالم، وذلك للحصول على الأموال اللازمة لتوطين أكبر عدد ممكن من اليهود في فلسطين لنجعل منهم الأكثرية الساحقة في أقصر زمن لكي يتمكنوا من إعلان استقلالهم في الوقت المناسب.

وهكذا بدأت تتبلور المسرحية المجرمة بفضل النفوذ الصهيوني الذي هزم نيلسون، وأطلق أيدي ساسة الحلفاء الآخرين في تقرير مصير بلاد الشرق بأكملها على هواهم.

ويخطئ من يظن أن الشعب الأمريكي كان جاهلاً لما تبيته الصهيونية له من شرور بعد أن أخرجت دولته من عزلتها وورطتها في أمور خارجية لا تعنيه بكثير أو قليل، وإلا لما كانت بعض

---

(1) المفسدون في الأرض - جرائم اليهود في ألمانيا.

الصحف الأمريكية الحرة تجنح أحياناً لإيقاظه من مغبة اندفاعه خلف الدسائس اليهودية. وفي هذا الصدد نذكر أن الصحيفة الأمريكية المسماة بالحارس (The Sentinel) والتي تصدر في شيكاغو كتبت في عددها الصادر بتاريخ 24 أيلول سنة 1939 تقول: إن الأفكار الوطنية والعقائد القومية، والمثل العليا، كانت وما زالت من الأمور المرعبة لليهود، ولذا فهم يناوئونها ويعملون على إضعافها حيثما وجدت، ولقد أثبت التاريخ أنهم يبتعدون عن كل بلد أو شعب يتمسك بها.

إن اليهودي الذي عاش منذ أقدم العصور، دون قومية، وبلا وطن، وبلا قيم أو دوافع تاريخية، يحسد الآخرين على امتلاكهم لهذه المقومات المشرفة، ولذا فهو يحاربها لدى غيره، بينما يسعى منذ أكثر من ثلاثين قرناً للحصول عليها، وفي سبيل هذه الغاية أصدر الألوف المؤلفة من المصادر والكتب التي استُمدت مواضيعها من أساطير الشعوب العريقة في الوجود، ومن مخيلته الخصبة، فتخيل أنه كان لأسلافه الأولين، وطن، وقومية، وكيان، وتاريخ، فراح يبني على تلك التخيلات ما شاء من القصص المختلفة ليوهم السذج من العامة بصحتها، ومن ثم راح ينشرها ويذيعها على الشعوب عبر القرون الطويلة دون كلل أو ملل، حتى غدت وكأنها حقائق تاريخية أصيلة على الرغم من افتقارها لأقل الأدلة والبراهين، فاتخذها الناس على أنها وقائع أصيلة مع كل ما فيها من التخيلات الصوفية المفضوحة، بينما أصبحت بالنسبة إلى اليهود عقائد راسخة في أعماقهم، يعيشون في أحلامها، ويموتون بمخدراتها ولا يقبلون عنها بديلاً، ولذا نراهم في تعصبهم لقوميتهم ووطنيتهم الأسطوريتين يعمهون في الوقت الذي ينشر كتابهم وساستهم بين الشعوب الأخرى مفاهيم ونظريات مجردة من كل تلك القيم، ويدعون الناس لنبذ كل ما يتعلق بها، باعتبارها أفكاراً ذميمة مستمدة من التعصب الضار بالإنسانية، ويطالبون بمحوها من قواميس البشرية، بغية هدم القيم الحضارية للشعوب الأخرى وتجريدها من أسباب وحدتها وتعاطفها حتى تصبح مستنقعات نتنة، يعيثون في أوساطها تدميراً وتخريباً، لتخلو لهم الساحة ويعيشوا فيها بأمان ضمن مقوماتهم الخاصة المليئة بالغرور القومي والتعصب الديني، وأحلام أنبيائهم وأساطير قضاتهم، وجنة ممالكهم الأسطورية، وذكريات أبطال توراتهم الدونكيشوتية، ليغذوا بها أحقاد أجيالهم نحو الشعوب الأخرى كي لا يسهوا عن إذلالها كلما حانت لهم الفرص، فهل بعد الذي أبناه من عذر لقراء هذه الصحيفة، بل لأهل الأرض قاطبة، ليأخذوا بأضاليل هذه الزمرة الحاقدة، ويصدقوا ترهات كتابها وساستها أما آن لنا أن نتعظ، وأن نوقف هذه الشرذمة الضالة المضللة عند حدها[1].

ومع كل هذا ظل الشعب الأميركي سادراً في غفلته لا جهلاً بل عجزاً وشللاً أمام السيطرة اليهودية الهائلة على المحافل السياسية والاقتصادية الأميركية التي شجعت اليهود في أعقاب الحرب على

(1) بيير هيبس ـ الجمهورية العالمية La Republique Universelle. Par Pierre Hepéss.

السعي الحثيث لتحقيق استقلالهم في فلسطين في أقرب وقت، مما أدى إلى ظهورهم بمظهر المنقسمين إلى فئتين، الفئة المتزمتة التي كان يتزعمها وايزمان والتي كانت تتكون من زعماء الصهاينة الغربيين، والفئة المتطرفة التي كانت تتألف من زعماء الصهاينة الشرقيين والأميركيين تحت زعامة بن غوريون، وهذه الفئة هي التي كانت تضم الحركيين، الذين كانوا يطالبون بإقامة الدولة اليهودية حالاً، بينما كان وايزمان يفضل التريث ريثما يصبح اليهود أكثرية ساحقة، ويعتمد بذلك على العون البريطاني الذي كان على حد زعم أنصار بن غوريون بطيئاً، وخاملاً، ولذا لم يتورع هؤلاء من اتهام هيربرت صموئيل بالتقاعس على الرغم من كل مساعيه الجبارة، وعلى الرغم من تحيزه المتطرف لأبناء قومه الذي فضحه فحوى خطابه الذي ألقاه في مجلس اللوردات البريطاني عام 1946 في أعقاب العمل التدميري الذي قام به بعض متطرفي اليهود في القدس، وأسفر عن نسف فندق الملك داود. إذ استهل خطابه بلوم السلطات البريطانية، واتهمها بالتحيز للعرب، وعزا قيام اليهود بهذا العمل الإجرامي إلى نتيجة التحيز البريطاني ضدهم، هذا عدا عن خدماته العديدة التي قدمها للصهيونية إبان الحرب العالمية الأولى، مثل التقرير الذي قدمه لرئيس مخابرات الجيش البريطاني مارك سايكس، والمساعي التي قام بها لإرسال زعماء الصهيونية لحضور مؤتمر السلام حيث تحققت رغباتهم، وهو الذي حال دون تعيين سانت جون فيلبي الذي اشتهر بصداقته للعرب في الإدارة الفلسطينية.

كما أن أنصار بن غوريون كانوا يشكون باللورد اللنبي قائد الجيش البريطاني في فلسطين، ويتهمونه بممالأة العرب، تماماً مثلما اتهموا ماكمايكل (Macmichael) وسواه ممن لم يحنوا هاماتهم أمام الغطرسة اليهودية، والجدير بالذكر هو التفاعل الغريب الذي كانت تبديه الصحافة البريطانية مع كل الاتهامات التي كان يكيلها بن غوريون وأنصاره لكل من لا يناصرهم، حتى أصبح موظفو العرش البريطاني يرتجفون هلعاً أمام ذئاب الصهيونية في فلسطين، وهذه الظاهرة كانت تشجع غلاة الصهيونية للاستهتار بالدولة البريطانية حتى في عقر دارها، والأمثلة على ذلك هي أكثر من أن تحصى ومنها: خطاب النائب اليهودي البريطاني ناتان (H. J. Nathan) في مجلس العموم الذي ألقاه بمناسبة إظهار السلطات البريطانية بعض التحفظات في صدد زيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين: إذ قال فيه بكل وقاحة وجرأة: أيها السادة إن موقف السلطات من الهجرة يعدّ عاراً على الشعب البريطاني، وبالتالي يهدد كيان دولته، ثقوا أيها السادة أن سقوط صهيون في فلسطين سيؤدي معه بالوجود البريطاني، فحذار الحذار من معارضتنا[1].

والأنكى من ذلك، هو موقف الصحافة البريطانية والإفرنسية التي لم تنقطع يوماً واحداً في أعقاب الحرب عن الإشادة بالخدمات والأضاحي والدماء التي قدمها اليهود، وبغية التهويل،

---

(1) بيير هيبس - الجمهورية العالمية R. U. Par P. Hepéss.

خرجت على العالم بقصص خيالية وأعمال خارقة أسندت بطولاتها إلى أفراد من اليهود أمثال الجاسوسين سارة أرونسون (Sarah Aronson) ونعمان بالكنتير (Naman Belkenttir) اللذين أعدمتهما المخابرات العثمانية وقضت على جمعيتهم التخريبية التي كانت تدعى نيلي (Nili) قبل أن ينتصر الحلفاء بزمن طويل، ومن الغريب أن المواطن الأوربي العادي أخذ بهذه القصص، وراح ينظر إلى أبطالها نظرة إكبار وإجلال على الرغم من أنها كانت برمتها محض اختلاق[1].

وكانت الصحافة المهودة ترمي من تركيزها على هذه القصص الزائفة، أن تشير من طرف خفي إلى الفضل اليهودي العميم فيما آلت إليه نتيجة الحرب، ومن ثم التلويح لأخصامهم بخطورة معارضة غاياتهم الدنيئة، والغريب في هذا الأمر هي البلادة التي سيطرت على الغربيين وحكوماتهم حيال هذا الشطط اليهودي، الذي أصبح أداة لكم أفواه القلة التي كانت تعلم ما يخفي اليهود خلف غاياتهم المعلنة من أسرار رهيبة مرهقة لأوطانهم، وعندما كان يحاول أحد المس بتلك الأسرار، كانت الصحافة المهودة تنبري لتلصق به سيلاً من التهم أقلها اللاسامية، وتشنع بأفكاره، بينما تتوج هامات اليهود بأكاليل الغار، وتكيل لهم المديح والثناء، حتى يصبح التنطح للصهيونية سبة في نظر الرأي العام يستحق النبذ والاحتقار.

وهذه الحرب الصحفية التي اعتمدتها الصهيونية هي التي أرهبت رجال الإدارة المنتدبة أمثال وكهوب (Wauchope) وغورت (Gort) حتى غدوا طوع أمر الصهيونية في كل شيء، ولقد أدت هذه الطاعة البريطانية إلى تشجيع الزعماء اليهود المترددين في تعجيل الأمور أمثال حاييم وايزمان على الانضمام لفئة الحركيين الذين كانوا يهدفون إلى إقامة دولتهم قبل الحرب العالمية الثانية، فلما توحدت صفوفهم بادروا إلى خلق الوكالة اليهودية، وتكليف الجنرال وينجت إلى بناء الهاغاناة، وأطلقوا أيدي رجال أحزابهم في مناهضة العرب والسلطات معاً، وعلى الأثر سارع وينجت الصهيوني النزعة إلى انتقاء العناصر المحاربة، وأسس لقادتها مدارس عسكرية في مستعمرة عين حارود وسواها، ومن ثم بدأ بتكوين الوحدات الإسرائيلية، ودفع بها لمقاتلة ثوار مختلف الثورات الفلسطينية طيلة عشرين عاماً، ولما أيقن عام 1939 من إخفاق مساعيه في إقامة الدولة الإسرائيلية في الوقت المحدد، عاد إلى بريطانيا، حيث تبنى أمر الدفاع عن الصهيونية وجيش إسرائيل، ولقد وصف فيما بعد من قبل بن غوريون بأنه كان أوفى أصدقاء الصهيونية في العالم الأنكلوساكسوني.

ولقد دامت هذه المحاولات الصهيونية لتكوين الدولة اليهودية طوال عشرين عاماً، ومع هذا لم تتمكن من تحقيق حلمها على الرغم من كل ما كانت تلقاه من وعود ومؤازرة من بريطانيا وحليفاتها ومن جامعة الأمم التي عشعش في أروقتها أنصار الصهيونية منذ تأسيسها.

(1) البرميل ذو الإبر - لجواد أتيلهان Igneli Figi. C.R. Atilhan.

أسباب إخفاق الصهيونية في إقامة إسرائيل في أعقاب الحرب الكونية الأولى

منذ أن وضعت الحرب الكونية الأولى أوزارها لم تتوقف الصهيونية عن السعي لتحقيق قيام الدولة اليهودية ثانية واحدة، وفي سبيل هذه الغاية جندت الماسونية العالمية، وهيأت الرأي العام الغربي وخاصة في الدول التي انتصرت عام 1918، كما أنها تمكنت من تسخير بعض الأحزاب اليسارية التي كانت تخضع آنذاك برمتها لزعامات يهودية، لتساندها في بلوغ هذا الهدف، كما عهدت إلى المؤسسات السياسية والاجتماعية مثل مؤسسة المفكرين الأحرار، والروتاري، واللاينز بنشر دعوتها حيثما وجدت، هذا عدا عن المؤسسات الأخرى التي راحت تساندها لأسباب شتى . . . مثل شهود يهوه، والبوريتان، والسبتيين، والنيهيليست، أضف إلى ذلك المؤسسات اليهودية الخاصة، مثل جمعية اللاربيين التي أسست في روسيا، وجمعية المدرسة المقدسة الأمريكية، وجمعية بناي بريت السرية (B'nai B'rith) التي تعد أقوى مؤسسة يهودية، يقودها زعماء الصهيونية القابعون في نيويورك، ولقد أطلقوا عليها اسم مكتب الاستعلامات الاجتماعية (Information. And – Service Association) بقصد التمويه، ولهذه الجمعية عملاء وأنصار منتشرون في كل صقع وبلد، وكان يرأسها قبل الخمسينات المدعو سدني والاش (Sydney Wallach) عضو الكونغرس اليهودي في أمريكا، وعملاء هذه الجمعية لا يتورعون عن ارتكاب أية جريمة مهما عظم شأنها، فهم يقودون عصابات التهريب، والمافيا، وشبكات التجسس، وهم مزودون بمبالغ خيالية لممارسة مهامهم، وأعمالهم جميعها سرية، وهم ينفذون جميع التعليمات التي تصدر إليهم، مثل تصفية المناوئين للأغراض الصهيونية، أو المعادين للغايات اليهودية، وبغية إخفاء نشاط فرع التنفيذ في هذه الجمعية المتعاطفة مع المخابرات الأمريكية، أطلقوا عليها اسم مكتب اليقظة الأمريكية (Amirican Vigilant Service) وهو يتعاون مع مكتب المخابرات الأمريكية على أوسع نطاق بقصد إخفاء النشاط الصهيوني الخاص.

ولقد عملت كل هذه المؤسسات طوال الأعوام التي سبقت الحرب الكونية الثانية مع العصابات اليهودية مثل عصابة زفاي ليومي، والهاغاناه، والمابام، وحزب العمل اليهودي، بغية إقامة الدولة الإسرائيلية، ولكن يقظة العرب الفلسطينيين الذين تصدوا بثوراتهم المتعاقبة المعروفة في بداية الاحتلال، والتي لم يخمد أوارها حتى عام 1939 وبعض التحركات السياسية للدول العربية مثل مصر والسعودية والعراق، والعون السوري الذي تلقاه الثوار، وقفت حائلاً منيعاً في وجه المحاولات

الصهيونية، وأرغمت السلطات البريطانية أكثر من مرة على التراجع عن تأييد الشطط اليهودي، والجنوح إلى تكوين لجان دراسة ومفاوضة، وإصدار كتب بيضاء وزرقاء وألوان أخرى لتهدأ خواطر العرب، ريثما تسنح الفرصة لإيصال اليهود إلى غاياتهم في غفلة عن العرب والدول المناوئة لأغراض الصهيونية، ولقد دام المد والجذر في القضية الفلسطينية حتى اندلعت ثورة عام 1936 في وقت كانت فيه ألمانيا تخضع للحكم الهتلري الذي سيطر على مصير بلاده بصورة فعالة، وأصبح له في المجتمع الدولي مركز مرموق ومهاب، وخصوصاً بعد أن أنقذ وطنه من السيطرة اليهودية التي كانت تعمل لتمزيقه إلى دويلات مستضعفة مثلما كان قبل عهد بسمارك، لتسيرها في ركاب أغراضها، وكان من الطبيعي أن تتأصل العداوة بينه وبين الصهيونية وأن يقف كل منهما للآخر بالمرصاد[1].

كما أن موسوليني كان هو الآخر قد استأثر بحكم إيطاليا، وشق طريقه بقوة في المحافل الدولية وأصبح مرهوب الجانب، تحسب الدول الغربية له ألف حساب قبل أن تنفر في أمر دولي معه، أضف إلى هذا أن صلاته مع الصهيونية لم تكن خيراً من صلات هذه الأخيرة مع ألمانيا، وهكذا ظهر للصهيونية عدوان جديدان، كانت تظن أنها تخلصت منهما عشية معاهدة الصلح.

ولقد وجدت كل من الدولتين إبان ثورة 1936 فرصتها الذهبية لتدلي بدلوها في القضية الفلسطينية بغية تحطيم المخططات الصهيونية الإنكليزية في منطقة شرق البحر الأبيض، فلما أنهت لجنة اللورد بيل (Peel) تحقيقها بصدد فلسطين وقدمت قراراتها التي كانت توصي بتقسيم البلاد إلى ثلاث دويلات: إحداها يهودية، وأخرى عربية، وثالثة تخضع للانتداب الإنكليزي المباشر، بادرت ألمانيا إلى إصدار تعميم لسفارتها في بريطانيا ولكل من قنصليتيها في القدس وبغداد، قالت فيه بالحرف الواحد: نظراً للتطورات الحديثة في فلسطين التي أوجبت علينا اتخاذ موقف جديد حيال اقتراح إقامة دولة يهودية (أو كيان يهودي) مستقلة أو في ظل الانتداب البريطاني فيها، نرى أن تعتمدوا في مباحثاتكم بهذا الشأن مع السلطات البريطانية على المبادئ التالية:

1 ـ إن إقامة دولة يهودية مستقلة أو تحت الانتداب البريطاني، تعني نسبة لنا إيجاد كيان روحي وسياسي ليهود العالم، شبيه بكيان الدولة الفاتيكانية نسبة للكاثوليك، ولدولة الكرملين في موسكو بالنسبة للكومنترن (Komin tern) الشيوعي، وبالتالي فهو سيضيف إلى المزاعم القومية اليهودية صفة شرعية ودولية، وهذا يتنافى كلياً مع مصالح الدولة الألمانية الاشتراكية الوطنية، ولذا تعارض قيام مثل هذا الكيان.

2 ـ إن المصالح الألمانية تقضي بخلق وتقوية التوازن في العالم العربي ليتمكن من مجابهة التحديات اليهودية العالمية.

---

(1) أسرار وزارة الخارجية الألمانية أو ويلهيلم أستراس.

3 ـ ومع هذا يجب أن لا يفهم أن ألمانيا مستعدة حالياً للتدخل مباشرة في التطورات الفلسطينية، بل القصد هو إفهام الدول المعنية بهذه القضية اهتمام ألمانيا الكبير بها، نظراً لأهميتها في مجالات الحقوق الدولية.

ولقد جاء في ختام التعميم الموقع من قبل وزير الخارجية الألمانية السيد نورات (Neurath) ملحق خاص لكل من الجهات الثلاث المعنية بالتعميم ما يلي:

إلى السفارة الألمانية في لوندرا

يرجى التكرم بإعلام الدولة البريطانية في أقرب فرصة باهتمام الدولة الألمانية الكبير في القضية الفلسطينية، على الرغم من كل ما تبديه حيال الهجرة اليهودية من نوايا طيبة، ومع هذا يجب أن لا تفكر بريطانيا بأننا نرحب بقيام الدولة اليهودية مهما كانت أسبابها، كما أننا نعتقد أن أية خطوة من هذا القبيل لن تساعد أحداً لتسوية الارتباك الدولي المتدهور، بل ستزيده ارتباكاً وتدهوراً.

أما نص الملحق الخاص بمفوضية بغداد فلقد جاء فيه: يجب أن تعلنوا للدولة العراقية، تفهم ألمانيا لروح القضية العربية، بصورة أكثر قوة وصراحة من ذي قبل، دون التورط بوعود معينة في هذا الميدان.

كما أن الملحق الخاص بقنصلية القدس، كان يحتوي على ما يلي: علق النظر بمقترحاتكم الخاصة بالاحتياطات السياسية والاقتصادية الرامية إلى تشجيع هجرة اليهود إلى أجل غير مسمى، فأهملوها حالياً.

وعلى الأثر بدأت الدوائر الألمانية في البلاد العربية، بالاحتكاك مع الجهات المسؤولة، فجرت مباحثات عديدة بين كل من السيد دوهله (Dohle) قنصل ألمانيا في القدس، وممثلي المؤسسات الدينية الألمانية الكائنة في فلسطين، وأقر في النهاية أن تصر تلك المؤسسات على أن تبقى خاضعة للإشراف البريطاني فقط في حالة قيام الدولة اليهودية، وإذا تعذر ذلك أن يعمل لإيجاد نوع من الحماية الدولية لتلك المؤسسات حتى لا تكون عرضة للاستبداد اليهودي، كما اتفق الجانبان على الحصول على موافقة الدولة الألمانية للقيام بالمحاولات الآيلة إلى هذه الأهداف.

ومن الناحية الثانية اتصل المفتي الحاج أمين الحسيني بالسيد دوهلة وأعلمه بمعارضة العرب لمشروع بيل برمته، كما تمنى أن تأتي نتائج الخلاف القائم بين كل من فرنسا وإنكلترا وتركيا حول هذا المشروع، والمعارضة الألمانية والإيطالية له لصالح العرب، ومن ثم أكد للقنصل ما يكنه العرب من صداقة متينة للدولة الألمانية الجديدة، وأردف أن العرب يأملون أن تبادر هذه الأخيرة إلى معاونتهم في صراعهم مع اليهودية العالمية، وأخيراً تمنى أن تستقبل ألمانيا أحد معاونيه لتداول

الأمر معها بغية إيجاد طريقة موحدة لمعالجة القضية، ولقد وعده القنصل الألماني بإبلاغ فحوى مطالبه للدولة الألمانية في أسرع وقت.

ولقد جرت مباحثات مماثلة بين السيد كروبا (Grobba) سفير ألمانيا في بغداد والسيد سليمان حكمة رئيس الوزارة العراقية، الذي أعلن عن معارضة حكومته لمشروع بيل، واعتماده في ذلك على عون الدولتين التركية والإيطالية في جمعية الأمم[1] كما استوضح عن موقف ألمانيا من الخلاف العربي اليهودي، وألمح إلى أمل حكومته بأن تسمع بتصريح ألماني رسمي في هذا الشأن، كما نوه بضرورة حصول العراق على عون مالي من مصدر غير بريطاني، وختم حديثه بأن أعلم السفير بعجز دولته عن دخول حلبة الصراع الفلسطينية بصورة مجدية طالما كانت تتعرض لضغط بريطانيا المنتدبة، ورجا أن تقف ألمانيا في صف العرب لعل ذلك يخفف من غلواء بريطانيا حيال حكومته.

وفي خضم هذه المباحثات أصدرت وزارة الخارجية الألمانية تعميمها ذي الرقم 423 والمؤرخ في 22 حزيران 1937 والموجه إلى ممثليها في الخارج، وذلك بغية وضعهم في الصورة الحقيقية للقضية الفلسطينية.

ولقد جاء في هذا التعميم: إن التطورات التي حدثت عام 1936 في فلسطين أسفرت عن تشكيل لجنة دراسة وتحقيق تحت رئاسة اللورد بيل بغية إيجاد حل لهذه القضية ومن المعلوم أن اللجنة أنهت دراستها ورفعت مقترحاتها، ومع أن هذه المقترحات لم تنشر رسمياً بعد، ولكن من خلال التقارير التي وردتنا والأخبار التي تسربت إلى الصحافة فهم أن هذه اللجنة أوصت بتقسيم فلسطين إلى ثلاث دويلات، إحداها عربية وأخرى يهودية وثالثة تحت الانتداب البريطاني.

والحماس الذي تبديه الصحافة اليهودية في ألمانيا، حيال إقامة الدولة الصهيونية، والذي تزايد في الأيام الأخيرة، والدعم الذي يلقاه المشروع اليهودي من الصحافة الأوروبية، أضف إلى ذلك تحركات الزعامة الصهيونية في عواصم دول العالم، وخاصة في ستوكهولم، وهلسنكي الرامية إلى الحصول على تأييد حكوماتها للمشروع اليهودي تؤكد ما ذهبنا إليه فيما يعود على مقترحات لجنة بيل.

والمعلومات الوثيقة الواردة إلينا من البلاد العربية، تشير إلى أن العالم العربي برمته يعارض هذا المشروع ويراقب تطوراته بكل اهتمام ويحارب المحاولات البريطانية الرامية إلى تقوية الجانب اليهودي، كما أن الدول العربية وخاصة مصر والعراق تتضامن مع الشعب العربي في فلسطين لمناوأة التقسيم وذيوله.

---

(1) إن المعلومات المتعلقة في التعميم الألماني وملاحقه والتفاصيل الباحثة عن اجتماعات ممثلي ألمانيا بالزعماء العرب، مأخوذ من الأضابير السرية لوزارة الخارجية الألمانية.

Les Arehives Secrétesde La Wilhelmstrasse.

أما مواقف الدول الأوربية من المشروع فما زال حتى اليوم غامضاً ، كما أن موقف بريطانيا نفسها ما زال محاطاً بالغموض ، بدليل أن وزير خارجيتها السيد إدن (Eden) لم يتمكن من الرد على سؤال سفيرنا حول موقف دولته من هذه القضية بسوى قوله : إن المسألة الفلسطينية هي إحدى أعقد قضايا دولته الخارجية ، والظاهر أنه عنى بذلك الأضرار المنتظر وقوعها حيال المصالح البريطانية في البلاد العربية إن هي أصرت على تنفيذ بنود وعد بلفور ، ولذا فهي تتردد كثيراً في البت بها ، على الرغم من كل الضغوط التي تتعرض لها من قبل أمريكا السادرة في تضامنها مع اليهودية العالمية .

ومن المعلوم أن إيطاليا تعارض المشروع البريطاني خشية أن يؤول قيام الدولة اليهودية المنتظر إلى منح بريطانية قاعدة حربية دائمة في شرق حوض البحر الأبيض المتوسط ، مما سيؤدي حتماً إلى تقليص نفوذ إيطاليا في هذا البحر ، ولقد تأكدت هذه المعارضة الإيطالية ، من خلال الخطاب الذي ألقاه زعيمها موسوليني في طرابلس ، إبان تلقيبه من قبل أهلها بلقب سيف الإسلام .

والموقف الفرنسي ما زال غامضاً بعض الشيء ، وإزاء كل هذه العوامل الهامة ، ونظراً لتسارع الأحداث ، كان لابد لنا من تحديد موقفنا من محاولات إقامة الدولة اليهودية ، وخصوصاً بعد أن التبست اتفاقية الهافارا (Havaara) لعام 1933 على بعضهم ، وراحوا يفسرونها وكأنها دليل على موافقة ألمانيا على تلك المحاولات ، وبغية الإيضاح نؤكد لكم ما يلي :

إن الخصام القائم بين ألمانيا واليهودية العالمية لن ينتهي حتى وإن خرج آخر يهودي من بلادنا ، والحملة المسعورة التي يشنونها علينا منذ عدة أعوام لا تعني سوى تصميمهم على محاربتنا فكرياً وسياسياً إلى مالا نهاية ، ومطالبتهم بإقامة الدولة اليهودية في فلسطين ، مع علمهم باستحالة استيعابها لكل اليهود ، ما هي إلا بغية إيجاد مركز ديني يستقطب حوله اليهود أسوة بالفاتيكان الكاثوليكي ، وكيان سياسي يستمدون منه حرية التحرك في ظل القوانين الدولية مما سيؤول إلى ازدياد نفوذهم ، ويزيد قدرتهم على ضرب المصالح الألمانية حيثما وجدت ، ومن هنا غدت المسألة الفلسطينية ذات أهمية كبرى لنا وأصبح كل تطور فيها يهمنا ، فعليه يجب أن تعلموا أن المصلحة الألمانية تقضي بدوام التشرد اليهودي ، ولذا نعارض إقامة الكيان المزمع إقامته بكل الوسائل الممكنة ، مع العلم أننا لا نفكر إطلاقاً بالتدخل المباشر في شؤون فلسطين ولقد أوعزنا إلى سفارتنا في لوندرا أن تحيط الدولة البريطانية علماً بأننا لا ننظر إلى المحاولات الدائرة حالياً نظرة ارتياح قطعاً ، ولا نرى نتائجها إلا لغير صالح المساعي المبذولة لتسوية الأمور المتدهورة ، وحرصاً منا على السلام العالمي نعلن معارضتنا واستنكارنا للمحاولات اليهودية .

ومن جهة ثانية زودنا ممثلينا في القدس وبغداد بالتعليمات اللازمة للعمل ضمن هذه المفاهيم على أن يزداد تلاحمهم وتفاهمهم مع الجهات العربية المسؤولة .

وأخيراً نرجو أن تحيطونا علماً عن مدى تقبل الأهلين والسلطات في البلاد التي تقيمون فيها للأفكار الرامية إلى إيجاد كيان يهودي في فلسطين[1].

وفي أعقاب إصدار السيد بولوف شفانت (Bulow Schwante) هذا التعميم أصبح العالم بأسره يعرف عدم اعتراف ألمانيا بالمشروع اليهودي.

ومن ثم قام حوار واسع بين ممثلي ألمانيا في البلاد العربية، وبعض رجالات العرب وتعددت اللقاءات مثل لقاءات الحاج أمين الحسيني مع السيد دوهلة، ولقاء الشيخ يوسف ياسين مع السيد كروبا، الذي أسفر عن إقامة سفارة ألمانيا في جدة، وتلا ذلك لقاءات عديدة بين العاهل السعودي، وسفير ألمانيا دامت عدة شهور، ولقاءات أخرى مع السيد سليمان الباجه جي في بغداد، أضف إلى ذلك المباحثات التي أجراها الدكتور سعيد الإمام مع المسؤولين في برلين.

ولقد دارت المباحثات في كل هذه اللقاءات حول القضية الفلسطينية وكيفية مجابهة السلطات البريطانية، وعن مدى استعداد ألمانيا في تسليح العرب وعن مواقفها من الصراع الوطني العربي حيال الاستعمار الأنكلو فرنسي.

ومن المؤسف أن كل هذه اللقاءات والمباحثات العربية الألمانية لم تثمر عما كان يرجى منها، وذلك من جراء تشعب الغايات الغربية من جهة، وتعارض بعضها مع وجهات النظر المحورية (محور روما برلين)، إذ من المعروف أن إيطاليا كان لها مصالح عديدة في البحر الأحمر تفاهمت على أكثرها مع بريطانيا التي كانت تسيطر آنئذ على مدخليه الشمالي والجنوبي، ولذا كانت تتجنب المغالاة في مس المصالح البريطانية المتشعبة في البلاد العربية، أضف إلى ذلك وضعها المالي المتدهور في أعقاب حرب الحبشة التي أضعفت مقدرتها الاقتصادية إلى حد كبير، حتى أن موسوليني أرغم عام 1937 إلى إيفاد وزير ماليته الكونت فولبي (Volpi) اليهودي الأصل إلى بريطانيا لعله يحصل منها على قرض مالي ينجيه من عسره، ولكن فولبي عاد من رحلته بخفي حنين، فلم يكن من موسوليني إلا أن أعلنها حرباً شعواء على الصهيونية العالمية المسيطرة على البنوك البريطانية، مما حدا ببريطانيا إلى إعادة النظر في طلب الزعيم الإيطالي، واضطر السيد إدن (Eden) لتقديم استقالته ليفسح المجال لخليفته السيد تشنبرلن ليسوي الأمور مع موسوليني، فما كان من تشنبرلن إلا أن وافق على إقراض موسوليني مبلغ 60 مليون ليرة أسترلينية على الرغم من أن دولته كانت أولى الدول التي فرضت عليه العقوبات الاقتصادية إبان زحفه على الحبشة، وعلى الأثر تشابكت مصالح الدولتين فلم تعد إيطاليا تناصب التحركات الأنكلو الصهيونية العداء إلا بقدر معلوم.

---

(1) الملفات السرية لوزارة الخارجية الألمانية.

وهكذا ظل هتلر وحده في حلبة الصراع فلم يجرُؤ على التظاهر بمساندة العرب بصورة فعالة، ومع هذا اتخذ المستعمرات الألمانية محوراً أساسياً لاعتراضه على قيام الدولة اليهودية، وتذرع بسوء معاملة اليهود لأفراد تلك المستعمرات، حتى لا يتهم بالتحيز للعرب، في الوقت الذي ثابر على تشجيعهم سراً، ومدهم ببعض المعونات الضئيلة، كما أعلن عن تعاطفه مع الشعب العربي في فلسطين الذي ثابر لوحده وبقدر إمكاناته على التصدي للمخططات الصهيونية، مما حدا ببعض الدول مثل بولونيا أن تبدي تحفظها نحو الغايات اليهودية.

ويبدو أن هذا القدر الضئيل من المعارضة الدولية التي اقترنت بالكفاح الفلسطيني الشديد (رغم ضآلة العون من العالم العربي الذي كان يفتقر بمجموعه إلى وحدة الرأي والعمل وخاصة إن بعض أجزائه كانت ما زالت ترزح تحت الاستعمار مثل سورية والعراق والأردن ولبنان ومصر ودول المغرب العربي، والتي كان كل واحدة منها تسعى في المرتبة الأولى لتحرير نفسها من براثن المحتلين) كان كافياً لإرغام بريطانيا على التريث في إقرار توصيات بيل، فتأرجحت القضية بين المد والجزر خشية إثارة ألمانيا التي كانت قد انسحبت منذ عام 1933 من جمعية الأمم تضامناً مع اليابان وخاصة بعد أن رسخ هتلر حكمه، وبدأ في التلويح بضرورة استعادة الأجزاء التي سلخت عن بلاده عقب معاهدة فرساي، فغدت الأمور الدولية تتفاقم يوماً بعد يوم، مما أفقد بريطانيا حماسها حيال المشروع اليهودي الذي كانت تعارضه ألمانيا.

وفي هذه الوقت بالذات أي في شهر كانون الأول عام 1937، ألقى أمين سر الحزب الفاشي الإيطالي خطابه الشهير من شرفة قصر فينيس (Venise) الذي اختتمه قائلاً: إن المشاعر الإنسانية النبيلة التي يبديها ممثلو بعض دول جمعية الأمم، تضمحل وتتلاشى في أروقة هذه الجمعية الموبوءة بالطاعون الكهنوتي اليهودي الممثل بالمشبوهين من أنصار مجرمي الحروب، ولذا لم تعد هذه الجمعية أهلاً لتداول شؤون العالم التي تتطلب منا الإخلاص والوفاء، ولقد نفد صبرنا ولم يعد بإمكاننا تحمل الدسائس اليهودية، ولهذا أعلن من هنا انسحاب بلادي غير آسفة من عضوية هذه المؤسسة التي تعمل لإثارة الحروب إكراماً لحفنة من مصاصي الدماء بدلاً من العمل لإحقاق الحق وتأمين السلام.

ولقد عقبت الصحيفة الرسمية الألمانية على انسحاب إيطاليا من جمعية الأمم بما يلي:

إن هذه الجمعية المسماة زوراً وبهتاناً بجمعية الأمم، كانت إحدى الآمال التي تراود الصهيونية العالمية منذ أمد بعيد، وتأسيسها كان نزولاً عند رغباتها ورغبات المحافل الماسونية الضالعة معها، أملاً بأن تكون الخطوة المؤدية إلى إعادة بناء هيكل سليمان، وإقامة الجمهورية العالمية التي يسعى لإقامتها يهود العالم ومن لف لفهم من أعداء الشعوب. ولهذا حولت الرأسمالية اليهودية هذه الجمعية المولجة ظاهرياً بتحقيق السلام في العالم إلى شركة تجارية تتداول

أمور السلع والاستثمارات العائدة لأصحاب المصارف اليهودية أمثال روتشيلد، والشلة الفرانكفورتية الذين راحوا يضاعفون ثرواتهم بفضل تعاون القائمين عليها.

وكان هذا التعليق بمثابة إعلان إيطاليا الحرب على المشاريع الصهيونية وانضمامها نهائياً إلى صف ألمانيا المناوئ لليهودية العالمية، وهنا وجدت بريطانيا نفسها مجبرة على إعادة النظر في القضية الفلسطينية، فأوفدت في شباط 1938 لجنة تحقيق جديدة إلى فلسطين تحت إشراف السيد جون فودهيد (John Woodhead) في 9/ 11/ 1938 أنهت هذه اللجنة دراساتها، ورفعت تقريراً أوصت فيه بعدم صلاحية مشروع بيل، وهكذا أسقط المشروع من حساب الدولة البريطانية.

ولما كانت الصهيونية على علم مسبق بمخاوف بريطانيا، ونواياها في التراجع عن مشروع بيل، أوعزت إلى أتباعها في فلسطين بتصعيد أعمال الشغب والتمرد تحت زعامة المجرم سالومون بن جوزيف (Salomon-ben- Joeseph) الذي عدّه اليهود مسيحهم المنتظر، فبادروا إلى أعمال القتل والاغتيال، ولكن القدر أوقع زعيمهم سالومون في يد القضاء على أثر ارتكابه جريمة قتل أفراد قافلة عربية، فأعدمته السلطات البريطانية جزاءً وفاقاً، ففت هذا الإجراء في عضد اليهود، فاستكانوا مؤقتاً، وعادوا يتلمسون طريق العمل الجماعي المنبثق عن تعاليم الكاتب اليهودي هنري هاين، التي تزعم أن المسيح المنتظر هو الشعب اليهودي بأكمله وليس فرداً، وإن بناء الهيكل لن يتحقق إلا على يد الشعب بأكمله.

ومما بيناه يتضح أن الثورات الفلسطينية المتتابعة، وموقف ألمانيا المناوئ للصهيونية وانسحاب دول المحور من جمعية الأمم، هي التي ثبطت عزائم الدولة البريطانية، وحالت دون مثابرتها على مسايرة الصهيونية خشية إثارة هتلر الذي بدأ منذ خروجه من جمعية الأمم بمعارضته المشاريع الغربية وخاصة المتعلقة بالقضية اليهودية، كما أن الصهيونية نفسها كانت تتحاشى إلى حد ما إثارة هتلر، بعد الاعتداءات التي وقعت على المستعمرات الألمانية في فلسطين من قبل غلاة المجرمين اليهود إبان الثورات التي حدثت قبل عام 1934 والتي أرغمت بريطانيا على تحديد الهجرة اليهودية أكثر من مرة، مما أسفر عن عدم تكاثر عدد اليهود إلى الحد الذي كان يسمح لهم بإقامة دولتهم المرجوة، الشيء الذي أعجز الصهيونية نفسها عن الاستعجال، أملاً بأن يثابر هتلر على السماح ليهود بلاده بالهجرة، وكي لا يجنح إلى تشديد الضغط عليهم في بلاده.

عوامل العداء بين النازية والصهيونيّة

يعتقد بعض الذين غررت بهم الدعاية الصهيونية أن بداية العداء بين ألمانيا واليهودية العالمية يعود تاريخه إلى عهد ظهور النازية في ألمانيا، وهذا الاعتقاد خاطئ بقدر ما هو وليد الجهل والسذاجة، إذ أن هذا العداء استحكم بينهما منذ عهد الإمبراطور ماكسيمليان (Maximilien) الذي اكتشف الدسائس التي كان اليهود يحيكونها بحق الكنيسة الكاثوليكية. وأعقبه في مراقبة التحركات اليهودية المناوئة للشعب الألماني المصلح لوثر، وتلاه موحد ألمانيا بسمارك الذي لمس ذيول التآمر اليهودي في عهد نابليون التي أدت إلى تمزيق بلاده إلى أكثر من ثلاثين دويلة خضعت طويلاً لغايات اليهود وجشعهم، وأخيراً قيض القدر لألمانيا أدولف هتلر الذي رأى بأم عينيه ما صنعت الصهيونية ببلاده قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى، وكيف عمدت بعد انتهائها إلى إعادة تمزيقها بقوة الحراب الحليفة ليجعلوها مزرعتهم الخاصة وليمتصوا دماءها على هواهم، ومن ثم شاهد تكالبهم في إنجاح المارشال العجوز في انتخابات عام 1933 لتظل حكومته خاضعة لزبانيتهم من الماسون والمنحرفين قومياً.

ولذا كان من الطبيعي أن يسارع إلى وضع حد لتسلطهم على شعبه، فلم يكن له بد من الاعتماد على أساليب مماثلة لأساليبهم، فانبرى يحطم أسطورة الشعب المختار بإيجاد فكرة القومية الآرية المتفوقة، ورد على تعصبهم وتزمتهم الديني والقومي، بفكرة الاشتراكية الوطنية الآرية، وعلى تعاطفهم وتآزرهم العنصري على الرغم من مظاهرهم الخادعة في الانصهار في مختلف البوتقات الفكرية والسياسية، بتوحيد أبناء عرقه وتطهير صفوفهم مما علق بها من شوائب اليهودية ومبتدعاتهم السياسية والفكرية، ووجههم وجهة علنية واحدة، وبذا قطع عليهم الطريق ولم يعد مجال للتلاعب في مقدرات ألمانيا التي كانوا يعدّونها بعد الحرب صريعة نفوذهم، وهنا قامت قائمتهم ونفد صبرهم فبادر مجرموهم أمثال مناحيم بيجن ورفقائه في فلسطين إلى الاعتداء على المؤسسات والبعثات الألمانية أملاً بإرغام هتلر على التلطف في معاملة أبناء جلدتهم، كما سارعت الصحافة الأوربية المهودة (التي لم تكن تتعرض لجرائم القتل العام المقرونة بالسلب والنهب التي أقدمت عليها العصابات اليهودية وزعمائها أمثال بيريا، وبلاكون وسواهم في البلاد السلافية التي خضعت حقبة من الزمن بوساطة الاشتراكية لسيطرتهم، أو الجرائم التي ارتكبها اليهود أمثال روزا لوكسانبورغ ورئيس جمهورية بافاريا في ألمانيا نفسها،

والجرائم التي كانت عصاباتهم ترتكبها في فلسطين) إلى شن حملة شعواء على ألمانيا متذرعة ببعض الاعتداءات الفردية التي وقعت على بعض اليهود فيها ، وراحت تنادي بالويل والثبور ، وتحث العالم أجمع للمبادرة إلى إنقاذ اليهود من البربرية واللاسامية الهتلرية ، ولقد طال أمد هذه الحملة ، حتى طفح كيل هتلر منها ، رد عليها بأن فرض حظر التعامل مع المؤسسات التجارية اليهودية على الشعب الألماني ، ومن ثم هدد بإلغاء اتفاقية الهافارا ، التي كان اليهود بموجبها يهاجرون من ألمانيا إلى فلسطين مزودين بأموالهم النقدية ، وهنا أسقط في يد يهود ألمانيا وطلبوا مراراً من الزعامة الصهيونية في الخارج الكف عن إزعاج النظام الهتلري ، كما أنهم أوعزوا إلى صحافتهم في ألمانيا بأن تشيد بمناقب الحكم النازي وتتبرأ من مسؤولية الحملات الدعائية الخارجية المناوئة لهتلر ، لعله يرضى عنهم ، ويعود إلى إطلاق أيديهم في استغلال الشعب الألماني الذي ذاق الأمرين منهم[1] .

ولكن الصهيونية العالمية أبت أن تستجيب لرجاء يهود ألمانيا وثابرت على حملاتها ضد هتلر ، ودفعت بالمحافل الماسونية إلى مجاراتها في معاداته ، بغية إثارة الرأي العام العالمي ضده ، وتهيئته لتقبل الدخول في حرب جديدة مع ألمانيا وشريكاتها في المحور ، إذ أنها أيقنت أن أحلامها لن تتحقق طالما ظلت تلك الدولة قادرة على مناوأتها ، ولذا راحت تهتم بكل ما يؤول إلى توسيع شقة الخلافات بين الدول الغربية ودول المحور ، فعمد أنصارها في جمعية الأمم إلى معاكسة وجهات النظر اليابانية والألمانية والإيطالية ، حتى اضطرت كل واحدة منها بدورها إلى التخلي عن عضويتها في تلك المؤسسة العالمية ، وكانت إيطاليا آخر من خرجت منها وهي تصب اللعنات عليها وعلى القائمين على أمرها .

والغريب في الأمر هو أن الصهيونية العالمية لم تستجب لتوسلات أبناء جلدتها في ألمانيا ، الذين طلبوا منها عدم التدخل بينهم وبين حكومتهم فحسب ، بل أبت أن تسعى عملياً لإنقاذهم ، وفضلت على ذلك جعلهم أكباش الفداء لأغراضها التي كانت إثارة الرأي العام ضد هتلر في طليعتها ، ومخلب قط لتسوغ به حملتها على النازية لكي تتفاقم العلاقات بين الدول الغربية ودول المحور ، وتنتهي بصراع جديد بينهما ، يؤول إلى نصر نهائي يوصلها إلى تحقيق غاياتها المشتركة مع الغرب ، ولذا لم تأبه بصرخات يهود ألمانيا ، فثابرت على حملتها دون هوادة على الرغم من أنها آلت إلى إثارة موسوليني بدوره ضد يهود بلاده فتعرضوا إلى بعض المضايقات المماثلة لمضايقات النازية .

---

(1) عندما لا تكون إسرائيل مالكة ـ لكاتبه جان تارود Quand Israél nest plus roijj tharaud .

ومع ذلك لم تتوقف الصهيونية عن التشنيع بدول المحور، فخشي بعض عقلاء الغرب أمثال القائمين على جمعية الصليب والعلم (The Cross and Flag) وجمعية الجبهة المسيحية الأميركية التي كان يرأسها الأب المحترم كوغلن (Goughlin) الأميركيتين، من مغبة التهور الصهيوني فبادر بعضهم إلى تنبيه الدولة الأميركية التي كانت تسير في ركاب اليهود إلى خطورة مسلكها، ولكن ذهبت مساعيهم أدراج الرياح، إذ كان الرئيس الأميركي روزفلت الذي لقب بحق وحقيق بموسى القرن العشرين يأبى الاهتمام بكل ما هو غير يهودي، حتى أنه هدد الأب كوغلن بأشد العقوبات إن لم يقلع عن مناوأة الصهيونية، ويا ليته اكتفى بذلك، بل طلب من البابا تأنيب هذا الكاهن الشريف، ومن ثم أوفد أعضاء المدرسة المقدسة إلى روما بحجة تهنئته بمولد المسيح لكي يوسطوه لدى موسوليني لصالح الجالية اليهودية في إيطاليا، فما كان من الحبر الأعظم إلا أن تبنى قضيتهم، وألقى خطاباً تحذيرياً موجهاً إلى موسوليني قال فيه: إن العدالة والحقوق الإنسانية والأعراف الدولية تتعرض في إيطاليا لأشنع التعديات بحجة حماية المصالح العامة، مع كل ما في هذا الزعم من التعارض مع مفاهيم الشرائع السماوية، وعدالة الحقوق الشخصية للمواطنين.

وكان من البديهي أن يتأثر الرأي العام الإيطالي المتعلق بسدة الحبر الأعظم بهذا التصريح، ويظهر امتعاضه من مسلك موسوليني حيال اليهود مما أدى إلى تراجع هذا الأخير عن بعض إجراءاته المناوئة لليهودية.

وهكذا تعاونت الكاثوليكية المعروفة بعدائها للبروتستانتية واليهودية، وتألبت جميعها على موسوليني لإنقاذ اليهود منه، على الرغم من كل ما كان بينها من عداوة تقليدية.

أما في إنكلترا التي كانت تتجنب الاصطدام مع هتلر، وتسوف في تحقيق رغبات الصهيونية في فلسطين، فلم يرتفع منها صوت واحد ضد الشطط اليهودي، إذ كانت السلطات فيها مدمنة على المخدر اليهودي، ولذا كانت تستسيغ كل ما هو يهودي مهما تطلب منها من تضحيات، فتركت الحبل على الغارب على الرغم من شعورها بالاقتراب من حافة الحرب التي كانت اليهودية العالمية تسعى بكل قواها لافتعالها.

ولقد كشف الدكتور إي (D. Eey) المفاوض التجاري الألماني، الذي أوفد إلى بريطانيا عام 1939 لمباحثة حكومتها بشأن عقد اتفاق تجاري معها القناع عن هذا التعاطف البريطاني اليهودي المكين عندما قال: إن الأساليب الإنكليزية هي أساليب يهودية وحشية استبدادية، خسيسة مقرفة، وهم مثل سادتهم لا يتورعون عن السعي لتدمير من يروم مقاومتهم مهما كان ذا

حق وهم يكرهوننا مثل أصدقائهم ، ولذا لن ننتظر بعد اليوم منهم شيئاً ، وجل ما نبغي هو أن يعرفوا أن ألمانيا اليوم ليست ألمانيا عام 1914[1] .

ومن هذه الأقوال نستنتج أن بريطانيا على الرغم من كل مظاهرها الخادعة في عدم التحيز لليهود كانت في الحقيقة ضالعة معهم حتى العظم ، ولكن مع كل هذا ظلت سياستها حيال القضية اليهودية متأرجحة ، وذلك لارتباطها الوثيق بالأوضاع الدولية ، وموقف العرب في فلسطين ، فعندما يكون الحكم في أيدي الزعماء المتطرفين في صهيونيتهم من أصدقاء وايزمان وبن غوريون وأترابهم من الأميركان كنا لا نرى حداً للسخاء البريطاني على اليهود مهما كانت الظروف الدولية أو كان موقف العرب .

أما عندما يكون الحكم خاضعاً إلى أناس حياديين أمثال باسفيلد ، وموين (Moyne) وبيفان (Bevan) كانت السياسة البريطانية تجنح للتسويف والمماطلة ضناً بالاصطدام مع دول المحور وتجنباً لتعريض أمن فلسطين للاضطراب من قبل سكانها العرب الذين كانوا يأبون الرضوخ لكل ما يمس كيانهم القومي أو الوطني .

وعلى سبيل المثال نذكر أن باسفيلد أصدر عام 1930 أمراً بتحديد هجرة اليهود ، ومن ثم أصدر الكتاب الذي سمي بالكتاب الأبيض الذي شرح أسباب هذا التحديد ، ولكن الموضوع طوي بأكمله بعد مدة ، بزعم قيام مظاهرات عالمية ضد تنفيذه ، مع العلم أن جوهر القضية ، كان يكمن في الأخبار التي تسربت إلى المخابرات البريطانية ، والتي أكدت عدم استعداد ألمانيا آنذاك للتدخل المباشر في شؤون فلسطين ، ولكن بن غوريون ، رفض الاقتراح وهدده في حال تراجع .

وفي هذا الصدد يذكر بن غوريون في مذكراته أن اللورد لويد جرب عام 1938 إغراءه بقبول القدس كمركز إشعاع ديني لليهود أسوة بالفاتيكان نسبة للكاثوليك ، والعدول عن إقامة دولة يهودية في فلسطين ، ولكن بن غوريون ، رفض الاقتراح وهدده في حال تراجع بريطانيا عن وعد بلفور بإشعال ثورة لاهبة ، ترغمها على تجنيد الألوف من جنودها فيها ، وأردف (على حد زعمه) قائلاً ومع ذلك ثق أنكم لن تتمكنوا من إخضاعنا ، لقد خضعنا في الماضي بما فيه الكفاية ، أما في فلسطين فلن نخضع لأحد ، إنكم يا معشر الإنكليز لا تفهمون قضيتنا على حقيقتها ، لأنكم لا تشعرون بها مثلما نشعر نحن بها ، نحن نثق أن قوة إلهية تكمن خلفها ، ففلسطين هي وطننا ونحن لن نقبل فيها بحكم عربي ، لأن ذلك يعني دمارنا ، ولذا يجب أن تكون لنا دولة وإلا ذهبت ريحنا ، كما ستذهب

---

(1) بيير هيبس ـ الجمهورية العالمية R. U.P. Piérre Hepéss .

جهودكم، أنا لست بريطانياً، ولكنني أشعر برباط وثيق يربطني بكم، وهو رباط الثقافة التي ورثناها عنكم، إن مصالحنا ومصالحكم تسير جنباً إلى جنب، ولذا أرجو أن تصونوها معاً.

وعندها أبدى لويد تخوفه من زعماء اليهود الشرقيين المعادين لبريطانيا، وأضاف أن سواحل البحر الأبيض المتوسط ستخرج من يدي بريطانيا فيما إذا تولى الأمور في فلسطين أناس ينتمون إلى هؤلاء أو لطبقة العمال، فذكر بن غوريون (على حد زعمه) أن جميع اليهود الذين تطوعوا في الجيش البريطاني إبان الحرب العالمية الأولى كانوا ينتمون إلى فئة العمال الذين أتوا من البلدان الشرقية، وإنه هو نفسه أتى من بولونيا، ومع ذلك لما طرده الأتراك التجأ إلى بريطانيا دون سواها ومن ثم إلى أميركا حيث طوع أربعة آلاف عامل يهودي وعاد وإياهم إلى فلسطين ليقاتلوا جنباً إلى جنب مع الجيش البريطاني، وكان جل هؤلاء اليهود ثوريين من أوروبا الشرقية الذين أسهموا في تدمير النظام القيصري الذي كان يضطدهم.

والجدير بالذكر هو أن بن غوريون يروي هذه الحادثة ليدلل بها عن معارضة بعض الساسة البريطانيين للمشاريع الصهيونية، ولكنه يعود ويعترف أن لويد، وعده في نهاية الحديث بتحقيق رغباته، كما أنه يذكر فيما بعد أن لويد لم يضن عليهم بالمساعدات عندما تسلم عام 1942 زمام وزارة المستعمرات[1].

كما أن بن غوريون يندد بموقف بيفان (Bevan) ويتهمه بالتحيز للعرب في أعقاب الحرب العالمية الثانية، مع العلم أن بيفان كان عام 1930 من أشد أنصار الصهيونية، حتى أنه اعترض على تحديد الهجرة اليهودية ومجمل نصوص الكتاب الأبيض.

أما سبب إظهاره لبعض التحفظات عام 1945 فلم يكن إلا من قبيل الاحتجاج على تدخل ترومان السافر في شؤون فلسطين، ومطالبته بالسماح لمئة ألف مهاجر بدخلوها، ولشعوره ضمناً بتحول الصهيونية كلياً نحو أميركا بعد أن استنزفت أغراضها من بريطانيا، ولذا عمد إلى التلاعب في موقفه من الصهيونية بحجة الخوف من معارضة الدول العربية التي كانت قد استقلت حديثاً، ومن ناحية أخرى رمى إلى ذر الرماد في أعين العرب كي لا يتهموه بمسؤولية قيام الدولة اليهودية التي كانت كل من بريطانيا وأميركا وحليفاتهما قررن إقامتها، عن طريق إعلان بريطانيا عن عجزها لمتابعة انتدابها، ومن ثم إحالة القضية الفلسطينية برمتها للأمم المتحدة (المجلس الكهنوتي الجديد) لتقرر هي ما خطط سراً، بغية إضفاء الصفة الشرعية على الكيان المزمع خلقه.

---

(1) مذكرات بن غوريون.

ومما سردناه يتضح أن عوامل التردد البريطاني عن إقامة الدولة اليهودية قبل الحرب العالمية الثانية تتكون من العناصر التالية :

1 ـ بين عام 1918 ـ 1930 أي قبل اشتداد عود النازية لم يكن عدد اليهود القاطنين في فلسطين كافياً لمجابهة العرب في حالة إقامة دولة يهودية فيها ، وذلك لعزوف يهود أوربا آنذاك عن الهجرة إليها .

2 ـ بين عام 1930 ـ 1939 أي بعد دخول هتلر وموسوليني لميدان الصراع الدولي ، خوف بريطانيا وحليفاتها من تدخلهما المباشر في شؤون فلسطين .

3 ـ خوف بريطانيا من خروج الساحل الفلسطيني من سيطرتها في حالة وقوع حرب ، أو في حالة تسليمها لدولة يهودية عاجزة عن مقاومة هجوم محوري مفاجئ ، أو وقوعها تحت السيطرة الشيوعية عن طريق استلام الثوريين اليهود مقدراتها ، وأخيراً خشية عجز اليهود بمفردهم عن مقاومة العرب فيما إذا سلحهم المحور الذي كان يحاورهم ويرجو ضمهم إلى جانبه .

ولولا هذه المحاذير لما ترددت بريطانيا عن تنفيذ وعد بلفور ، وعن تلبية كافة رغبات الصهيونية ، ولما كانت تخلت عن التزاماتها نحوها لأمريكا ، ولما تعرضت لنقمتها التي كلفتها الكثير ، إذ أن الصهاينة لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام التردد البريطاني فعاقبوها كلما ساومت في تحقيق رغباتهم ، ففي البداية كانت المصارف اليهودية في أمريكا تنزع إلى التلاعب في قيمة الجنيه الإسترليني بالاتفاق مع وزارة المالية الأميركية التي تعاقب على إدارتها رجالات اليهود أمثال سنيدر (Sneyder) وفي نهاية الحرب العالمية الثانية ردت الصهيونية على موقف بيفان المصطنع بأن أثارت الخلاف البترولي بين بريطانيا وإيران على يد الفاطمي المنحدر من عائلة يهودية ، اعتنقت في أواخر القرن الماضي النصرانية ومن ثم الإسلام ، وهو الذي أوغر صدر رئيس الوزارة الإيرانية مصدق المعروف بوطنيته وإخلاصه على بريطانيا ، فلما اشتدت الأزمة ، سارعت الصهيونية إلى الضغط على الحكومة الأمريكية التي كان يرأسها الصهيوني ترومان فأوفد ممثله الشخصي هاريمان (Harriman) يرافقه والتر ليفي (Walter-Levy) عميل شركة ستاندارد وال الأمريكية ، لتسوية الخلاف بين الدولتين المتخاصمتين ، فاتفق ليفي مع فاطمي المرتد ، فتمكنا من الإطاحة بمصدق ، ومن ثم إرغام بريطانيا على التنازل عن حقها في بترول عبدان بموافقة أعضاء الشركة اليهود الذين تآمروا مع ليفي على دولتهم ، وهكذا أصبحت ستاندارد وال اليهودية الأمريكية الشريكة الكبرى في البترول الإيراني .

وهذه الحادثة كانت إحدى الأسباب الأساسية التي دفعت بريطانيا إلى التخلي عن دورها في فلسطين للأمم المتحدة أو بالأحرى لأمريكا ، وذلك بعد أن شعرت بعجزها عن إيقاف

الصهيونية عند حدها، وهكذا جنى الشعب البريطاني على نفسه باحتضانه تلك الأفعى الغادرة طيلة قرون عديدة.

وبهذه الصورة السافلة كافأت الصهيونية بلفور ولويد جورج وتشرشل واروموسي غور، وستانلي بلدوين، وماكدونالد، وهارتس، وونجت، عدا عن الدماء البريطانية التي سفكت على مذبح شهواتها طيلة نصف قرن من الزمن، فيا له من جزاء سنماري انفردت الصهيونية بتطبيقه على كل من أحسن ويحسن لها عبر التاريخ.

ومع كل هذا ليت الإنكليز اتعظوا بما أصابهم، ولكن هيهات أن يتعظوا[1].

ومن هنا نرى أن التردد البريطاني قبل الحرب العالمية الثانية لم يكن ناشئاً عن ميول إنسانية بل خشية من عواقب الاستعجال الصهيوني للأمور التي كان المحور يعارضها، إضافة إلى معارضة العرب التي كانت تشتد يوماً بعد يوم، لكن بريطانيا عادت بعد الحرب العالمية الثانية، إلى السير في ركاب الصهيونية التي احتضنتها أمريكا بكل ما لديها من قوة، وهكذا اتحدت مجدداً مصالحها، وميول زعمائها الضالعين مع الصهيونية وأمريكا، فتآمرت معهما ومع الكتل اليهودية في البلاد الأخرى، ومن ثم تخلت في الوقت المناسب عن مسؤولياتها في فلسطين، وتحقق حلم الصهيونية القديم الذي حملت بريطانيا لواءه منذ عهد كرومويل الكبير.

مدى إسهام الهتلرية في تحقيق أحلام الصهيونية؟..

عندما استولى هتلر على السلطة في ألمانيا، اعتقد أن بإمكانه التخلص من الخطر الصهيوني بمجرد أن يقلص ظله في بلاده، فانبرى يحاربها بشتى السبل الدعائية، فأصدر كتابه المعروف (كفاحي) وألقى مئات الخطب والمحاضرات ليشرح لبني قومه مساوئ مهادنة اليهود، وبعد أن أسهب في مختلف المناسبات في تعرية جرائمهم التي ارتكبوها عبر القرون، ركز على تلقين شباب بلاده أخطار الصهيونية فراح يشرح لهم كيف لوث اليهود المعتقدات المسيحية السمحاء بالمفاهيم المغلوطة قديماً، وكيف أفسدوا التقاليد والأعراف الآرية النبيلة، وأوضح الأساليب التي اعتمدوها في العصور الأخيرة لتدمير المجتمع الإنساني بنشرهم المبادئ الأممية التي قضت على المفاهيم القومية والوطنية، وجعلت شعوب العالم ومقدراتها ألعوبة بين أيديهم وأيدي الماسون الضالعين معهم، ومن ثم دعا الألمان إلى نبذ ما علق بالمفاهيم المسيحية (على حد قوله) من مبتدعات يهودية، ومحاربة اللاقومية واللاوطنية والشيوعية، والأنظمة البرلمانية،

---

(1) بيير هيبس ـ الجمهورية العالمية La Republique Universelle – P. Pierre Hépéss.

والمذاهب العقلانية، والتحلل الأخلاقي باعتبارها جميعها من المستنبطات اليهودية، الرامية إلى تهديم المجتمع العالمي حتى يخلو ممن يفكر بمقاومة سيطرتهم التي تتزايد باستمرار.

ولقد دامت هذه الحملة الألمانية المناوئة لليهودية طيلة حكم هتلر، وبصورة واسعة جداً، فاتخذها اليهود الذين كانوا يسيطرون على 70٪ من وسائل الدعاية خارج ألمانيا حججاً مثالية لتحريض العالم أجمع ضد هتلر ونظامه، وأنظمة حلفائه وراحوا يجندون الكتابْ من جميع الفئات التي كانت تعنيها الدعاية الألمانية، وكلفوهم بشرح المفاهيم الهتلرية بالصورة المواتية لأغراض الصهيونية، فسارع كتاب البلاد الديمقراطية البرلمانية لتحريض أبناء بلادهم على هتلر باعتباره عدو الحرية والشورى، ومناوئاً للرسول بول (Paul) أحد مؤسسي المسيحية، وبالتالي كافراً بالنصرانية، ومعادياً للكنيسة ودكتاتوراً ملحداً يسعى لاستئصال النصرانية من جذورها.

كما عمد كتاب العقلانية يتهمونه بالعنصرية المتطرفة، وبالعداء لحرية الفكر والكتابة، وباحتقاره للفردية ولحقوق الإنسان، ويصمونه بالظلم والاستبداد.

أما كتاب الجناح اليساري فاتهموه بالدكتاتورية والرجعية، والعنصرية المتطرفة، واحتقاره للشعوب غير الجرمانية، والإمبريالية الشرهة الرامية إلى السيطرة على العالم أجمع[1].

وكان الكل يسوقون لقرائهم براهين مستمدة من طريقة معاملته لليهود، ويتباكون على مصيرهم التعس بين أيدي هذا الوحش الأسطوري الذي ولغ في دماء أخوة المسيح، والذي يبغي إخضاع العالم أجمع لإرادته عن طريق القوة وسفك الدماء.

ولما كان لليهود رجال أقوياء، ذو نفوذ سياسي وأدبي في كافة أقطار أوربا (عدا أنصارهم التقليديين من الماسون والجمعيات السرية الأخرى الضالعة معهم) هان عليهم نشر هذه الدعاية المضادة لهتلر وشركائه في كل بلد وصقع على أوسع نطاق، حتى أن العالم قبل الحرب العالمية الثانية لم يكن ليتحدث إلا عن جرائم هتلر، وأغراضه التوسعية الرامية إلى استعباد شعوب الدنيا قاطبة.

بينما ظلت صيحات هتلر وموسوليني التحذيرية من خطر الصهيونية منحصرة ضمن نطاق بلديهما الموبوأتين منذ عدة عصور بجراثيم الصهيونية والماسونية حتى الأعماق، ولذا كان من الطبيعي أن يخفق هتلر في إسماع صوته على الرغم من كل المحاولات التي بذلها، في الوقت الذي تمكنت الصهيونية فيه من إظهاره للعالم بمثابة غول رهيب يروم ابتلاعه، ولذا كان هتلر وموسوليني يلاقيان أشد العنت في المحافل الدولية إزاء كل ما يطرحانه من المشاكل الدولية،

---

(1) أندريه فرانسوا بونسه (ما هي النازية Andre Frangois Poncet qu est ce que le Nazisme.

وهكذا انقسم العالم إلى كتلتين متصارعتين منذ عام 1933 ، واستشرى العداء بينهما ، بينما وقفت أمريكا المهودة على مفترق الطرق ، تراقب عن كثب تبلور الموقف ، حتى إذا حان الوقت انبرت فجأة لتؤدي دورها القيادي المعهود في الجانب الموالي لسادتها الصهاينة .

وفي خضم هذا الصراع البارز بين ألمانيا التي كانت تسعى لاستعادة الأجزاء التي سلخت عنها عام 1918 وتطالب بمجال حيوي يتناسب مع متطلباتها الاقتصادية ، إسوة بالدول الغربية التي كانت تسيطر على أكثر أنحاء العالم ، كانت الصهيونية تخطط وتتآمر على إيجاد وسيلة تنقذها من هتلر وشركائه العاملين على إنقاذ العالم من سيطرتها والقضاء على دورها الفتاك في إذلال الشعوب وامتصاص دمائها ، وتبخر أحلامها الرامية إلى حكم العالم من وراء الستار ، فلما رأت بوادر التخاذل تظهر على الدول الغربية التي بدأت منذ عام 1938 تتساهل مع دول المحور هالها الأمر ، وخشيت أن تفوتها الفرصة ، فقررت في مؤتمرها السري لعام 1938 إيجاد الأسباب الكفيلة لاشتداد الأزمة ودوامها بين ألمانيا والدول الغربية لتسفر في النهاية عن حرب طاحنة بينهما مثل حرب عام 1914 ، يتخلص اليهود في أعقابها من هتلر وشركائه الخطرين على مصالحهم ، وبغية ذلك دفعوا بالكثير من أتباعهم في ألمانيا وخارجها إلى ارتكاب أعمال عنف عديدة ، وكان أبرزها مقتل الملحق الثقافي الألماني ارنيست فون رات (Ernest Von Rath) في مدينة باريس من قبل اليهودي البولوني هرشل كرينزيان (Herschel Grynszpan) في السابع من تشرين الثاني عام 1938 .

ولقد أعقبت هذه الجريمة القذرة فورة دم عارمة في ألمانيا ، فاضطرت السلطات إلى فرض إجراءات خاصة على اليهود ، مما أفسح المجال أمام الصحافة اليهودية إلى تصعيد الحملة على هتلر وتكذيب الصحف الحرة التي أشارت إلى اشتراك المحافل الصهيونية في هذه المؤامرة القذرة[1] .

ولما كانت الصحف الحرة غير مؤيدة من قبل السلطات الفرنسية الخاضعة لزمرة الماسون أمثال هيريو ، وليون بلوم ، وزاي ، وعشرات اليهود الذين كانوا آنذاك يتربعون على مقاعد الحكم في الجمهورية الفرنسية اضطرت في النتيجة إلى السكوت أمام الضغط الذي تعرضت إليه ، وهكذا ظلت الساحة الدعائية ملكاً خالصاً لليهود ، فصالوا وجالوا فيها على هواهم ، حتى قلبوا القضية رأساً على عقب ، وأوهموا العامة أن القاتل أقدم على جريمته بملء حريته ثأراً لأفراد عائلته الذين قتلتهم السلطات النازية ، وأنكروا أن يكون موفداً خصيصاً من قبل الصهاينة لاغتيال الملحق الألماني ، ومن ثم راحوا يهولون بما أسموه بالجرائم التي زعموا ارتكابها من قبل النازيين بحق اليهود الأبرياء ، كما أسهموا في

---

(1) الدولة الخفية لجواد أتيلهان Gizli Devlet. C.R. Atilan .

اختلاق الأكاذيب بصدد نوايا هتلر نحو الدول الغربية، وما يكنه من عداء لشعوبها، وادعوا بأنه عازم على استعباد العالم بأسره ومحو اليهود من الوجود.

والغريب في الأمر أن الصحافة العالمية بأجمعها سارت على الوتيرة نفسها ولا فرق بين غربية أو شرقية، حتى أن موسى كاكانوفيتش الزعيم اليهودي الروسي المعروف، كان يقدم يومياً عشرات التقارير الباحثة عن نوايا هتلر العدوانية نحو روسيا السوفييتية، ليوهم ستالين بالخطر المبيت لبلاده من قبل ألمانيا، وإزاء هذه الحملة الدعائية الشعواء، لم يكن مناص للشعوب من الجنوح إلى كره هتلر ونظامه، فقامت ألوف المظاهرات في أكثر أقطار العالم، تطالب بكبح جماح هتلر، والقضاء على نظامه، مما أدى بهتلر إلى تشديد قبضته على اليهود في بلاده، وتحديد هجرتهم، وإلغاء اتفاقية الهافارا، ومن ثم أقدم على تحقيق مشاريعه المتعلقة بجمع شمل الألمان وتجسيد أمانيهم القومية، وبغية ذلك عقد معاهدته الشهيرة عام 1939 مع الاتحاد السوفييتي، ومن ثم تقاسما بولونيا، فوقعت الحرب التي أرادتها الصهيونية، فاحتلت ألمانيا كلاً من بلجيكا، ولوكسانبورغ، وهولاندا، والدانمارك، وفرنسا في غضون عام 1940، وفي عام 1941 هاجم الجيش الألماني روسيا السوفييتية بفضل الأضاليل والأوهام التي زرعها الماسون الألمان في مخيلة هتلر، وهكذا دامت هذه الحرب العالمية الطاحنة التي ذهب ضحيتها عشرات الملايين من البشر، وألوف المليارات من النفقات عدا ما تحمله العالم إبانها من الأهوال والتدمير يعجز اللسان والقلم عن وصفهما، وكل هذا في سبيل الصهيونية حامية شعب الله الخاص.

ولقد اتهم العالم وما زال يتهم هتلر بافتعاله تلك الحرب إشباعاً لمطامعه التوسعية ومراميه العنصرية، بينما يتناسى مع الأسف الشديد أن الصهيونية العالمية تشاركه معظم هذه المسؤولية، إذ لولا مسلك هتلر المعادي للصهيونية، وسعيه للحيلولة دون تحقيق مراميها الرامية إلى السيطرة على ألمانيا أولاً، ومن ثم على العالم أجمع لما شنت الصهيونية تلك الحملة الشعواء وثابرت على تصعيده كلما ظهرت في الأفق السياسي بادرة أمل في استتباب السلام[1] ولما وقف أنصارها أمثال تشرشل العريق في الصهيونية والذي كان يسيطر قبل وبعد الحرب على مقدرات بريطانيا وسادات فرنسا أمثال هيريو الماسوني وليون بلوم اليهودي، وروزفلت الرئيس الأمريكي الذي لقبه اليهود بموسى القرن العشرين، بجانب الصهيونية بكل ما كانوا يملكونه من قدرة وقوة، ولما كانوا أقاموا الدنيا وأقعدوها ضد هتلر الذي لم يكن يبغي سوى إنقاذ شعبه من نير عبودية اليهود الاقتصادية، وجمع

---

(1) البرميل ذو الإبر ـ لجواد أتيلهان Gneli Figi. C.R. Atilhan.

شتات بني قومه ، وإشراكهم في قسم من الخيرات العالمية التي كان الغرب وشريكته الرأسمالية اليهودية يستأثران بها دون العالمين ، إذ أن كثيراً من الساسة الغربيين كان يفضل إرضاء هتلر بقليل مما كانت حكوماتهم وشريكاتها الاحتكارية تمتصه من دماء الشعوب المستضعفة ، على أن يدخلوا غمار تلك الحرب الطاحنة ، ولقد حاول بعضهم مثل تشنبرلن أن يرضي هتلر ببعض التنازلات ولكن أنى كان لهم أن ينجحوا طالما كانت الصهيونية وأنصارها يأبون إلا الحرب وتدمير الشعب الألماني الذي وقف في وجه أطماعهم ، وهدد مصالحهم التي كانت تتعاظم يوماً بعد يوم ، ولذا قررت هذه الزمرة إحراج هتلر دون هوادة ، إلى أن أرغمته على الإقدام لما أقدم عليه ، وانتهى وشركاؤه كما هو معروف لدى العالم أجمع ، ودفع شعبه والشعوب الأوربية الأخرى مغارم تلك الكارثة العالمية ، ولم ينج من ويلاتها إلا اليهود الذين افتعلوها ، ولم يخرج منها رابح إلا هم أنفسهم ، إذ كانوا منذ أمد بعيد قد هربوا أموالهم إلى أمريكا وكانوا بدورهم يلوذون بالفرار كلما شعروا باقتراب الخطر من حيث يقيمون ، ولم يشترك فيها إلا ثلاثون ألفاً من أبنائهم استخدمتهم السلطات الحليفة في مهام ثانوية ، أما المراكز السياسية والدعائية في الغرب والشرق فكانت ملك أيديهم يأمرون فيطاعون .

ولما وضعت الحرب أوزارها ، برزوا جميعاً إلى الميدان يخططون ويرسمون للعالم الجديد وكأنهم هم الذين سفكوا دماء أبنائهم في ساحات القتال التي حققت النصر النهائي للحلفاء ولقد رأينا الزعماء الصهاينة في كل البلاد المتحالفة يحيطون بروزفلت وستالين ، وتشرشل وسواهم ، ممن حضروا مؤتمرات برازافيل ، ويالطا ، وبوتسدام ، ويقومون بوضع العقود والعهود وكأنهم أولياء أمر زعماء العالم .

كما رأيناهم إبان محاكمات تورنبيرغ يصولون ويجولون ، وينزلون غضبهم الذي لا ينضب على الشعب الألماني المغلوب على أمره ، إذ أن أكثر القضاة وقادة التنفيذ ، وحتى الجلادين كانوا منهم[1] .

ولما أقر إنشاء جمعية الأمم المتحدة بناء على توصيات كبار الصهاينة والزعامة الماسونية ، راحت الصهيونية تسعى لتجعل ممثلي الأمم المختلفة فيها من أنصارها ، أو أبناء جلدتها المستوطنين في بلاد تلك الأمم ، ولقد تكللت مساعيها في هذا المضمار بنجاح باهر ، بدليل أن أكثر ممثلي الدول الأوربية في هذه الجمعية عند إنشائها كانوا من الصهاينة والماسون الضالعين معهم[2] ، ولذا رأيناها منذ البداية وكأنها المجلس الكهنوتي الأعلى المكلف بحماية المصالح اليهودية ، زد على ذلك الدعم غير المحدود

(1) المفسدون في الأرض - فصل محاكمات نورمبرغ - أو ضريح العدالة .

(2) بيير هيبس - الجمهورية العالمية La Republique Universelle P. Pierre Hepéss .

الذي كانت تلقاه الصهيونية من زعماء الدول المنتصرة، وهكذا خرجت هذه الطغمة المجرمة من الحرب العالمية الثانية، وهي أقوى مما كانت عليه في أعقاب الحرب العالمية الأولى، إذ كان أنصارها من اليهود في البلاد الشرقية لا يقلون قدرة على مساعدتها من أنصارها في البلاد الغربية وللتأكد من ذلك يكفي أن نلقي نظرة سريعة على المحافل السياسية آنذاك، لنراها كيف كانت تعج بالشخصيات اليهودية، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر أن الرئيس روزفلت ومن بعده ترومان وخليفته أيديناور كانوا جميعاً يعتمدون على اليهود أمثال فيليكس فرانكفورتر (Felix Rrankfuter) صاحب مشروع الإعارة والتأجير (Prétet Bail) والقاضي المشرع صموئيل روزنمان (S. J. Rosenmann) والقاضي برانديز (L. D. Brandés) صاحب أكبر نفوذ في الدولة الأمريكية والمستشار صمويل أونتر ماير (Samuel Unter Mayer) رئيس دائرة حصار ألمانيا وعضو مكتب اليقظة الأمريكية (أي رئاسة المخابرات العامة) والمدعو برنارد باروخ (Bernard – Barueh) عضو وال ستريت وأقوى شخصية في الدولة الاتحادية، والثعلب العجوز هانري مورجانتو (Henry Morgenthau) أمين الخزينة العامة ومئات الآخرين.

كما كان اليهود أمثال ليون بلوم، وهيريو، ومانديل، ودريفوس، وشوتان، دولاديه، سارو، وروتشيلد، وزاي، ومن بعدهم كاترو، كونيغ، وجول موك ومئات الآخرين كانوا يحتلون مقاعد مقاليد الأمور في فرنسا، أما في بريطانيا فحدث ولا حرج فجميع أجهزة الدولة موبوءة بالجرثومة الصهيونية.

وفي روسيا لم تكن الأمور بأحسن من سواها من البلاد، إذ أن زمرة كاكانوفيتش، وليتفينوف، وبريا كانت تسير دفة السياسة الستالينية حتى عام 1956[1].

وهكذا نلاحظ أن الصهيونية كانت تمسك بأكثر خيوط السياسة العالمية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، كما كانت قوتها قد بلغت الأوج آنذاك في كل مكان.

بينما كانت الشعوب العربية ما زالت ترزح تحت نير الاستعمار وتناضل كل واحدة منها لتحرير نفسها من براثن المتسلطين عليها، فمصر والعراق والكويت وفلسطين وليبيا والسودان والجنوب العربي والخليج العربي كانت جميعها تئن تحت ثقل السيطرة البريطانية، بينما كانت سورية ولبنان وتونس والجزائر ومراكش وموريتانيا تخضع للاستعمار الفرنسي.

وفي خضم هذا الصراع العربي لنيل الاستقلال والحرية في كل بلد، تحركت الصهيونية العالمية لتحقيق مخططاتها في فلسطين واختلقت مع شريكتها بريطانيا فرية الاختلاف فيما

---

(1) المفسدون في الأرض ـ فصل جرائم اليهود في روسيا أو السهم المرتد.

بينهما، لتدفع بالقضية الفلسطينية إلى أحضان المجلس الكهنوتي الأعلى (أي الأمم المتحدة) الذي كان خاضعاً للصهيونية، كما كانت أميركا تسيطر عليه عام 1948 سيطرة تامة، فكان من الطبيعي أن يتآمر الكل على الشعب العربي الذي كان فعلياً غائباً عن الساحة السياسية إذ لم يكن بين أقطاره من كان مستقلاً فعلاً سوى سورية ولبنان، اللتين كانتا تحبوان آنذاك حبو الطفل الرضيع، ولا تملكان من مقومات الدولة إلا المظاهر الرمزية، بينما كانت أكثر الدول العربية الأخرى ما زالت رهن إشارة الدول المستعمرة لا حول لها ولا قوة إلا ما يجود به المستعمر.

ولذا لم يكن من الصعب أن يتوصل وايزمان وبن غوريون رائدا إسرائيل إلى استصدار قرار التقسيم بصيغته المعروفة، ويضعا العالم العربي أمام الأمر الواقع، بعد أن دبرا أمر تخلي بريطانيا المفاجئ عن انتدابها في فلسطين وبعد أن حشدا ما يقارب من مائتي ألف مقاتل يهودي من الذين عملوا في صفوف مختلف الجيوش الحليفة في فلسطين، تحت سمع وبصر السلطات البريطانية التي كانت تتظاهر بالعطف على العرب، وتشترك في إخراج مسرحيات الخلاف مع الصهيونية، مسرحية تلو الأخرى بقصد ذر الرماد في أعين العرب الذين ظلوا على غبائهم في فهم ألاعيب ساسة بريطانيا المهودين واليهود.

وهكذا حدثت الفاجعة، ووقع العرب فريسة عطف العالم على اليهود الذي نشأ عن الظلم والعسف اللذين زعم اليهود تعرضهم إليهما طيلة أربعة عشر عاماً في ألمانيا ومن ثم في أوربا المحتلة، الشيء الذي أوهم العالم بأسره بضرورة إنصافهم ولو بارتكاب أبشع الجرائم التاريخية، أضف إلى ذلك تآمر الدول الكبرى اللواتي كانت مقدراتهن بين أيدي الصهاينة، وذلك دون استثناء؟ . . . ومن هذه الدعاية الباطلة التي أكسبت اليهود عطف العالم، نستنتج أن الهتلرية أسهمت دون قصد في بناء إسرائيل، إذ أن عداء العالمين الغربي والشرقي للنازية والتي عرفت الصهيونية كيف تستغله لصالحها وعلى حساب العرب أسهم كثيراً في إسكات ضمائر الأحرار في أوربا وفي كل مكان.

الكتاب الأبيض يخدّر العرب

عندما تأكدت بريطانيا من اقتراب الحرب عام 1939 بادر ساستها إلى التنكر في مسوح الرهبان حيال العرب فأصدروا الكتاب الأبيض الذي أغلق بموجب نصوصه الرسمية باب فلسطين بوجه المهاجرين اليهود، فظن العرب أن أمر الهجرة بات منسياً، ولما أعلنت الحرب ركنوا إلى الهدوء، وانصاعوا لكل ما فرضته عليهم السلطات البريطانية التي لم يكن غرضها في الأصل إلا تخدير العرب إبان محنتها مع المحور، والدليل على ذلك هو صدور هذا الكتاب في عهد تشامبرلن، ومالكولم ماكدونالد المعروفين بمناصرتهما للصهيونية، ولكن ظروف الحرب أجبرتهما على التقرب من العرب بغية ضمان بقائهما على الأقل على الحياد ريثما تنتهي الحرب، ويبدو أن الخدعة انطلت على سكان فلسطين فلاذوا بالسكون طيلة أيام الحرب، ورمى أكثرهم أسلحته وانطلق يسعى في سبيل تأمين العيش، حتى إن بعضهم هادن اليهود، وتعامل اقتصادياً معهم، باعتبار أن ظروف الحرب تتطلب منهم ذلك، ولم يعد أحد يبحث في القضية اللهم إلا الساسة الذين فروا من البلاد في أعقاب إعلان حالة الحرب فيها. وهكذا خمدت نيران الثورات الفلسطينية التي أقلقت الإنكليز واليهود معاً مدة عشرين عاماً (مثل ثورة 1921 ـ 1928 ـ 1929 ـ 1933 ـ 1936 ـ 1937) فلم يحدث طيلة الحرب ما يعكر صفو الأمن من قبل العرب الذين اعتقدوا أن بريطانيا بعد الحرب ستكون أكثر إنصافاً معهم، طالما أنها أوقفت الهجرة ومنعت الغاصبين من امتلاك الأراضي.

وفي هذا الوقت بالذات بلغ التحرك اليهودي أوجه، إذ أن سيل اليهود الذين تطوعوا في الجيش البريطاني إبان الحرب كان يتدفق باستمرار إلى فلسطين بصفتهم جنوداً بريطانيين، ومن ناحية أخرى تمكن بن غوريون من تكوين القطعات اليهودية الخاصة التي اشتركت في الحرب بجانب الحلفاء (قطعات البالماخ ـ Palmach) كما عمد البريطانيون إلى مد الهاغاناة التي كان عدد أفرادها يربو على أربعين ألف مقاتل بأحدث الأسلحة والمعدات في أعقاب انتصار روميل عام 1941 بحجة تكليفهما بمقاتلة هذا الأخير في حال اجتيازه القناة المصرية، كما بادرت المؤتمرات الصهيونية التي عقدت عام 1942 ـ وعام 1945 إلى شجب الكتاب الأبيض البريطاني علانية، ودعت يهود العالم إلى مقاومة تنفيذ بنوده، وطالبت الرأي العام العالمي بمد يد العون إلى ضحايا الاضطهاد النازي المساكين، ومن ثم عمدت إلى جمع ألوف الملايين من الدولارات لدعم قيام

الدولة اليهودية، وفي الوقت ذاته أوعزت إلى الصحافة العالمية بالتهويل بما يتعرض له اليهود من عنف وظلم من قبل السلطات البريطانية، فراحت الصحافة تختلق قصصاً خيالية عما أصاب المهاجرين اليهود الذين ردوا على أعقابهم من قبل السلطات البريطانية في فلسطين، مثل قصة الباخرة ستروما (Struma) والأكزودس (Léxodus) ومئات القصص المشابهة، بينما كان المهاجرون يتدفقون على فلسطين بواسطة السلطات البريطانية التي كانت الصحافة المهودة تتهمها بالتعسف والظلم، بكل أمان واطمئنان، ويوضعون في معسكرات أقيمت خصيصاً لهم بالقرب من المعسكرات البريطانية، حيث كانوا يتلقون التدريب العسكري من قبل ضباط بريطانيين، تحت ستار اللباس والزي العسكري الإنكليزي، وهذه الواقعة شاهدتها بنفسي عام 1942 عندما كنت أقيم في حيفا، حيث كنت مكلفاً بالإشراف على الألغام والمتفجرات التي كانت تصنع لحساب القوات الفرنسية في إحدى المصانع العديدة التي كانت بريطانيا أقامتها آنذاك في فلسطين.

ولما انتهت الحرب بادر اليهود إلى الظهور بمظهر المعادين لبريطانيا فوسعوا نشاطهم الإجرامي على أوسع نطاق بالاتفاق قطعاً مع السلطات البريطانية، وخاصة عام 1947 في عهد بيغن وزعماء حزب العمال الذين عرفوا بمواقفهم المناصرة للصهيونية منذ تأسيس حزبهم أي منذ عام 1906.

فوقعت أحداث عديدة، مثل مهاجمة اليهود للمنشآت العسكرية البريطانية، واختطاف بعض الضباط، وأخيراً نسف وتدمير فندق الملك داود (مقر القيادة العامة العسكرية) في القدس، فتذرعت السلطات البريطانية بهذه الأحداث، وأعلنت الأحكام العرفية، أعقبها قيام الجيش البريطاني بجمع الأسلحة العربية، على الرغم من عدم تدخل العرب بأية من هذه الحوادث، بينما تجنب المس باليهود وأسلحتهم، حتى تلك التي سلبوها من المنشآت العسكرية البريطانية أثناء الغارات المزعومة والمتفق عليها مع السلطات الإنكليزية، وبهذه الصورة الدنيئة تمكن الإنكليز المتواطئون مع اليهود من تجريد العرب من آخر قطعة سلاح كانوا يمتلكونها.

وهكذا دفع العرب ثمن استكانتهم للعهود والوعود البريطانية (للمرة العاشرة في التاريخ الحديث) وبكتبهم البيضاء بأن فقدوا كل مقومات الدفاع عن النفس، في وقت بلغ فيه اليهود أوج القوة في التسليح[1].

---

(1) من تصريحات الثائر العربي الكبير فوزي القاوقجي عام 1948 في مقره بعاليه.

ومن مجرى هذه الأحداث يتبين للملأ أن الأحـداث التـي وقعـت والأحكـام العرفيـة التي أعلنت آنذاك ، لم تكن سوى مؤامرة خسيسة أريد بها فقط تجريد العـرب مـن أسـلحتهم ليصبحـوا تحت رحمة الشيطان اليهودي عندما يحين موعد إطلاقه مـن عقالـه . وإلا كـان المفـروض بـالجيش البريطاني أن يعمد إلـى تجريـد رجـال الـهاغاناة والبالماخ وعصابات إيركـون زفـي (Irgun Zwi) وستيرن (Stern) من أسلحتهم وليس العربَ الذيـن لـم يحركـوا سـاكناً منـذ فجـر الحـرب العالميـة الثانية ، اعتماداً على الموقف البريطاني الماكر .

الطعنة الغادرة

مما لا ريب فيه أن بريطانيا والصهيونية العالمية كانتا منذ أمد بعيد متفقتين على إقامة الدولة اليهودية، في الوقت المناسب، فلما وضعت الحرب أوزارها، وزالت القوى المعارضة لمقاصدهما من الوجود، واستكان عرب فلسطين للوعود البريطانية المعسولة، وتأكد اليهود من العون الأميركي غير المحدود، وضمنتا مؤازرة ممثلي الدول في المجلس الكهنوتي الأعلى، بادرتا إلى افتعال حوادث عام 1947 التي استهلتاها بتجريد العرب مما كانوا يملكونه من مقومات الدفاع، وحشدتا كافة العناصر اليهودية المقاتلة ومن انضم إليها من متطوعي الشعوب الأخرى الذين غررت بهم الصهيونية، قامت بريطانيا بإعلان تخليها عن الانتداب في فلسطين بزعم عجزها عن كبح جماح اليهود، وأعقبتها بنقل القضية برمتها إلى الأمم المتحدة مع تحديد الخامس عشر من أيار 1948 موعداً لانسحابها من الأرض المقدسة.

وهنا أسقط في أيدي العرب واحتاروا في أمرهم، فلم يجدوا مخرجاً للقضية سوى تكوين ما سمي بجيش الإنقاذ الذي شكل على جناح السرعة من عناصر غير مدربة وغير مؤهلة لخوض غمار الحرب، وزودوه بما كانوا يملكونه من الأسلحة البالية التي ورثوها عن المستعمرين الذين جلوا من بعض البلاد العربية في أعقاب الحرب الكونية الثانية، ومن ثم دفعوا بوحدات هذا الجيش الهزيل إلى المناطق الآهلة بالعرب لتحميها من غارات العصابات اليهودية الآثمة، ولكن أين كان لهذه الوحدات الشبه عزلاء من السلاح أن تقاوم العصابات اليهودية المدججة بأحدث الأسلحة والمعدات الحربية التي خلفتها لها الجيوش الحليفة، وما عثرت عليه في المعسكرات البريطانية التي استلمتها تباعاً من السلطات العسكرية البريطانية التي جلت عن فلسطين تنفيذاً لقرار دولتها.

وهنا أيقنت الدول العربية بعجز جيش الإنقاذ عن مجابهة العصابات الصهيونية وحماية عرب فلسطين من شرورها، فتنادت فيما بينها، وعقدت الكثير من المؤتمرات التي عرفها العالم أجمع في حينه، تبودلت فيها وجهات النظر، واتخذت فيها المقررات العديدة، مثل القرار القاضي بضرورة سعي كل دولة عربية لتسليح جيشها الخاص بأسرع ما يمكن تحسباً لما يمكن أن تلده الأيام من مفاجآت غير سارة.

وكان هذا القرار أهم ما أسفرت عنه تلك المؤتمرات، ولكن مع كل أسف ظل عبارة عن حبر على ورق ولم يتحقق أبداً، إذ أن بريطانيا التي كانت تعلم مباشرة كل ما كان يدور في

المؤتمرات العربية ، عن طريق جواسيسها الذين كانوا يملؤون أروقة الوزارات العربية في كافة الدول العربية ذات العلاقة بفلسطين والتي كانت جميعها ما زالت تخضع لنفوذها بشكل أو آخر ، فسارعت إلى إفشاء الأسرار العربية ، وأعلمت الدول الأوربية والصهيونية العالمية بكل ما دار في تلك المؤتمرات ، وعلى الأثر انبرت هذه الأخيرة وشنت حرباً دعائية شعواء على الأمة العربية ودولها ، وزعمت فيها أن العرب بملايينهم العديدة يرومون القضاء على الشعب اليهودي الأعزل المسالم ، ومن ثم عمدت إلى شراء ضمائر الكثير من ساسة أوروبا ، وخاصة القابعين منهم في أروقة هيكل سليمان الجديد اللوكسيكس (Laks – Success) فبادر هؤلاء بدورهم إلى العمل السريع للحيلولة دون العرب وتسليح جيوشهم ، وهكذا ضرب الحصار على العرب ، وامتنعت دول العالم عن بيع السلاح والعتاد لهم ، وفي الوقت ذاته صدرت عن اللوكسيكس والمحافل السياسية المالية العديد من التصريحات والوعود المعسولة تشير إلى إمكانية إنصاف العرب بالطرق السلمية ، ودون اللجوء إلى الحلول العسكرية ، وكان من البديهي أن تخدر هذه الوعود ساسة الأمة العربية الذين أعجزهم الحصار الأوربي عن تسليح جيوشهم ، ولم يعد لهم من قراراتهم إلا الاجترار بها ، فتعلقوا بوعود المحافل السياسية وهيكل سليمان آملين آن يتحرك الضمير العالمي لإنصاف الشعب العربي الذي تخلى كبار ساسة العالم عنه بفضل رنين ذهب المصارف الصهيونية ودعاياتها المضللة .

وبينما كان العرب ينتظرون حدوث المعجزات ويأملون تحقق الوعود السرابية ، سارعت الصهيونية العالمية إلى تطبيق الدول الكبرى (وخاصة أميركا وإنكلترا) لتصدر قراراً عن الأمم المتحدة يقضي بتكوين لجنة دولية لدراسة الأوضاع في فلسطين ، وتقديم تقرير عنها لتعتمده الجمعية العمومية عند بحثها لحل القضية جذرياً ، وتنفيذاً لهذا القرار ، بادرت الأمم المتحدة في 26 أيار 1947 إلى تشكيل اللجنة المذكورة من ممثلين عن كل من استراليا ، وكندا ، والبيرو ، والسويد ، وتشيكوسلوفاكيا والأرغواي وإيران .

وعلى الأثر بدأت هذه اللجنة أعمالها في حرم اللوكسيكس ، وتحت إشراف كهنة صهيون الذين لم يلقوا عناءً كبيراً في شراء ضمائر أعضائها بهباتهم السخية اللامحدودة ، وتدريب كل منهم على إجادة الدور الذي كانوا ينتظرون قيامه به ، ولما وثقوا من ولائهم الأكيد للصهيونية ، عملوا على إيفادهم إلى فلسطين حيث كان عليهم أن يدرسوا أوضاعها على الصورة التي رسمت لهم ، وهكذا حطت هذه اللجنة العميلة رحالها في فلسطين ، وبدأ أعضاؤها بوضع التقارير الضخمة التي كانت تنضح بكل عجيب وغريب من الآراء التي استمدت من وعد بلفور

وقرارات جمعية الأمم السالفة، وصكوك الدولة البريطانية المنتدبة، واختتموها في النهاية بتوجيه توصية التقسيم المشؤومة، ضاربين بالواقع والحقيقة، وحقوق عرب فلسطين التاريخية المنحدرة عن الكنعانيين عرض الحائط، ومن ثم قدموا تقاريرهم الجائرة في 31/ 8/ 1947 إلى مجلس العموم الذي تجاهل بدوره كل حقوق العرب التاريخية (وارتباطاتهم في أرض فلسطين منذ عهد كنعان، وسيطرتهم التامة عليها منذ الربع الأول للقرن السابع الميلادي، ورغم ثبوت كونهم أصحاب البلاد الأصلاء، وتكوينهم للأكثرية الساحقة من أهلها) وأقر التقسيم دون رادع من ضمير، رغم اعتراضات ممثلي الدول العربية الذين جاءت يقظتهم متأخرة جداً.

إذ أن كل من أميركا والاتحاد السوفييتي بادرتا إلى الموافقة المبدئية على التقسيم في بداية المناقشة، حتى دون الاستماع إلى آراء ممثلي الأمة العربية، إذ كانتا منذ البداية على وفاق تام مع أقطاب الصهيونية العالمية الذين كانوا يسيطرون على الدولتين معاً مثلما كانوا يسيطرون على الأمم المتحدة، وهذه البادرة الأميركية السوفييتية شجعت الدول الأخرى على مساندة الصهيونية دون حرج أو تحفظ.

والجدير بالذكر هو أن هذا الاتفاق الأمريكي السوفييتي، كان الأول والأخير بينهما منذ أحدث الأمم المتحدة، وكأني بهما كانا على موعد خاص للتنكيل بنا دون كافة الأمور التي عرضت عليهما منذ ذاك التاريخ.

وذراً للرماد في العيون قررت الأمم المتحدة تشكيل لجنة أخرى للتدقيق في تفصيلات تقارير التقسيم، أعقبه إحالة القضية في 29/ 11/ 1947 إلى اللجنة الخماسية التي كلفت بتنفيذ التقسيم، رغم معارضة كافة الدول العربية له.

وإيغالاً في نسف حقوق العرب، لبست بريطانيا لبوس يهوذا الأسخريوطي مرة أخرى، وأعلنت عدم رضاها عن قرار التقسيم، ورفضها التعاون مع اللجنة المكلفة بتنفيذه، بزعم الدفاع عن حقوق العرب، بينما كانت في الحقيقة ترمي من وراء موقفها هذا، شل سير مهمة اللجنة أطول وقت ممكن، لتفسح المجال أمام العصابات اليهودية التي سلحتها بنفسها، لتنكل بعرب فلسطين العزل من السلاح، وترغمهم على الفرار من أوطانهم، وإحلال اليهود مكانهم كي تظهر المناطق الفلسطينية خالية من العرب وآهلة باليهود، وذلك بغية التغرير بأعضاء اللجنة الشرفاء (إن وجد الشريف بينهم) حتى لا يعترض أحدهم على منح اليهود المناطق التي كان الصهاينة والإنكليز متفقين على إعطائها لليهود.

وأمام هذا الموقف البريطاني لم يسع اللجنة التنفيذية الإسراع في تحقيق مهمتها واضطرت للتروي ريثما تتجلى الأمور، فاستغلت العصابات الصهيونية الفرصة، وسارعت إلى مداهمة المدن والقرى العربية الآمنة، وأعملت فيها القتل والخراب، وخاصة في كل من دير ياسين، وعكا، وحيفا، ويافا، وصفد، وطبريا، وسمخ. حيث قتلت ألوف العرب العزل من السلاح، ومزقت أجساد أطفالهم، وبقرت بطون الحبالى من نسائهم، واعتدت على الأبكار من بناتهم. تحت سمع وبصر البريطانيين الذين ادعوا الانتصار لحقوق العرب زوراً وبهتاناً.

وكان من البديهي أن يفر ما تبقى من السكان العرب من أوطانهم أمام هول وفظاعة المجرمين اليهود وأنصارهم وأن يلجؤوا إلى البلاد العربية، تاركين منازلهم وأمتعتهم وما كانت تمتلك أيديهم لقمة سائغة لليهود الغاصبين.

وعندها فقط أعلنت بريطانيا تخليها عن الانتداب بدءاً من 15 أيار 1945، وسمحت للجنة التقسيم بممارسة عملها، بعد أن وضعت اللجنة أمام الأمر الواقع في فلسطين واطمأنت على المكاسب الصهيونية الجديدة فيها.

وهكذا برهنت بريطانيا مرة أخرى أنها أبداً في صف أعداء الأمة العربية، مهما كان الموقف العربي منها، والجدير بالتسجيل هو أن هذه الخسة البريطانية نحو العرب لم تكن ولن تكون الفريدة من نوعها، إذ أنها منذ الحرب العالمية الأولى ما فتئت ترتكب بحقنا خسة تلو الخسة كلما سنحت لها الفرصة.

عمليات عام 1948

عندما أعلنت بريطانيا قرار انسحابها من فلسطين، هبت الصهيونية العالمية كمن لدغته أفعى سامة، ونادت بالويل والثبور وعظائم الأمور، وزعمت أن الملايين من مقاتلي العرب يتأهبون لاجتياح فلسطين، بغية القضاء على يهودها وإمحائهم من الوجود، وطالبت العالم بأن يحول دون العرب وما يبتغون فانضمت إليها الصحافة الغربية المهودة، وراحت بدورها تهول الأمر على العالم، وتطالبه بمساندة اليهود في صراعهم مع العرب، والغريب في الأمر أن العالم أخذ بهذه الترهات الصهيونية، والتبس عليه الأمر، فظهر العطف حيال اليهود جلياً في أكثر بلدان العالم، حتى قبل أن يقدم العرب على أية بادرة عسكرية، مما دفع ببعض الدول التي كانت مترددة في الانضمام إلى المعسكر الموالي للصهيونية أن تنضم إليها وتعلن تضامنها مع الدول التي

ضربت الحصار على الدول العربية التي كانت تحاول العثور على مصادر للسلاح لتجهيز جيوشها الفتية تحسباً لما كان اليهود يبيتونه لها.

وفي خضم هذا الموقف العالمي المعادي للعرب، انسحبت القطعات البريطانية من فلسطين تاركة أمورها ومصير أهلها العرب بين أيدي العصابات الصهيونية، فأسقط في يد الدول العربية، ولم يعد لها بداً من التدخل العسكري في فلسطين أملاً بإنقاذ ما يمكن إنقاذه منها ومن سكانها العرب.

وهكذا دخلت الجيوش العربية (التي كانت في مستهل تكوينها ومفتقرة الافتقار الكلي للسلاح والعتاد) في 15 أيار 1948 أرض فلسطين فوقعت الواقعة، واشتبكت وحداته الشبه عزلاء مع العصابات الصهيونية المدججة بمختلف أنواع الأسلحة الحديثة، فكان من الطبيعي أن لا يكون النصر العربي حاسماً، مع البون الشاسع الذي كان بين القوتين المتصارعتين، أضف إلى ذلك تدخل الأمم المتحدة الدائم لصالح الصهيونية كلما أحرج موقفها العسكري إبان تلك العمليات، وأكبر دليل على هذا التدخل هو فرض الهدنة الأولى على الدول العربية لإفساح المجال أمام اليهود الذين كادوا أن يندحروا في المرحلة الأولى من القتال كي يعيدوا تسليحهم ويتمكنوا من جلب المتطوعين بالألوف العديدة من أوروبا لمجابهة الاندفاع العربي.

ومع كل هذا لم تتورع الصهيونية العالمية عن تضليل الرأي العام العالمي بعد أن انتهت تلك العمليات وذلك عن طريق إغراقه بسيل من الكتب والمؤلفات تبحث جميعها عن المواقف البطولية المزعومة التي نسبت إلى القطعات اليهودية المقاتلة، وخاصة تلك التي دبجها يراع مسيلمة اليهود المعاصر أندري شوراكي (André Chouraqui) الذي غالى في الإشادة برجال العصابات الصهيونية وكأنهم أبطال الأساطير الأولين وأظهر عمليات 1948 وكأنها ملاحم آلهة اليونان والإغريق.

وهذا الشطط في الدعاية الصهيونية غرر بالعالم الغربي بأسره حتى غدا مقتنعاً بأن الشعب اليهودي أصبح من الشعوب التي لا تقهر، والمؤلم في الأمر هو أن بعض الانهزاميين من العرب انجرفوا خلف الترهات نفسها وصاروا ينظرون إلى المقاتل اليهودي وكأنه غول رهيب، مما أدى بالتالي إلى تثبيط الهمم، والنزوع إلى قبول الأمر الواقع، والجنوح إلى اللامبالاة والخمول، أي كل ما يتمناه العدو الإسرائيلي من أن نقع فيه ليحقق هو في غفلة منا ما يصبو إليه من سيادة وسيطرة.

وإزاء هذه البوادر الخطرة على مصير أمتنا، وبغية إيقاظ الفئات المضللة من غفلتها وإظهاراً للحقيقة أرى لزاماً عليّ أن أبحث فيما يلي عما كان عليه الواقع العربي عام 1948، أملاً

بأن تعود الثقة إلى نفوس من ضللتهم الدعاية الصهيونية وبالتالي لترتدع الفئات الانهزامية عن غيها، وتكف عن التهويل بقدرة إسرائيل القتالية، والاستخفاف بمقدرة الجندي العربي في ردعها وانتزاع النصر النهائي منها بإذن الله.

استغلالاً لسكوت الوسائل الدعائية العربية، ولجمود أقلام الكتاب العرب الذين عاصروا أحداث عام 1948 وإيغالاً في تضليل الرأي العام العالمي، زعمت كافة المصادر اليهودية الباحثة عما أسمتها بحرب عام 1948، أن العصابات الصهيونية جابهت بمفردها جيوش خمس دول عربية، مؤهلة للقتال بالصورة المعهودة في كل جيش نظامي لكل دولة ذات استقلال وسيادة، وادعت أن كل واحدة منها كانت مؤلفة من عدة عشرات من الألوف المقاتلين المدججين بأحسن الأسلحة والأعتدة الحربية ومع هذا انتزعت عصاباتها النصر منها، وأسندت الفضل بذلك إلى التصميم والإرادة والشجاعة التي كان أفراد تلك العصابات على حد زعمها يتحلون بها.

والواقع هو أن في هذه الترهات الصهيونية ظلم وتجنٍ على الجيوش العربية ومقاتليها ألف ضعف مما فيها من شطط وتمجيد لمقاتلي عصاباتها، إذ أن واقع الدول العربية التي اشتركت في عمليات عام 1948 كان أبعد ما يكون عما زعمته المصادر اليهودية، وأحوال جيوشها كانت على أسوأ حال، تماماً بعكس ما زعمته المصادر اليهودية التي نحن الآن بصدد تعرية أضاليلها.

فمصر والأردن والعراق كانت لم تزل عام 1948 تحت السيطرة السياسية والعسكرية البريطانية، لا قدرة لأية واحدة منها على التحرك السياسي والعسكري، إلا بقدر ما تسمح لها بريطانيا به، ولم يكن لدى أية دولة منها جيشاً بالمعنى الصحيح، اللهم إلا بعض القطعات القليلة العدد والعدة، يقود أكثرها ضباط بريطانيون، وهي كانت معبأة أصلاً بمثابة رديف احتياطي للقوات البريطانية التي كانت متمركزة آنذاك في تلك الدول الثلاث كقوى احتلال وانتداب.

أما الدولتين السورية واللبنانية، فلم تكن أحوالهما السياسية والعسكرية أحسن من أحوال شقيقاتهما الآنفات الذكر، إذ كلتاهما كانتا حديثتي العهد في الاستقلال، يفتقر حكامهما إلى الحنكة والدراية السياسية، وعلى غير استعداد لمجابهة ظروف الحروب والنوائب، ناهيك عن قضية فلسطين التي لم تكن يوماً في حسبانهم، هذا عدا ما كانت عليه البلدان من التخبط في متاهات الأفكار والتحزبات الداخلية، التي وقفت عقبة كأداء بين المسؤولين والرؤيا الواضحة لخلفيات الأمور، وخاصة في تلك البرهة القصيرة الفاصلة ما بين فجر الاستقلال، وظهور كارثة فلسطين للوجود بكل ما كان في طياتها من متاهات سياسية تشير كلها إلى ما كان يحيط بنا من أخطار قومية ووطنية.

وكان من الطبيعي أن تكون أحوال جيشهما متساوية مع أحوالهما إذ لم يكونا في الأصل إلا عبارة عن وحدات مؤلفة من المتطوعين شكلت بقصد القيام بالأعمال البوليسية تحت إشراف وقيادة السلطات الفرنسية المنتدبة حتى أطلق عليها اسم القطعات الخاصة تكريساً لعدم اختصاصها في الأعمال الحربية، أما أسلحتها وأعتدتها فلم تكن إلا من النوع الخفيف المخصص للأعمال الأمنية فقط، وعندما جلت القوات الفرنسية من الشرق لم تترك لهذه الوحدات أية قطعة سلاح حديثة، بل عمدت إلى إثقال كاهلها بما كان غير صالح لاستعمالها الخاص، أضف إلى كل هذا تعرض هذه القطعات إلى تنسيقات واسعة لأسباب سياسية حال التحاقها بحكومتي البلدين، كما أهمل إعادة تنظيمها بصورة جدية طيلة الزمن السابق لأحداث عام 1948.

وفي خضم هذه الأحوال السياسية والعسكرية المتردية، وجدت الدول العربية نفسها مرغمة على التدخل العسكري في فلسطين بعد أن ظهر لها عجز جيش الإنقاذ عن القيام بمهمته التي كانت تنحصر في حماية عرب فلسطين من الاعتداءات الصهيونية الشرسة، بعد أن أعلنت بريطانيا انسحابها التام من فلسطين.

والحالة هذه زجت الجيوش العربية - الهزيلة في كل شيء إلا بإيمان أفرادها القويم بحق أمتها وقدسية - أوطانها في معركة غير متكافئة، لا من حيث العدد والعدة، إذ ما كان عدد أفراد ما أسمي بالجيش المصري ليربو على عشرة آلاف مقاتل لا يملكون من السلاح والعتاد إلا المخلفات البريطانية التي كان يرجع تاريخ صنعها إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى.

أما ما زعم بأنه الجيش الأردني فكان أقل عدداً وأفقر سلاحاً وعتاداً من الجيش المصري، بينما الجيش العراقي لم يتمكن من تقديم سوى لواء واحد لا يملك من السلاح والعتاد أكثر مما كانت تملكه الألوية المصرية والأردنية.

بينما القطعات الخاصة اللبنانية ظلت قابعة في أمكنتها بسبب افتقارها حتى للبالي من السلاح والعتاد، ولم يسعها إلا مراقبة الأحداث عن بعد، يمزق الغيظ أفئدة أفرادها، وتحرق الحسرة أحشاء قوادها من جراء عجزهم عن مجارات أترابهم في الدول الشقيقة.

والجيش السوري لم يكن بأوفر حظ من أشقائه الجيوش العربية، إذ كان قوامه لا يتعدى الثلاثة آلاف مقاتل ضمن أفراد الخدمات والمصالح، ولم يكن يملك من السلاح الحربي الثقيل أي شيء، اللهم إلا بضعة بطاريات من مدفعية الميدان من عيار (75) التي ساهمت في حروب نابليون بونابرت، واثني عشر دبابة من طراز رونو لعام 1915 مسلحة بمدافع من عيار (37) وبضعة عشرات من رشاشات الهوجكيس، وما يقارب من مائة وخمسين رشاش من طراز

1924 ، أما أسلحته الفردية فكانت أغرب وأعجب إذ كانت كلها من طراز 1886 و1916 أكل عليها الدهر وشرب ، مع العلم أن الأعتدة والذخائر لكل هذه الأسلحة كانت محدودة لدرجة أنها ما كانت تكفي لإدامة أية معركة حربية يتعدى زمنها الأسبوع الواحد ، حتى أن وحدات الشرطة ومنظمات الشباب كلفت قبل الحرب بشراء الذخائر للأسلحة الفردية من لدن العشائر الرحل التي كانت تملك بعضاً منها ، مما ورثتها من السلطات الفرنسية .

ومع كل هذه العقبات والمحذورات ، ومع قيام الحصار الحربي على الأمة العربية بأكملها ، ومع وجود السيطرة البريطانية التي كانت تهيمن على المنطقة بأسرها وتشيع كافة أسرار الدول العربية التي كانت تحت رحمتها ورحمة عيونها وجواسيسها في المنطقة ، لم يسع الدول العربية إلا أن تجازف بكل شيء في سبيل إنقاذ الشرف العربي ، وأن تدفع بوحداتها التي لم يكن تعداد مجموعها أكثر من عشرين ألف مقاتل ، على أسوأ حال في السلاح والعدة ، لتجابه عشرات الألوف من خيرة مقاتلي اليهود والمرتزقة من مختلف البلاد الأوربية الذين خاضوا غمار الحرب العالمية الثانية تحت رايات مختلف الجيوش التي تصارعت فيها .

وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر أن الفيلق اليهودي الذي قاتل في النرويج ، والفيلق اليهودي الأمريكي الذي درب أفراده على أيدي خيرة ضباط الجيش الأمريكي كانا من بين القوات التي جابهت الوحدات العربية ، أضف إلى ذلك جيش الهاغاناة الذي كون في أول عهد الانتداب البريطاني على فلسطين ، والذي رعته بريطانيا وأشرفت على تطويره طيلة ثمانية وعشرين عاماً ، هذا عدا عن المستعمرات اليهودية التي كانت كل واحدة منها بمثابة قلعة دفاعية مستقلة تعج بالألوف أو المئات من المقاتلين المدربين على أيدي ضباط أوربيين .

أما أسلحتهم فحدث عنها ولا حرج ، إذ كانت برمتها من أحدث الأسلحة التي استعملت إبان الحرب العالمية الثانية ، والتي كانت مكتظة في مستودعات الجيش البريطاني في فلسطين لمجابهة قوات هتلر فيما إذا تمكنت هذه الأخيرة من احتلال مصر ، فلما عزمت بريطانيا على إخلاء فلسطين أورثت التشكيلات اليهودية كل هذه الأعتدة والأسلحة ، التي كانت تتكون من مئات المدافع الثقيلة والألوف من مدافع الهاون والمئات من الدبابات المختلفة ، والملايين من الألغام المتنوعة ، وعدد لا حصر له من الأسلحة الأتوماتيكية ، حتى أن الأسلحة الفردية للعصابات اليهودية كانت برمتها رشاشات من عيار 9 مم ، أما وفرة الذخائر فكانت مذهلة ، لا حدود لها ، هذا عدا عن التحصينات والخطوط الدفاعية التي كانت تحيط بفلسطين ، والتي أنشأها الإنكليز

لمجابهة أي غزو ألماني، والتي تمركز فيها اليهود لمقاومة القطعات العربية التي زحفت على فلسطين في 15 أيار عام 1948.

والغريب في الأمر هو أن كل هذه الأسلحة وهذا التأهب، وهذه الحصون والقلاع، وعشرات الألوف من المقاتلين اليهود، وكل المعلومات العسكرية العربية، التي زود الإنكليز بها عصبة الصهاينة، لم تتمكن من الحيلولة دون القوات العربية من الاندفاع إلى قلب فلسطين في الأسبوع الأول من الحرب، إذ اجتاحت القوات المصرية المنطقة الجنوبية من فلسطين حتى أصبحت على خمسة عشر كيلومتراً من تل أبيب، والقوات الأردنية مع اللواء العراقي تمكنا من تطهير الجيوب اليهودية في المثلث العربي والجبهة الشرقية، وبذا وضعا مراكز التجمعات اليهودية تحت رحمة مدفعيتيهما بينما زحف ثلاثة آلاف مقاتل سوري، واجتاحوا منطقة سمخ بأكملها، ومن ثم اندفعت بعض وحداتهم في القطاع الشمالي والأوسط إلى داخل الأراضي الفلسطينية، واحتلت فيها عشرات المستعمرات اليهودية، التي لاذ حماتها بالفرار على طول الجبهة، وهكذا سيطر السوريون على منطقة عمقها عشرون كيلومتراً على طول الجبهة السورية، وكل هذا في غضون بضعة أيام، على الرغم من كل التفاوت في العدد والعدة الذي كان قائماً بين القوات اليهودية المدافعة، والقوات العربية المهاجمة.

ومما يجدر ذكره هو أن القوات السورية في اندفاعها إلى فلسطين كانت تضطر في أكثر الأحيان أن تخلي المستعمرات التي سبق لها احتلالها دون حماية لتنتقل منها إلى مستعمرات أخرى لتحتلها، أو لكي تطارد فلول العصابات الصهيونية التي كانت تفر من المستعمرات عند سقوطها في يد الجيش السوري، وكل ذلك لعدم امتلاك الجيش السوري لقوى احتياطية، مما كان يسمح للعصابات اليهودية التسلل مجدداً إلى الأمكنة التي سبق طردها منها، فتبادر إلى تهديد مؤخرة قواتنا، ومع هذا ظل هذا الجيش مسيطراً أبداً على ساحة المعركة، وكم من مرة رأينا كتائب العصابات الصهيونية تفر من معاقلها مذعورة أمام فصيل سوري تاركة خلفها من الأسلحة والعتاد المتنوع ما يصلح لتسليح لواء بأكمله، بينما كان المقاتل السوري مرغماً على الاحتفاظ بأغلفة الذخيرة الفارغة ليعيدها إلى المستودعات ليصار إلى إعادة تعبئتها لاستعمالها مجدداً نظراً لشح الذخيرة الذي كان سائداً في الجيش، ومع كل هذه العقبات ظلت الجيوش العربية مسيطرة على مختلف الجبهات، فظهر الوهن في صفوف العصابات الصهيونية، وبدأت قلاعهم تسقط الواحدة تلو الأخرى، فانهارت آمالها في تحقيق أحلامها، فبادرت إلى الاستنجاد بهيكل سليمان الحديث (اللوكسيكس) وبأنصارها القدماء مثل أمريكا وإنكلترا وفرنسا وسواها، فسارعت هذه

المجموعة برمتها إلى نجدتها وباشرت الضغط على الدول العربية لتقبل بهدنة مؤقتة واعدة إياها بتسوية سلمية للقضية في أعقابها.

ولما كانت الدول العربية عاجزة عن تموين جيوشها بالسلاح والعتاد اللازمين لمتابعة القتال (من جراء الحصار العالمي الذي كان مضروباً عليها) اغترت بالوعود المبطنة بالتهديدات الصادرة عن الأمم المتحدة والدول المناصرة للصهيونية وقبلت بالهدنة المقترحة خشية نفاد ما تبقى لدى جيوشها من الذخائر والأعتدة في حال مثابرتها على القتال أو عجزها عن مقاومة قوات الأمم المتحدة في حال تدخلها العسكري في المنطقة.

وعلى الأثر توقف القتال، وهنا كانت الطامّة الكبرى والبلية العظمى إذ تبين في نهاية الهدنة أن الكل تآمر على الأمة العربية لإفساح المجال أمام العصابات الصهيونية مرة أخرى لتلم شملها، وتعيد تسليحها لمتابعة تعدياتها على الشعب العربي في فلسطين ومقاومة الجيوش العربية، فلما قيّض لها شركاؤها الفرصة، سارع زعماؤها إلى الاتصال بأترابهم في الكتلة الشرقية الذين بادروا إلى إقامة جسر جوي بين تشيكوسلوفاكيا وفلسطين نقلوا عبره مئات الألوف من أطنان السلاح والعتاد الحديث لتجهيز العصابات الصهيونية التي كانت على وشك الانهيار قبل إعلان الهدنة، كما أن بريطانيا لم تبخل عليها بالطائرات الحربية مع طياريها، أما أمريكا فابتدعت حكاية هروب سرب من القلاع الطائرة لتزويد إسرائيل بها، ولقد ظهرت هذه الحقيقة إبان المرحلة الثانية للمعارك وذلك عندما رأيناها تحلق في أجواء المناطق التي سبق للجيوش العربية احتلالها ومن ثم مشاركتها في قصف وحداتنا.

وهكذا وبكل سرعة أعيد تسليح القوات اليهودية على أكمل وجه، بينما ظل حصار التسلح مضروباً على القوات العربية، ولم تقبل أية دولة أجنبية مد يد العون لها رغم كل المحاولات العربية.

ولما انتهت مدة الهدنة دون أن تفعل الأمم المتحدة أي شيء مما وعدت به العرب، لم يعد لهم بد من متابعة القتال، فكان عليهم أن يجابهوا بعشرين ألف مقاتل عدة عشرات من الألوف من مقاتلي اليهود، وأن يردوا على أحدث الأسلحة الثقيلة والدبابات الحديثة بأسلحة أمنية بالية، وأن يقارعوا مئات الألوف من الأسلحة الأوتوماتيكية ببنادق من طراز 1886 و1916 التي كانت أعجز من أن توصل طلقاتها إلى أهدافها، أما الطيران العربي الذي كان في طور التكوين، فلم يكن يملك إلا بعض طائرات التدريب التي كان عليها أن تتصدى لغارات طائرات السبتفاير الإنكليزية، والقلاع الطائرة الأمريكية.

ومع كل هذا ظل الجندي العربي على كافة الجبهات أميناً على رسالته القومية فصمد حيث وصل ولم يقبل بفكرة التراجع عن أي شبر مما انتزعه من العصابات الصهيونية على الرغم أنه كان يعيش تحت وابل من قنابل الطيران والمدفعية التي كانت تتساقط عليه ليلاً نهاراً، وخاصة على الجبهة السورية حيث أقدمت قطعاتنا على القيام بهجمات انتحارية عديدة للإبقاء على بضعة أمتار من الأرض الفلسطينية في حوزتها، ومما يذكر بكل اعتزاز في صدد الجندي السوري مئات البطولات الخارقة التي سجلها الضباط والجنود إبان تلك المعارك مما أكسب الجيش السوري احترام ألد أعدائه أمثال موشي دايان والكثير من مراقبي الهدنة الذين كانوا شهود عيان لهذه البطولات.

وأمام صمود الجيوش العربية العَزْلاء، لم يكن بدٌ لحلفاء إسرائيل من إيجاد مخرج لصديقتهم هذه، بغية تمكينها من ترسيخ أقدامها، فبادروا إلى المحاورات السياسية حتى تمكنوا من فرض قرار وقف إطلاق النار الذي أصدره كهنة هيكل سليمان للقرن العشرين.

وهكذا انتهت هذه العمليات التي لم تكن في الأصل إلا عبارة عن عمليات بوليسية نسبة للجانب العربي، بينما كانت للجانب المعادي عمليات حربية بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

تدعمه في تصعيدها قوى العالم السياسية والعسكرية، ومع كل هذا انطلقت المصادر اليهودية، والصحافة الغربية المهودة، وأبواق الدعاية الصهيونية بكل وقاحة تشيد ببطولات مقاتلي اليهود، وتصف زعماء عصاباتهم بجبابرة الحرب والقراع، عدا عن القصص الخيالية التي ابتدعتها لهم والتي قالت فيها عنهم بأنهم حلقوا في ميادين الرجولة والشهامة لدرجة أعجزت الأقلام عن إيفائهم حقهم، مع أنها لو أنصفت قليلاً أو انتابها شيء من الخجل لاعترفت بأن بطولاتهم لم تتعد يوماً مداهمة القرى العربية العزلاء من السلاح في جنح الظلام، والفتك بوحشية وسفالة بشيوخها وعجزها، أما شهامتهم فانحصرت في هتك الأعراض، وبقر بطون الحبالى، وتمزيق أجساد الأطفال الرضع.

ولكن ما حيلتنا مع أصحاب الأقلام الغربية المأجورة، والكتاب من أحفاد يوسيفوس مسيلمة اليهود، وساسة الغرب من عبيد سادة خزائن سليمان، الذين أجهز الأصفر الرنان اليهودي على ضمائرهم، وأزكم فحش أخوات استر أنوفهم، فلم يعد لهم قدرة إلا على اجترار ما يلقمونه من فتات موائد الزعامة الفرانكفورتية التي استعبدتهم منذ أمد بعيد.

أما فيما يعود على أبناء العروبة التي غررت بهم الدعايات الأوروبية تلك، فنقول: يا قوم اتقوا الله بأمتكم، انبذوا التخاذل والأوهام، وصموا آذانكم عن الترهات الأجنبية، وعودوا إلى

الثقة بقومكم وأبنائه الذين لابد أن يرغموا التاريخ في يوم قريب ليعيد نفسه ، اذكروا أننا أحفاد من كانت لهم أكثر من وثبة جبارة عبر الأزمان ، وأكثر من مفخرة في ميادين الشرف والرجولة ، شمروا عن سواعد الجد وبادروا إلى الالتفاف حول راية الوطن الواحد والأمة الواحدة لنستعيد مكاننا تحت الشمس ، وأمجادنا بين الملل ، وثقوا أن كل آت قريب بإذن الله .

ذيول عمليات عام 1948

عندما توقف القتال على طول الجبهات المحيطة بفلسطين في 18 تموز 1948 انكفأت الدول العربية عن الحرب، وانغمست في متاهات المداولات والألاعيب السياسية الخارجية، أملاً بأن تتوصل إلى استرداد شيء مما سلب منها غدراً وغيلة، ولكن هيهات أن يتحقق ذلك على أيدي المحافل السياسية التي كانت أبداً ضالعة مع الصهيونية العالمية القابعة على قمة كل منها، لا هم لها إلا رصد التحركات العربية لتزرع في طريقها الأشواك، وتقيم العقبات، حتى تجهض كل محاولاتها مهما كانت شرعيتها.

أضف إلى ذلك سيطرتها التي كانت شبه تامة على كل رجال السياسة الأوربية، وعلى وجه الخصوص على أولئك الذين كانوا يديرون دفة هيكل سليمان للقرن العشرين، وفي حالة خروج أحد الساسة عليها، كانت تبادر حالاً إلى إعادته لطاعتها بوسائلها المعهودة، ولذا لم يكن لساسة العرب أي ثقل في موازين تلك المحافل، وغدا جل دورهم إثبات وجود فحسب، ناهيك عما كانوا يتعرضون له من سخرية الصحافة المهودة ووسائل الدعاية الأخرى التي كانت برمتها رهن إشارة الصهيونية فكان من الطبيعي أن يفقدوا كل أمل في العدالة الدولية، وأن تتضاءل قيمهم المعنوية أمام الرأي العام العربي قبل سواه، فلم يعد لهم سوى الانزلاق في المهاترات والاتهامات فيما بينهم، ولسان حال كل منهم ينشد تبرئة نفسه عما آلت إليه الأوضاع العربية ويرمي سواه بمسؤوليتها، وإزاء هذه الكارثة القومية التي ألمت بالأمة العربية، وما أعقبها من فشل يتلو الفشل في المحافل السياسية، والتدهور الأخلاقي الذي عم وسط الساسة العرب، لم يعد أمام الشعوب العربية التي بهتت من هول الصدمة في البداية، إلا أن تعود لنفسها وتبحث عن مخرج لما أحاط بها من ويلات وكوارث، وتفتش عن أسبابها ومسببيها، ولما كان الغموض يغلف مجمل القضية والغيوم تحجب الرؤيا عن عواملها وكنه ممثلي أدوارها، حار المواطن العربي في أمره، وأصبح ميالاً للأخذ بأية بارقة أمل تنبعث مما يسمع ويرى، وكان من الطبيعي أن يغدو نهباً للقال والقيل، ويلهث خلف أية كلمة تنبىء عن إمكانية تحقيق شيء مما يتفاعل في أعماقه من شجون وكادت الطامة الكبرى أن تقع خاصة عندما ظهرت بوادر فقدان المواطن العربي إيمانه في كل شيء، على أثر الحرب النفسية الشعواء التي شنتها الصهيونية العالمية على الأمة العربية، من خلال صحافتها ووسائل الدعاية الهائلة التي تمتلكها، وما أصدرته من كتب ومصادر مضللة

غطت بها مكتبات العالم أجمع، أملاً بالقضاء على ما تبقى من مقومات لدى الإنسان العربي، بإغراقه في متاهات اليأس والقنوط وإخراجه عن إيمانه وقيمه ومثله، لتنقلب الأمة العربية برمتها إلى مستنقع طفيليات، ليهون أمرها على الصهيونية الباغتة.

ولكن أبى القدر أن يتخلى عن هذه الأمة المجيدة الماضي، فازداد التحرك والتفاعل يوماً عن يوم في الأوساط الشعبية في كل مكان، وتعالت أصوات الحنق والغيظ على ما كان وما جرى، فبدأ الناس يبحثون عن حلول لإعادة البناء العربي على أسس جديدة تؤول إلى الثأر للكرامة المهدورة، وكان من البديهي أن تشعر الجيوش العربية بدورها بما آلت إليه أمور بلادها، وما أصابها من طعنات غادرة مع كل ما قدمته من تضحيات، وما حققه أفرادها من بطولات وأظهروه من فداء، فبادرت كل واحدة منها في موطنها إلى العمل لتصحيح الأوضاع والمساهمة في إعادة التكوين الوطني الصحيح، وكان الجيش السوري سباقاً إلى إعلان سخطه على الأوضاع الداخلية، أعقبه قيام الانقلاب الأول عام 1948 تحت زعامة حسني الزعيم، الذي نادى بضرورة إعادة تنظيم الجيش وتسليحه، بغية التأهب لاسترداد الحق السليب، مما أدى ببريطانيا إلى التفكير الجدي بمصير نفوذها في العالم العربي، فما كان منها إلا أن غررت بالأمير عبدالله إلى إعلان الملكية عام 1949 وضم الضفة الغربية إليه، بغية خلق التنازع بينه وبين الدول العربية الأخرى، وفي سبيل تكريس النزاع في العالم العربي أطلقت الإشاعات المختلفة، مثل زعم قرب إقدام الأردن على احتلال سورية وتحقيق الاندماج مع العراق لتجسيد مشروع الهلال الخصيب وربطه بحلف بغداد، فكان من الطبيعي أن تخشى الشعوب العربية مغبة تكريس التمزق على يدي بريطانيا، فبادرت الجماهير العربية في كل مكان إلى التحرك السريع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. فتسارعت الأحداث في كل بلد عربي، وأسفرت عن مقتل الملك عبدالله عام 1951 أعقبه إقالة الملك طلال، واعتلاء الملك حسين العرش الأردني عام 1952 فبادر إلى تقليص النفوذ البريطاني، والتعاطف مع الفئات الوطنية، وأخيراً بطرد غلوب باشا وزمرته التي أسهمت كثيراً في تهديم مقاومة الجيش الأردني إبان عمليات 1948[1].

أما في مصر فقد أطاح الضباط الأحرار بعرش الملك فاروق في عام 1953 أعقبها استلام المرحوم جمال عبد الناصر الحكم عام 1954 الذي بادر إلى إلغاء المعاهدة البريطانية وطرد جيشها في العام نفسه، كما عمد إلى إصدار قرارات وتنظيمات قومية ووطنية تقدمية، ثم راح ينادي

---

(1) اقرأ كتاب ربع قرن في خضم السياسة السورية.

بضرورة توحيد أجزاء الأمة العربية لمجابهة ما يهددها من أخطار، مما زاد التفاعل العربي في كل مكان وخاصة في سورية التي كانت قد مرت في عدة تجارب مثل الإطاحة بحسني الزعيم على يدي العميد حناوي الذي أسفر عن عودة الحكم إلى الأحزاب السياسية ومحاولات التقارب مع العراق التي أدت إلى استيلاء أديب الشيشكلي عام 1952 على الحكم، أعقبه تمرد الجيش والشعب مجدداً عام 1954 الذي تمخض عن عودة الحكم إلى الأحزاب السياسية إلى أن انتخب الرئيس شكري القوتلي رئيساً للجمهورية عام 1955، وهنا سارعت سورية إلى مد يدها للرئيس جمال عبد الناصر الذي كان أكثر زعماء العرب تمسكاً بقيام الوحدة وأشدهم تعاطفاً مع هذه الأمنية الغالية عند كل مواطن عربي شريف حيثما كان. كما بدأت الشعوب العربية في الأقطار الأخرى تعلن عن تعاطفها مع الزعيم المصري، وتطالب حكامها بالعمل لتحقيق الوحدة مع عبد الناصر الذي كان نجمه يزداد سطوعاً يوماً بعد يوم، وخاصة بعد أن نكص الغرب وعلى رأسه أميركا بوعوده له في تسليح جيشه، وبناء سد أسوان الذي رد عليه جمال عبد الناصر فور عودته من مؤتمر بريوني في 26 تموز 1956 بإعلان رغبة مصر بتسليح جيشها بالأسلحة الروسية، وتأميم قنال السويس الذي استأثر الغرب بخيراته طويلاً.

وعلى أثر إعلان الرئيس جمال عبد الناصر عن هذا القرار قامت قيامة الدول الغربية المنتفعة من القنال، وثارت ثائرة صحافتها ووسائل إعلانها منددة بجمال عبد الناصر ومهولة بالأخطار المرتقبة التي تتعرض إليها مصالح الغرب على يديه.

ويا ليتها وقفت عند هذا الحد، بل ذهبت إلى حد لفت نظر قرائها إلى أخطار خيالية، كقول صحيفة الفيغارو الفرنسية: إن عبد الناصر يحلم بإقامة إمبراطورية عربية من المحيط إلى الخليج، ومن ثم العودة إلى الفتوحات لاسترداد ما فقدتها الإمبراطورية العربية القديمة من ممتلكات مثل إسبانيا وقبرص والجزر الأخرى الواقعة في البحر الأبيض المتوسط لحصر الدول الأوربية من الجنوب وإخضاعها للمشيئة العربية. وهكذا بجرة قلم جعلت الصحافة الأوربية المهودة من عبد الناصر هتلراً جديداً واستعمارياً عالمياً كما هولت بقوة العرب الاقتصادية في حالة توحد أجزاء وطنهم.

وكان من البديهي أن يعود المواطن الأوروبي العادي بالذاكرة إلى تاريخ الفتوحات العربية في الماضي البعيد، ويستعيد ما قرأه من الأضاليل والأكاذيب التي عزيت إلى العرب إبان مجدهم الغابر، والتي لم يكن القصد من التركيز عليها سوى التشنيع بالعرب وحضارتهم القديمة التي

أنارت الدنيا بأسرها، بغية دفع المواطن الأوربي دون استثناء إلى صفوف دعاة الاستعمار الجديد الذين ظهروا للوجود في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الدعاية الكاذبة المدمرة انطلت على الجماهير الأوربية، خاصة في فرنسا وإنكلترا فعمد المواطنون فيهما إلى مطالبة حكومتيهما اللتين كانتا خلف هذه الدعاية المضللة أصلاً، بالمبادرة إلى وضع حد لانطلاقة عبد الناصر القومية قبل أن يستفحل أمره ويتمكن من تحقيق الوحدة العربية الآيلة على حد زعمهم حتماً إلى مناوءة أوروبا الغربية بأجمعها، إذ أن المواطن الغربي الذي أفحمته الأكاذيب المزعومة تاريخياً عن ماضي العرب، كان وما زال لا يخشى شيئاً بقدر خشيته عودة الوحدة العربية وبزوغ فجر إمبراطوريتها التي خفقت راياتها على الكثير من ربوع أوروبا، حيث نشر العرب العلم والحضارة اللتين انطلقت أوروبا منهما لتصل إلى ما لها اليوم من حضارة وسؤدد، فلولا الفتح العربي لما تعرفت أوروبا على تلك الحضارة الخيرة التي نهل أبناؤها منها مبادئ حضارتهم الحالية، ولكن أوروبا تنكرت لهذا الفضل العربي منذ غياب شمس العروبة عن أقطارها، وراح كتابها ومثقفوها ينكرون كل شيء على العرب، ويرمونهم بكل شائبة ومعيبة بدلاً عن شكرهم والتسبيح بحمدهم، وهذا الأسلوب في التضليل هو الذي أرهب الأوربي في الماضي، وهو الذي أرهبه عند قيام عبد الناصر باسترداد حق مصر السليب. ولذا وجدنا جموعه تهب كلها ضد الأمة العربية وعبد الناصر، وتصر على المطالبة بحماية بنود معاهدة 1869 التي ألغاها الرئيس عبد الناصر.

أما الوضع في العالم العربي فكان قد بلغ الأوج في الغليان والتلاحم واستبشر الكل بقرب زوال عهود الغفلة والذل، وأصبح المواطن العربي في كل مكان يترقب تحركات القيادات العربية الجديدة ويتعشم بلوغ الخير على أيديهم، كما انطلقت الصحافة العربية على شجيتها في معاضدة مؤمم القنال وحث الجموع العربية على تحقيق الوحدة لمساندته في حال قيام الغرب بعمل عسكري.

وهذا المسلك العربي الجديد أرعب الدول الغربية وفي مقدمتها ربيبتها وصنيعتها إسرائيل فراحت تضخم أخبار التحركات العربية، وتظهرها وكأنها بداية طوفان مزمع على إغراق أوروبا بأسرها، وتلوح للأوروبيين باقتراب ساعة الحشر، وزوالهم من الوجود، فانبرت الصحافة المهودة في كل مكان إلى ترديد هذه الأكاذيب لتسمم الأجواء أكثر فأكثر، وكل ذلك خشية على كيان إسرائيل وليس على المصالح الأوربية والوجود الأوربي كما كانت تدعيها، إذ أن إسرائيل كانت موقنة أنه في حال قيام الوحدة العربية الشاملة، سيكون زوالها من حتمية التاريخ، ولذا

كانت تروم قبل كل شيء القضاء على عبد الناصر والدولة السورية التي كانت تحت زعامة المرحوم شكري القوتلي السباقة في التلاحم مع عبد الناصر وأهدافه الوحدوية كي تتخلص نهائياً من خطر التكتل العربي المرتقب.

ومما يحز في النفس أن هذه الدعايات المغرضة التي صدرت عن الدول الغربية شريكات الرأسمالية اليهودية وصنيعتها إسرائيل أينعت ثمارها بسرعة فائقة، بدليل التصاعد الذي طرأ على موقف الجماهير الغربية في مطالبتها لاحتلال القنال، ووضع حد لانطلاقة المرحوم جمال عبد الناصر، مما أدى إلى إقدام الحلفاء الثلاثة في 29/ 11/ 1956، بالاعتداء على مصر مثلما يعرفه العالم.

مؤامرة عام 1956 أو حرب القنال

بعد أن ضمنت إسرائيل حماية الأمم المتحدة والدول الغربية الدائرة في فلك أمريكا، لم تعد تحسب حساباً لأية قوة في العالم، فاندفعت ترتكب جريمة تلو جريمة، مثل إقدامها في 17 أيلول 1949 على اغتيال المفاوض الدولي الكونت برنادوت (Bernadotte) ومن ثم الاعتداء على المواقع المصرية في النقب وفي غزة، ومباغتة الخطوط الأمامية للجيوش العربية المتمركزة حول فلسطين، تحت سمع وبصر مراقبي الأمم المتحدة، ودون أن تقيم وزناً لحرمة الأمم المتحدة، أو تحترم عهداً من عهودها نحو أي من الأطراف الموقعة على صكوك اتفاقيات إطلاق النار. وإزاء هذه الغطرسة الصهيونية لم تحرك الأمم المتحدة ساكناً، اللهم إلا إيفادها الدكتور بانش (Bunche) بديلاً عن مفاوضها الذي ذهب ضحية ولائه لشرعية حقوق الإنسان (إحدى مبتكرات كهنة هيكل سليمان للقرن العشرين).

وأمام هذا الموقف الدولي المتخاذل لم يسع مصر العزلاء من السلاح إلا أن تقبل بوقف إطلاق النار في 8/ 1/ 1949 أعقبه فرض اتفاقية الهدنة في 24 شباط 1949، الذي كرس قيام كيان العصابات الصهيونية في قلب الوطن العربي وفي أقدس بقعة منه.

وفي أعقاب ذلك تخيلت الصهيونية أن الأمة العربية استكانت لقدرها نهائياً، ولم تعد قادرة على التحرك، طالما كان العالم الغربي برمته معها، فانبرت تسوم عرب فلسطين الذل والهوان لترغمهم على متابعة النزوح عن أوطانهم، فازداد تدفق النازحين الفلسطينيين على البلاد المجاورة، مما أدى إلى تفاقم التوتر في صفوف الشعوب العربية ساعة فساعة فاندفعت جماهيرنا تبحث مثلما سبق وقلنا عن مخرج فوقعت الأحداث التي رويناها إلى أن ظهر الرئيس جمال عبد الناصر على مسرح السياسة العربية، وراح يقلم أظافر الغرب في المنطقة العربية ويدعو لوحدة الأمة بالشكل الذي سردناه، فما كان من الجماهير الشعبية إلا أن أظهرت تفاعلها المنقطع النظير مع هذه الدعوة التي كانت منذ الأمد تنتظر ظهور من يحمل لواءها.

وهذه الدعوات وما سبقها من أحداث وما رافقها من تجاوب الشعوب مع صاحبها، أيقظت دولة العصابات، وأيقنت أنه في حال نجاح عبد الناصر في تحقيق دعوته (وخاصة بعد النجاح الذي أصابه في أوساط الدول غير المنحازة) ستصبح آمالها العريضة في إذلال العرب والسيطرة عليهم سراباً لا قرار له، وهنا انخلعت قلوب زعمائها فبدأوا يبحثون بدورهم عن

فرصة مناسبة للقضاء على الدعوة وصاحبها ، ولما أعلن عبد الناصر تأميم القنال ظنوها فرصتهم المنتظرة ، ولذا رأيناهم يصعدون الدعاية ضد عبد الناصر أكثر من ذي قبل ويطالبون بالقضاء عليه قبل أن يقضي على ما تبقى للغرب من قواعد في العالم العربي ، ومن ثم رموا بكل ثقلهم وثقل جالياتهم الأوربية وزعمائها لتحريض أوربا على مصر ، وقطع العلاقات السياسية معها ، والامتناع عن مساندتها ، وعدم الرجوع عن رفضها في تمويل وإنشاء السد ، وتسليح الجيش المصري ، ومن ثم احتلال القنال قوة واقتداراً والانتهاء من عبد الناصر .

وكان من الطبيعي أن نرى كلاً من الشعبين الفرنسي والإنكليزي متحفزان للوثوب خلف أضاليل الدعاية اليهودية التي بدأت منذ ظهور عبد الناصر تشتد يوماً بعد يوم حتى أصبحت وكأنها غذاء يومي لازم لأهل باريس ولندن ، ولذا رأينا أن أحد كبار ساسة فرنسا يعلن فور سماعه بقرار الرئيس المصري ويقول : علينا أن نرغم ناصر على رد ما ابتلعه (Fair render a Nasser ce qu'il avait ingurgite) وهذه الدعاية هي التي أوهمت الشعب البريطاني بأن عبد الناصر أهدر كرامتها باعتداءاته المتكررة ، أما الشعب الفرنسي فكان يرى في الزعيم المصري المناصر الأول والأكبر لثورة الجزائر الباسلة ، التي كانت تتعاظم دون هوادة وتهدد المصالح الفرنسية في أفريقيا الشمالية برمتها ، ولذا كان الشعبان على أتم استعداد للأخذ بالأكاذيب الصهيونية وتبنيها دون تحفظ ، ومن هنا رأيناهما يصران على دولتيهما الضالعيتن مع الصهيونية باحتلال القنال ، وهكذا بدأ التآمر البريطاني الفرنسي على مصر ، واتخذت قصة القنال حجة مثلى للقيام بعمل عسكري ضد عبد الناصر ، وبدأت المباحثات بين الدولتين واجتمع وزراؤهما وأقر المجتمعون احتلال القنال بموجب معاهدته التي لم يكن باقياً من مدة سريانها إلا اثني عشر عاماً ، كما أوعزت الدولتان إلى قادة جيوشهما للتأهب الفوري ، أعقب ذلك تعيين قيادة مشتركة تتمركز في إحدى قاعات وايت هول (White Hall) التي أطلق عليها اسم قاعة السلحفاة البحرية (Terrapin) ، في الوقت ذاته أرادت الدولتان إشراك أمريكا في عمليتهما ، فدخلتا معها في مباحثات فورية ، ولكن يبدو أن التوقيت كان خاطئاً ، إذ كانت الانتخابات الأميركية على الأبواب ، وكان شعار أيزنهاور (Eisenhower) فيها هو تحقيق السلام (Ike Is Peace) فلم يكن معقولاً أن يفاجئ الشعب الأميركي عشية الانتخابات بما يخالف شعاره المرفوع للنجاح فيها ، وزج بلاده في حرب عالمية ثالثة ، لن ترضي قطعاً شعبه الذي ذاق الأمرين من الحرب العالمية . ولذا رفض وزير خارجية فوستر دالاس (Foster Dulles) الاشتراك في مشروع السلحفاة البحرية ، وأعلم وزيرا خارجية فرنسا وإنكلترا ، أن أميركا الوفية لعلاقتها في شرعة الأمم

المتحدة، ترفض الاشتراك بأي عمل دون موافقة هذه الأخيرة، ونصح الدولتين بعدم القيام بأي عمل حربي، واللجوء إلى مؤتمر دولي مكون من 24 دولة يكون بينها كل من مصر وروسيا لتداول موضوع القنال وإيجاد مخرج له.

وعلى الأثر تدخلت روسيا بدورها بالأمر وأعلن رئيسها خروتشوف (Khrouchtchev) بضرورة تسوية موضوع القنال بالطرق السلمية، ومع ذلك ظلت الدولتان في غيهما وثابرتا على تحضير العملية بكل جدية دون الالتفات لآراء الدولتين الكبيرتين، ومن ثم جنحتا إلى البحث عن حجة شرعية للتدخل في شؤون القنال بدون أن تتعرضا للوم الأمم المتحدة، فلم يكن لهما سوى اللجوء إلى اتفاقية 25 أيار لعام 1950 التي تنص على أن كلاً من فرنسا وإنكلترا وأميركا يتعهدون بالحفاظ على الأمن والسلام في منطقة الشرق الأوسط، وعليهم أن يتدخلوا فيها معاً وعن طريق الأمم المتحدة لإعادة الأمن إلى نصابه في حالة تعرض سلامها للخطر، وبغية إيجاد السبيل لهذا التدخل بدأتا بالاتصال بإسرائيل التي كانت تنتظر فرصة مماثلة للنيل من عبد الناصر والقضاء على أحلامه، التي كانت تشكل أكبر الأخطار المدمرة لإسرائيل. ولذا لم تتوان عن الانضمام سراً للمشروع الأنكلو-الفرنسي، وراحت تجهز نفسها لتباغت العالم وتضعه أمام الأمر الواقع وتفسح المجال لشريكتيها بالتدخل لاحتلال القنال والقضاء على عبد الناصر بحجة المحافظة على السلام والأوضاع الدولية في الشرق الأوسط، دون أن تتعرضا للوم الأمم المتحدة. وفي الوقت نفسه تظاهرتا بصرف النظر عن استعمال القوة وافتتحتا المباحثات في الأمم المتحدة لإيجاد حل للقضية عن طريقها، بينما ظل كل من الجنرال الإنكليزي سيرشارلس كيغتلي (ch-Keightley) والجنرال بوفر (Beaufre) اللذين عينا لقيادة جيش الدولتين وضباط أركان حربيهما يعملان ليلاً نهاراً لتحضير مشروع السلحفاة البحرية.

أما إسرائيل فقد اختارت طريق التهويل في الأخطار التي تحيط بها من جراء تحركات ونوايا عبد الناصر واستقطاب الشعوب العربية حول مسيرته ومنهجه، وبغية إيهام الرأي العام العالمي ليصدق مزاعمها، أوعزت إلى الصحافة الغربية أن تصعد الدعاية ضد الزعيم المصري، فراحت هذه تختلق قصصاً ما أنزل الله بها من سلطان، مثلما ألمحنا إليها في فصلنا الماضي، ولقد ركزت بصورة خاصة على أن هدف عبد الناصر الأول هو محو إسرائيل من الوجود، وأنه حشد لذلك مئات الألوف من جيشه في سيناء ليباغتها دون إعطائها فرصة الدفاع عن النفس، وفي هذا الوقت بالذات؛ أي في مستهل شهر تشرين الأول عام 1956 قام بن غوريون بزيارة سرية لباريس

حيث تقابل مع الرئيس الفرنسي جي موله (Guy Mollet) فتعاقدا على أن تقوم إسرائيل بإيجاد المسوغ لتحقيق عملية السلحفاة البحرية.

وعلى أثر عودة بن غوريون فوجئ العالم في 29 تشرين الأول بإعلان إسرائيل مهاجمتها لسيناء، وإنزال مظلييها فيها واشتباكهم مع القوات المصرية التي على حد زعم إذاعة إسرائيل كانت قد بدأت بالزحف على فلسطين.

وهكذا اندلعت نيران الحرب بين مصر وإسرائيل مما أفسح المجال أمام شريكتي الأخيرة للتدخل في النزاع بموجب اتفاقية 25 أيار 1950، فما كان منهما إلا أن أصدرتا في 30 تشرين الأول إنذاراً موجهاً للدولتين المتقاتلتين وطلبتا منهما إيقاف إطلاق النار وإرجاع قواتهما إلى مسافة 16 كيلومتراً عن طرفي القنال، بزعم أنهما تقومان بما نصت عليه اتفاقية الأمن الثلاثية، ولكن خدعتهما هذه توضحت أمام الرأي العام العالمي على أثر تصريح السيد أيدن (M. Eden) الذي قال فيه: إننا ندخل الحرب لنحول دون الآخرين في متابعتها، وكأنه لم يكن على وفاق مع بن غوريون الذي أشعل نارها حال عودته من مؤتمره السري في فرنسا، وعلى الأثر اختلف التفاعل الشعبي في كل من البلدين، فالشعب البريطاني تراجع عن المطالبة بتنفيذ عمل حربي بينما كان الشعب الفرنسي ما زال مصراً على الحل العسكري، أما رد الفعل في الأمم المتحدة فكان مغايراً تماماً لرغبات المنذرتين، إذ كانت جلسة 1 ـ 11 ـ 1956 حامية جداً وكانت الجبهة المعارضة للعمل العسكري بمثابة الأكثرية الساحقة، طبعاً ليس ضناً بالمصلحة العربية بل خشية اندلاع حرب عالمية ثالثة، الشيء الذي كانت تخشاه أكثر الدول الممثلة في هيكل سليمان، حتى أن كندا اقترحت إقرار منع تدخل إنكلترا وفرنسا، والاستعاضة عن تدخلهما بإرسال قوات تابعة للأمم المتحدة لإعادة الأمن في الشرق الأوسط إلى نصابه، ولقد أقر الاقتراح ولكنه أوقف تنفيذه في 5 ـ 11 ـ 1956 من قبل مجلس الأمن قبل أن يجف مداد قراره، أعقبها ظهور الأسطول السادس الأميركي في سواحل الإسكندرية حيث بدأ باستعراض عضلاته للحد من الاندفاع الفرانكوساكسوني.

ومع كل هذا لم تتورع كل من إنكلترا وفرنسا عن تنفيذ مخططهما الإجرامي، فقامتا بهجوم كبير على مدينة السويس من الشمال والجنوب، وحاصر المهاجمون الجيش المصري رغم مقاومته الباسلة التي شهد بها كل من اللواء الإنكليزي بوتلر (Bulter) والزعيم الفرنسي شاتو جوبر (Chateau-Jobert) قائدي الحملة المشتركة اللذين عرضا على القيادة المصرية الاستسلام، ولكن الجيش المصري أبى إلا أن يثابر على القتال دفاعاً عن أرضه وكرامته وبكل ما أوتي من قوة واقتدار.

ومساء اليوم نفسه طالب الممثل الروسي سوبوليف (Sobolev) مجلس الأمن بأن تقوم كل من روسيا وأميركا بالتدخل وإيقاف العمليات الحربية في الشرق الأوسط، ولما رفضت أميركا الاقتراح بادر سوبوليف إلى إظهار وثيقة الإنذار الذي كان المارشال بولغانين (Boulganine) قد وجهه إلى كل من إنكلترا وفرنسا وإسرائيل والذي أشار فيه صراحة على عزم الاتحاد السوفييتي بالتدخل العسكري إلى جانب مصر فيما إذا لم تتوقف الدول المعتدية عن زحفها.

وأردف السفير الروسي يقول: إذا امتنعت الأمم المتحدة في الأخذ بالاقتراح فإن روسيا ستقوم بمفردها بتأديب المعتدين وتحمل العالم مسؤولية ما سينتج عن ذلك.

ولكن الدول المعتدية ظنت أن الإنذار الروسي ما هو إلا خدعة، وأن أميركا لن تتخلى عنهن، في حال إقدام الروس على التدخل العسكري، ويبدو أن هذا الظن كان خاطئاً، إذ اتصل السفير الأميركي في باريس بالرئيس جي موليه وأعلمه أن أميركا قررت أن تتخلى عن الدول المعتدية في حال عدم توقفها عن أعمالها العسكرية في مصر، كما قام ممثل أميركا في لندن بإبلاغ الحكومة البريطانية صيغة قرار الرئيس الأميركي، وهنا أسقط في يد ساسة الدول المعتدية، وخشوا أن يقعوا تحت رحمة الصواريخ الروسية، دون عون أميركي ودون أن تملك بلادهم حتى الوقود اللازمة لتسيير عجلات الحرب المجرمة التي أوقدوا نارها، كما تدخلت بعض الدول المرتبطة بالتاج البريطاني في الأمر مثل الهند، التي أنذرت إنكلترا بالانفصال عنها فيما إذا ثابرت على الاعتداء.

كما سارعت الدول العربية إلى إعلان تضامنها المطلق مع مصر، وقام وزير خارجية بلجيكا السيد سباك (Spaak) الذي كان يقوم بزيارة رسمية لروسيا بإبلاغ إنكلترا وفرنسا بأن روسيا جادة في إنذارها كل الجد، ونصحهما بالإقلاع عن متابعة الاعتداء، أضف إلى ذلك المقاومة المصرية الضارية التي أعجزت المهاجمين عن التقدم والخسائر الفادحة التي لحقت بهم فلم يسع المعتدين إلا الرضوخ للأمر الواقع وقبول الإخفاق بكل مرارته، فأصدرت الدولتان الأمر لجيشيهما بإيقاف إطلاق النار اعتباراً من الساعة الواحدة ليوم 7/ 11/ 1956.

وهكذا انتهت هذه المؤامرة الثلاثية وبدأت جيوش المعتدين بالانسحاب وهي تجر ذيول الخيبة التي منيت بها على يد الجيش المصري والتضامن العربي، بعد أن كانت تحلم بالنصر في ظل إرشادات غراب البين الإسرائيلي الذي أصبح منذ عهد ثورة كرومويل والثورة الفرنسية دليل الغرب ورأس حربته في كل الجرائم التي ارتكبها بحق شعوب العالم.

العالم العربي بعد حرب 1956

عندما عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي وبعد أن تمركزت قوات الأمم المتحدة على طول خط وقف إطلاق النار بين مصر ودولة العصابات، انكشفت ملابسات وخلفيات العدوان الثلاثي أمام الرأي العام العربي، وبدأت فكرة تحقيق الوحدة تتصاعد بسرعة فائقة، وأصبحت أكثر الشعوب العربية تؤمن بضرورة التلاحم التام في إطار دولة واحدة حتى يكون العالم العربي بمنجى من الإذلال على أيدي المغامرين الطامعين بخيرات مختلف أجزائه المزقة إلى دويلات وكيانات هزيلة لا حول لها ولا قوة في الدفاع عن وجودها، وكانت كالعادة سورية السباقة بينها في تجسيد الوحدة وعلى الأخص وهي التي كانت منذ قيام الثورة المصرية تعمل جاهدة للاندماج معها، وأمام إلحاح الجماهير في كل من البلدين أقدمت الحكومتان المصرية والسورية عام 1958 على توحيد البلدين تحت زعامة المرحوم جمال عبد الناصر فهلل العرب لها في كل مكان وبدأت تلوح في أفقهم تباشير الخير والسؤدد المنتظرة لأمتهم المجيدة، فانطلق المفكرون في كل بلد عربي يتدارسون السبل الكفيلة بإيصال بلدهم إلى الاندماج في حرم الوحدة، ولقد رافقت نشاط المفكرين تحركات شعبية وعسكرية تنادي بالوحدة وبدعم ثورة الجزائر الباسلة أكثر من ذي قبل، فقام الجيش العراقي عام 1958 بثورته التي أسفرت عن الإطاحة بالملكية، وإخراج البلاد من حلف بغداد وإعادته للحظيرة العربية، كما سارعت اليمن إلى إعلان رغبتها في الانصهار بالجمهورية العربية المتحدة، وهذه التحركات العربية السريعة التي توجت بالوحدة بين مصر وسورية هي التي كانت السبب المباشر في قيام المؤامرة الثلاثية عام 1956 إذ أقضت مضجع دولة العصابات وشريكتها الغربية بشكل لم يسبق له مثيل، فبادرت جميعها إلى التآمر مجدداً على هذه الوحدة، فاستهلت أعمالها بإطلاق أبواق الدعاية المضادة لمنجزات عبد الناصر والوحدة، وكان أقلها التشكيك في جدوى الوحدة ونوايا عبد الناصر، ومما يؤسف له أن هذه الحملة المغرضة لاقت صداها في بعض الأوساط، فظهرت تحركات مشبوهة في الأفق العربي أدت إلى إحداث بعض التصدع في إطار الوحدة، مثل انفجار الثورة في لبنان الذي أفسح المجال أمام الأسطول السادس الأميركي للتدخل، أعقبه خروج قاسم العراقي عن الصف العربي، كما وقعت في مصر وسورية بعض الأمور المخلة بسير الوحدة، ولقد استفادت إسرائيل من هذه البلبلة فقامت بعدة أعمال عسكرية على طول الجبهات العربية المحيطة بها، مما زاد في تفاقم

الأحوال، ولقد أثرت هذه الأمور على حماس الجماهير الشعبية في مختلف أقطار العروبة فتغير تقويمها للوحدة لأسباب تافهة في جوهرها نمسك عن الخوض في تفاصيلها لعدم جدواها ضمن إطار بحثنا هذا، مع أنها أدت في النهاية إلى انفصام الوحدة عام 1961 أي بعد أربعة وأربعين شهراً، وبذا تجمدت الأحلام العربية الذهبية لحين، وتفطرت قلوب المخلصين والشرفاء لوعة وأسى على ما حل بنواة الوحدة التي باركوها بكل جوارحهم ورعوها بأفئدتهم.

وعلى إثر عودة التمزق العربي تصاعدت الغطرسة اليهودية، وبدأت دولة العصابات تصول وتجول، على الرغم من كل المحاولات العربية والتحركات السياسية بقصد رأب الصدع في الجدار العربي، ولكن الاستعمار وربيبته كانا لنا أبداً بالمرصاد فوقعت الواقعة المؤلمة عام 1967 التي ما زلنا نلعق الجراحات التي أورثتنا إياها[1].

أسباب الغفلة العربية في فترة ما قبل كارثة 1948

من الخطل القول أن كل العرب كانوا يجهلون نوايا الصهيونية العالمية التي بدأت بتحركها العلني في أواخر القرن التاسع عشر، إذ أن كثيراً من رجالات العرب وخاصة أولئك الذين كانوا يعيشون في أوربا أو يترددون عليها كانوا يقرأون ما يكتب عن القضية اليهودية ويسمعون أحاديث الناس عن محاولات أصحابها، وبذلك كانوا على علم بما يبيت لنا، كما كان الموظفون العرب الذين كانوا يعملون في أجهزة الدولة العثمانية والدولة المصرية غير بعيدين عن معرفة الكثير عنها، ولكن أكثريتهم الساحقة كانت تمر على كل ما يتعلق بهرتزل وتحركاته ومؤتمرات أصحابه وسادته مرور الكرام، إذ كانت نسبة لبعضهم بمثابة قصة خرافية لا تستحق الاهتمام وذلك بفضل ما علق في أذهانهم عبر العصور من آراء مستخفة بالعنصر اليهودي والقائلة بضعفه واستكانته وفقدانه للرجولة وتجنبه لركوب المخاطر مهما كان السبب، وقلة عدد أفراد شعبه في كل مكان، وابتعاده عن الاشتراك بأي عمل جماعي حيثما كان وحيثما وجد، وهذه الأفكار هي التي جعلت هذا البعض يستخف بكل ما هو يهودي وبكل ما يتعلق باليهود، لأنهم كانوا يجهلون كل شيء عن خلفيات المطامع اليهودية ومخططاتها التي عرف اليهود كيف يموهون حقيقتها طيلة القرون العديدة، ومن هنا كانت هذه الفئة من رجالات العرب تهمل ما تقرأه أو تسمعه عن اليهود وتزدري كل ما يعود إليهم.

---

(1) اقرأ ربع قرن في خضم السياسة الشرق أوسطية.

أما الفئة العربية التي كانت أوضح رؤيا من الأولى فكانت تنظر إلى القضية اليهودية نظرة أمر جد بعيد التحقيق أو المنال، ولذا كانت تصنفها في مؤخرة الأمور التي تستحق الاهتمام، باعتبار أن هذه الفئة كانت الفئة العاملة لتجسيد القومية العربية ومن ثم إنقاذها من السيطرة العثمانية وصونها من الطامعين الآخرين، ومن هنا كانت قليلة الاهتمام بهرتزل ومن سبقه من دعاة اليهودية، ولذا كان الكثير من أفرادها لا يحجمون عن التعاون مع التحركات اليهودية العاملة ضد الدولة العثمانية، أو يطلبون وساطة ممثليها لدن الدول الغربية المناوئة للدولة العثمانية، ولقد ذهب بعضهم إلى حد الوثوق باليهود، وإطلاعهم على مرامي التحركات العربية، مما مكن اليهود من معرفة كل شيء عن العرب وتكتلاتهم والوقوف على أسرارهم والاستعانة بها بعد الحرب العالمية الأولى التي قيضت لهم فرصة ضرب العرب.

ومن هنا نستنتج أن وضوح رؤيا هذه الفئة لم يكن أقل وبالاً على المجتمع العربي فيما بعد من غباء الفئة الجاهلة المستخفة باليهود.

أما الفئة التي كانت أعمق معرفة بأبعاد القضية اليهودية من سواها، فكانت الفئة المكونة من المنتسبين إلى الماسونية ومشتقاتها والتي كانت تسير خلف المحافل الماسونية التي غررت بأفرادها بشتى السبل والفلسفات الداعية إلى المبادئ المزعومة إنسانية وأممية، والمناهضة للتفرقة العنصرية والمذهبية، والحاثة على توحيد البشرية لتحقيق التعاون فيما بين مختلف أجناسها وشعوبها وتحريرها من القيود الدينية والمثل العليا البالية التي ابتدعتها مجتمعاتها عبر تاريخها الطويل.

هذه الأفكار التي تبدو مظاهرها الخارجية براقة ومستساغة لكل من يجهل ما أراده منها مبتدعوها القابعين خلف المحافل الماسونية التي تروجها دون أن تعرف أي شيء عنهم أو عن أهدافهم الخفية إلا بقدر ما يشاء هؤلاء الأبالسة الذين عرفوا كيف يستقطبون حول تلك المحافل الانتهازيين وعشاق المال والمتعطشين للعظمة الفارغة والمظاهر الخلابة الخالية من الجوهر في كل بلد، ومن ثم راحوا يتخمونهم بالمال وكل أسباب الراحة والرخاء ويمدوا لهم يد العون لإيصالهم إلى ما لم يكونوا يحلمون يوماً بالوصول إليه، حتى جعلوهم عبيداً لا هم لهم إلا إرضاء سادة المحافل وتنفيذ رغباتهم دون وعي أو إدراك ولا حتى مناقشة.

ولهذا كان أفراد هذه الفئة مع علمهم الأكيد لما ترمي إليه الصهيونية العالمية من وراء إثارة هذه القضية يتعامون عنها بل ويتهربون من الخوض في مناقشاتها، إذ أنهم كانوا ينظرون إلى اليهود وزعامتهم الهرتزلية بمثابة أصدقاء يحتاجونهم في صراعهم مع الدولة العثمانية التي كان يعتبرها كل من الجبهتين عدوتها اللدودة، وهذا الاعتبار أحال الماسونيين العرب إلى أصدقاء

خلص لليهود يثقون بهم ويودعونهم أسرارهم وخفايا أمورهم ويعتمدونهم (الفئة الثانية) في التوسط لهم لدى ساسة الغرب للحصول على دعمهم في كفاحهم ضد الدولة العثمانية، وهذه الصداقة المطلقة بين الماسون واليهود أدت إلى تورط الماسون في البلاد العربية على حمل راية الدفاع عن شرعية المطالب اليهودية اعتماداً منهم على أضاليل مصادر أحفاد الرعاة القديمة، وحتى أنهم كانوا يجنحون في مناقشاتهم مع السذج من الناس إلى تخديرهم بمزاعم كاذبة كقولهم: إن القصة برمتها ليست سوى أحلام بأحلام غير قابلة للتحقيق، ولذا فهي لا تستحق أي اهتمام وذلك بغية إبعاد العامة عن التفكير بها وأخذها مأخذ الجد.

ومن هنا نرى أن هذه الفئة كانت أكثر الفئات المتعلمة إساءة للعالم العربي لأنها ضللت العامة بدلاً من توعيتها، ومدت اليهود بأسرار مجتمعاته وتكتلاته لتعتمدها الصهيونية فيما بعد لضرب العرب بسهولة ويسر.

أما القلة من رجالات العرب المخلصين فلم يكونوا قادرين على إسماع أصواتهم أو القيام بالتوعية اللازمة لافتقارهم إلى المقومات والأسباب الآيلة إلى إيقاظ الناس، إذ أن القادرين على مثل هذه الأعمال كانوا من الفئات التي بحثنا عنها، أي من غير المهتمين بمصير الأمة والوطن، والذين كانوا يعملون لعقل ألسنة المخلصين باتهامهم بمناوءة الدولة والسعي لإشعال نيران الفتن وما أشبه.

والجدير بالذكر أن الدولة كانت تأخذ بأقوالهم فتنكل بأشراف الأمة دون رحمة مما أدى إلى ابتعاد المخلصين والمثقفين عن الدولة فترك الحبل على غاربه للضالعين مع الصهيونية ليعملوا على تضليل الأمة بأسرها على هواهم.

أما المواطن العادي فكان يجهل كل شيء عن القضية اليهودية وأبعادها لأنه لم يكن ليسمع بها ولا يعرف عنها أي شيء وخاصة في العهود التي سبقت الحرب العالمية الأولى، وجل ما كان يعرفه عن اليهود أنهم أناس أذلاء شردوا في كل صقع وبلد لا يستحقون أي اهتمام عدا الرثاء والشفقة، وهذه الأسباب هي التي جعلت الأمة العربية سادرة في غفلتها، إلى أن تبلورت القضية اليهودية في أعقاب وعد بلفور، ولكن كان السيف قد سبق العزل، وأصبحت الأمة العربية من الخليج إلى المحيط خاضعة إلى نفوذ الدول الغربية الضالعة مع الرأسمالية اليهودية والصهيونية العالمية. وكان من البديهي أن يبادر العرب طيلة الزمن بين عام 1918 ـ 1948 إلى السعي الحثيث لإنقاذ بلادهم من نير العبودية الغربية قبل أن يفكروا بالخطر الصهيوني الذي كانت معالمه ما زالت غير واضحة، والصراع الذي خاضته الأمة العربية العزلاء من كل شيء إلا من

إيمانها بحقها، كان شاقاً وطويلاً استهلك منها كل وقتها وقدراتها، ولذا ظل الصراع العربي اليهودي منحصراً ضمن إطار فلسطين، دون أن يلقى أهلها العرب من البلاد المحيطة بهم إلا النذر اليسير من العون، بينما كانت بريطانيا المنتدبة تمد يد العون لليهود دون حساب، مما جعل الفارق بين قوى المتخاصمين كبيراً جداً وطبعاً لصالح اليهود.

ولما وقعت الواقعة واكتملت خيوط المؤامرة بهت العرب ولكن بعد فوات الأوان للأسباب التي شرحناها آنفاً، وهكذا استغفل اليهود العرب وحققوا مآربهم في غفلة عن الزمن وعنهم.

أسباب الهيمنة السياسية اليهودية ومراحل تطورها عبر التاريخ

من المسلم به أن أحفاد الرعاة تمكنوا طيلة خضوع الشرق الأوسط للحكم البيزنطي والروماني من التسلل إلى مختلف الأقطار الأوربية التي كانت تخضع لكل من الدولتين بأعداد لم تكن بذي بال، ومع ذلك تمكن هؤلاء المتسللون من القيام بالتبشير لمذهبهم الذي أعيد صقله إبان إقامتهم في بابل في الأوساط الوثنية الأوربية طيلة الأزمان السابقة لظهور المسيحية. ولما احتل تيتوس مدينة القدس دمرها وشرد من تبقى من أهلها مجدداً في الأقطار المجاورة، أما الأسرى فإنه حملهم معه إلى روما حيث بيعوا في أسواق النخاسة الأوربية كعبيد لمن ابتاعوهم من السادة والأثرياء، ولكن هذه العبودية لم تثن أي يهودي منهم عن التبشير خفية لمذهبه بين أفراد مختلف الطبقات الأوروبية التي كانت تخضع لسادة الإقطاع بشكل جد قريب من عبودية أسرى اليهود، الشيء الذي أسهم كثيراً في إنجاح التبشير اليهودي في صفوف الطبقات التي جمعتها المصيبة المشتركة في الرق والذل معهم، ولذا تكاثر عدد من تهودوا من الأوربيين في الحقبة الفاصلة بين احتلال تيتوس للقدس، وانتشار المسيحية في أوربا.

فلما ترعرعت المسيحية وشبت عن الطوق، بدأ الصراع بينها وبين المهودين بسبب سعي كل من الطرفين لضم أكبر عدد من الوثنيين إلى مذهبه، ولقد أسفر هذا الصراع في القرون الأولى عن انهزام اليهودية وانتصار المسيحية الساحق، فلم يسع اليهود إلا الرضوخ للأمر الواقع وخاصة بعد أن اضمحل رواد اليهودية الأول ولم يبق منهم أو ممن يلوذون بهم بصلة الدم أو العرق نافخ في نار، ومع ذلك ظل الأوربيون المهودين على تعصبهم لمذهبهم وثابروا على التبشير بصورة سرية ولم يقبلوا التوقف عنه رغم ما أصابهم عبر العصور من النكبات والمصائب.

إذ أن هؤلاء المهودين الذين لم يكن بينهم أي رباط عرقي أو عنصري، ورثوا عن الأسرى العبيد من أحفاد الرعاة كل صلفهم البدائي وتعنتهم العنصري، وعقدهم الأخلاقية، وحقدهم

وتزمتهم حيال من لا يدين بمذهبهم الذي اعتبروه قومية قائمة بحد ذاتها منذ أن استنبطه أبالستهم الأولون. وهذه المعطيات الشاذة جعلت مهودي أوروبا أكثر تزمتاً وتعصباً ليهوديتهم من أحفاد الرعاة الأول، ولذا ظلوا متمسكين بها رغم ضآلة أعدادهم في كل مكان، كما كانت بمثابة وشائج الترابط والتعاون السري فيما بين جالياتهم في كل قطر، وبفضلها كانت لهم دائماً قيادة أو زعامة موحدة لا يخرجون قط عن إرادتها. وهذه المقومات هي التي جعلتهم يصمدون أمام هجمات الكنيسة وأنصارها وكل من أراد النيل منهم مع ما كانت تتصف به هذه الهجمات من قسوة أحياناً. والجدير بالذكر في صدد موقف الكنيسة منهم هو أنهم تعلموا منه كيف يخفضون الجناح عند اللزوم، وكيف يتظاهرون على غير حقيقتهم عند الملمات، وأن يرضخوا لما يراد منهم أو ما يوعز إليهم من قبل الكنيسة والسلطات، مع المثابرة دون هوادة على البحث عن مكامن القوة، أي الحصول على ما يمكنهم من الخروج إلى صعيد القدرة على التعامل مع الآخرين مع شيء من المساواة والاعتبار، فلم يجدوا سوى معبود أساتذتهم أحفاد الرعاة أي الذهب، فراحوا في كل مكان يعملون ليلاً ونهاراً لجمعه بشتى الأساليب حتى القذرة منها، وكان من الطبيعي أن يحصلوا عليه بعد كل هذا التصميم والإصرار على امتلاكه، وهكذا غدوا قبل عصر النهضة الذي أعقبته ثورة كروموبل والثورة الفرنسية من أغنى أهل أوربا من حيث النقد وخاصة في ألمانيا حيث تمكنوا من تكوين مجلسهم الفرانكفورتي الذي بحثنا عنه في فصولنا السابقة بما فيه الكفاية.

وعندما حصلوا في ألمانيا على حقوقهم بفضل لوثر الذي تبادلوا معه العون وأسهموا في نشر ودعم دعوته المنبثقة عن العهد القديم، بادروا إلى السيطرة على اقتصاديات ألمانيا التي كانت تخضع نسبياً لمشيئتهم منذ عهد شارلكان وماكسيمليان وليون العاشر الذين وقعوا في شراكهم عندما اقترضوا منهم المال بفوائد خيالية جعلتهم أسرى الرغبات الرأسمالية الفرانكفورتية.

ومن هنا لم يلقوا كبير عناء في إخضاع ألمانيا مالياً لهيمنتهم. ولقد طبقوا منهجهم هذا فيما بعد في كل من إنكلترا وفرنسا اللتين حصلوا فيهما على كافة حقوقهم، ومن ثم عمدوا إلى توثيق صلاتهم في كل من البلاد الثلاثة مع الأرستقراطية التي كانوا يتوخون تهويدها بنفس الأسلوب الذي اتبعوه في إنكلترا، وعندما فرغوا من ذلك اتجهوا نحو الاستيلاء على وسائل التوعية والتوجيه والدعاية، وبفضل المال الذي كانوا ينثرونه تمكنوا من أن يصبحوا أصحاب أكثر الوسائل الدعائية، فسخروها لأغراضهم الخاصة وكان في مقدمتها إقناع الكاثوليك بعقم مناهضتهم مثل الماضي باعتبارهم منحدرين من ذات الأصول الأوربية التي ينتمي إليها الكاثوليك، أضف إلى ذلك كونهم أخوة المسيح في المنحدر المذهبي، وأنهم أتباع العهد القديم

الذي يعد الكتاب المقدس الأول لدى الكنيسة، ولكونهم رعايا الأوطان والسلطات نفسيهما، ولما كانت الأرستقراطية الأوربية آنذاك محقونة بالدماء اليهودية ومسيطرة في الأقطار الأوروبية، كانت لا تألو جهداً في دعمهم ومساندتهم وخاصة بعد أن تمكن اليهود من إيصال بعض أبناء قومهم إلى حرم الكنيسة الذين انخرطوا في صفوف كهنتها، فلم يعد أمامهم أية عقبة للاختلاط التام في صفوف الشعوب الأوربية، وبشكل خاص عندما أبدلوا أسماءهم اليهودية بأسماء أوربية شائعة، وذلك نزولاً عند رغبة نابليون بونابرت، وهكذا اندمج المهودون في كل بلد أوربي في بداية القرن التاسع عشر ولم يعد يعرف أحدهم بغير كونه مواطناً مثل سواه له ما للآخرين وعليه ما عليهم.

والغريب في الموضوع هو أن هؤلاء المهودين الذين أقلقوا أوربا بأسرها لتعود وتدمجهم في مجتمعاتها لم يكونوا جادين في مطلبهم هذا، إذ أنهم ظلوا سراً على ما كانوا عليه من التزمت العنصري والمذهبي وكأنهم حقاً من أحفاد الرعاة الذين أخذوا مذهبهم عنهم، ولذا ثابروا على التلاحم والتعاطف فيما بينهم والتعلق بكل ما ورثوه عن أسرى تيتوس من أساطير وخرافات، مثل خرافة أرض الميعاد وما يتبعها من تخيلات لا حصر لها والتي عدوها جملةً وتفصيلاً من أهدافهم المقدسة الواجبة التحقيق، وفي سبيل ذلك اعتمدوا حياة مزدوجة للتغرير بالمجتمعات التي كانوا يعايشونها، فبينما كانوا يتظاهرون بالانصهار التام معها، كانوا يعملون في الخفاء لتجسيد أحلامهم القومية والسياسية والاقتصادية الخاصة بهم والتي لا يطلعون عليها أحداً قطعاً.

وبفضل هذه الازدواجية في الحياة العامة، وما بذلوه من أموال طائلة وما سخروه من وسائل دعائية تمكن اليهود من إيصال الكثير من أبناء مذهبهم في كل بلد إلى مراكز القوة والنفوذ، ونظراً لإمكانياتهم المادية هذه استقطبوا حولهم الناس حتى بزوا أترابهم في كل ميدان، وكأنهم أكثر قدرة من سواهم في حل المسائل العامة، أو التحرك في الحقول السياسية والإدارية، مع العلم أن ميزاتهم الحقيقية لم تكن إلا وليدة باعهم الطويل في البذل المادي بغية تضليل العامة والتعاون الوثيق فيما بين ساستهم في مختلف الأقطار الأوربية لتحقيق الأهداف الخاصة بأبناء جلدتهم على حساب الشعوب التي كانوا يعايشونها ويسيطرون على مقدراتها.

ومع هذا لم تبق أساليبهم هذه خافية طويلاً على كل الناس، إذ أن الشرفاء من المواطنين في البلاد الأوربية تمكنوا من اكتشاف أباطيلهم في الخمسينات من القرن التاسع عشر، فانبرى الشجعان منهم إلى إفشاء أسرارها والإعلان عن الأخطار الكامنة خلفها، وهنا قامت حرب

شعواء بينهم وبين اليهود في طول أوروبا وعرضها، كان سلاح اليهود فيها اتهام أفـراد هـذه الفئة المخلصة باللاساميين، ودعاة التفرقة العنصرية والمذهبية كما أوضحناه من قبل.

ومما يؤسف له حقاً هو أن اليهود تمكنوا من دحرهم وإسكاتهم على أيدي الساسة من أبنـاء مذهبهم الذين جعلوا من هذه التهم مخلب القط للتنكيل بأفراد هذه الفئة الشريفة وكل مـن وقـف بجانبهم بزعم أن دعايتهم ترمي إلى تمزيق الشعب الواحد، وإشعال نيران الفتن لأسباب دينية بالية أكل عليها الدهر وشرب.

فلما استتب لهم الأمر في أرضنا المقدسة ثارت كوامن حقدهم الأصيل، وإذ بهم يتخذون مـن مواقف الشرفاء الذيـن كشفوا أباطيلهم فـي الأمـس القريـب وأسـكتوهم بالشـكل الـذي أوضحناه، ومن بعض الأحداث الفردية حجة ليظهروا على حقيقتهم ويعلنوا على الملأ أنـهم قبـل كل شيء يهوداً، وأنهم أتباع إسرائيل قبل أن يكونـوا أتبـاع أي وطـن آخر، ولتبرير موقفـهم هـذا سلكوا أسلوب استجداء العطف والشفقة بزعم أنـهم أجبروا علـى هـذا المسلك مـن جـراء تفاقم الضغط الذي يمارسـه اللاساميون عليـهم فـي أوروبـا، والـذي لـم يـترك لـهم أمـلاً فـي الحيـاة إلا باللجوء إلى دويلتهم والعيش في حماها، والمؤلم هـو أن خدعتـهم هـذه انطلـت علـى الكثـير مـن أبناء البلاد الأوربية الذين نراهم يقفون بجانبهم في الملمات، بدليل أن المواطن العادي في أوروبـا ما زال حتـى هـذه السـاعة، ورغـم مـا يعلـم ومـا يسـمع عـن الجرائـم البشـعة التـي ترتكبـها دويلـة العصابات واستهتارها الفريد من نوعه في القيم والمفاهيم، لا يـرى فـي اليـهودي إلا مواطنـاً مثـل غيره.

أما الطبقة الواعية فبدأت تدرك أن لا جدوى من الوثوق بهم بعد كل التحيز السـافر الـذي أبدوه نحو دويلتـهم المصطنعـة، وتكالبـهم علـى مسـاندتها حتـى فـي الأمـور الضـارة فـي مصـالح أوطانهم الأوربية، ولكن مع ذلك ما زالت هذه الطبقة حيرى في أمرها معهم.

أضف إلى ذلك ما لأثرياء اليهود من النفوذ في الدول الغربية التي أصبحـوا شـركاءها منـذ أن ورطوها في ميادين الفتح والاستعمار ليستثمروا أموالهم عن طريقها في البلاد التي استعمرتها تلك الدول تباعاً، والتـي أصبحـت بسـببها مدينـة لليـهود ومـن ثـم مرغمـة علـى مسـايرتهم حتـى اليوم.

أما نفوذهم في البلاد الاشتراكية فكانوا يستمدونه من أبناء مذهبهم الذيـن كـانت لـهم مراكـز مرموقة في الصفوف الاشتراكية بزعم أنهم كانوا من روادها الأوائل بفضـل الأدوار المزدوجة والتـي لعبوها في مستهل تبلور دعوتها في بعض البلاد الشرقية وخاصة في روسـيا، والجدير بالإشـارة هـو

أن هذا النفوذ الذي اقترن ببعض الثقة بهم عاش طويلاً، باعتبار أن المواطن الاشتراكي الذي كان يجهل خلفيات المخططات الصهيونية التي كانت تتمثل في بلاده بأشخاص اليهود الذين كانوا يتظاهرون بولائهم الكامل لها ولمبادئها، لم يكن ليرى مانعاً من استيطان اليهود في قلب البلاد العربية التي لم يكن له أية صلة بها، وكان العكس هو الصحيح نسبة له إذ كان متفاعلاً مع المزاعم الصهيونية التي كانت تروج رغم سعيهم لإقامة دولة اشتراكية في فلسطين لتنير الطريق أمام أهلها المتوحشين وتقف في وجه الإمبريالية التي تناصب العداء للاشتراكية والاشتراكيين. ولذا كان اليهود يلقون العون المادي والمعنوي من تلك البلاد تماماً مثلما كانوا يلقونه من البلاد الغربية. ومن هنا كانت لهم تلك الهيمنة العامة التي شهدناها عام 1948.

وهكذا نرى أن اليهود اعتمدوا رشوة الساسة وخداع العامة، وتضليل المثقفين والتحررين لتخديرهم طيلة العهود التي سبقت قيام دولتهم، وهذا الأسلوب هو الذي كان الدعامة الأساسية لهيمنتهم تلك.

والسؤال الآن هو هل هذه الهيمنة ما زالت قائمة على سجيتها بعد وصول اليهود إلى غايتهم الأولى؟.

والجواب يأتينا بصورة عفوية من خلال الأحداث التي وقعت في الستينات من هذا القرن، ومسلك اليهود ودويلتهم في معالجتها، ومواقفهم من مختلف دول وشعوب العالم المحبة للسلام في سعيها لإحقاق الحق وإزالة الباطل والظلم التي أسفرت تلك الحوادث عنها، إذ أن اليهود الذين عاشوا طيلة عشرات القرون يستجدون العطف والشفقة ويطالبون بالرحمة والغفران من كل الشعوب التي عايشوها ودأبوا على تضليلها وخداعها بمظاهرهم المزدوجة وتصريحاتهم المتضاربة، وتحركاتهم المشبوهة، هبوا هبة رجل واحد وأعلنوا تمردهم على كل رغبات الدول والشعوب الشريفة، فركبوا رؤوسهم في مجابهتها، وضربوا عرض الحائط بنصائح ساستها، وثابروا على غيهم في شن الحرب على العرب بالتواطؤ مع أمريكا وبعض الدول الغربية، بكل غطرسة وتعالٍ وكأنهم أمة فوق الأمم.

وهذه المواقف هي التي عرت الخدع اليهودية، وأنارت الطريق أمام الكثير من الدول الغربية مثل فرنسا وإسبانيا واليونان وسواها فأيقنت من خطل الوقوف إلى جانب اليهود مثلما أيقنت الدول الاشتراكية منذ حرب 1956 بهذه الفكرة إياها فأدارت لهم ظهرها، الشيء الذي يدفع باليهود منذ ذلك العهد إلى مناوأة روسيا والنهش بنظامها وأنظمة الدول المتحالفة معها، والتجسس لصالح أمريكا عليها، لا لشيء إلا لكونها وقفت بجانب العرب.

مما أدى بالتالي إلى مبادرة الاتحاد السوفييتي وحليفاتها إلى تقليم أظافرها في بلادها، وخاصة بعد أن ظهرت إسرائيل على حقيقتها دولة استعمارية إمبريالية توسعية بكل ما لهذه الكلمات من معاني ومفاهيم، وهكذا تقلصت هيمنة اليهود في العالم الاشتراكي إلى حد بعيد جداً.

أما في البلاد الغربية مثل فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وإن كانت لهم حتى اليوم بعض الهيمنة، ولكنها بدأت تتقلص شيئاً فشيئاً في أعقاب حرب 1956 التي كانت إسرائيل فيها مخلب القط ورأس الحربة لتحطيم الأمة العربية، والتي كادت أن تؤدي بالعالم إلى كارثة رهيبة، قدر الأوربيين مداها وخطرها ولما بحثوا عن خلفياتها ووجدوا أن إسرائيل كانت الدافعة لها فقط لتأمين مصالحها الخاصة دون العالمين، هالهم الأمر وبدأ الكثير منهم يفقد ثقته في اليهود ويتجنب السير خلف أضاليلهم التي أولاها طويلاً الثقة والاهتمام، ولما اندلعت نيران الحرب عام 1967 التي أوقدت إسرائيل نارها وكادت أن تزج بالعالم مرة أخرى في كارثة جديدة، أعقبها ما أظهرته من غطرسة وازدراء نحو العالم بأسره برفضها مقترحات الجنرال ديغول والمقترحات الأخرى المماثلة، ومن ثم استخفافها بمقررات مجلس الأمن طيلة ربع قرن وحتى هذه الساعة، ازدادت نقمة المفكرين الشرفاء عليها في العالم أجمع، ولكن الوسائل الدعائية التي يملكها اليهود في أوروبا وسيطرتهم الاقتصادية على أكثر أقطارها، والعون الذي يلقونه من أمريكا (قلعتهم الأخيرة) تساعدهم إلى حد بعيد لامتصاص تلك النقمة، وتحولها أحياناً إلى صالحهم في المناطق التي يسيطر عليها الأمريكان.

ومع كل هذا يمكننا أن نجزم أن الهيمنة اليهودية التي بلغت أوج قوتها في الخمسينات من هذا القرن؛ فقدت اليوم أكثر قواعدها وقلاعها ولم يبق لها إلا الجزء اليسير من ماضيها اللهم إلا في أمريكا التي ما زال اليهود يمسكون بخناقها في الميادين الاقتصادية والسياسية، وهذا يعني صراحة أن الرصيد الصهيوني يعيش اليوم أواخر أيام رنينه، وإذا أضفنا إلى كل هذا تأثير السوق الأوروبية المشتركة التي أعمل يد التخريب في المؤسسات الاقتصادية اليهودية التي سادت طويلاً عالم الاقتصاد، لجاز لنا القول أن الهيمنة اليهودية بلغت طور النزاع في أكثر أنحاء الدنيا، ومع كل هذا يجب أن نعترف أن اليهودية لم تفلس بعد، إذ ما زال لها رجال أقوياء في عالم السياسة في الكثير من الدول ولها أنصارها العديدون مثل الماسون وسواهم، وهؤلاء وإن كانوا أقل تظاهراً في دعمها علناً إلا أنهم يثابرون على مساندتها بمختلف الأساليب والطرق، رغم الصعوبات التي تعترضهم لإقناع الرأي العام، وخاصة بعد أن انعتقت أكثر الوسائل الدعائية الأوروبية من نير العبودية اليهودية، وانطلقت تعمل بحرية شبه كاملة.

ومن الأمور التي يجب أن لا تغيب عن بال المراقب الحصيف في صدد الأسباب المقلصة للهيمنة اليهودية، الصراع المرير القائم بين الشرق والغرب على الاستفادة من الموارد الطبيعية للبلاد العربية، وخاصة نفطها الذي أصبح اليوم أمل الديمومة للصناعة الغربية برمتها، وهذه الناحية تقلق بال ساسة الغرب أكثر من سواها، ولذا نراهم اليوم أكثر مرونة في تعاملهم معنا، وأكثر تعاطفاً من ذي قبل مع تحركاتنا، وخاصة الشرفاء منهم الذين يضعون مصالح بلادهم فوق المصالح الخاصة وفوق ما يمكنهم أن يحصلوا عليه من الرشوات اليهودية، وأكثر هؤلاء بدأوا اليوم يتهربون من المنزلقات اليهودية التي عاشوا في متاهاتها طويلاً، حتى أن بعض شركات النفط الكبرى بدأت مؤخراً تطالب حكوماته بنبذ التحيز لليهود، والوقوف بجانب العرب قبل فوات الأوان، كما سمعنا مؤخراً أن بعض جمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان التي استنبطها اليهود في الماضي جنحت هي أيضاً إلى لوم اليهود وأنصارهم على مسلكهم اللاإنساني حيال العرب وخاصة أهل فلسطين.

وهذه البوادر ما هي إلا حصيلة الغطرسة اليهودية التي بلغت الأوج في الاستهتار بالقيم الإنسانية والقوانين الدولية والمفاهيم الحضارية، وما بدر من اليهود في أقطار أوروبا من نكران لجميل شعوبها، وخياناتهم نحو أوطانهم الأصيلة في سبيل دعم مصالح دويلتهم إسرائيل، على الرغم من كل ما لاقوه من تلك الشعوب والأوطان من رحابة صدر وعفو وغفران لما ارتكبوه في الماضي بحقها من جرائم وما أنزلوه من كوارث وويلات وعلى الرغم من كل ما أولتهم من عطف وشفقة وحماية في الأمس القريب، ولذا كان فقدانهم للهيمنة جزاءً وفاقاً لمواقفهم تلك التي لم يعد المواطن الغربي يستسيغها مثل السابق.

ومع هذا أرى أن لا نطمئن كثيراً لمجريات الأمور وأن لا تخدرنا هذه البوادر المبشرة بيقظة الضمير الأوربي، وأن نعتصم بالحذر من عاديات الزمان ومن منزلقات الألاعيب الصهيونية، وأن تبادر أجهزة الإعلام العربية إلى وثبة دعائية حقيقية ترتكز على تذكير مواطني أوروبا بالجرائم التي ارتكبها اليهود في بلادهم وما أنزلوه بها من ويلات وكوارث، وما جنوه من غنائم وخيرات على حساب الدماء الأوربية التي سفكت على مذابح أغراضهم وشهواتهم، هذه الحقائق التي تعج بها بطون تواريخ شعوب أوربا والتي بحثنا في مؤلفنا هذا وفي مؤلفنا السابق (المفسدون في الأرض) عنها بما فيه الكفاية لتزلزل الأرض تحت قدمي اليهودي حيثما وجد، على أن لا ننسى بأن الغرب لن يرضى لنا بالقوة والسؤدد، وأنه يفضل دائماً بقاءنا على تمزقنا، وأنه لن يفكر يوماً بالتخلي عن الكيد لنا، ليبقينا أبداً تحت رحمته ليسهل عليه امتصاص خيراتنا، فالحذار الحذار من الوقوع في غفلة ما قبل الكارثة مرة أخرى.

علام ارتكزت الهيمنة اليهوديّة وما هو وضع مرتكزاتها اليوم؟

من المعروف أن الجاليات المهودة التي ورثت مذهبها عن أسرى تيتوس وعمن تسلل من أحفاد الرعاة إلى الأقطار الأوربية في العصور البيزنطية والرومانية، تعرضت في كل مكان إلى بعض المضايقات والضغط من جراء ما كان أفرادها يقدمون عليه من جرائم أخلاقية ومذهبية، كانوا يستمدون مسوغات إقدامهم عليها مما أخذوه عن أحفاد الرعاة من معتقدات أسطورية بنيت في مجموعها على الحقد والضغينة حيال كل من لا يؤمن بما أسموها ظلماً وعدواناً بالموسوية، وكلما كثرت جرائمهم وتفاقم انعزالهم عن المجتمع كانت الكنيسة والسلطات يشددون عليهم للحد من شرورهم حتى أنهم حرموا من حقوقهم المدنية والسياسية حيثما وجدوا، وكان من الطبيعي أن يبحثوا عن مخارج للتخلص من القيود التي فرضت عليهم جزاءً وفاقاً لما كانوا يعملون، وبغية تحقيق هذا الهدف، تقربوا في كل بلد من الفئات التي كانت تناوئ الكنيسة والسلطات المطلقة واضعين أموالهم ومواهبهم تحت تصرفها، بزعم أنهم من أنصارها ومؤيديها في تحقيق الحريات الفردية والعدالة الاجتماعية. ومما يجب الاعتراف به أنهم نجحوا إلى حد بعيد في التغرير بتلك الفئات واكتساب ثقتها وبالتالي قلبها إلى مجموعات عاملة ضمن إطار مناهجهم، باعتبارها مخططات الأهداف المشتركة بينهما، وبفضل هذا التعاون الوثيق مع تلك الفئات تمكن اليهود في كل من ألمانيا، وبريطانيا من أن يثبوا من مؤخرة الصفوف إلى المراكز القيادية في الطليعة بدءاً من القرن السادس عشر، ومن ثم توسعوا في تحركاتهم السياسية في الأقطار الأخرى حتى كانت الثورة الفرنسية التي أطلقتهم من عقالهم في كل مكان وخاصة في فرنسا وإنكلترا، وعلى الأثر عاد المهودون مجدداً إلى اتباع طرقهم القديمة وأظهروا تنكرهم وحقدهم نحو كل الذين كانوا في الأمس القريب رفاقهم وأصدقاءهم، فقلبوا لهم ظهر المجن ونكلوا بهم وخاصة في أحرار الثورة الفرنسية مثلما أوضحناه في فصولنا السابقة. فكان من البديهي أن يلاحظ الناس هذا المسلك اليهودي المشين ويفقد الرأي العام ثقته بهم، ويجنح إلى الحذر في تعامله معهم، وهكذا سقط هذا المرتكز اليهودي الذي بني على تظاهرهم بكونهم حملة مشاعل الحرية والعدالة الاجتماعية، واتضح للجميع أنهم ما لبسوا تلك اللبوس إلا للوصول إلى أهدافهم الخاصة دون العالمين.

أما مرتكزهم الثاني الذي اعتمدوه طيلة العصور المتقدمة على الحرب العالمية الثانية فكان يتكون من علاقتهم المالية الوثيقة التي أركنت إليها الدول الغربية في مغامراتها الاستعمارية، وفي سبيلها أشركت البيوتات المالية اليهودية في كافة استثماراتها في المناطق التي استولت عليها، وهذا المرتكز أسهم كثيراً في تقوية عداء دول المحور لليهود، كما كان عاملاً قوياً في توثيق التعاون بينهم وبين الدول الغربية في مجابهة ألمانيا قبل الحرب وأثنائها، وبغية إدامته عمد اليهود وأنصارهم من ساسة الغرب إلى شن حرب دعائية واسعة النطاق ضد دول المحور لم يشهد التاريخ لها مثيلاً، ألصقوا فيها بألمانيا وحليفاتها ألوف التهم الباطلة، تدور كلها حول التزمت العنصري والمذهبي، ومذابح ومظالم نسبوا ارتكابها للألمان وحلفائهم، هذا عدا عما اختلقوه من أكاذيب وأضاليل حول نوايا المحور نحو الشعوب الأوربية والعالم أجمع، ولكن عندما وضعت الحرب أوزارها، ظهرت نتائجها للعالم أجمع، فاتضح للشعوب الأوربية أن أبناءها كانوا مرة أخرى أكباش فداء للأغراض اليهودية دون سواها، إذ تبين لها أن اليهود الذين استجدوا في الأمس القريب عطفها واستدروا شفقتها وحرضوها على مقاتلة الألمان وحلفائهم والذين قُدمت دماء أبنائها الزكية إكراماً لهم، لم يشترك منهم إلا القليل في تلك الحرب، وأن الزعماء والساسة منهم كانوا أول من لاذوا بأذيال الفرار عند اقتراب الجيوش الألمانية من البلاد التي كانوا يدعون بنوتها، ويتحكمون بمقدراتها، كما اتضح لها أن أثرياءهم هرَّبوا كل ما كانوا يملكون من أموال وسندات إلى أمريكا ولكنها استكانت لقدرها تحت ضغط الجيش الأمريكي والجيوش الحليفة الأخرى التي كانت تقودها أمريكا على الرغم من تعدد تسمياتها باعتبارها كانت الممولة والمسلحة لها، ولما كانت أمريكا بدورها تدين بالولاء للرأسمالية اليهودية وصنائعها من الماسون وسواهم، فكانت بصورة طبيعية ظهيرة لكل يهودي حيثما كان، ولذا عاد اليهود إلى أوربا وهم أكثر قوة وسلطة من السابق، وخاصة في وقت كانت فيه الشعوب الأوربية ملتهية بلعق جراحاتها، مما أدى إلى انطلاق اليهود على شجيتهم في اللؤم والحقد حيثما حلُّوا مجدداً، فارتكبوا جرائم وفظائع لا حد ولا عد لها، خاصة في رومانيا وألمانيا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا والمجر معتمدين في ذلك على الحراب الحليفة.

وعندما قامت دويلتهم (معسكر الاستعمار) إسرائيل تفاقمت مظاهر غطرستهم وتعددت خياناتهم، ونكثوا بأكثر عقودهم وعهودهم المالية مع الدول الغربية واستعاضوا عنها بالتعامل الكامل مع أمريكا، وهنا بدأت الأمور تتضح أكثر فأكثر أمام الشعوب الأوربية، وأيقنت أن كل ما قدمتها لهؤلاء اليهود كان عبثاً ذهب أدراج الرياح، فأخذ مرتكزهم هذا أيضاً بالتقلص شيئاً فشيئاً ولم يعد له تلك السطوة التي كانت له قبل الخمسينات من هذا القرن.

كما أمسك الكثير من كتاب ومفكري أوربا عن مساندتهم مثل السابق بعد كل ما رأوه وسمعوه عما ارتكبوه من وحشية وهمجية حيال عرب فلسطين والتي بزوا فيها ما ارتكبه منها هولاكو وجحافله عبر التاريخ ، أما الكتاب العنصريون الذين هادنوهم مدة من الزمن أملاً بأن يتخلصوا منهم بعد أن فتحت لهم أبواب فلسطين عادوا مجدداً ليعروا أمام العالم أضاليلهم وخدعهم في أعقاب ما أظهروه من نكران للجميل بانحيازهم الكلي لاسرائيل ، ومما أوضحناه يتضح للقارئ بأن هذا المرتكز اقترب من نهايته في الأقطار الأوروبية ، ولم يعد له رصيد إلا في الولايات المتحدة وحدها .

أما مرتكزهم الأخير فهو الدعاية ووسائلها العديدة التي يمتلكونها في كل جزء من أجزاء العالم ويثابرون على تقويتها وتوسيعها دون هوادة وهم في سبيل ذلك ينفقون أموالاً طائلة يجندون بفضلها الساسة والكتاب وأصحاب دور النشر والصحف من ذوي الضمائر المخدرة التي تعجز عن مقاومة بريق الذهب والمكاسب المادية الأخرى ، وهؤلاء ما زالوا في الوجود أكثر عدداً مما يمكن أن يتصوره المرء . ولذا نلاحظ أن هذا المرتكز ما زال فعالاً جداً وتصاعده مضطرد ، نشعر بوطأته خاصة في مناسبات الأحداث إذ يتصاعد مفعوله بشكل رهيب يكاد أن يخيم على كل مجال .

أما المرتكزات الأخرى البالية مثل التهم باللاسامية ، والعنصرية ، والتعصب الديني ، التي كانوا يوجهونها إلى مناوئيهم ، فلم تعد لها أية قيمة ، بعد أن ظهر للعالم أن اليهود هم أنفسهم أكثر الشعوب تزمتاً في المفاهيم العنصرية والدينية ، وأكثر الناس غطرسة وتعالياً في هذه المجالات ، ومما أسهبنا في سرده يتضح لنا أن اليهودية فقدت مرتكزها الأول في هيمنتها على أوروبا منذ أمد بعيد إذ أيقن الأوربيون بكذب كل المزاعم التي كانت تقدمها لهم ، مثل زعم انتساب اليهود المذهبي للسيد المسيح في نشأته ، أو زعم تمسكهم بوحدة منحدرهم المشترك مع الشعوب الأوربية بصرف النظر عن الفارق المذهبي الذي يفصلهم عن الآخرين ، أو زعم ولائهم لأوطان الشعوب التي عايشوها ، أما الوشائج المذهبية الواهية التي تربطهم ببعض الفرق النصرانية التي ساهموا في ظهورها للوجود مثل الكالفنية واللوثرية والبوريتانية فهي ، أيضاً بدأت بالانحلال تدريجياً بعد أن أسفر اليهود عن حقيقتهم ، وأظهروا للعالم ما هم عليه من التزمت العنصري والمذهبي الذي لا يقبل مهادنة ولا تساهلاً مع أي كان مهما كان بينه وبينهم من تقارب في المذهب أو المبدأ .

أما مرتكزهم الثاني الذي بحثنا عنه أعلاه فهو الآخر فقد سحره بعد أن انحسر ظل الحراب الأميركية عن أكثر الأقطار الأوروبية ، وبعد أن أيقنت الشعوب الأوربية بعدم جدوى

الاستعمار العسكري الذي كلفها ملايين الأضاحي والأموال لتجسيد غايات البيوتات اليهودية التي ابتدعت الفكرة وورطتها فيها ، ومن ثم انكبت تجني خيراتها بكل شراهة حتى تضاعفت ثرواتها مئات الأضعاف فحولتها إلى أميركا ، تاركة خلفها شريكات الأمس يجترن الشقاء والضيق المالي وكأنها ما كانت يوماً معاً في العير والنفير .

ومع كل هذا يجب أن لا نسهى عن أن لليهود قواعد صلبة في كل مكان تسعى دون هوادة لاسترداد ما فقدوه من مراكز قوة ومرتكزات تحرك ، وفي مقدمتها سطوة دعاياتهم التي ما زالت تصول وتجول دون رادع ووازع ، وإن كانت الشعوب الأوربية لم تعد توليها المقدار نفسه من الثقة التي كانت لها ، ولكن مثابرتها دون كلل أو ملل ، ودون أن تنافسها دعاية مضادة عربية مركزة يمكن أن يوصلها مع الزمن لاسترداد قدرتها الماضية ، ولذا أرى أن المصلحة القومية تحتم على أجهزة الدعاية العربية أن تبادر إلى توسيع نشاطها بحيث تبلغ من القدرة تغطية المناطق التي تسيطر عليها الدعاية الصهيونية ، على أن تستند في صراعها على حقائق تاريخية تعري نوايا الطاعون اليهودي وجرائمه ، وما اقترفه بحق شعوب العالم من مخازي وما أنزل بها من ويلات وكوارث في سبيل غاياته الخاصة لتعود تلك الشعوب وتتذكر أعمال هذه الفئة المجرمة التي أسدل رجال السياسة من أبناء مذهبها والضالعون معهم وأنصارهم الستار عليها في الماضي ، ومحو كل أثر لها فيما ينشر ويكتب في أوربا ، حتى لم يعد المواطن الأوربي يعرف عنها شيئاً ، فلو قدر للدعاية العربية فضح ماضي اليهود المخزي في أوربا وتعميمه على المواطنين فيها لثلم مرتكزهم الأخير نهائياً ، مما يجعلهم في صراعهم معنا وجهاً لوجه ، فعندها يقيناً سنتمكن من استرداد حقوقنا كاملة مع اجتثاث جراثيم الطاعون المزمن ليس من أرضنا فحسب ، بل من العالم أجمع ، على أن نبادر قبل ذلك إلى العمل على تحقيق العوامل الأساسية الواجبة التجسيد والتي يحتمها علينا التاريخ وواقعنا الجغرافي والاقتصادي والسياسي كأمة مثل غيرها من الأمم .

ما العمل؟..

منذ أن اقتلع البابليون ومن بعدهم تيتوس الروماني جذور الطاعون من أرض كنعان كرس مفكرو أحفاد الرعاة ومن بعدهم مفكرو من هودوا على أيديهم جل وقتهم وجهدهم في إقناع أتباعهم بأن كل المصائب والويلات التي أصابتهم في أرض كنعان ومن ثم في المهجر كانت وليدة التمزق الذي ساد صفوفهم، وتنكرهم للمبادئ والمفاهيم التي أوجدها لهم جامع شملهم وباني وحدتهم صموئيل بن القانة، وبغية تعميق هذه الفكرة في نفوس أتباع مذهبهم استنبطوا لهم ألف أسطورة وأسطورة تبحث عما كانوا يلقونه من الذل والعنت قبل أن يوحدهم صموئيل، وعما آلت إليه أوضاعهم من عظمة وسيطرة بعد أن توحدت صفوفهم في ظل داود وسليمان، وما صاروا إليه عندما عادوا للتناحر والتناجز والخروج على أوامر يهوه القاضية بالتزمت العنصري والمذهبي ويبدو أن هذه التوعية التي ركزوا جهودهم عليها أعطت ثمارها أكثر مما كان المبشرون بها ينتظرونه منها، بدليل أن تزمت الأوروبيين المهودين في تمسكهم بمذهبهم بكل ما يكتنفه من أساطير وخرافات فاق تزمت أحفاد الرعاة الأول بمراحل عديدة، حتى أن واحدهم رغم كل الأدلة العلمية والتاريخية التي تثبت عدم انتسابه عرقياً وعنصرياً لأحفاد الرعاة من أسرى تيتوس وسواهم، يرفض التخلي عن تخيلاته في الانتساب إليهم مهما كان الأمر ومهما تثبت الحجة، وهذا التزمت ما زال يتصاعد في صفوفهم يوماً بعد يوم، خلافاً لكل مزاعمهم القائلة بخروج بعضهم عليها ذراً للرماد في العيون وبغية تمويه ما ينشدون من وراء هذه المزاعم من أغراض لا تخرج قط عن التزمت العنصري والمذهبي الخاصة بهم. والأدلة الدامغة لهذه الحقيقة هي أكثر من أن تعد وتحصى، ولذا نكتفي بسرد بعضها، ومنها موقف تروتسكي من العالم الشيوعي، وانقلاب كيرنسكي على رفاقه الثوار، وتنكر يهود أميركا الشيوعيين للاتحاد السوفييتي، ومواقف الجاليات اليهودية في أوروبا حيال أوطانها الأصلية وتخليها عنها في سبيل التضامن المطلق مع الدويلة الصهيونية. هذا عدا المواقف اليهودية المماثلة عبر التاريخ والتي تنضح جميعها بما جبل عليه اليهود من نكران للجميل، وانقلاب على الصديق والحليف لأقل بادرة تمس بمصالح اليهود واليهودية، تظهر من غير اليهودي مهما تظاهر من اعتناق لمبدأ أو انتماء لجهة، أو انتساب لفئة، يظل يهودياً قبل كل شيء، ولذا رأينا كيرنسكي يتخلى عن الحكم وعن

رفاقه الثوار الروس المعادين لليهود بالاتفاق مع تروتسكي، ليمهد لهذا الأخير وأنصاره الموالين لليهود تبوُّء الحكم في البلاد.

وتروتسكي يتخلى عن لينين ورفاقه في النضال عندما رآهم يحاولون تحديد الاندفاع اليهودي في السيطرة على الاتحاد السوفييتي، وجنح بيريا وباللاكون إلى خيانة الروس عندما شعرا بميلهم نحو تحديد النفوذ اليهودي في البلاد.

كما رأينا أثرياءهم أمثال هيرش وشيف وروتشيلد يضعون الملايين تحت تصرف اليهود الشيوعيين لإشعال نار الثورة في روسيا ولابتياع الأملاك والأراضي لفقراء اليهود في فلسطين ونقلهم إليها ليجسدوا فيها فيما بعد إحدى أحلامهم الأسطورية. أما ساستهم أمثال دزرائيلي وزاي وليون بلوم ومئات الآخرين لم يتورعوا عن التفريط في مصالح الشعوب التي كانوا يمثلونها في سبيل تحقيق غايات أبناء مذهبهم، وكهنتهم أمثال مورغاتستيرن لم يجدوا غضاضة في خيانة أميركا والتعاون مع الاتحاد السوفييتي عندما أيقنوا بنجاعة هذا المسلك الغريب (نسبة لرجال الدين) لتأمين مصالح أبناء مذهبهم.

وبفضل هذا التعاون اللامحدود بين مختلف فئاتهم تمكنوا في الماضي من الهيمنة على الشعوب الأوربية الغربية والشرقية التي غرروا بها عندما لبسوا في كل جهة منها لبوس المبدأ والمسلك المتجانس مع نوازع ومطالب شعوبها، وهم اليوم يثابرون أكثر من كل وقت مضى على رص صفوفهم وتوثيق التعاون وتوحيد الجهود، حتى أصبح كل يهودي حيثما وجد يجاهر بكونه من مواطني إسرائيل، ويسعى بكل قواه لخدمتها بشكل أو آخر ضارباً عرض الحائط بمشاعر وتفكير الشعب الذي يعيش على أرضه ويمتص خيرات بلاده، ودويلتهم المصطنعة تقوم هي الأخرى بالدفاع عن كل فرد من اليهود حيثما كان وتقيم الدنيا وتقعدها على رأس من يحاول منعه من التعاون معها وأكبر دليل على ذلك ما جرى وما يجري بهذا الصدد في الاتحاد السوفييتي، وبكلمة أوضح إن توعيهم التي ألمحنا إليها بلغت من القوة قدراً أصبح معه كل يهودي يعدّ نفسه لبنة في بناء وحدة أبناء مذهبه مع كل ما هم عليه من تشرد في أقطار الأرض، لأن كلاً منهم أيقن أن لا مناص له من التفاعل الكامل مع أهداف إخوته في المذهب ومن هنا تتجسد قوتهم رغم ضآلة عددهم وتباعد جالياتهم وتفاهة خصائصهم، وكثرة أعدائهم، وتقلص مرتكزات هيمنتهم السابقة.

أما ما قيل وما يقال عن سعة ثقافتهم ومقدرتهم العلمية والتكنيكية وقوتهم الحربية والمالية فهي كلها هراء بهراء أريد بها تضليل العرب وتثبيط هممهم ليستكينوا إلى ما زعم كونه قدرهم،

كما أن قصة المعونات العسكرية والدعم السياسي الكبير الذي يلقونه من أمريكا ليس هو الآخر إلا سحابة صيف يتوقف جلاؤها على الموقف العربي وحده.

إن مقارنة بسيطة بين الإمكانات العربية واليهودية تكشف بوضوح مدى كذب كل تلك المزاعم، إذ أن القوى البشرية للشعوب العربية تعادل خمسة أضعاف قوى اليهود البشرية في العالم، وعدد المثقفين والمفكرين والاختصاصيين العرب في كافة المجالات يربو عدة مرات على عدد النخبة عند اليهود، والقدرة المالية التي يمتلكها العرب اليوم تبز قدرة أكثر دول العالم الكبرى، والقدرة القتالية للجندي العربي كانت دوماً في طليعة القدرات القتالية لشعوب العالم الأخرى، وأكبر دليل على هذه القدرة نراه في بطون التاريخ الذي تعج صفحاته بالبطولات الفذة عن المقاتل العربي عبر الأزمان ومع كل هذا خسرنا حتى اليوم عدة جولات في صراعنا مع شعب الطاعون المزمن، فما هو السبب يا ترى؟ وأين يكمن السر فيما أصابنا من نكسات؟ هذه الأسئلة التي تراود مخيلة كل مواطن عربي شريف، يكمن الجواب عليها، في الاختلاف الكائن بين وضعنا القومي المتقطع الأوصال على الرغم من وجودنا على أرض واحدة متلاصقة الحدود والأطراف، ووضعهم القومي المصطنع الذي يسود أجزاءه وأفراده التلاحم والتلاصق مع كل ما هم عليه من تشرد في كل صقع وبلد، وفي الانعدام الشبه التام للتجانس المفروض وجوده بين شعوبنا رغم وحدة لغتها وتراثها ومنحدرها وعقيدتها ومصيرها، والتلاحم المكين الكائن بين مجتمعاتهم وأفرادهم مع تنوع لغاتهم واختلاف منحدراتهم وتباين أعرافهم وأعراقهم. وفي الخلاف المستفحل بين طبقات شعبنا، والوئام الكائن بين مختلف عناصر أبناء مذهبهم، وفي الانسجام المفقود بين ساستنا ومفكرينا، والتفاعل المضطرد السائد في أوساط زعامتهم المنتشرة في كل أرض، وفي الأنانية المستشرية في نفوس أثريائنا على الرغم من ضخامة ثرواتهم التي تذهب هدراً لتحقيق غايات رخيصة ومطالب زائلة، والعطاء اللامحدود لتأمين غاياتهم العنصرية التي اتصف به أغنياؤهم في القرن العشرين مع كل ما هو معروف عن حرصهم المكين في اكتناز المال والإمساك عن إنفاقه، وفي اللامبالاة والاستهتار والاستخفاف في القيم والمثل العليا كالوطنية والقومية والعرف والأخلاق والمعتقدات وحتى التاريخ السائدة في أوساطنا، وما هم عليه من التمسك بما لهم منها مع كل زيفها وأسطوريتها. وفي السطحية التي نعالج بها أمورنا وننفذ بها واجباتنا، والجدية التي يظهرونها في تحقيق غاياتهم وتنفيذ ما يفرض عليهم.

وفي ميوعة مواقف عقلائنا من ذوي الكفاءات العلمية والفنية في خدمة وطننا، وتكالب مثقفيهم واختصاصييهم الشرس على الهجرة إلى الأرض المحتلة ليسهموا في بناء دويلتهم

المصطنعة، وفي سخريتنا من ماضينا واستخفافنا بالمخلصين والمناضلين والمجاهدين من أبنائنا، وتعبدهم العجيب لأساطيرهم وخرافاتهم المزعومة تاريخياً وتعظيمهم البالغ لكل بارز من أبناء مذهبهم في خدمة غاياتهم مهما كانت تلك الخدمة حقيرة وتافهة، وفي غفلتنا عن إيجاد وسائل دفاعنا ذاتياً واعتمادنا الكلي على غيرنا في تأمينها، والجهود الجبارة التي يبذلونها لتأمينها محلياً رغم كل استعداد أميركا لمدهم بما يحتاجونه منها.

هذه هي الأسرار إن صح القول التي تكمن خلف ما لحقنا حتى اليوم من خسائر، وكل ما عداها مما نستنبطه من حجج ومزاعم لتمويه واقعنا فهي باطلة وزائفة يرفضها العقل والمنطق جملة وتفصيلاً.

إن الأمر لواضح وضوح الشمس في رابعة النهار فلمَ التعامي أو التشبه بالنعامة؟ آن لنا أن نعيد النظر بمجمل مواقفنا وأوضاعنا ونتقي الله بأمتنا وأجيالنا المقبلة، ونبادر إلى أخذ أمورنا مأخذ الجد، لقد حان الوقت لنتعظ على الأقل بنهج أعدائنا الذين استنبطوا تاريخاً أسطورياً لأبناء مذهبهم ليكون مناراً يهتدون به مع كل ما هو عليه من أسطورية وخرافة، بينما جنحنا نحن إلى نسيان تاريخنا الغني بالعظات والإرشادات، ورحنا نجتر مفاهيم وآراء ليست من تراثنا ولا ارتباط لها بماضينا وواقعنا في الوقت الذي نحن فيه أحوج ما نكون إلى التمعن في مسيرة أمتنا التاريخية لنتعرف على الأسباب التي أدت عبرها إلى انتصاراتنا ونكساتنا، لنحدد على ضوئها موطئ أقدامنا اليوم.

إن العشائرية والقبلية التي سادت دنيا العرب في عصر الجاهلية كانت السبب المباشر لما كان العرب عليه آنذاك من عبودية وذل واستزلام للرومان والفرس والأحباش، وهذا التمزق وتلك التفرقة جعلا منا طويلاً أمة منسية، ولما قيض الله لنا الثورة المحمدية الكبرى التي انطلقت توحد أمتنا وترص صفوفها، وإذ بنا في أقل من نصف قرن نصبح سادة الأباطرة الذين أذلونا طويلاً يوم كنا شيعاً وفرقاً، وغدونا في وقت قياسي حماة الحضارة والإنسانية، ومثلاً يحتذى لكل مقهور على أمره حتى ضربت الأمثال بوثبتنا. وسطر لنا في بطون التاريخ أنصع الصفحات وألمع القصص في البطولة والفداء، ولكن شاءت الأقدار لنا أن يدب الخلاف مجدداً في صفوفنا، وننتكس مرة أخرى وتزول دولة العلم والحضارة والإيمان وتمزق شر ممزق على أيدي الانتهازيين والمغامرين، وتغدو دويلات ومشيخات هزيلة لا حول لها ولا قوة للدفاع عن نفسها مما أطمع بها الغزاة والفاتحين، فأتوا من كل صوب وحدب يغزون بلادنا ويقيمون فيها دويلات وإمارات ليذلونا مدة قرنين وكأننا أيتام على مآدب اللئام؛ وكدنا أن نزول من الوجود لولا أن سخرت لنا

الأقدار البطل صلاح الدين الأيوبي ليعيد الضالين والمارقين والخارجين إلى حظيرة الأمة ويوحد أطراف الوطن العربي ومن ثم يبادر إلى تطهير أرضنا الطاهرة من كل غاصب أثيم، فيعود السلام يرفرف على ربوعنا، فتستريح دنيا العرب لحقبة من الزمان.

ولكن موت البطل يعيد إلى الساحة الانتهازيين والمغامرين فتذر التفرقة قرنها مرة أخرى في أوطاننا، وتنزلق في متاهات الصراع الداخلية، وتظهر للوجود دويلات ومشيخات جديدة، تنحدر كلها نحو الانحطاط والضياع إلى أن تنتهي بالسقوط في براثن الاستعمار، وتعيش في ظله عدة قرون على الرغم من كل المحاولات والانتفاضات التي قام بها المخلصون والشرفاء عبر العصور، وكل ذلك بسبب جنوحنا للتفرقة وتعشقنا للعصبيات الإقليمية، ولقد كان آخر تلك المحاولات تورطنا مع الدول الغربية إبان الحرب العالمية الأولى الذي أسفر عن نكوث الحلفاء بكل وعودهم لنا، وتقسيم وطننا إلى محميات ومستعمرات ومناطق نفوذ من قبل المنتصرين بعد كل الدماء التي أهرقناها في تحالفنا معها، من جراء بوادر التناحر التي ظهرت بين ساستنا آنذاك مما سهل لحلفائنا الماكرين أمر تمزيقنا وإبقائنا مدة ربع قرن تحت نير عبوديتهم التي استغلتها بريطانيا الماكرة لصالح شريكتها الصهيونية العالمية لتمنحها أغلى قطعة من أرضنا في غفلة عنا، وكأنها إحدى إقطاعيات تاجها المشؤوم.

ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ظل الغرب مصراً على تكريس تمزقنا، وألهانا عن فلسطين العزيزة في السعي لإنقاذ أقطارنا الأخرى من نيره الذي كان واثقاً من اقتراب نهايته نظراً لشدة التحركات القطرية العربية، ولاقتناعه من عجزه في كبح جماحها بالسهولة نفسها كالماضي، وليقينه برفض العالم للأساليب الاستعمارية القديمة.

وعندما حصلت الأقطار العربية على استقلالها كان السيف قد سبق العزل، وتمكن اليهود من تعميق جذورهم في أرضنا مستفيدين من ضعف كياناتنا وصراعاتنا الداخلية التي ولدت مع انحسار الاستعمار عن أجزاء وطننا بفضل ما بذره الغرب في أوساطنا من بذور التفرقة والتناحر التي أضلت ساستنا وشعوبنا وطوائفنا، ولذا كان من الطبيعي أن تنتصر الصهيونية العالمية الموحدة التي كان الغرب برمته يدعمها في صراعها مع صفوفنا الممزقة المهلهلة التي بحثنا عن أوضاعها في فصولنا المتقدمة.

وهذه العوامل التي ظلت قائمة طيلة الأعوام الماضية والتي ما زالت قائمة حتى اليوم هي التي أدت إلى ما أصابنا من نكبات.

يا قوم ألا تكفينا هذه البراهين والأدلة لنتعرف على هوية الداء الذي فتك بنا؟ أليست التفرقة التي ابتلينا بها؟ أما آن لنا أن نتعظ مثل سوانا بماضينا البعيد والقريب، وننبذ خلافاتنا الاجتماعية والإقليمية والمبدئية مهما كانت سداها ولحمتها، وأن نعلن للعالم أجمع أننا قبل كل شيء عرب ننحدر جميعاً من أمة واحدة لا مكان في صفوفها لمارق أو خارج.

إن الدول الأوربية التي يربو عدد نفوس أصغرها على الخمسة عشر مليوناً تسعى اليوم بكل طاقاتها وإمكاناتها لتوحيد كياناتها بحيث تصبح قادرة على حماية شعوبها ضمن إطار دولة واحدة، مع كل الفوارق اللغوية والعنصرية وحتى الحضارية الكائنة بينها، في الوقت الذي نحجم فيه عن تحقيق وحدة أمتنا بشتى الحجج الواهية مع علمنا الأكيد بأن لا حياة لنا إلا بتجسيدها، ما بالنا لا نعي ولا نرى ما يدور حولنا، أغشيت أبصارنا وأوقرت أسماعنا؟ حتى نعيش وكأننا في القرون الأولى.

. . ثقوا أن كل دولة أو كيان لا تحميه سواعد أبنائه كل أبنائه لا حياة ولا ديمومة له مهما كان شأنه وأمره.

إن محاولات الدول الأوربية الغربية لتحقيق الاتحاد أو الوحدة تعني صراحة أن لا مكان للكيانات الإقليمية الهزيلة في القرن العشرين، فما بالنا لا نفقه بأننا أحوج منها ألف مرة لتحقيق وحدتنا لنتخلص نهائياً من أخطار الغزاة والطامعين بخيرات أوطاننا، فلم لا نتمثل على الأقل بها أليست كياناتنا أقل قدرة وقوة في الدفاع عن نفسها من تلك الكيانات؟ . . أليست كياناتنا أكثر تعرضاً لاعتداء الطامعين في خيراتها التي تبز خيرات الكيانات الأوربية تلك بعشرات المرات، أما رأيتم في الأمس القريب كيف نهش بعض جيرتنا أجزاء من أوطاننا في الخليج وسواه، أما تكفي هذه المخاطر المضافة إلى الخطر الصهيوني الجاثم على صدورنا لتحفزنا للإسراع إلى توحيد أقطارنا تحت علم واحد وشعار واحد وكيان واحد لنؤكد للقاصي والداني أن أوطاننا لم تعد ولن تكن بعد اليوم طعماً لأي طامع أو غاصب.

. . إن العروش والكيانات الضعيفة لن تدوم مهما أريد إظهارها بمظهر القوة والسؤدد؛ فلمَ التمسك بها؟ . . ألغاية مؤقتة زائلة؟ . . أو لأنانية عابرة لا تغني ولا تسمن طالما كانت نتيجة الفرد الموت والفناء، مهما عظم شأنه واتسعت نعمته.

. . إن عظمة الإنسان ليست في ألقابه وسلطاته وقوة بطشه وسيطرة حكمه في بلده وسعة أمواله، بل تكمن فيما يحققه من أمور عظيمة تعود بالفائدة على بيئته ووطنه وأمته وتظل حية في أذهان أبناء أمته جيلاً بعد جيل، فيخلده التاريخ، فهل لعشاق الخلود من قادتنا فرصة سانحة

لدخول التاريخ من بابه العريض خير من فرصة توحيد الأمة؟ . . فلمَ لا يستغلونها ليكتب لهم الخلود وتجللهم العظمة الحقة؛ وإننا نهيب بهم أن لا يفوتوها لتقر أعيننا بهم وبها . .

. . إن العالم بأجمعه يسخر من تعدد أعلامنا وكياناتنا الدالة على تمزقنا وتفاهتنا، يا قوم . . إن أقوالنا المتضاربة وحركاتنا المتعارضة، ومناهجنا المتخالفة أفقدتنا احترام أكثر شعوب العالم، وهي وايم الحق على الصراط المستقيم، لأن العقل والمنطق يعجزان عن تعليل أسباب أوضاعنا هذه فإلام نتقبل السخرية والازدراء، أما حان لنا أن نقذف بأنانياتنا ومبازلنا وأطماعنا الفردية إلى الجحيم قبل فوات الأوان، وإلا فسوف نندم من حيث لا يجدي الندم. يا قوم . . أيجوز لنا أن نتنكر لماضينا ونستخف بمصالح وطننا ونستهجن عظمة أمتنا ونسخر من تقاليدنا الغنية بمفاهيم المروءة والكرم والرجولة والفداء، وأن نستعيض عنها جملةً وتفصيلاً بمفاهيم قذرة حيوانية، مثل التخنث والإباحية والتبذل التي روج ويروج لها أعداؤنا ليحيلونا إلى أمة طفيلية متخاذلة قانعة خانعة بعيشها في مستنقع التفاهة والنسيان لتظل الأقطار العربية مرتعاً لصولاتهم وجولاتهم دون رادع أو وازع.

. . صحيح أن إسرائيل غير قادرة عسكرياً على إخضاعنا وإزلالنا مهما بلغت من القوة، حتى وإن بقينا على تمزقنا وتفرقنا، ولكن في حالة بقائنا على ما نحن عليه سياسياً واجتماعياً وأخلاقياً لن تعجز في المستقبل البعيد من السيطرة على اقتصادياتنا وأفكارنا وبالتالي تسيرنا في ركابها وكأننا أتباعها، فعندها لن تنفع العروش والكيانات ما جسده لها الاستعمار من وجود، ولن تنفع أثرياءنا أموالهم التي يرفضون اليوم بذل جزء منها في سبيل الحفاظ على الكرامة القومية والمصلحة الوطنية إذ أن اليهود سوف يعملون على سلبها منهم بما يتقنونه من أساليب الغش والخداع التي اشتهروا بها عبر التاريخ، كما أن مجتمعاتنا المهلهلة لن ينفعها انغماسها المفرط في اللاأخلاقية والتخنث والإباحية التي تنعم بها اليوم والتي ستودي إلى الخنوع وشظف العيش نتيجة سوء العمل، والذين يتهربون اليوم من خدمة أوطانهم لن يكون عندئذ لواحدهم مناص من أحد الأمرين إما عيش التشرد والغربة أو العودة للعيش بلا كرامة في أرضه ووطنه، أما الساخرون من أمجادنا وتقاليدنا وأوطاننا وأمتنا والعاملون لترويج المفاهيم العالمية المضللة والمذاهب المتناقضة لواقعنا، فلن يكون نصيبهم منها خيراً من أنصبة أبطال نبوءة كازوت التي ألمحنا إليها في أحد فصول كتابنا هذا، فهل يرضيكم يا قوم هذا المصير؟ . . .

يا قوم . . . إن للأمة ديناً في أعناق ساستها، وحقاً في أموال أثريائها، وعلى المجتمع فرائض ومسؤوليات في مسيرته ونهجه حيال أجياله المقبلة، وعلى الأفراد التزامات وواجبات

نحو أوطانهم؛ وبدون التزام الكل بهذه التبعات لن يتحقق لنا التكامل المجدي في بناء الأمة وتجسيد وحدتها، فهل نتعظ؟.. ونتقي الله في مصير أمتنا ووطننا، ونشمر عن سواعد الجد لتحقيق وحدة أمتنا ووطننا في ظل دولة العدل والكفاية، يكون فيه العيش الكريم من حق كل فرد من أفرادها؛ لا سيد فينا ولا مسود لا مستغل فيها ولا مستغل، ليعمل فيها الكل بروح الأخوة القومية، وبوحي المصير المشترك، عندها فقط سنصبح سادة اقتصادنا وخيرات بلادنا، فنتمكن من إنشاء مختلف المصانع لتحقيق الاكتفاء الذاتي في كل شيء لنتخلص نهائياً من ذل الاسترضاء والاستجداء لتأمين وسائل دفاعنا ومستلزمات عيشنا، وبذلك لن يبقى لنا ما نهابه ونخشاه من أية جهة كانت، وهنا سترون أن وجه العالم الغربي المتغطرس وخاصة أميركا سيتبدل كلياً نحونا وسيحل الإشراق مكان الغطرسة في تعامله معنا، وسيلتزم الحياد في صراعنا مع دويلة الطاعون المزمن، فبعدها سيهون علينا ليس إنقاذ أرضنا فحسب بل العالم أجمع من شرور هذا الطاعون المزمن الجاثم على صدورنا، وبذا سيعود الحق إلى نصابه، وسنسترد كرامتنا ومكانتنا تحت الشمس.. فإلى الوحدة يا قوم قبل فوات الأوان..

المصادر والمراجع

المراجع العَرَبيّة:

1 ـ التوراة .

2 ـ (في تأريخ العهد القديم) لمؤلفه كلمنت ـ مترجم من قبل المطران ويس .

3 ـ خطط الشام ـ العلامة محمد كرد علي .

4 ـ المراسلات السياسية للمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان من سنة 1840 إلى 1910 ـ تعريب السيدين فيليب وفريد الخازن .

5 ـ المفسدون في الأرض .

المَراجع الأجنبيَّة:

1) H. Vincent (Canaan dàprés Léxploration Récente) Paris Gabalda 1907.
2) M. Kurt – Sethe (Les princes ou Souverains de Mésopotamie).
3) A. Lods (Evolution de L'humanité).
4) C. F Burney (Israéls Settlement In Canaan) For The Britigh Academy-Londres 1918.
5) M. Hell (The Ancient History of the Near-East) 1913.
6) S. Sellin (Gilgal Ein Beitrag Zurfeschteder Ein Wanderug Israel in Palestina) Leipzic Deichert 1917.
7) H. G Ressmann (Mose Und Seine Goettingue) Vande Koech et Ru[recht 1913.
8) C.F. Burney (The Book of Judges) II E tion Londres Rivinctons – 1920.
9) A. Lods, Israél des Origines Au Milieu de VIII Siecle.
10) C.H. Guignebert (Le monde Juif) Paris 1950.
11) A. Lods (Prophétes D'Israel).
12) A. Lods (Les débuts du Judaisme).
13) F. Lovesky (L'antisemitisme Pain) 1955.
14) M.R. Grafion (Chronique de 1160).
15) M. Rohrbacher (Cronicle of Gervase of Canterbury).
16) Close Roll 16 Henry III Menbrane 8 – LE. 26-6-1932.
17) M. Huillard Breolles (Grande Chronique III. P. 26).
18) H. D. Trail (Social England).
19) Gluverivs (Historia Epitome P. 541).
20) Monumenta Garmaniae Historica Artiele P. 591.

21) A. Jubainville (Histoire des Ducs et Comtes de Cahmpagne).
22) L'Histoire Universelle de L'église Catho – Lique.
23) Maurice Colinon (Létrange Carriére Maçonnique de Philippe égalité Paris 1936.
24) Histoire de Françe.
25) G. Renier (La vie de Robespierre) Paris 1814.
26) Constantin de Grunwald (Bismarck).
27) A. Castellot (La Dépéche d'Ems).
28) A.S Aboul (Histoire de La Révolution Française).
29) P. Hépéss (La Republique Universelle).
30) Les Mémoires de Herzel Paris 1890.
31) R. Wagner. (Judaisme dans La Musique).
32) A. Netvoldoffe (Le Front Unique – ou – La Russie et les Juifs).
33) A. Toussenel (Les Juifs Rois de L'epoque.
34) La Révolution Russe.
35) V. Alexandrov (Le Fabuleux Trésor des Tsars).
36) Moshé Hénohin (Décadance of Judisim in our Times) New-York 1950.
37) Les Archives Secretes de La wilhelmstrassé.
38) J.J. Tharaud (Quand Israél Nêstplus Roi).
39) Les Mémoires de Ben Gorion.
40) A.F. Poncet (Qu'est ce que le Mazisme).

1) (Igneli Fiçi). C.R. Atilhan.
2) (Gizli Devlet) C.R. Atilhan.
3) (Israil ve Farmason) C.R. Atilhan.
4) Osmanliler – Bryazid ve Megoller.
5) Turk Dusmanini Tani C.R. Atilhan.
6) Islami Saran Tehliké C.R. Atilhan.
7) Donmélik. Nadir? C.R. Atilhan.
8) Islam Ve Beni Israil. C.R. Atilhan.
9) Casus Lerlé Tehkikatem. C.R. Atilhan.
10) N.N. Tépedelenli Oglu (Hurriyet Gazetesi).

المحتوى



قد شكل اليهود حتى الآن
طاعوناً مزمناً للبشرية . حيث
مثلوا جميع الشرور و الآثام . ومن
يتمعن بنص توراتهم المحرف يرى
بأم عينه الروايات المغلوطة عن
سيدنا ابراهيم كيف تزوج من
أخته سارة . وابنتي لوط سقين
أباهن الخمرة وضاجعنه . وغيرها
من القصص حيث الإبن يضاجع
زوجة أبيه والأب يضاجع أرملة
ابنه . كل ذلك مع وثنية و عبادة
للأصنام !!

